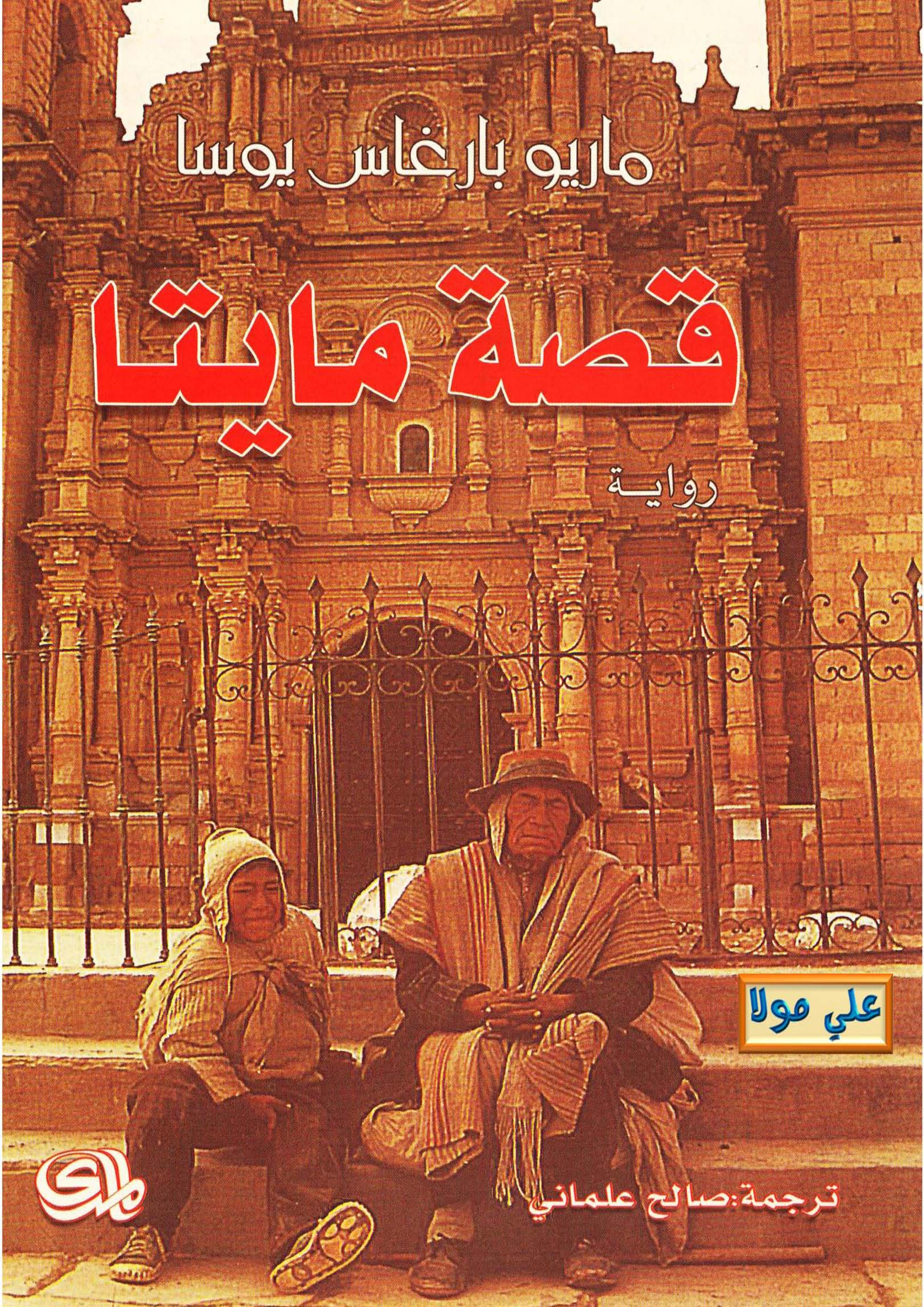


ماريو بارغاس يوسا

قصة مايتا

رواية

ترجمة: صالح علماني

قصة مايتا

رواية

اسم المؤلف :ماريو بارغاس يوسا
عنوان الكتاب :قصة مايتا
ترجمة :صالح علماني
الناشر :المدى
الطبعة الأولى :٢٠٠٩

Author : Mario Vargas Llosa
Title : Historia de Mayta
Translator : Saleh Almani
Al- Mada : P.C.
First Edition : 2009

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

ماريو بارغاس يوسا

قصة مايتا

رواية

ترجمة صالح علماني

الفصل الأول

الجري في الصباح على كورنيش بارانكو، حين تكون رطوبة الليل لا تزال تضمخ الهواء، وتكون الدروب زلقة وبراقة، هو طريقة جيدة لبدء النهار. السماء رمادية حتى في الصيف، فالشمس لا تظهر أبداً فوق الحي قبل الساعة العاشرة، ويشوش الضباب حدود الأشياء وهيئة النوارس والبجعات التي تحلق مجتازة خط وهدة الساحل المتكسر. البحر يبدو رصاصياً، أخضر قاتماً، مدخناً، جامحاً، فيه لطخات من الزبد وأمواج تتقدم نحو الشاطئ تفصل بينها مسافات متساوية، قد يتأرجح أحياناً زورق صيادين بين التموجات؛ وتزيح ضربةُ ريح الغيومَ في أحيان أخرى فتظهر من بعيد لابونت وجزر سان لورينثو الترابية والفرونتون. إنه منظر جميل، شريطة تركيز البصر على عناصر الطبيعة والطيور. لأن ما صنعه البشر بالمقابل، قبيح.

قبيحة هذه البيوت.. إنها تقليد لتقليد آخر، الخوف يخنقها بشِباك حديدية، بجدران، بصفارات إنذار وأنوار كاشفة. وهوائيات التلفزيون تشكل غابة شبحية. قبيحة هذه القمامة التي تتراكم وراء حافة الكورنيش وتتبعثر في الوهدة. ما الذي جعل المزابل تنبثق في هذا المكان من المدينة، المكان الأفضل منظراً؟ إنه الإهمال. لماذا لا يمنع السادة خدمهم من إلقاء الفضلات تحت أنوفهم عملياً؟ لأنهم

يعلمون عندئذ أن خادمات الجيران سيفعلن ذلك، أو سيفعله بستانيو حديقة بارانكو، أو حتى رجال شاحنة القمامة الذين يُفرغون دلاء الفضلات عند حافة الوهدة بدلاً من نقلها إلى المزبلة البلدية. ولهذا تنازلوا للنسور والصراصير والجرذان والعفونة عن هذه المزابل التي رأيتها تولد، وتنمو، بينما أنا أجري في الأصباح، إنها رؤية دقيقة لكلاب متشردة تنبش المزابل وسط سحابة من الذباب. وقد اعتدت كذلك، في هذه السنوات الأخيرة، أن أرى إلى جانب الكلاب المتشردة، أطفالاً متشردين، وشيوخاً متشردين، ونساء متشردات، جميعهم ينبشون الفضلات بحماسة بحثاً عن شيء يؤكل أو يباع أو يُلبس. مشهد البؤس الذي كان يقتصر فيما مضى على الضواحي، ثم بعد ذلك على مركز المدينة، صار الآن يغطي المدينة بأسرها، بما في ذلك هذه الأحياء ــ ميرافلوريس، وبارانكو، وسان ايسيدرو ــ السكنية والراقية. إذا كان المرء يعيش في ليما فعليه أن يعتاد على البؤس والقذارة أو أن يصاب بالجنون أو ينتحر.

ولكنني واثق من أن مايتا لم يعتد على ذلك قطّ. فلدى الخروج من مدرسة ساليسيانو، وقبل الصعود إلى الحافلة التي تقلنا إلى مجدلينا، حيث كنا نعيش كلانا، كان يركض نحو دون ميداردو، ذلك الشيخ الضرير ذي الأسمال الذي كان يرابط مع كمانه النشاز عند باب كنيسة ماريا اوكسيليادورا، ليقدم إليه قطعة الخبز والجبن التي يوزعها علينا الرهبان في الفسحة الأخيرة لوجبة العصر. وكان يقدم له في أيام الاثنين ريالاً، يدخره من مصروفه ليوم الأحد. وفي مجادلة جرت عندما كنا نعد العدة لحفل مناولتنا الأولى، جعل مايتا الأبَ لويس يرتعش حين سأله وهو

يضع راحتيه حول فمه: «لماذا يوجد فقراء وأغنياء يا أبتاه؟ ألسنا جميعنا أبناء الرب؟» كان دائم الحديث عن الفقراء، عن العميان، عن المقعدين، عن الأيتام، عن مجانين الأزقة. وفي المرة الأخيرة التي رأيته فيها، بعد سنوات طويلة من زمالتي له في مدرسة ساليسيانو، عاد إلى موضوعه القديم، بينما نحن نتناول فنجان قهوة في ساحة سان مارتين: «أرأيت أعداد المتسولين في ليما؟ إنهم ألوف مؤلفة.» وحتى قبل إضرابه الشهير عن الطعام، كنا نحن معظم تلاميذ الصف نعتقد أنه سيصبح راهباً. فالاهتمام بالبؤساء في ذلك الحين كان يبدو لنا من شؤون المتطلعين إلى أن يُقبلوا في صفوف الإكليروس، وليس من شؤون الثوريين. فقد كنا نعرف آنذاك الكثير عن الدين، والقليل عن السياسة، ولا نعرف شيئاً على الإطلاق عن الثورة. كان مايتا صبياً بديناً أجعد الشعر، له قدمان مسطحتان، وأسنان متفرقة، وطريقة في المشي كأنها تشير إلى الثانية إلا عشر دقائق. وكان يرتدي على الدوام سروالاً قصيراً، وكنزة ذات بقع خضراء ولفاعاً للوقاية من البرد يبقيه حول رقبته خلال الدروس. وكنا نضايقه كثيراً لاهتمامه بالفقراء، ومساعدته في القداس، ولأنه يصلي ويصلّب بورع شديد، ولأنه كان لاعب كرة قدم سيئاً، وكنا نضايقه خصوصاً بسبب اسمه مايتا. فكان يقول لنا: «كلوا مخاطكم».

ومهما كان تواضع أسرته، فإنه لم يكن أفقر تلاميذ المدرسة. لقد كنا نحن تلاميذ ساليسيانو أقرب إلى تلاميذ المدارس العامة، لأن مدرستنا لم تكن مدرسة بيضٍ صغار مثلما هي مدرسة سانتا مارتا أو مدرسة إنماكولادا، وإنما مدرسة صبيان الشرائح

الفقيرة من الطبقة الوسطى، أبناء موظفين، ومستخدمين، وعسكريين، ومهنيين لا يتمتعون بحظ كبير من النجاح، وحرفيين، وحتى أبناء عمال مؤهلين. وكان الهجينون بيننا أكثر من البيض: خلاسيون، وزامبيتو، وصينيون، ونيسيس وساكالاغواس وأكوام من الهنود[1]. ومع أن كثيرين من التلاميذ كانوا من ذوي الجلود النحاسية، وجناتهم بارزة، وأنوفهم فطساء، وشعرهم شوكي، إلا أن الوحيد الذي كان له اسم هندي على ما أذكر، هو مايتا. وباستثناء الاسم، لم يكن في عروقه من الدماء الهندية أكثر مما في عروق أي واحد منا، أما بشرته الشاحبة المائلة إلى الخضرة، وشعره المجعد، وتقاطيعه فكانت كلها مثلما هي في البيرويّ العادي: الميستيثو[2]. كان يعيش عند منعطف كنيسة مجدلينا، في بيت ضيق، كالح الطلاء ودون حديقة، وهو بيت عرفته جيداً، لأنني واظبت على الذهاب إليه كل مساء طوال شهر بكامله لنقرأ معاً، بصوت عالٍ، *الكونت دي مونت كريستو*، الرواية التي أُهديت إليّ في عيد ميلادي وكانت تفتننا نحن الاثنين. كانت أمه تعمل ممرضة في مستشفى التوليد، وتحقن إبراً في البيوت. وكنا نراها من نافذة الحافلة، عندما تفتح الباب لمايتا. لقد كانت سيدة مربوعة، ذات شعر رمادي، تُقبّل ابنها قبلة سريعة، وكأنها لا تملك متسعاً من الوقت. أما أبوه فلم نره

---

[1]ـ بعض التسميات للتشكيلة العرقية الواسعة في بلدان أميركا اللاتينية. فالزمبيتو zambito هو من يولد لأبوين أحدهما زنجي والآخر هندي. والساكالاغواس هو الخلاسي ذو البشرة الأقرب إلى البياض.

[2]الميستيثو mestizo هو الذي يولد لأبوين من عرقين مختلفين عموماً.

قطّ. وقد كنتُ متأكداً من أنه لا وجود له، لكن مايتا كان يقسم إن أباه دائم السفر، بسبب عمله، لأنه يعمل مهندساً (وهي المهنة الموقرة في تلك الأزمنة).

انتهيتُ من الجري. عشرون دقيقة في الذهاب والإياب، بين حديقة سالازار وبيتي، هي مسافة مناسبة. أضف إلى ذلك أنني بينما كنت أركض، توصلت إلى نسيان أنني أركض وإلى استعادة ذكرى الدروس في مدرسة ساليسيانو ووجه مايتا الجدي، ومشيته المتمايلة، وصوته الصافر. إنه هناك، أراه، أسمعه وسأظل أراه وأسمعه إلى أن ينتظم تنفسي، وأتصفح الجريدة، وأتناول فطوري، وأستحم وأبدأ العمل.

عندما توفيت أمه ـ كنا في السنة الثالثة المتوسطة ـ انتقل مايتا للعيش مع خالة له هي في الوقت نفسه عرابته. كان يتكلم عنها بمحبة ويقول لنا إنها تقدم إليه الهدايا في أعياد الميلاد وفي عيد قديسه وتأخذه أحياناً إلى السينما. ولا بد أنها كانت طيبة بالفعل، لأن العلاقة بينه وبين دونيا خوسيفا استمرت إلى ما بعد استقلال مايتا بحياته. وبالرغم من ظروف حياته الصعبة، فقد ثابر على زيارتها بانتظام على امتداد السنين، وفي بيتها بالذات جرى ذلك اللقاء بينه وبين باييخوس.

كيف هي الآن دونيا خوسيفا اريسوينيو بعد انقضاء ربع قرن على تلك الحفلة؟ إنني أسأل نفسي هذا السؤال مذ كلمتها هاتفياً، واستطعت التغلب على ارتيابها وإقناعها بأن توافق على زيارتي لها. وسألت نفسي السؤال نفسه حين نزلتُ من الحافلة التي أوصلتني إلى تقاطع شارع ريبوبليكا وجادة انغاموس، عند بوابات سوركييو. هذا

حي أعرفه جيداً. ففي صباي كنت أجيء مع أصدقائي، في ليالي الأعياد، لنشرب البيرة في مقهى التريونفو، ونأتي بأحذية لتصليحها وبدلات لقلبها وتحويلها على مقاسنا، ولرؤية أفلام كاوبوي في صالات السينما غير المريحة وذات الروائح الكريهة: صالات سينما الربيع، وليونثيو برادو، وماكسيمل. إنه واحد من أحياء ليما القليلة التي لم تتغير تقريباً. فهو مازال يغص بالخياطين، والإسكافيين، والأزقة، ومطابع فيها صناديق تضم الحروف التي تُصف يدوياً، وكراجات بلدية، وحانات كهفية، وبارات الثلاثة بنصف الصغيرة، ومستودعات، ودكاكين مشبوهة، وعصابات كسالى عند النواصي وصبية يتقاذفون كرة في وسط الشارع، بين السيارات والشاحنات ودراجات باعة المثلجات ثلاثية العجلات. فالحشود في الشوارع، والبيوت حائلة الألوان ذات الطابق الواحد أو الطابقين، وبرك الماء المزيتة، والكلاب الأليفة تبدو كلها كأنها من ذلك الزمن. ولكن هذه الشوارع التي كانت في ما مضى ملاذاً للأوغاد والدعارة وحسب، أضيف إليها اليوم الماريجوانا والكوكايين. فهنا توجد تجارة مخدرات أكثر نشاطاً مما هي في لافيكتوريا، أو ريماك، أو بوربينير، أو الضواحي. فهذه النواصي الجرباء، هذه البيوت السكنية القذرة المكتظة، هذه الحانات المؤثرة، تتحول في الليل إلى «غرز»، إلى أماكن تباع وتشترى فيها «باكوات» من الماريجوانا والكوكايين، وتُكتشف باستمرار في هذه الأكواخ مختبرات بدائية لتصنيع العجينة الأولية. لكن هذه الأشياء لم يكن لها وجود في زمن الحفلة التي غيرت حياة مايتا. فقلة هم الذين كانوا يعرفون كيف يدخنون الماريجوانا في ليما

آنذاك، أما الكوكايين فكان من شؤون البوهيميين والصالونات الفاخرة، شيء يستخدمه من يقضون الليل هائمين على وجوههم لكي يفيقوا من سكرهم ويواصلوا القصف. كانت المخدرات لا تزال آنذاك بعيدة جداً عن تحولها إلى التجارة الأكثر ازدهاراً في هذه البلاد، وعن انتشارها إلى كل أنحاء المدينة. لم يكن يظهر أي شيء من هذا كله بينما كنت أمشي عبر شارع دانتي باتجاه التقائه مع شارع غونثالث برادا، مثلما مشى مايتا في تلك الليلة ليصل إلى بيت خالته ـ عرابته، إذا كان قد جاء في الحافلة أو في الترام، ففي عام 1958 كانت عربات الترام لا تزال تقرقع على الدروب التي تجوبها الآن بسرعة فائقة سيارات زانجون. كان متعباً، ذاهلاً، مع طنين خفيف في صدغيه ورغبة كبيرة في وضع قدميه في المغسلة المملوءة بماء بارد. لم يكن هناك علاج أفضل من ذلك للإرهاق الجسدي أو المعنوي: ذلك الإحساس البارد والسائل في باطن القدمين يزيح التعب والقنوط والضجر، ويرفع المعنويات. كان قد مشى منذ الفجر، محاولاً أن يبيع جريدة **صوت العمال**، في ساحة أونيون، للشغيلة الذين ينزلون من الحافلات وعربات الترام ويدخلون إلى المصانع في جادة الأرجنتين، بعد ذلك ذهب مرتين من غرفته في جادة ثيبيتا حتى ساحة بوينس آيرس، في كوتشاراكاس، حاملاً في المرة الأولى بعض أوراق الستانسل وبعد ذلك مقالاً لدانييل غيريه مترجماً من مجلة فرنسية، حول الاستعمار الفرنسي في الهند الصينية. وكان قد أمضى ساعات وهو يقف على قدميه، يساعد منضد الحروف في ترتيب النصوص وتصحيح البروفات، في مطبعة كوتشاراكاس الضيقة التي مازالت تطبع

الجريدة (بوضع اسم مطبعة مزيف، وقبض أجور الطباعة سلفاً) ثم ذهب بعد ذلك مستخدماً حافلة واحدة بدلاً من الاثنتين اللتين يجب استخدامهما ليصل إلى ريماك، حيث عليه أن يقود كل يوم أربعاء، في غرفة ضيقة في جادة فرانثيسكو بيثارو، حلقة دراسية لجماعة من طلاب جامعة سان ماركوس وطلاب الهندسة. وبعدئذ، ودون أن يلتقط أنفاسه، وبمعدة تحتج لأنه لم يُلق إليها طوال النهار سوى طبق من الرز مع البقول المجففة في المطعم الجامعي (حيث مازال بإمكانه الدخول ببطاقة من سنة القرد، يزوّرها بين حين وآخر، لجعلها صالحة للاستعمال)، وكان قد حضر اجتماع اللجنة المركزية لحزب العمال الثوري (التروتسكي) في كراج جادة ثوريتوس، وقد استمر الاجتماع أكثر من ساعتين من التدخين والجدال. من الذي تبقى لديه رغبة في حضور حفلة بعد كل هذه المهمات؟ فضلاً عن أنه كان يكره الحفلات على الدوام. لقد كانت ركبتاه ترتجفان وقدماه كأنهما تدوسان جمراً. ولكن، كيف يمكنه عدم الذهاب؟ لا يمكن أن يمنعه من ذلك إلا السفر أو السجن، فهو لم يتخلف قطّ. وفي المستقبل، سواء أكان متعباً أم لا، وسواء أكانت قدماه متورمتين أم لا، لن يتخلف كذلك، حتى ولو كانت زيارة سريعة، ما يكفي من الوقت ليقول لخالته إنه يحبها. كان البيت يضج بالصخب. وفُتح الباب فوراً: أهلاً يا بني.

ـ مرحباً يا عرابتي ـ قال مايتا ـ. عيد ميلاد سعيد.

ـ السيدة خوسيفا اريسوينيو؟

ـ أجل، تفضل، ادخل.

إنها امرأة تحتفظ بمظهر جيد، ولا بد أنها قد تجاوزت

السبعين. ولكن مظهرها لا يكشف عن ذلك مطلقاً: فبشرتها لا تبدو مجعدة ولا وجود في شعرها الحنطي إلا لقليل من الشيب. إنها بدينة، لكنها حسنة التناسق، لها عجيزة وافرة وترتدي فستاناً ليلكياً يزنره حزام أحمر. الغرفة واسعة، قاتمة، فيها كراس مختلفة الأنواع، ومرآة كبيرة، وماكينة خياطة، وتلفاز، وطاولة، وتمثال لسيد المعجزات، وآخر للقديس مارتين دي بوريس، وصور ضوئية على الجدار وزهرية فيها أزهار من الشمع. هل جرت هنا الحفلة التي تعرّف فيها مايتا على باييخوس؟

ـ هنا بالذات ـ تؤكد لي السيدة اريسوينيو ذلك وهي تلقي نظرة دائرية. وتشير إلى كرسي هزاز ممتلئ بجرائد ـ: إنني أراهما هناك، يتحدثان ويتحدثان.

لم يكن ثمة أناس كثيرون، ولكن هناك كثير من الدخان والأصوات وقرع الكؤوس، وفالس ايدولو بأعلى صوت من الغراموفون. وزوج راقصين وعدة أزواج آخرين يتابعون اللحن بضرب أكفهم أو بالدندنة. أحس مايتا، كالعادة، بأنه فائض عن الحاجة، وأنه قد يرتكب خطأ في أي لحظة. فهو لا يجد سهولة في المعاشرة الاجتماعية. وكانت الطاولة والكراسي قد أزيحت إلى الأركان لفسح المجال للرقص، وكان هناك من يحمل جيتاراً بين يديه. الموجودون هم الناس الذين يتوقع وجودهم وغيرهم: ابنتا خالته، وخطيباهما، وجيران من الحي، وأقارب وأصدقاء يتذكرهم من حفلات عيد ميلاد سابقة. ولكنها أول مرة يرى فيها ذلك النحيل الثرثار.

وتقول لي السيدة اريسوينيو:

ـ لم يكن صديقاً للأسرة، وإنما عشيق أو قريب أو شيء من هذا القبيل لصديقة ابنتي الكبرى ثوليتا. هي أحضرته ولم يكن هناك من يعرف أي شيء عنه.

ولكنهم سرعان ما عرفوا أنه شخص لطيف، وراقص جيد، ومحب للشرب، وراوي طرائف ونكات ومحدث بارع. وبعد أن حيا مايتا ابنتي خالته وهو يحمل ساندويتش جامبون في يده وكأس بيرة في اليد الأخرى، بحث عن كرسي ليهوي عليه بإرهاقه. كان الكرسي الوحيد الفارغ بجانب النحيل الذي يقف، مومئاً، ويشد انتباه جماعة من ثلاثة أشخاص: ابنتا خالته ثوليتا وأليسيا ورجل عجوز ينتعل خفاً بيتياً. حاول مايتا المرور دون أن يلفت الانتباه، وجلس بجانبهم، بانتظار أن ينقضي الوقت المناسب ليتمكن من الانصراف كي ينام.

وتقول السيدة اريسوينيو وهي تقلب جيوبها بحثاً عن منديل:

ـ لم يكن يطيل البقاء مطلقاً. فهو لا يحب الحفلات. لم يكن مثل جميع الناس الآخرين. لم يكن كذلك قطّ، حتى ولا في طفولته. إنه جديّ دائماً، وصارم دائماً. كانت أمه تقول عنه: «لقد ولد عجوزاً». وأمه هي شقيقتي، هل تعرف ذلك؟ وقد كان مولد مايتا نكبة حياتها، لأنها ما إن علمت بأنها حامل حتى اختفى خطيبها وكأنه سحابة دخان. ولم تره بعدها قطّ. أتظن حضرتك أن مايتا صار إلى هذه الحال لأنه بلا أب؟ إنه يأتي فقط في عيد قديسي ليؤدي الواجب نحوي. أنا جئت به إلى هنا عندما توفيت أختي. لقد كان الذكر الذي لم يمنحني الرب إياه. فأنا لم أنجب إلا بنتين. ثوليتا وأليسيا. كلتاهما الآن في فنزويلا، متزوجتان

ولهما أبناء. أحوالهما تجري على ما يرام هناك. لقد كان بإمكاني أن أتزوج ثانية، ولكن ابنتيّ عارضتا بشدة، فظللتُ أرملة وحسب. لقد كان خطأ كبيراً، أقول لك ذلك بصراحة. لأنني الآن ـ انظر كيف هي حياتي ـ وحيدة مثل نبتة فطر ومعرضة لأن يدخل اللصوص هنا يوماً. ابنتاي ترسلان لي شيئاً كل شهر. ولولاهما لما وجدتُ ما آكله، أتعرف ذلك؟

وبينما هي تتكلم كانت تتفحصني وهي لا تكاد تواري فضولها. لها صوت فيه بحة ديك، مثل صوت مايتا، ويدان مثل التامال، ومع أنها كانت تبتسم أحياناً، إلا أن عينيها حزينتان ومائيتان. كانت تشكو من الحياة التي تزداد غلاء، ومن عمليات السطو في الشوارع ـ «لا توجد جارة واحدة في هذا الشارع إلا وتعرضت للسطو مرة واحدة على الأقل» ـ ومن السطو على فرع بنك الاعتماد وما رافقه من تبادل إطلاق نار سبّب عدداً من النكبات، ومن أنها لم تستطع الذهاب إلى فنزويلا، حيث يوجد فائض من المال كما يبدو.

ـ في مدرسة ساليسيانو كنا نظن أن مايتا سيتحول إلى كاهن. قلت لها.

ـ وأختي كانت تظن ذلك أيضاً ـ وافقت مبتسمة ـ. وأنا كذلك. لقد كان يرسم إشارة الصليب كلما مر قبالة كنيسة، ويشارك في القربان المقدس كل يوم أحد. لقد كان قديساً صغيراً. من كان يتصور ما حدث، أليس كذلك؟ أعني أن ينتهي شيوعياً. في ذلك الحين كان يبدو من المستحيل أن يتحول التقي إلى شيوعي. ولكن هذا الأمر تغير أيضاً، فهناك الآن كثير من

الرهبان الشيوعيين، أليس كذلك؟ إنني أتذكر بوضوح ذلك اليوم الذي دخل فيه من هذا الباب.

لقد تقدم نحوها يومذاك حاملاً كتبه المدرسية تحت إبطه، وكان يطبق قبضتيه وكأنه يستعد للضرب، ورتل على مسمعيها دفعة واحدة كل ما جاء ليقوله لها.. ذلك القرار الذي أبقاه مسهداً طوال الليل:

ـ إننا نأكل كثيراً يا خالتي، ونحن لا نفكر في الفقراء. أتدرين ما الذي يأكلونه هم؟ إنني أنبهك إلى أنني، منذ اليوم، لن أتناول سوى طبق من الحساء عند الظهر، وقطعة خبز في الليل. مثل دون ميداردو الأعمى.

وتتذكر دونيا خوسيفا:

ـ بسبب تلك النزوة انتهى به الأمر إلى المستشفى.

استمر في تلك النزوة شهوراً، وراح ينحل، دون أن ننتبه نحن زملاءه في المدرسة إلى السبب، إلى أن كشفه لنا الأب جيوفاني وهو ممتلئ بالتقدير، في اليوم الذي أدخلوا فيه مايتا إلى مستشفى لويزا. «طوال هذا الوقت كان يحرم نفسه من الطعام لكي يتماثل مع الفقراء، بدافع التضامن الإنساني والمسيحي»، كان الأب يدمدم وهو ما يزال مذهولاً مما جاءت ترويه خالة مايتا في المدرسة. وقد سببت لنا تلك القصة الكثير من البلبلة، حتى إننا لم نتجرأ على السخرية منه حين رجع، وقد استعاد عافيته بفضل الحقن والمقويات. وكان الأب جيوفاني يقول: «هذا الفتى سيكون له شأن». أجل، لقد صار له شأن، ولكن ليس في الاتجاه الذي كنت تظنه يا أبتاه.

تتنهد السيدة اريسوينيو:

- كانت لحظة شؤم تلك التي فكر فيها بالمجيء تلك الليلة. فلو أنه لم يأتِ لما تعرف على باييخوس ولما حدث أي شيء مما جرى. لأن باييخوس هو مبتدع الفكرة، وهذا ما يعرفه الجميع. لقد كان مايتا يأتي، فيقبلني مهنئاً ثم يمضي بعد لحظة. ولكنه ظلَّ في تلك الليلة حتى النهاية، ظلَّ يتكلم ويتكلم مع باييخوس في ذلك الركن. لقد انقضت خمس وعشرون سنة ومازلتُ أذكر ذلك وكأنه حدث بالأمس. الثورة من هنا، الثورة من هناك. ظلا يتحدثان طوال تلك الليلة.

الثورة؟ عاد مايتا ينظر إليه. هل الذي تحدث هو الفتى أم العجوز ذو الخف؟

وكرر النحيل وهو يرفع الكأس التي يحملها في يده اليمنى:

- أجل يا سيدي، غداً بالذات... يمكن للثورة الاشتراكية أن تبدأ غداً بالذات إذا أردنا ذلك. كيف أوضح لك يا سيدي.

تثاءب مايتا ثانية وتمطى شاعراً بدغدغة في جسده. وكان النحيل يتكلم عن الثورة الاشتراكية بالطلاقة نفسها التي كان يروي بها قبل لحظات قليلة الطرائف عن أوتو وفريتز أو يتحدث عن مباراة الملاكمة الأخيرة «لثروتنا الوطنية، الملاكم فرونتادو». وبالرغم من الإرهاق الذي يشعر به، بدأ مايتا يستمع: هذا الذي يحدث في كوبا ليس شيئاً يذكر بالمقارنة مع ما يمكن أن يحدث في البيرو، إذا أردنا ذلك. ففي اليوم الذي سيتحرك فيه أهالي الأنديز، ستهتز البلاد بأسرها. أيكون أبريستا[1]؟ أم تراه

---

[1]- أبريستا APRISTA : عضو في منظمة أبرا APRA (التحالف الشعبي الثوري الأميركي)، منظمة سياسية ثورية أسسها عام 1924 البيرويّ هايا دي لا توري

يكون فجلاً[1]؟ هذا غير ممكن، من المستحيل أن يوجد شخص شيوعي في حفلة خالته. فمايتا لا يذكر أنه سمع أحداً على الإطلاق يتكلم في السياسة في هذا البيت.

سألت ابنة خالته ثوليتا:

- وما الذي يجري في كوبا؟

فضحك النحيل:

- ذلك المدعو فيدل كاسترو أَقسم ألا يحلق ذقنه إلى أن يهزم باتيستا. أولم تري ما الذي يفعله عبر العالم أنصارُ حركة 26 تموز الكوبية؟ لقد علقوا راية على تمثال الحرية في نيويورك. إن باتيستا يهوي، لقد صار مصفاة.

- ومن هو باتيستا؟ - سألت ابنة الخالة أليسيا.

- إنه طاغية - أوضح النحيل باندفاع -. دكتاتور كوبا. وما يجري هناك هو شيء لا يمكن مقارنته مطلقاً بما يمكن أن يحدث هنا. والفضل في ذلك يعود إلى جغرافية بلادنا. إنها هدية حقيقية من الله للثورة. فحين ينتفض الهنود، ستتحول البيرو إلى بركان.

- حسن، ولكن إلى الرقص الآن - قالت ابنة الخالة ثوليتا -. الجميع جاؤوا هنا ليرقصوا. سأضع موسيقى راقصة.

على أن تكون منظمة أمريكية لاتينية، ولكنها اقتصرت في النهاية على تنظيمها في البيرو، وقد كانت حركة شعبية واسعة، نجحت في الانتخابات أكثر من مرة، ولكن العسكريين كانوا يقطعون عليها الطريق بانقلابات عسكرية وملاحقات دامية.

[1]- الفجل rabanito هي التسمية التي يطلقها المؤلف على الشيوعيين التقليديين.

وسمع مايتا العجوز ذا الخف يقول بصوت متعثر:

ـ الثورات مسألة جدية، وأنا على الأقل لست مناصراً لها. فعند انتفاضة الأبريستا في تروخيو، سنة ثلاثين، جرت مجزرة الله ربي ومولاي. الأبريستا دخلوا إلى الثكنة وأجهزوا على عدد لا أدري قدره من الضباط. وأرسل سانتشيث ثيرو طائرات ودبابات، فقضى عليهم وأعدموا ألفاً من الأبريستا في خرائب تشان تشان.

ـ هل كنت حضرتك هناك؟ سأله النحيل وهو يفتح عينيه بحماسة. وفكر مايتا: «الثورات ومباريات كرة القدم هي الشيء نفسه بالنسبة إليه».

فقال العجوز ذو الخف:

ـ أنا كنت في هوانوكو، في صالون حلاقتي. وقد وصلتْ إلينا هناك، فوق، أصداء المذبحة. الأبريستا القليلون الذين كانوا في هوانوكو جمعهم الحاكم وأعدمهم. لقد كان عسكرياً سيئ المزاج، وزير نساء. يدعى الكولونيل بادولاكي.

بعد هنيهة انصرفت كذلك ابنة الخالة أليسيا لترقص، وبدا الخمود على النحيل حين رأى أنه ظل مع محدث واحد هو العجوز. ولكنه عندما اكتشف وجود مايتا، رفع كأسه باتجاهه: بصحتك يا صاحبي.

ـ بصحتك. قال مايتا ذلك وهو يقرع كأسه.

ـ اسمي باييخوس ـ قال النحيل مصافحاً.

ـ وأنا مايتا.

ـ لقد فقدت صديقتي لكثرة ما تكلمت ـ قال باييخوس ضاحكاً وهو يشير إلى فتاة متبرجة، يراقصها ابن عم لأليسيا

وثويليتا يدعى بيبوتي، وكان يحاول الالتصاق بها وهما يرقصان على موسيقى معاً في البعد، وأضاف باييخوس: ـ إذا ما شدها أكثر، فسوف توجه إليه أليسي صفعته التي يستحقها.

كان يبدو في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمره بسبب رقته، ولأنه أمرد وشعر رأسه حَليق كله تقريباً. ولكن مايتا فكر في أنه يجب ألا يكون فتياً إلى هذا الحد. فحركات يديه، ونبرة صوته، وثقته بنفسه تستدعي التفكير في أنه أكثر نضجاً. وكانت له أسنان كبيرة وبيضاء تبعث البهجة في وجهه الأسمر. وكان واحداً من قلة في الحفلة يرتدون سترة وربطة عنق، وكان يبرز فوق ذلك منديل صغير من جيبه. وكان يبتسم طوال الوقت وفيه شيء من المباشرة واندفاع العواطف. أخرج علبة سجائر ماركة إنكا وقدم سيجارة لمايتا. فقبلها.

هتف وهو يطلق الدخان من فمه:

ـ لو أن ثورة أبريستا في الثلاثينات انتصرت، لكان ديك آخر قد غنى لنا. ولما كان هناك كل هذا الظلم والتفاوت. ولكانت قُطعت الرؤوس التي يتوجب قطعها، ولكانت البيرو قد أصبحت شيئاً آخر. لا تحسبني أبريستا، ولكن لا بد من إعطاء قيصر ما هو لقيصر. أنا اشتراكي يا صاحبي، مهما قيل عن أنه لا يمكن أن يلتقي عسكري واشتراكي في الشخص نفسه.

ـ عسكري؟ ـ ارتعش مايتا.

ـ إنني ملازم ـ أكد باييخوس ـ. لقد تخرجتُ السنة الماضية، من تشوريبوس.

اللعنة. الآن فهمتُ من أين جاءت قَصة شعر باييخوس وطريقته

المندفعة. أهذا هو ما يسمونه موهبة القيادة؟ أمر لا يُصدق أن يقول عسكري هذه الأشياء التي قالها.

وأكدت السيدة خوسيفا:

ـ لقد كانت حفلة تاريخية. لأن مايتا وباييخوس تعارفا، ولأن ابن أخي بيبوتي تعرف كذلك على أليسي. لقد وقع في حبها ولم يعد ذلك الكسول والمهمل الذي كانه من قبل... بحث عن عمل، وتزوج من أليسي وذهبا إلى فنزويلا أيضاً، من مثلهما. ولكن يبدو أن كلاً منهما يمضي الآن في طريقه. عسى ألا يكون ذلك إلا أقاويل... آه، يبدو أنك قد تعرفتَ على صورته، أليس كذلك؟ أجل، إنه مايتا. منذ كومة من السنين.

في الصورة باهتة الحواف، والمصفرة، يبدو في الأربعين أو أكثر. إنها صورة التقطها له مصور جوال، في ساحة يصعب التعرف عليها، بإضاءة ضعيفة. إنه يقف على قدميه، وهناك لفاع منفلت على كتفيه، وتبدو عليه ملامح ضيق، وكأن الوميض يزعج عينيه أو أنه يشعر بالخجل من الوقوف لالتقاط صورة أمام المارة في الطريق العام. إنه يحمل في يده اليمنى حقيبة أو علبة أو حافظة أوراق، وعلى الرغم من امحاء معالم الصورة، إلا أنه يمكن ملاحظة بؤس لباسه: فالبنطال منتفخ، والسترة مائلة، والقميص واسع الياقة كثيراً، أما ربطة العنق فمعقودة عقدة مضحكة وغير متقنة. لقد كان الثوريون يضعون ربطات عنق في ذلك الحين. وكان شعره مشعثاً ونامياً، ووجهه يختلف بعض الشيء عن ذاك الذي أحفظه في ذاكرتي، فهو أكثر امتلاء وتقطيباً، فيه جدية ساخطة. هذا هو الانطباع الذي تنقله الصورة الفوتوغرافية: رجل

يحمل إرهاقاً عظيماً على كاهله. لأنه لم ينم كفايته، أو لأنه مشى كثيراً، أو لسبب أقدم من ذلك، إرهاق حياة وصلت إلى حدٍّ، ليس هذا الحد هو الشيخوخة ولكنه يمكن أن يكون كذلك إذا لم يكن وراءها ـ كما هو حال مايتا ـ سوى أوهام محطمة، واحباطات، وأخطاء، وعداوات، ومكائد سياسية، وتقشف، ووجبات سيئة، وسجن، ومخافر، وحياة سرية، واخفاقات من كل نوع دون أن يكون هناك ما يشبه أي فوز ولو من بعيد. ومع ذلك، فقد كان هذا الوجه المستنفد والمتوتر يعكس كذلك بطريقة ما تلك السمة السرية القاسية أمام الخصوم والتي كان يذهلني على الدوام أن أجدها فيه على مر السنين، هذا النقاء الشبابي القادر على الاستجابة بالسخط ذاته ضد أي جور، سواء أكان في البيرو أو في أقصى أطراف الأرض، وهذه القناعة التبريرية بأن المهمة الوحيدة المستعجلة التي لا تقبل التأجيل هي تغيير العالم. إنها صورة استثنائية، أجل، فقد التقطتْ الصورة كامل قامة مايتا الذي تعرف عليه باييخوس في تلك الليلة.

وقالت دونيا خوسيفا وهي تعيد وضع الصورة على الرف:

ـ أنا طلبتُ منه أن يلتقط هذه الصورة. لكي يكون لدي تذكار منه. أترى هذه الصور؟ جميعهم أقارب، وبعضهم أقارب بعيدون جداً. لقد مات معظمهم... هل كنتما صديقين حميمين؟

ـ انقطعت لقاءاتنا سنوات طويلة ـ قلتُ لها ـ. ثم عدنا نلتقي أحياناً، ولكن في فترات متباعدة.

كانت دونيا خوسيفا اريسوينيو تتأملني، وكنتُ أعرف ما الذي تفكر فيه. رغبتُ في طمأنتها، وفي تبديد شكوكها،

ولكن ذلك كان مستحيلاً لأنني كنت عندئذ مثلها، لا أعرف عن مشاريعي حول مايتا إلا القليل.

دمدمت وهي تمر بلسانها على شفتيها الممتلئتين:

- وماذا ستكتب عنه؟ سيرة حياته؟

- لا، ليس حياته - أجبتها وأنا أبحث عن صيغة لا تسبب لها مزيداً من البلبلة - أريد أن أكتب شيئاً مستوحى من حياته. ليس سيرة وإنما رواية. قصة حرة، حول الحقبة، والوسط الذي عاش فيه مايتا والأشياء التي جرت في تلك السنوات.

وتشجعت السيدة اريسوينيو:

- ولماذا عنه بالذات؟ هناك آخرون أوسع منه شهرة. الشاعر خابيير هيراود مثلاً، أو جماعة المير[1]، جماعة بوينتي، أو لوباتون، أولئك الذين يجري الحديث عنهم دائماً. لماذا اخترت مايتا؟ ليس هناك من يتذكره.

فعلاً، لماذا اخترته هو؟ ألأن حالته كانت الأولى في سلسلة حالات ستترك أثرها على المرحلة؟ أم لأنها الحالة الأكثر عبثية؟ ألأنها الأكثر تراجيدية؟ ألأنه في عبثيته وتراجيديته، كان السبّاق؟ أم ببساطة لأن في شخصيته وقصته شيئاً مؤثراً بالنسبة إلي، شيئاً أبعد من التزاماته السياسية والأخلاقية، يشبه صورة شعاعية للتعاسة البيروية؟

- إما أنك لا تؤمن بالثورة - قال بايبخوس متكلفاً الاستنكار- وإما أن تكون من أولئك الذين يعتقدون أن البيرو ستبقى على حالها حتى نهاية الأزمنة.

---

[1]- المير MIR اختصار لاسم : حركة اليسار الثوري.

ابتسم له مايتا نافياً:

- البيرو ستتغير. الثورة ستأتي - وأوضح له بكل ما في الدنيا من صبر - . ولكن الثورة ستأخذ وقتها. فالأمر ليس سهلاً مثلما تتصور.

كان وجه باييخوس يلمع من العرق وعيناه متقدتين مثل كلماته:

- إنها سهلة في الواقع، وأنا أقول لك هذا لأني أعرف. إنها سهلة إذا كنت تعرف طبوغرافية سلسلة الجبال، وإذا كنت تعرف كيف تطلق النار من بندقية ماوزر، وإذا انتفض الهنود.

- إذا انتفض الهنود - تنهد مايتا -. قول ذلك سهل مثل سهولة كسب جائزة اليانصيب.

الحقيقة أنه لم يخطر بباله قطّ أنه يمكن لعيد ميلاد الخالة أن يكون مسلياً إلى هذا الحد. لقد فكر في البدء: «إنه شخص استفزازي، واشٍ. يعرف من أنا، ويريد أن يستدرجني في الكلام». ولكنه بعد بضع دقائق من الحديث معه، تأكد من أنه ليس كذلك؛ بل هو ملاك بأجنحة، لا يعرف نفسه أين قد حط. ومع ذلك، لم يشعر بأي رغبة في السخرية منه. لقد أمتعه سماع من يتحدث عن الثورة كمن يتحدث عن لعبة أو مأثرة رياضية، كأنها شيء يمكن الحصول عليه ببذل قليل من الجهد والذكاء. لقد كان الفتى على درجة من الثقة بالنفس والسذاجة تغري بمواصلة الاستماع طوال الليل إلى تلك الهذيانات. لقد أبعد عنه النعاس وكان قد وصل إلى كأس البيرة الثالثة. وكان بيبوتي يواصل الرقص طوال الوقت مع أليسي - رقصة تشوتي المدريدية مع

موسيقى لأغوستين لارا ـ ولكن الملازم لم يكن يبدي أدنى اهتمام. فقد سحب كرسياً إلى جوار مايتا، وجلس عليه كأنه يمتطي حصاناً، وراح يشرح له بأن خمسين رجلاً مصممين ومسلحين جيداً، يستخدمون تكتيك رجال حرب العصابات الذين قادهم كاثيريس[1]، يمكنهم أن يشعلوا فتيل البارود الذي هو جبال الأنديز. وفكر مايتا: «إنه شاب فتي إلى حد يمكن معه أن يكون ابني. لابد أنه ينال كل الفتيات اللواتي يشاء.»

وسأله بابيخوس:

ـ وأنت، ماذا تعمل؟

كان سؤالاً يسبب له الضيق على الدوام، بالرغم من أنه كان مستعداً للإجابة عنه. وجوابه الذي هو نصف صحيح ونصف كاذب بدا له أكثر زيفاً من مرات أخرى:

ـ أعمل في الصحافة ـ قال ذلك، وهو يسأل نفسه كيف سيتحول وجه الملازم لو سمعه يقول له: «إنني أعمل في هذا الذي تتحدث عنه كثيراً، متبولاً خارج المبولة. إنني أعمل في الثورة، فما رأيك».

ـ وفي أي صحيفة تعمل؟

ـ في وكالة فرانس برس. أقوم بالترجمة.

فناور بابيخوس:

ـ أي أنك تتكلم فرنساوي. أين تعلمته؟

---

[1] ـ كاثيريس Andres Avelino Caceres جنرال وسياسي بيروي (1833ـ1923) تولى رئاسة الجمهورية من 1886 إلى 1890، ثم تولى المنصب ثانية في عامي 1894ـ1895 .

ـ بمفرده، بمساعدة معجم وكتاب لغة كسبه من يانصيب خيري ـ تقول لي دونيا خوسيفا ـ أنت لا تصدقني، ولكنني رأيته يفعل ذلك بعيني هاتين. كان يحبس نفسه في غرفته ويردد الكلمات لساعات وساعات. كان كاهن سوركييو يعيره مجلات. وكان يقول لي: «لقد بدأت أفهم بعض الشيء يا خالة، إنني أتعلم». إلى أن تعلم، لأنه كان يُمضي الأيام في قراءة كتب بالفرنسية، صدقني.

ـ إنني أصدقك بالطبع ـ أقول لها ـ. لست أستغرب أن يتعلمها بمفرده. لأنه حين يصمم على شيء يفعله. لقد عرفتُ قلة من الأشخاص الذين لهم عناد مايتا.

وتحسرت دونيا خوسيفا:

ـ كان يمكن له أن يصير محامياً، مهنياً. هل تعرف أنه التحق بجامعة سان ماركوس من المحاولة الأولى؟ وكان في موقع جيد. وكان لا يزال صبياً في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة على أكثر تقدير. لقد كان بإمكانه أن يحصل على الشهادة وهو في الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين. يا للخسارة، رباه! ومن أجل أي شيء؟ من أجل السياسة، من أجلها فقط. لن يسامحه الله.

ـ لم يبق إلا وقتاً قصيراً في الجامعة، أليس كذلك؟

وتقول دونيا خوسيفا:

ـ بعد شهور قليلة، أو بعد سنة على الأكثر، زجوا به في السجن. ومنذ ذلك الحين بدأت مصائبه. لم يرجع بعدئذ إلى هذا البيت، بل ذهب ليعيش وحيداً. ومنذ ذلك الحين بدأ يمضي من سيئ إلى أسوأ. أين هو ابن أختكِ؟ إنه متخفٍ. أين صار مايتا؟ إنه

سجين. هل أطلقوا سراحه؟ أجل، ولكنهم يبحثون عنه من جديد. لو قلت لك إن الشرطة كانت تأتي هنا في كل مرة لتقلب لي كل شيء رأساً على عقب، وتهينني، وترعبني، فسوف تظن أنني أبالغ. وإذا قلت لك إن ذلك حدث خمسين مرة أكون مقصرة. وكل ذلك بدل أن يترافع في المحاكم ويكسب قضايا بهذا العقل الذي منحه إياه الرب. هل هذه حياة؟

ـ بلى، إنها كذلك ـ عارضتُها برفق ـ إنها حياة قاسية إذا شئتِ. ولكنها زخمة ومتماسكة أيضاً. إنها أفضل من حيوات أخرى كثيرة يا سيدتي. وأنا لا أستطيع أن أتصور مايتا يشيخ وراء منضدة محام، ويقوم كل يوم بالعمل نفسه.

ووافقت دونيا خوسيفا، تهذباً وليس عن قناعة:

ـ حسن، ربما كان هذا صحيحاً. منذ طفولته كان بالإمكان إدراك أنه لن يعيش كالآخرين. هل رأيت في حياتك صبياً مخاطياً يمتنع عن تناول الطعام يوماً لأن هناك أناساً يجوعون في العالم؟ أنا لم أصدق ذلك، أتعرف؟ كان يتناول حساءه ويترك بقية الطعام. وفي الليل يكتفي بقطعة خبز. وكنت أنا وثوليتا وأليسيا نسخر منه: «لا بد أنك تقيم مآدبك خفية أيها المخادع». ولكن تبين أن الأمر كان صحيحاً، لم يكن يأكل أي شيء آخر. فإذا كان في صغره هكذا، فلماذا لا يصبح في كبره إلى ما صار إليه.

ـ هل رأيت *نزع بتلات الأقحوان*، لبريجيت باردو؟ ـ قال بابيخوس مغيّراً موضوع الحديث ـ أنا رأيته بالأمس. ساقان طويلتان، طويلتان، تخرجان من الشاشة. أحب أن أذهب إلى باريس يوماً لأرى بريجيت باردو بلحمها وعظمها.

ـ دعك من الكلام الكثير وهلم لنرقص ـ قالت ذلك خطيبته أليسي التي كانت قد تملصت من بيبوتي وأرادت أن تنتزع باييخوس بالقوة عن الكرسي ـ. لن أقضي الليلة كلها في الرقص مع هذا السمج الذي يلتصق بي. هيا، تعال لنرقص لحن المامبو هذا.

ورتل الملازم:

ـ مامبو! يا للمامبو اللذيذ!

بعد لحظة من ذلك كان يلف مثل خدروف. لقد كان يرقص بإيقاع، محركاً يديه، متخذاً هيئات متنوعة، ومغنياً، وقد تحمس لأدائه أزواج من الراقصين الآخرين فبدؤوا يشكلون حلقاتٍ أو قطاراتٍ أو يتبادلون رفاقهم في الرقص. وسرعان ما تحولت الصالة إلى إعصار مذهل. نهض مايتا وألصق كرسيه بالجدار، لكي يتيح مزيداً من المجال للراقصين. هل سيرقص يوماً مثل باييخوس؟ أبداً. حتى بيبوتي يبدو بطلاً بالمقارنة معه في هذا المجال. تذكر مايتا مبتسماً الإحساس الكريه بتحوله إلى إنسان كرومانيون[1]، هذا الإحساس الذي يداهمه كلما وجد نفسه مضطراً إلى مراقصة آديلايدا، حتى في أكثر الرقصات بساطة. لم يكن جسده هو العائق، وإنما ذلك الحياء، الخجل، التهيب الأحشائي من اقترابه الشديد من امرأة هو الذي يحوله إلى ما يشبه الدمية. ولهذا اختار ألا يرقص إلا إذا أُجبر على ذلك، مثلما يحدث عندما تضطره إلى الرقص ابنة الخالة أليسيا أو ابنة الخالة ثويليتا، وهو ما يمكن أن

---

[1] كرومانيون Cromagnon: موقع في فرنسا (دوردونيا) اكتشفت فيه عام 1868 بقايا بشرية، وقد أطلق اسمها على أحد الأعراق التي كانت تقطن أوربا الغربية في عصور ما قبل التاريخ.

يحدث في أي لحظة الآن. هل تعلّم ليون دافيدوفيتش الرقص؟ لا شك في ذلك. ألم تقل زوجته تاتاليا سيدوفا إنه، باستثناء انشغاله بالثورة، كان أكثر الرجال طبيعية؟ أب حنون، زوج عاشق، بستاني جيد، وكان يفتنه إطعام الأرانب. الأمر الأكثر طبيعية لدى الرجال الطبيعيين هو أن يحبوا الرقص. فالرقص بالنسبة إليهم ليس، مثلما يبدو له، مجرد شيء مضحك، وطيش وإضاعة وقت، ونسيان الأهم. وفكر: «لستَ رجلاً طبيعياً يا مايتا، تذكر هذا». انتهت رقصة المامبو، وكان هناك تصفيق. وقد فُتحت النافذة المطلة على الشارع لتهوية الصالة، وكان بإمكان مايتا أن يرى من خلال الراقصين، الوجوه الملتصقة بدفتي النافذة، وملامح الفضوليين، عيون رجولية تلتهم نساء الحفلة. وعندئذ أعلنت الخالة: يوجد حساء دجاج، فليأتوا لمساعدتها. هرعت أليسيا إلى المطبخ. وجاء باييخوس ليجلس مجدداً إلى جوار مايتا وهو يتعرق. قدم له سيجارة، وغمز له بإحدى عينيه ساخراً:

ـ الواقع إنني موجود وغير موجود هنا. لأنه عليّ أن أكون في خاوخا. فأنا أعيش هناك، إنني قائد السجن. ويتوجب عليّ عدم المغادرة، ولكنني أسمح لنفسي بالهرب عندما تسنح الفرصة. هل تعرف خاوخا؟

فقال مايتا:

ـ أعرف أماكن أخرى من سلسلة الجبال. أما خاوخا فلا أعرفها.

وقال باييخوس مقلداً المهرج:

ـ العاصمة الأولى للبيرو! خاوخا! خاوخا! من المخجل ألا تعرفها! يتوجب على جميع البيرويين أن يذهبوا إلى خاوخا.

ودون أن يتوقف تقريباً، سمعه مايتا يستغرق في خطبة عن السكان الأصليين: البيرو الحقيقية موجودة في سلسلة الجبال وليس على الشاطئ، ما بين الهنود ونسور الكندور وذرى الأنديز، وليس هنا في ليما، هذه المدينة المتأجنبة والمملة واللابيروية، لأنها مذ أنشأها الإسبان تعيش وعينها على أوروبا وعلى الولايات المتحدة، مديرة ظهرها للبيرو. إنها أشياء سمعها مايتا وقرأها مرات كثيرة، ولكنها كانت تخرج بنبرة مختلفة من فم الملازم. الجديد كان في الطريقة المستخفة والباسمة التي يقولها بها، مطلقاً حلقات من الدخان الرمادي. كانت طريقته في التكلم تنطوي على شيء عفوي وحيوي يحسّن ما يقوله. لماذا يحمل إليه الفتى هذا الحنين، وهذا الشيء الميت نهائياً فيه؟ وفكر مايتا: «لأنه معافى. غير ملوث. لم تقتل السياسة متعة الحياة فيه. لا بد أنه لم يمارس قطّ أي نوع من السياسة. ولهذا يتكلم دون مسؤولية، ولهذا يقول كل ما يخطر له.» لم تكن لدى الملازم أية حسابات، أو أية نوايا مستترة، أو خطابية معدّة مسبقاً. إنه لا يزال في تلك المراهقة التي تتلخص السياسة فيها بأنها مشاعر وحسب، نزق أخلاقي، تمرد، مثالية، أحلام، سخاء، صوفية. أجل، هذه الأشياء مازالت موجودة يا مايتا. ها هي ذي أمامك، مجسدة ـ ومن يصدق ذلك ـ في ضابط صغير. وسمع ما يقوله الآخر: الظلم مريع، فأي مليونير يملك من المال أكثر مما يملكه مليون من الفقراء، وكلاب الأغنياء تأكل أفضل من هنود سلسلة الجبال، ولا بد من القضاء على هذا الظلم، لا بد من استنهاض الشعب. الاستيلاء على الإقطاعيات، احتلال الثكنات، تثوير القوات المسلحة التي هي جزء من الشعب، شن الإضرابات،

إعادة تشكيل المجتمع من أعلاه إلى أسفله، إقرار العدالة. يا للحسد. ها هو ذا شاب نحيل، فتى طيب، حالم، ثرثار، بجناحي ملاك غير مرئيين، يظن أن الثورة هي مسألة نزاهة، مسألة شجاعة، مسألة سخاء، جرأة. إنه لا يشك، وربما لن يعرف أبداً أن الثورة هي صبر طويل، وروتين لانهائي، وبُخل رهيب، وإنها ألف تقشف وتقشف، وألف دناءة ودناءة، وألف وألف... ولكن هاهو ذا حساء الدجاج أيضاً وها هو فم مايتا قد امتلأ باللعاب لدى إحساسه برائحة البخار المتصاعد من الطبق الذي وضعته أليسي بين يديه.

وتتذكر دونيا خوسيفا:

ـ كم كنت أتكلف من الجهد، وكم من النفقات كذلك. بعد كل عيد ميلاد كنت أبقى مثقلة بالديون لزمن طويل. كانوا يكسرون أكواباً وكراسي وزهريات. ويطلع الصباح على البيت كأنه خارج من حرب أو زلزال. ولكنني كنت أتولى ذلك العمل كل سنة لأنه كان نظاماً في الحي. وكثير من الأقارب والأصدقاء لا يأتونني كل سنة إلا في هذا اليوم. لقد كنتُ أقيم الحفلة من أجلهم أيضاً، لكي لا أغبنهم. فقد كان عيد ميلادي هنا في سوركييو مثل العيد الوطني أو مثل أعياد الميلاد. كل شيء تبدل، فالحياة الآن لم تعد تصلح للحفلات. الحفلة الأخيرة كانت في السنة التي سافرتْ فيها أليسيا وزوجها إلى فنزويلا. أما الآن، فإنني أشاهد التلفزيون قليلاً في أعياد ميلادي ثم أنام.

تلقي نظرة حزينة على الحجرة الخالية من الناس، وكأنها تعيد إلى هذه الكراسي والأركان والنوافذ أقرباءها وأصدقاءها الذين كانوا يأتون ليغنوا لها *Happy Birthday*، ويمتدحوا براعتها

فـي إعداد الطعـام، وتتنهـد. إنهـا تبـدو الآن فــي الـسبعين فعـلاً. هـل تعرف إذا كان هناك أحد، من الأقارب، يحتفظ بدفاتر ملاحظات مايتا ومقالاته؟ فـيعود ارتيابها من جديد، وتهمس وهـي تكشر:

ـ أي أقارب؟ القريـب الوحيـد لمايتـا هـو أنـا، وهـو لم يُحضر إلى هنـا ولـو علبـة ثقـاب، لأنهـم كلمـا لاحقـوه، يكـون هـذا هـو أول مكان تأتي الشرطة لتفتشه. ثم إنني لم أعرف قط أنه كاتب أو أي شيء من هذا القبيل.

بلى، كان يكتب، وأنا نفسي قرأت أحياناً بعض مقالاته فـي تلك الجرائد ـ أو النشرات بكلمة أدق ـ التي كان يساهم فـيها، وهي الجرائد التي كان هو نفسه يُصدرها بالطبع، والتي لم يبق لهـا أي أثـر لا فــي المكتبـة الوطنيـة ولا فــي أي مجموعـة خاصـة. ولكـن مـن الطبيعـي ألا يكـون لـدى دونيـا خوسـيفا أي علم بوجـود **صوت العمال** أو أي نشرات أخرى، مثلما هي حال معظم الناس فـي هـذه الـبلاد، وخاصـة أولئـك الـذين كانـت تُكتـب تلـك النـشرات وتُطبـع مـن أجلهم. ومـن جهـة أخـرى، دونيـا خوسـيفا محقـة: فهـو لم يكن كاتباً ولا أي شيء من هذا القبيل. ولكنها مهما تضايقت، فإنه لا يمكـن القـول إنـه لم يكـن مثقفاً. ومازلـت أتـذكر القـسوة الـتي حـدثني بهـا عـن المثقفـين، فــي محادثتنـا الأخيرة، فــي سـاحة سان مارتين. فهم لا ينفعون في أي شيء مهم حسب رأيه، وقد حدد كلامه قائلاً:

ــ أعـني مثقفـي هـذه الـبلاد علـى الأقـل. فهـم سـرعان مـا ينبطحون، وليست لديهم قناعات راسخة. أخلاقهم تكاد لا تساوي إلا قيمة تذكرة سفر بالطائرة إلى مؤتمرٍ للشباب، أو للسلام، الخ.

ولهذا فإن من لا يبيعون أنفسهم إلى المنح اليانكية وإلى المؤتمر من أجل حرية الثقافة، يقبلون الرشوة من جانب الستالينية ويتحولون إلى فجل.

لاحظَ مايتا أن بايبخوس قد فوجئ بما قاله، وباللهجة التي قاله بها، فكان ينظر إليه بثبات والملعقة متوقفة في منتصف الطريق إلى فمه. لقد شوشه، بل وأثار ذعره بطريقة ما. سيئ ما فعلته يا مايتا، سيئ جداً. لماذا يستسلم دائماً للنزق والتهور كلما دار الحديث عن المثقفين؟ وما الذي كانه ليون دافيدوفيتش؟ وهو ما كانه أيضاً، وبعبقرية، فلاديمير إيلتش. ولكنهما كانا ثوريين أولاً وقبل أي شيء. ألست تتحامل على المثقفين بحقد، لأنهم جميعهم في البيرو رجعيون أو ستالينيون وليس بينهم تروتسكي واحد؟

ـ الشيء الوحيد الذي أردت قوله هو أنه يجب عدم الاعتماد كثيراً على المثقفين في الثورة ـ حاول مايتا أن يصلح الأمور، رافعاً صوته كي يكون مسموعاً وسط صخب أغنية *الزنجية توماسا* ـ يجب ألا يكونوا في الموقع الأول على أي حال. فالعمال في المكان الأول، ويليهم الفلاحون. أما المثقفون ففي النهاية.

فرد بايبخوس:

ـ وماذا عن فيدل كاسترو وأعضاء حركة 26 تموز الذين في الجبال في كوبا، أليسوا مثقفين؟

ـ ربما كانوا كذلك ـ وافق مايتا ـ. ولكن هذه الثورة مازالت فجة. وهي ليست ثورة اشتراكية، وإنما برجوازية صغيرة. وهما أمران مختلفان.

ظل الملازم ينظر إليه مذهولاً:

ـ أنت تفكر على الأقل في هذه الأمور ـ ثم استعاد تماسكه وابتسامته ما بين ملاعق الحساء، وأضاف: ـ أنت لا تمل على الأقل من الحديث عن الثورة.

ـ لا، لا أمل. بل على العكس ـ ابتسم مايتا.

هو لم "ينبطح" على الإطلاق... زميلي مايتا. من الانطباعات الغامضة التي خلّفتها لدي عنه تلك اللقاءات السريعة التي جرت بيننا على امتداد سنوات، هناك انطباع من أكثرها بروزاً أحتفظ به، هو الزهد الذي يفوح من شخصه، من ملابسه، من إيماءاته. لقد كان هناك شيء من الزهد حتى في طريقته في الجلوس في مقهى، وفي تفحص قائمة الطعام، وفي طلب شيء من الجرسون، وحتى في تقبله سيجارة تُقدم إليه. وكان هذا هو ما يضفي القوة، وهالة من الاحترام على تأكيداته السياسية، مهما بدت لي هذيانية، ومهما بدا يتيماً من الأتباع. في المرة الأخيرة التي رأيته فيها، قبل أسابيع من الحفلة التي تعرف فيها على باييخوس، كان قد تجاوز الأربعين من العمر، أمضى عشرين سنة منها على الأقل في النضال. ومهما جرى البحث والتقليب في حياته، فإنه لا يمكن حتى لأشد أعدائه قسوة أن يتهموه بأنه قد استفاد، ولو مرة واحدة، من السياسة. بل على العكس، فالغالب في مسيرته هو أنه كان يوفر على الدوام، ببداهة منزهة، كل الخطوات اللازمة ليمضي نحو الأسوأ، وليجلب لنفسه المشاكل والتعقيدات. لقد قال لي عنه يوماً أحد أصدقائنا المشتركين: «إنه انتحاري. ليس منتحراً، وإنما انتحاري. إنه شخص يحب أن يقتل نفسه ببطء.»

الكلمة تطلق شرراً فـي رأسي، إنها غير متوقعة، طريفة، مثل ذلك الفعل الانعكاسـي الـذي لا ريب لـدي فـي أنـني سمعتـه فـي تلـك المرة، أثناء هجومه التشهيري ضد المثقفـين.

ـ لماذا تضحك؟

ـ من الفعل "انبطح". من أين جئت به.

فابتسم مايتا:

ـ ربما أكـون قد ابتدعته للتو. حسن، ربما كـان هنـاك فعل أفـضل منـه. استـسلم، تنـازل، خـضع. ولكنـك تـدرك مـا أعنيـه. امتيازات صغيرة تنسف الأخلاق. رحلة صغيرة، منحة دراسية، أو أي شيء يستميل الغرور. الإمبريالية مُعلِّم فـي نـصب مثل هـذه الشِراك. والستالينية كذلك. لا يمكن لعامل أو فلاح أن يسقطا بسهولة فـي هـذا الفـخ. أمـا المثقفـون فـيتعلقون بالرَضّـاعة مـا إن يرونهـا أمـام أفواههم. وبعد ذلك يبتدعون نظريات لتبرير سقوطهم.

قلت لـه إن مـا يقولـه يكـاد يكـون اقتباسـاً مـن آرثـر كوسـتلر الـذي قـال إن «هـؤلاء المعتـوهين البـارعين» قـادرون علـى التبـشير بحيادية الطاعون الدَّبلي، ذلك أنهم أتقنوا الفن الشيطاني المتمثل فـي القـدرة علـى إثبـات كـل مـا يؤمنـون بـه والإيمـان بكـل مـا يمكنهم إثباته. وكنت أنتظر منه أن يرد بأنه من المعيب الاستشهاد بعميل معـروف للـ CIA مثل السيد كوسـتلر، ولكنني فوجئت بـه يقول:

ـ كوسـتلر؟ آه، أجـل. لـيس هنـاك مـن قـدم وصـفاً أفـضل منـه للإرهاب النفسي الستاليني.

قلت له مستفزاً:

ـ حـذار، فهـذا الطريـق يوصـلك إلى واشـنطن وإلى المنافـسة الاقتصادية الحرة.

ـ أنـت مخطئ ـ قـال ـ. هـذا الطريـق يؤدي إلى الثـورة المستمرة وإلى ليون دافيدوفـيتش، أو تروتسكي كما يدعوه الأصدقاء.

ـ ومن يكون تروتسكي؟ ـ قال باييخوس.

ـ ثوري ـ أوضح له مايتا ـ. لقد مات. إنه مفكر عظيم.

فألمح الملازم بخجل:

ـ أهو بيرويّ؟

ـ بل روسي ـ قال مايتا ـ مات فـي مكسيكو.

وقالت ثويليتا:

ـ يكفـي حديثاً فـي السياسة وإلا سأطردكما. تعال يا ابن خالتي، فأنت لم ترقص رقصة واحدة. تعال، تعال وارقص معي هـذا الفالس.

وصرخت أليسي طالبة النجدة من بين ذراعي بيبوتي:

ـ ارقصوا، ارقصوا.

فقال باييخوس:

ـ ومع من سأرقص؟ لقد فقدتُ رفيقتي.

ـ معي ـ قالت له أليسيا وهي تسحبه للرقص.

وجد مايتا نفسه فـي منتصف الصالة محاولاً أن يتابع إيقاعات لحـن *Lucy Smith*، الـذي كانـت ثويليتـا تـترنم بكلماتـه بظـرف شـديد. وحـاول كـذلك أن يغـني، وأن يبتـسم، بينمـا كـان يـشعر بتشنج عضلاته وبخجـل شـديد مـن أن يـرى المـلازم رقصه السيئ. لا بـد أن الـصالة لم تـتغير كـثيراً منـذ ذلـك الحـين؛ وباسـتثناء التلـف

الطبيعي بفعل التقادم، فإن هذه المفروشات لا بد أن تكون هي نفسها التي كانت موجودة في تلك الليلة. ليس من الصعب تصور الحجرة ممتلئة بالناس، وبالدخان، وبرائحة البيرة، والعرق على الوجوه، والموسيقى الصاخبة، بل واكتشافهما مبتعدين جانباً في هذا الركن، بجانب الزهرية ذات الأزهار الشمعية، مستغرقين في تلك المحادثة حول الموضوع المهم بالنسبة لمايتا - الثورة - وهي محادثة استمرت حتى الفجر. المشهد الخارجي ـ الوجوه، الحركات، الملابس، الأدوات ـ ماثل هنا، ومرئي تماماً. ولكنّ غير المرئي بالمقابل هو ما جرى في أعماق مايتا والملازم الشاب خلال تلك الساعات. هل انبثق منذ اللحظة الأولى تيار من التعاطف المتبادل بينهما: تآلف، حدس متبادل للقاسم المشترك الذي يجمع بينهما؟ ربما هناك صداقات من النظرة الأولى أكثر من الغراميات من النظرة الأولى. أم أن العلاقة بينهما كانت، منذ البداية، سياسية وحسب، تحالف رجلين مشغولين بقضية مشتركة؟ ولكنهما تعارفا هنا على أي حال، وهنا بالذات بدأ بينهما الحدث الأكبر أهمية في حياتيهما ـ دون أن يكون بمقدورهما، في فوضى الحفلة، أن يدركا ذلك.

ترجوني دونيا خوسيفا اريسوينيو:

- إذا كتبت شيئاً، فلا تذكر اسمي بأي حال. أو بدّل الاسم على الأقل، وخاصة عنوان البيت. صحيح أن سنوات كثيرة قد انقضت، ولكن لا أحد يعرف ما الذي يمكن أن يحدث في هذه البلاد. إلى اللقاء.

وقال له بابيخوس:

ـ آمل أن نلتقي. سنواصل الحديث في يوم ما. ويجب أن أشكرك، لأنني تعلمت منك أشياء كثيرة.

ـ إلى اللقاء يا سيدتي ـ مددتُ يدي إليها وشكرتها على صبرها.

إنني عائد إلى بارانكو مشياً على الأقدام، وبينما أنا أجتاز ميرافلوريس تتلاشى الحفلة من ذهني، دون أن أشعر، وأكتشف أنني أستعيد ذكرى ذلك الإضراب عن الطعام الذي أقدم عليه مايتا، حين كان في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره، لكي يتماثل مع الفقراء. فمن كل الحديث الذي أجريته مع خالته ـ عرابته، كان طبق حساء الظهيرة ذاك، وكسرة الخبز الليلية اللذان كانا غذاءه طوال ثلاثة أشهر، هما الصورة الغالبة: إنها صور نقية، طفولية، نبوئية، تمحو كل ما عداها.

ـ إلى اللقاء ـ قال له مايتا موافقاً ـ أجل، بالطبع، سنواصل أحاديثنا.

الفصل الثاني

يقوم مقر مركز العمل من أجل التطوير في شارع باردو، في حي ميرافلوريس، وهو أحد بيوت قليلة مازالت صامدة أمام تقدم العمارات التي راحت تحل، واحدة بعد أخرى، محل منازل الآجر والخشب المحاطة بحدائق تمنح فيها رؤوس أشجار الفيكو ظلاً وحفيف أوراق ولغط عصافير دوري، هذه الأشجار التي كانت سيدة الشارع تحولت الآن إلى أقزام ضئيلة أمام ناطحات السحاب. حُسنُ ذوقِ موسيس ـ أو "الدكتور" موسيس باربي لييفا، كما ذكّرتني سكرتيرة المدخل ـ ملأ البيت بقطع أثاث من الطراز الاستعماري، تتوافق مع هندسة البناء، وهو واحد من تلك المباني التي كانت تحاكي في الأربعينيات الطراز المعماري لعصر نواب الملك ـ شرفات بمشربيات، أفناء اشبيلية، أقواس موريسكية، نوافير من القيشاني ـ والتي لا تخلو من فتنة. البيت يلمع، وثُلاحظ حركة نشطة في الحجرات المطلة على الحديقة المشذبة والمروية جيداً. هناك حارسان مسلحان بالبنادق يتمشيان في بهو المدخل، وقد فتشاني عند الدخول ليتأكدا من أنني لا أحمل سلاحاً. وبينما أنا أنتظر موسيس، رحت أتفحص مطبوعات المركز الأخيرة المعروضة في خزانة زجاجية مضاءة بمصابيح نيون. دراسات اقتصادية، وإحصائية، واجتماعية، وسياسية، وتاريخية، كتب

جيدة الطباعة ذات أغلفة متينة مزينة بشعار يمثل طائراً بحرياً خرافياً. موسيس باربي ليبفا هو العمود الفقري لمركز **العمل من أجل التطوير** الذي يعتبر أحد أنشط المؤسسات الثقافية في البلاد، وذلك بفضل مهارة موسيس التوفيقية، وظرافته الشخصية وقدرته العجيبة على العمل. ولكن ما هو أكثر استثنائية في موسيس، أكثر من إرادته الإعصارية ومن تفاؤله المُجرب بالرصاص، هو مهارته التوفيقية، وهذا علم ضد هيغلي يتلخص في مصالحة الأضداد، وفي جعل الكلب والفأر والقط يأكلان من طبق واحد مثلما فعل قديس ليما، سان مارتين دي بوريس. فبفضل عبقرية موسيس في الجمع بين النقائض، يتلقى المركز مساعداتٍ، ومنحاً دراسية، وقروضاً، من الرأسمالية ومن الشيوعية، من أشد الحكومات والهيئات محافظة ومن أكثرها ثورية، فواشنطن أو موسكو، بون أو هافانا، باريس أو بكين، جميعها على السواء تعتبر المركز مؤسسة لها، وهي مخطئة في ذلك بالطبع. فمركز **العمل من أجل التطوير** هو لموسيس باربي ليبفا ولن يكون لأحد سواه إلى أن يختفي من الوجود، ومن المؤكد أنه سيختفي من الوجود معه، لأنه ليس هناك في هذه البلاد من هو قادر على الحلول محله فيما يعمله.

لقد كان موسيس في أزمنة مايتا ثورياً يعمل في السرية؛ أما الآن فهو مثقف تقدمي. الملمح المركزي في حكمته هو أنه حافظ على نقاء صورته كرجل يساري، بل ورسخها بقدر ما كان المركز يزدهر، ويزدهر هو أيضاً مع المركز. وهكذا كان بمقدوره الحفاظ على علاقات ممتازة مع أشد الخصوم

الأيديولوجيين تبايناً، فقد استطاع إقامة علاقة جيدة مع كل الحكومات التي سيطرت على هذه البلاد خلال العشرين سنة الماضية دون أن يستسلم لأي منها. فبحاسة شم محكمة للجرعات والنِسب والأبعاد، كان يعرف كيف يُبطل أي التزام مبالغ فيه لإحدى الإدارات بتعويضات خطابية استعراضية للجهة المضادة. فحين أسمعه يتكلم في حفلة كوكتيل باندفاع عن نهب مواردنا على يد الشركات متعددة الجنسيات أو ضد التغلغل الثقافي للإمبريالية التي تُفسد ثقافتنا العالم ثالثية، أعرف أن مساهمات الأمريكيين في تمويل برامج المركز كانت أكبر من مساهمات خصومهم، وإذا ما لاحظته في معرضٍ أو حفلة موسيقية يتنبه فجأة إلى التدخل السوفييتي في أفغانستان، أو يتألم لقمع منظمة تضامن في بولونيا، فإنه يكون في هذه المرة قد حصل على مساعدة ما من البلدان الشرقية. بهذه المراوغات والحيل يستطيع أن يؤكد استقلاليته الأيديولوجية واستقلالية المؤسسة التي يديرها. جميع السياسيين البيرويين القادرين على قراءة كتاب ـ وهم غير كثيرين ـ يظنونه مستشارهم الفكري، وهم واثقون من أن المركز يعمل من أجلهم مباشرة، وهو أمر، بمعنى غامض، لا يخلو من الصحة. فقد كانت لدى موسيس الحكمة لجعلهم جميعاً يشعرون بأنه من المناسب لهم إقامة علاقات جيدة مع المؤسسة التي يديرها، ورغم كل شيء، فقد كان هذا الإحساس يتناسب والحقيقة، فاليمينيون يشعرون من خلال علاقتهم بالمركز بأنهم اصلاحيون، أواشتراكيون ديمقراطيون، بل واشتراكيون تقريباً؛ أما اليساريون، فإن العلاقة بالمركز تهذبهم وتهدئهم، وتضفي عليهم

شيئاً من المظهر التقني، أو البريق الثقافي؛ والعسكريون يقيمون علاقة بالمركز لكي يشعروا بأنهم مدنيون، ورجال الدين لكي يشعروا بأنهم علمانيون، والبرجوازيون يشعرون بأنهم بروليتاريون وأرضيون.

ولأن موسيس يحقق النجاح، فإنه يوقظ في النفوس حسداً قوياً، وهناك كثيرون يتكلمون عنه بالسوء ويسخرون من الكاديلاك التي بلون ثمالة النبيذ، والتي يتجول بها في الشوارع. وأسوأ الألسنة هي بالطبع ألسنة التقدميين الذين هم بفضل المركز - أي بفضله هو - يأكلون ويلبسون ويكتبون وينشرون ويسافرون إلى مؤتمرات، ويحصلون على منح، وينظمون ندوات ومحاضرات ويضخمون ملفهم كتقدميين. وهو يعرف الأشياء التي تقال عنه ولا يهتم بها، أو أنه يخفي اهتمامه إذا كان يهتم بها. نجاحه في الحياة وفي الحفاظ على صورته يعتمد على فلسفة لا تتبدل مطلقاً قيد أنملة: من الممكن أن يكون لموسيس باربي لييفا أعداء، ولكن موسيس باربي لييفا ليس عدواً لأحد من لحم وعظم، اللهم إلا تلك المسوخ المجردة ـ الإمبريالية، الإقطاع، العسكريتارية، الأوليغارشية، الـ CIA، إلى آخره - والتي تفيده في أهدافه تماما مثلما يفيده أصدقاؤه (وهؤلاء الأصدقاء هم بقية الإنسانية الحية).إن المتطرف الذي كانه مايتا قبل ثلاثين سنة، سيقول عنه دون شك، إنه الحالة التقليدية للمثقف الثوري الذي "انبطح"، وربما يكون قوله صحيحاً ودقيقاً. ولكن، هل يعترف مايتا بأنه على الرغم من كل الصفقات وكل التكلف الذي يمارسه موسيس باربي لييفا في هذا البلد الشيطاني الذي يعيش فيه، فإنه قد

توصل إلى تمكين عشرات المثقفين من العيش والعمل بدل أن يتكاسلوا في عالم جامعي محدود وفاسد بسبب الإحباط والمكائد، وإنه أتاح لعشرات غيرهم أن يسافروا، ويلتحقوا بدورات تخصص، ويبقوا على اتصال مثمر مع زملائهم في بقية أنحاء العالم؟ هل سيعترف مايتا بأن موسيس باربي ليفا، ورغم كونه "منبطحاً"، قد حقق، هو وحده، ما كان يجب أن تحققه وزارة التربية، أو معهد الثقافة أو أي جامعة من جامعات البيرو، ولم يفعله أي شخص أو هيئة أخرى؟ لا، لن يعترف بشيء من هذا. لأن هذه الأمور بالنسبة إلى مايتا هي ابتعاد عن المهمة الرئيسية، عن الواجب الوحيد لكل من له عين ترى وكرامة للعمل: النضال الثوري.

- مرحباً - ويمد لي موسيس يده.

- مرحباً يا رفيق - رد مايتا.

كان مايتا هو الشخص الثاني في المجيء، وهو أمر استثنائي، لأنه في كل اجتماع للجنة المركزية كان هو نفسه من يفتح كراج جادة ثوريتوس الذي يُستخدم مقراً لحزب العمال الثوري (ت). كل واحد من أعضاء اللجنة السبعة يملك مفتاحاً، وكل منهم يستخدم الكراج أحياناً لينام فيه، إذا لم يكن لديه سقف آخر، أو لإنجاز عمل ما. والجامعيان اللذان في اللجنة، أي الرفيق اناتوليو والرفيق ميداردو، يحضّران هنا لامتحاناتهما.

فوجئ الرفيق ميداردو:

- لقد سبقتك في المجيء اليوم. يا للمعجزة.

- الليلة الماضية كنت في حفلة ونمت متأخراً جداً.

- أنت، في حفلة؟ - ضحك ارفيق ميداردو - هذه معجزة أخرى.

ـ أمر مشوق ـ أوضح مايتا ـ. ولكن ليس ما تفكر فيه. سأُطلع الآن بالذات اللجنة المركزية على كل شيء.

لم يكن هناك خارج الكراج ما يشير إلى نوعية النشاطات التي تجري في الداخل، أما في المكان فكان هناك ملصق معلق على الجدار عليه الوجوه الثلاثة الملتحية: ماركس ولينين وتروتسكي، أحضره الرفيق خاثينتو من اجتماع للمنظمات التروتسكية في مونتيفيديو. وإلى جانب الجدار توجد رزم ملقاة بإهمال من صوت العمال ونشرات وبيانات ودعوات للإضراب أو استنكارات لم يتمكنوا من توزيعها. وكان هناك كرسيان منزوعا السطح ومقاعد بثلاث قوائم تبدو وكأنها مقاعد حلاّبة أو روحانيين. وعدة فرشات مكومة فوق بعضها البعض ومغطاة بملاءة، تستخدم كمقعد للجلوس أيضاً عند الحاجة. وعلى رف من آجر وألواح خشبية تقبع بعض الكتب المغطاة بغبار كلسي، وفي أحد الأركان يوجد هيكل دراجة ثلاثية العجلات بلا عجلات. وقد كان مقر حزب العمال الثوري (ت) ضيقاً إلى حد أن حضور ثلث أعضاء اللجنة المركزية يعطي الانطباع باكتمال النصاب.

ـ أتقول مايتا؟ ـ تراجع موسيس إلى الوراء في كرسيه الهزاز وتفحصني غير مصدق.

فقلت له:

ـ أجل، مايتا. هل تتذكره؟

استعاد رصانته وابتسامته.

ـ طبعاً، وكيف لا أتذكره. ولكن الأمر يثير اهتمامي. فمن في البيرو يتذكر اليوم مايتا.

ـ أنـاس قليلـون. ولهـذا ، فـإنني أحـاول أن أعتـصر ذاكـرة القلـة الذين يتذكرون.

أعرف أنه سيساعدني، لأن موسيس رجل خدوم، وهـو مـستعد على الدوام لمد يد العون إلى الجميع، ولكنني ألاحظ كذلك أنه لا بـد لـه قبـل ذلـك مـن كـسر حـاجز الحـذر النفـسي، وإظهـار بعـض العنـف، لأنـه هـو ومايتـا كانـا قـريبين جداً أحـدهما مـن الآخـر، وكانا دون شك صديقين حميمين. هل يزعجه تذكـر الرفـيق مايتـا فـي هذا المكتب المتلئ بكتب مجلدة، وبخريطـة للبيرو القديمـة على رق من الجلد وخزانة زجاجية فـيها قطـع خزفـية أثرية بأوضـاع فاحشة؟ أيجعله ذلك يشعر بأنـه فـي وضـع زائف بعـض الشيء وهـو يضطر إلى العودة للحديث عن تلك الأعمال والأوهام التي تقاسماها هو ومايتا؟ ربمـا. فأنـا نفـسي الـذي لم أكـن رفـيقاً سياسـياً لمايتـا، يسبب لي تذكّره بعض الكـدر، فكيـف الأمـر بالنـسبة إلى مـدير مركز العمل من أجل التطوير...

ـ إنـه شـخص طيـب ـ يقـول ذلـك بحـذر، وهـو ينظـر إلـيّ فـي الوقت نفسه راغبـاً فـي أن يكتشف، بـأكثر الطـرق سـرية، رأيـي الشخصي بمايتا ـ . مثـالي، طيـب النوايـا. ولكنـه سـاذج، حـالم. أنـا أشـعر علـى الأقـل بـأن ضـميري نظيـف فـيما يتعلـق بكارثـة خاوخـا تلـك. لقـد حذرتـه مـن التهـور الجنـوني الـذي سـيُورط نفـسه فـيه، وحاولت أن أجعله يتروى. ولكنني كنت أضيع وقتي بـالطبع، فقـد كان بغلاً عنيداً.

ـ إنني أحاول أن أعيد بناء بداياته السياسية ـ قلت له موضحاً ـ. لست أعرف الكثير، اللهم إلا أنه وهو فتي جداً، عنـد الانتهاء من

المدرسة أو في السنة التي أمضاها في جامعة سان ماركوس، صار أبريستا. وبعد ذلك...

فيقول موسيس:

ـ بعد ذلك صار كل شيء، هذه هي الحقيقة. أبريستا، شيوعي، انفصالي، تروتسكي. كل الطوائف والمذاهب. وهو لم يتنقل إلى غيرها لأنه لم يكن هناك المزيد حينذاك. لديه الآن احتمالات أكثر. إننا نقوم هنا في المركز الآن بإعداد جدول بكل الأحزاب، والجماعات، والتحالفات، والفصائل، والجبهات اليسارية الموجودة في البيرو. كم تقدر عددها؟ إنها أكثر من ثلاثين.

يخبط على المنضدة ويتخذ مظهر المتأمل. ثم يضيف فجأة بجدية كبيرة:

ـ ولكن يجب الاعتراف بشيء. ففي كل تلك التبدلات التي مرّ بها مايتا، لم يكن هناك أدنى ذرة من الانتهازية. ربما كان متقلباً، طائشاً، وكل ما تشاء، ولكنه كان أيضاً أكثر الناس نزاهة في العالم. سأقول لك شيئاً آخر. لقد كان لديه ميل إلى التدمير الذاتي.. إلى الهرطقة، شيء من شخصية المتمرد العضوي. ما إن يدخل في أمر حتى يبدأ بخلاف وينتهي إلى النشاط الانشقاقي. لقد كانت النزعة التي تفوق فيه كل النزعات الأخرى هي الخلاف. يا للرفيق مايتا المسكين! أي مصير تعس انتهى إليه، أليس كذلك؟

ـ فُتحت الجلسة ـ قال ذلك الرفيق خاثينتو. وهو أمين عام ح ع ث (ت) والأكبر سناً بين الخمسة الحاضرين. كان هناك عضوان غائبان: الرفيق باياردي والرفيق كارلوس. وبعد أن انتظروهما

نصف ساعة، قرروا بدء الاجتماع من دونهما. قدم الرفيق خاثينتو، بصوت مبحوح، ملخصاً للاجتماع الأخير الذي عُقد قبل ثلاثة أسابيع. لم يكن لديهم سجل لمحاضر الجلسات، على سبيل الحيطة، ولكن الأمين العام كان يسجل في دفتر صغير الموضوعات الرئيسية لكل مناظرة وها هو الآن يراجع دفتره ـ إنه يجعد عينيه كثيراً ـ بينما هو يتكلم. كم يبلغ عمر الرفيق خاثينتو؟ ستون سنة، وربما أكثر. إنه تشولو[1]، قوي ومنتصب القامة، له غرة من الشعر فوق الجبهة ومظهر رياضي يبديه أكثر شباباً، لقد كان لُقية أثرية في المنظمة، ذلك أنه عاش تاريخها منذ تلك الاجتماعات، في بداية الأربعينات، في بيت الشاعر رافائيل ميندييث دوريتش، حين وصلت الأفكار التروتسكية إلى البيرو على يد بعض السورياليين العائدين من باريس من أمثال ويستفالين، وابريل دي بيبيرو، ومورو. وقد كان الرفيق خاثينتو أحد أول المؤسسين لأول منظمة تروتسكية، **الجماعة العمالية الماركسية**، في عام 1946، وهي بذرة ح ع ث؛ وفي شركة الأسمدة المغفلة (فيرتيسا)، حيث كان يعمل قبل عشرين سنة، كان عضواً على الدوام ـ بأغلبية ضئيلة ـ في القيادة النقابية، على الرغم من عداء الأبريستا وجماعة الفجل. لماذا بقي معهم بدل أن يذهب مع جماعات أخرى؟ لقد كان مايتا سعيداً جداً بذلك، ولكنه لم يكن يفهم السبب. فكل الحرس التروتسكي القديم، جميع معاصري الرفيق خاثينتو بقوا في ح ع ث. فلماذا جاء هو بالمقابل إلى ح ع ث (ت)؟

---

[1] ـ تشولو Cholo : هجين من أب أبيض وأم هندية.

ألكي لا يبتعد عن الشباب؟ لا بد أن هذا هو السبب، فمايتا لا يبدو مرتاباً بأن الرفيق خاثينتو مهتم كثيراً بالمناظرة التروتسكية الدولية ما بين «البابلويين» و«المناهضين للبابلوية».

قال الأمين العام:

ـ مسألة صوت العمال هي المسألة الأشد إلحاحاً.

ويقول لي موسيس:

ـ طفولة يسارية. افتتان بالخلاف، لست أدري ما أسمي ذلك. مرض التطرف اليساري. المضي أبعد في الثورية، أبعد في اليسارية، أبعد في الجذرية... كان هذا هو موقف مايتا طوال حياته. فحين كنا في الشبيبة الأبريستا، وكنا صبيين صغيرين، وكان حزب الأبرا في السرية، قدم لنا مانويل سيوناس بعض المحاضرات حول نظرية المكان ـ الزمان التاريخي لهايّا دي لا توري وحول دحضها للماركسية وتفوقها الجدلي عليها. واقتنع مايتا بالطبع بأنه لا بد لنا من دراسة الماركسية، لنعرف ما هو هذا الشيء الذي دحضناه وتجاوزناه. شكّل حلقة لذلك، وبعد بضعة شهور فرضت علينا قيادة الأبريستا عقوبة انضباطية. وهكذا انتهينا، دون أن ندري كيف، إلى التعاون مع الفجليين. وكانت النتيجة هي تعميدنا شيوعيين.

يضحكُ وأضحك أنا أيضاً. ولكننا لا نضحك للأسباب نفسها. فموسيس يضحك لألعاب الأطفال المسيسين باكراً، مثلما كان حاله هو ومايتا آنذاك، ويحاول بضحكته أن يقنعني بأنه لم تكن لكل ذلك أدنى أهمية، وأنها كانت مجرد حصبة أطفال، وأحداث طريفة ذهبت مع الريح. وأنا أضحك لصورتين فوتوغرافيتين

اكتشفت وجودهما لحظتئذ على مكتبه. صورتان تتقابلان وتتعادلان بتوازن، وكل منهما في إطار فضي: موسيس يصافح السيناتور روبرت كنيدي، أثناء زيارته للبيرو من أجل تشجيع **التحالف من أجل التقدم**، وموسيس إلى جانب الرئيس ماو تسي تونغ في بكين، مع وفد أمريكي لاتيني. وهو في الصورتين كلتيهما يبتسم بحيادية.

ـ فليقدم المسؤول تقريره ـ أضاف الرفيق خاثينتو.

وكان المسؤول عن *صوت العمال* هو مايتا نفسه. فهز رأسه ليبعد عنه صورة الملازم باييخوس الذي كان يلاحقه مع نعاس شديد منذ استيقظ صباح هذا اليوم دون أن ينال جسده سوى ثلاث ساعات من النوم. نهض واقفاً. وأخرج القصاصة الصغيرة التي تتضمن مخطط ما سيقوله.

ـ أجل أيها الرفاق، *صوت العمال* هي المسألة الأكثر إلحاحاً ويجب علينا حلها اليوم بالذات. ـ قال ذلك وهو يكبح تثاؤباً ـ الواقع أنهما مشكلتان، ويجب علينا أن نعالجهما منفصلتين. المشكلة الأولى هي التسمية، وقد نشأت هذه المشكلة من خروج الانقساميين. والثانية هي المشكلة الدائمة، التمويل.

جميعهم كانوا يعرفون ما الذي يعنيه، ولكن مايتا ذكر كل شيء بكثير من التفصيل. فقد علمته التجربة بأن هذا الإسهاب في عرض الموضوع يوفر الوقت فيما بعد، أثناء المناقشة. المسألة الأولى: هل عليهم أن يواصلوا إطلاق اسم *صوت العمال* مع إضافة (ت) إلى لسان حال الحزب؟ لأن الانقساميين قد أصدروا صحيفتهم باسم *صوت العمال*، مستخدمين الشكل نفسه، لكي يجعلوا الطبقة

العاملة تعتقد بأنهم هم من يمثلون استمرارية ح ع ث وبأن ح ع ث (ت) هو المنشق. إنها مناورة قذرة بالطبع. ولكن، لابد من مواجهة الأمر الواقع. فوجود حزبين باسم حزب **العمال الثوري** سيؤدي إلى بلبلة الشغيلة. ووجود صحيفتين باسم *صوت العمال*، حتى ولو حملت إحداهما حرف (ت) من تروتسكي، فإن ذلك سيزيد في البلبلة. ومن جهة أخرى، فإن كل مواد العدد الجديد كانت منضدة في مطبعة كوتشاراكاس، ولهذا لا بد من اتخاذ قرار الآن. هل نطبع الصحيفة باسم *صوت العمال(ت)* أم نغير الاسم؟ توقف لحظة، ريثما يشعل سيجارة، ليرى إذا ما كان الرفاق خاثينتو أو ميداردو أو أناتوليو أو خواكين سيقولون شيئاً. وبما أنهم بقوا صامتين، فقد واصل كلامه مطلقاً نفثة من الدخان:

ـ المشكلة الثانية هي عجز بمبلغ خمسمئة سول من أجل دفع تكاليف هذا العدد. لقد حذرني المشرف على المطبعة من أن التكاليف ستزداد مقدار عشرين بالمئة اعتباراً من العدد القادم لأن سعر الورق قد ارتفع.

كانت مطبعة كوتشاراس تتقاضى منهم مبلغ ألفي سول مقابل طباعة ألف نسخة، من ملزمتين، وكانوا يبيعون النسخة بثلاثة سولات. فإذا ما نفدت الطبعة، سيحصلون ـ نظرياً ـ على ألف سول أرباحاً. أما عملياً، فإن الأكشاك تتقاضى عمولة تبلغ خمسين بالمئة من سعر كل نسخة تباع، ولهذا ـ ولأنه لم تكن هناك إعلانات ـ فإنهم يخسرون خمسين سنتافو في كل نسخة. ولا تحقق ربحاً إلا تلك النسخ التي يبيعونها بأنفسهم عند أبواب المصانع والجامعات والنقابات. ولكن، مثلما تشهد هذه الرزم من الأعداد

المُصفرة التي تحيط بصورة محبطة للهمم بأعضاء اللجنة المركزية لـ ح ع ث (ت) في كراج جادة ثوريتوس، لم تنفد الألف نسخة كلها، اللهم إلا في مرات قليلة، وقد كان بين تلك النسخ الموزعة جزء لا بأس به غير مبيع، وإنما مهدى. لقد كانت صوت العمال خاسرة دائماً. ولا بد أن الوضع سيسوء الآن، بعد الانشقاق.

حاول مايتا أن يبتسم ابتسامة مشجعة:

ـ ليست نهاية العالم أيها الرفاق. لا تُظهروا هذه الوجوه الكئيبة. فمن الأفضل أن نجد حلاً ما.

ـ لقد طردوه من الحزب الشيوعي عندما كان في السجن، هذا إذا لم تخني الذاكرة ـ يقول موسيس متذكراً ـ ولكنها ربما تخونني، إنني أضيع مع كل تلك الانقسامات والمصالحات.

وأسأله:

ـ هل بقي طويلاً في الحزب الشيوعي؟ أعني هل بقيتما؟

ـ بقينا ولم نبق، فهذا يعتمد على النقطة التي تنظر منها. فنحن لم ننضم إلى عضوية الحزب مطلقاً ولم نحصل على بطاقة العضوية. ولكن أحداً لم يكن يملك بطاقة عضوية في ذلك الحين. فقد كان الحزب غير شرعي وكان صغيراً جداً. كنا نصيرين أكثر منا عضوين عاملين. وفي السجن، بدأ مايتا بروحه الخصامية، يشعر بتعاطفات هرطوقية. وأخذنا نقرأ تروتسكي، وكنتُ منقاداً له. وكان التروتسكيون يقدمون في باحة السجن محاضرات للسجناء عن السلطة المزدوجة، والثورة الدائمة، وعن جمود الستالينية. وفي أحد الأيام جاءه خبر بأن الفجليين قد فصلوه، متهمينه بالتطرف اليساري، والتحريفية، والاستفزاز،

والتروتسكية، إلى آخره. وبعد وقت قصير من ذلك خرجتُ منفياً إلى الأرجنتين. وحين رجعتُ، كان مايتا قد صار عضواً في ح ع ث. ولكن، ألا تشعر بالجوع؟ هلم بنا إذن لتناول الغداء.

كانت ظهيرة صيفية رائعة، بشمس بيضاء وعمودية تُبهج البيوت والناس والأشجار، حين خرجنا في سيارة موسيس الكاديلاك اللامعة التي بلون ثمالة النبيذ إلى شوارع ميرافلوريس المزدحمة أكثر من الأيام الأخرى بالدوريات الشرطية وسيارات الجيب العسكرية المحملة بجنود يعتمرون الخوذ. هنالك مدفع رشاش عند مدخل الطريق المحوري، محمي بأكياس رمل، تحت إشراف مشاة البحرية. لدى مرورنا أمام الموقع كان الضابط الذي يقوده يتكلم في جهاز لاسلكي نقال. ويقول موسيس: في يوم كهذا من المناسب تناول الطعام قرب البحر. أنذهب إلى **الشاطئ الأخضر** أم إلى **السويسري ذي النعل**؟ مطعم الشاطئ الأخضر أقرب ومحمي أكثر من الهجمات المحتملة. وفي الطريق، تحدثنا عن ح ع ث خلال السنوات الأخيرة من دكتاتورية أودريا، 1955 و1956، حين كان المعتقلون السياسيون يخرجون من السجن والمنفيون يرجعون إلى البلاد.

قال موسيس:

- بيني وبينك، لقد كانت مسألة ح ع ث تلك مجرد مزحة. إنها مزحة جدية بالطبع بالنسبة لمن كرسوا لها حياتهم وانتهوا إلى الدمار. ومزحة مأساوية لمن أجبروا على القتل. ومزحة سمجة لمن نشفوا رؤوسهم بمنشورات استمنائية ومجادلات قاحلة. ولكنها، من أي جانب نظرت إليها، تبقى مزحة لا رأس لها ولا أساس.

لقد تحقق ما كنا نخشاه. فالشاطئ الأخضر يغص بالزبائن. فتشَنا موظفو أمن المطعم قبل أن ندخل وترك موسيس مسدسه مع الحراس. وقد أعطوه إشعاراً أصفر اللون. وبينما كنا ننتظر أن تخلو إحدى الطاولات، أجلسونا تحت مظلة من القش، ملاصقة لكاسر الأمواج. ورحنا نشرب كأساً من البيرة الباردة، ونرى اصطدام الأمواج ونشعر برذاذ البحر على وجوهنا.

- كم كان عددكم في ح ع ث في زمن مايتا؟ - سألته.

غرق موسيس في التفكير وشرب رشفة كبيرة خلفت له كمامة من الرغوة. مسح فمه بمنديل ورقي. هز رأسه، مع ابتسامة ساخرة كانت تطفو على وجهه، ودمدم:

- لم يتجاوز العدد العشرين شخصاً على الإطلاق- إنه يتكلم بصوت منخفض جداً إلى حد أنه يتوجب عليّ أن أُدني رأسي منه كي لا أضيع ما يقوله: - كان هذا العدد هو الذروة. وقد احتفلنا بذلك في حانة صغيرة. فقد صرنا عشرين. بعد ذلك بقليل جاء الانشقاق. «بابلويون» و«مناهضون للبابلوية». ألا تتذكر الرفيق ميكائيل بابلو؟ صار هناك ح ع ث من جهة و ح ع ث (ت) من جهة أخرى. هل كنا نحن «بابلويين» أم مناهضين؟ أقسم لك بأنني لم أعد أتذكر. كان مايتا هو الذي يورطنا في هذه الحيل الأيديولوجية. أجل، لقد تذكرت، لقد كنا «بابلويين» وهم كانوا مناهضين. نحن سبعة وهم ثلاثة عشر. وقد احتفظوا بالاسم وكان علينا أن نضيف (ت) إلى اسم حزب **العمال الثوري**. ولم يزدد عدد أعضاء أي من الفريقين بعد الانقسام، وهذا أمر أنا متأكد منه تماماً. وبقي الوضع على هذه الحال إلى أن وقعت قضية خاوخا.

عندئذ اختفى جماعة ح ع ث وبدأت قصة أخرى. لقد كان أمراً طيباً بالنسبة لي. فقد انتهيت منفياً في باريس، واستطعت أن أقدم أطروحتي وأن أهتم بأمور جدية.

- المواقف واضحة وسبل الجدال مستنفدة. ـ قال ذلك الرفيق اناتوليو.

- معك حق - زمجر الأمين العام ـ فلنصوت برفع الأيدي. من يؤيد؟

اقتراحُ مايتا ـ تعديل الاسم من صوت العمال (ت) إلى **صوت البروليتاريا** ـ رُفض بثلاثة أصوات مقابل صوتين. وكان صوت الرفيق خاثينتو هو الحاسم. وعلى حجة مايتا وخواكين ـ البلبلة التي يعنيها وجود صحيفتين بالاسم نفسه تهاجم كل منهما الأخرى ـ رد كل من ميداردو وأناتوليو بأن التبديل سيبدو كما لو أنه مصادقة على ادعاءات الخصوم، والموافقة على أنهم هم، جماعة ح ع ث، وليس نحن في ح ع ث (ت) من يحافظ على خط الحزب، ألا يكاد هذا أن يعادل مكافأة الخيانة؟ وحسب رأي ميداردو واناتوليو فإن تماثل الاسمين ـ وهي مشكلة عابرة ـ سيتضح في وعي الطبقة العاملة حين تتميز الفروق من خلال المقالات والافتتاحَيات والأخبار والعقيدة المتماسكة التي ستُثبت من هي الصحيفة الماركسية والمناهضة للبيروقراطية حقاً ومن هي المدعية. كانت المناقشة حامية، طويلة، وكان مايتا يفكر في كم كان الحديث أكثر متعة في اليوم السابق مع ذلك الشاب المثالي الأبله. وفكر: «لقد فقدت هذا الصوت بسبب الذهول، بسبب قلة النوم». ليس مهماً، إذا كان الإبقاء على الاسم سيسبب مزيداً من الصعوبات في توزيع *صوت العمال (ت)*، فسيكون بالإمكان طلب

إعادة النظر بالاتفاق، حين يكون أعضاء اللجنة المركزية السبعة حاضرين.

ـ هل أنت متأكد من أنكم كنتم سبعة فقط حين تعرف مايتا على الملازم باييخوس؟

ـ أنت تتذكر باييخوس أيضاً ـ ابتسم موسيس. وكان يتفحص قائمة الطعام ويطلب حساء فريديس ورزاً مع المحار. فقد تركتُ أمر اختيار ما سنأكله قائلاً له إن اقتصادياً منبطحاً مثله يستطيع عمل ذلك خيراً مني ـ. أجل سبعة. لست أذكر أسماء الجميع، ولكنني أذكر أسماءهم المستعارة. الرفيق خاثينتو، الرفيق أناتوليو، الرفيق خواكين... وأنا كنتُ آنذاك الرفيق مداردو. ألا ترى كم هزُلت قائمة مأكولات الشاطئ الأخضر منذ بدأ التقنين؟ إذاظلت الأمور على هذا المنوال فستغلق جميع مطاعم ليما أبوابها عما قريب.

لقد أجلسونا على طاولة في عمق المحل، لا يكاد يمكن لنا أن نلمح منها البحر الذي تخفيه رؤوس الزبائن: إنهم سائحون ورجال أعمال وعشاق وموظفو شركة يحتفلون بعيد ميلاد أحدهم. ولا بد أن هناك سياسياً أو رجل أعمال مهماً بين الزبائن، ذلك أنني كنت أرى، على طاولة قريبة، أربعة حراس شخصيين يرتدون ملابس مدنية، ويضعون مسدسات رشاشة على ركبهم. إنهم يشربون البيرة بصمت، ويمسحون المكان بعيونهم من جانب إلى آخر. وقد كانت ضجة الأحاديث، والضحكات، وقعقعة أدوات الطعام تطفئ صوت الأمواج وارتدادها.

ـ لقد وصل عددكم على أي حال إلى ثمانية أشخاص مع باييخوس ـ أقول له ـ. لقد خانتك ذاكرتك.

ـ بابيخوس لم ينضم قطّ إلى الحزب ـ يرد عليّ فوراً ــ. لكلمة حزب هذه رنة سخرية حين يكون عدد أعضائه سبعة فقط، أليس كذلك؟ هو لم يكن عضواً. ومن أجل تحديد أكثر دقة، أقول لك إنني لم أر وجه بابيخوس على الإطلاق. والمرة الأولى التي رأيته فيها كانت عند ظهور صوره في الصحف.

إنه يتكلم بثقة مطلقة وعليّ أن أصدقه. ولماذا سيكذب عليّ؟ ولكنني كنت قد فوجئت أكثر على أي حال بعدد أعضاء ح ع ث (ت). كنت أتخيله حزباً صغيراً، ولكن ليس إلى هذا الحد المتدني. كنت قد أنشأت مشهداً من فرضيات تهاوت الآن متلاشية: مايتا يأتي ببابيخوس إلى الكراج في جادة ثوريتوس ليقدمه إلى رفاقه، ويضموه إلى الحزب كأمين للدفاع... ولكنّ هذا كله مجرد دخان.

بعد لحظة أوضح موسيس:

ــ ولكن، حين أقول سبعة أشخاص فإنني أعني سبعة محترفين. فقد كان هناك أيضاً المؤيدون. طلاب وعمال، كنا ننظم لهم حلقات دراسية. وكان لنا بعض التأثير كذلك على بعض النقابات. نقابة (فيرتيسا) مثلاً. وكذلك في مجال البناء المدني.

لقد أحضروا الحساء وبدا القريدس طازجاً وساخناً ويمكن الإحساس بلذعة الفلفل الحار فيه من رائحة الطبق. شربنا، أكلنا، وما كدنا ننتهي حتى عدت إلى الهجوم:

ـ أأنت متأكد من أنك لم ترَ بابيخوس مطلقاً؟

ـ الوحيد الذي كان يراه هو مايتا. خلال وقت لا بأس به على الأقل. وفيما بعد، تشكلت لجنة خاصة. **فريق العمل**. أظن أنه تشكل من أناتوليو ومايتا وخواكين. وهؤلاء رأوه، بضع مرات. أما

الآخرون فلم يروه مطلقاً. لقد كان عسكرياً، ألا تلاحظ ذلك؟ وما الذي كناه نحن؟ مجرد ثوريين سريين. وهو؟ ضابط! ملازم!

ـ ملازم؟ ـ وثب الرفيق أناتوليو في مقعده ـ أقلت ضابطاً؟

وقال الرفيق خواكين:

ـ لقد كلفوه باختراقنا. الأمر واضح جداً.

ـ كان هذا هو أول ما فكرت فيه بالطبع ـ وافقه مايتا ـ. فلنتروَ أيها الرفاق. هل هم مجانين؟ أتراهم يبعثون لاختراقنا ملازماً يتحدث عن الثورة الاشتراكية في حفلة؟ لقد استطعتُ استدراجه ليقول شيئاً ولم يكن يعرف أين هو واقف. لديه مشاعر طيبة، موقف ساذج، وهو شخص عاطفي، يتكلم عن الثورة دون أن يعرف ما الذي تعنيه الثورة. إنه بكرٌ أيديولوجياً. الثورة بالنسبة له هي فيدل كاسترو ورفاقه الملتحين الذين يطلقون الرصاص في سييرا مايسترا. إنه يشم في الأمر رائحة العدالة، ولكنه لا يعرف كيف يؤكل ذلك. إلى أي حد استطعت أن أجس نبضه.. ليس هناك ما هو أكثر من هذا الذي قلته.

كان قد جلس وصار يتكلم بشيء من الجزع، لأن السجائر كانت قد نفدت خلال الساعات الثلاث التي دامتها الجلسة، وكان يشعر بلهفة إلى التدخين. ولماذا يستبعد أن يكون الملازم ضابطاً في المخابرات مكلفاً بجمع معلومات عن ح ع ث (ت)؟ وماذا إذا كان كذلك؟ وما الغريب في لجوئهم إلى حيلة فجة؟ ألا ينضح رجال الشرطة والعسكريون والبرجوازيون في البيرو بالفجاجة؟ ولكن صورة الشاب النحيل المرحة والمتدفقة بخّرت من جديد شكوكه. وسمع الرفيق خاثينتو يؤيده:

ـ من الممكن أن يكونوا قد كلفوه باختراقنا. ولكننا في وضع أفضل منه لأننا نعرف على الأقل من يكون. يمكننا أخذ الاحتياطات اللازمة. وإذا سنحت لنا الفرصة لنخترقهم أيها الرفاق، فلن يكون من الثورية في شيء ترك الفرصة تفلت منا.

وهكذا عاد للظهور فجأة موضوع كان قد أثار مناقشات لا حصر لها في ح ع ث (ت). هل هناك قوة ثورية كامنة ضمن القوات المسلحة؟ وهل عليهم أن يضعوا ضمن أهدافهم التغلغل في الجيش، في البحرية، في الطيران، وتشكيل خلايا من الجنود والبحارة والطيارين؟ وهل عليهم توعية الجنود حول توافق مصالحهم مع مصالح البروليتاريا والفلاحين؟ أم أن توسيع الصراع الطبقي إلى عالم الجيش هو خدعة مضللة، لأنه على الرغم من اختلاف منابت العسكريين الطبقية، فإن روابط المؤسسة، وروح السلك العسكري، توحد الضباط والجنود في تواطؤ لا ينفصم؟ ندم مايتا لأنه أخبرهم بأمر الملازم. فهذا الأمر سيستمر ساعات. حلم بوضع قدميه المتورمتين في المغسلة المملوءة بالماء، لقد فعل ذلك هذا الصباح، لدى عودته من الحفلة في سوركييو، وهو سعيد لأنه ذهب لتقبيل خالته ـ عرابته. وقد غفا وقدماه مبللتان، وحلم بأنه يتنافس مع باييخوس في سباق، على شاطئ يمكن له أن يكون شاطئ أغوا دولثي، دون سباحين، عند الفجر. وكان هو قد تخلف في السباق، فراح الفتى يلتفت إليه مشجعاً وضاحكاً: «هيا، هيا، أم أنك أصبحت عجوزاً ولم يبق لديك نَفَس يا مايتا؟»

ويقول موسيس وهو يهجم على طبق الرز:

ـ كانت الاجتماعات تستمر لساعات وساعات. فمثلاً: هل

يتوجب على مايتا أن يواصل اللقاء مع بابيخوس أم عليه قطع العلاقة معه بسلام؟ هذا أمر لا يتقرر هكذا ببساطة، وإنما من خلال تحليل للظروف، والأسباب، والمؤثرات. كان علينا أن نستعرض عدة مقدمات للبرهنة: ثورة أكتوبر، علاقات القوى الاشتراكية والبيروقراطو ـ إمبريالية في العالم، وتطور النضال الطبقي في القارات الخمس، وإفقار البلدان الخاضعة للاستعمار الجديد، والمركزية الاحتكارية...

بدأ باسماً، ثم راحت ملامحة تتخلل. أعاد إلى الطبق الشوكةَ التي كان يحملها إلى فمه. قبل لحظة كان يأكل بشهية، ممتدحاً طاهي **الشاطئ الأخضر** ـ «إلى كم من الوقت سيكون بالإمكان تناول وجبات مثل هذه الوجبة في ظل هذه الأمور التي تحدث؟» ـ وفجأة، فقد شهيته. هل أثقلت عليه الذكريات التي يسترجعها ليقدم بذلك خدمة لي؟

ودمدم للمرة الثالثة في هذا الصباح:

ـ لقد قدم لي مايتا وبابيخوس خدمة عظيمة. فلولاهما لكنت ما أزال ضمن جماعة حزبية صغيرة، أحاول أن أبيع خمسين نسخة كل نصف شهر من نشرة، أعرف أن العمال لن يقرؤوها، وإذا ما قرؤوها فلن يفهموها.

يمسح فمه ويشير بيده إلى الجرسون ليرفع طبقه. ثم يضيف بمزاج مأتمي:

ـ عندما ظهرت مسألة بابيخوس كنت قد فقدت الإيمان بما كنا نفعله. إذ بدأتُ أدرك تماماً أن ذلك لن يؤدي إلى أي شيء، اللهم إلا عودتنا إلى السجن بين وقت وآخر، وإلى المنفى بين حين وآخر،

وإلى الإحباط السياسي والشخصي. ومع ذلك... فإن العطالة، القصور، أو أي شيء يمكن تسميته هكذا أو لا أدري كيف. خوف مرعب من الإحساس بأنك غير وفي، خائن في حق الرفاق، في حق الحزب، في حق نفسك بالذات. رعب من أن تَشطبَ دفعة واحدة ما كان يمثل ـ بكل سوئه ـ سنوات نضال وتضحية. لا بد أن الرهبان الذين يخلعون مسوحهم يعانون الشعور نفسه.

ينظر إلي كما لو أنه انتبه في هذه اللحظة بالذات إلى أنني مازلت معه.

ـ هل شعر مايتا يوماً بانهيار المعنويات؟ ـ أسأله.

ـ لست أدري، ربما كان غرانيتياً. ـ ويظل ساهماً للحظة ثم يهز كتفيه ويضيف: ـ أو ربما أحس بذلك، ولكن سراً. أفترضُ أننا جميعنا كنا نمر بنوبات صحو نرى فيها أننا في قاع البئر وليس لدينا سلّم للصعود. ولكننا لم نكن نعترف بذلك ولو أدى الأمر إلى موتنا. أجل، لقد قدم لي مايتا وباييخوس خدمة كبيرة.

ـ إنك تكرر هذا كثيراً وكأنك لاتصدقه. أو كأن الأمر لم يفدك كثيراً. ـ

ثم يؤكد بإيماءة نفور:

ـ لم يفدني كثيراً.

وبما أنني كنت أضحك وأسخر منه قائلاً له إنه واحد من قلة من المثقفين البيرويين الذين تمكنوا من الاستقلال، ومَنْ يمكن أن يقال عنه كذلك بأنه يحقق بعض الأشياء ويساعد زملاءه على تحقيق بعض الأشياء، فقد أوقفني بإيماءة ساخرة من يده. هل أعني مركز العمل من أجل التطوير؟ أجل، إنه يخدم البيرو، وهو دون

شك مساهمة أكبر من تلك التي قدمها إلى البلاد خلال عشرين سنة من نضاله الحزبي. أجل، وهو يفيد كذلك من يساعدهم المركز في نشر كتبهم، وفي الحصول على منح ويحررهم من ماخور الجامعة. أما هو فيشعر بالمقابل بأن المركز يُحبطه، ولكن بطريقة أخرى مختلفة عن إحباط ح ع ث (ت) بالطبع. لقد كان يريد ـ وينظر إليّ وهو يتكلم وكأنه يتساءل إذا ما كنتُ جديراً بهذا البوح ـ أن يكون واحداً منهم. أن يبحث، ويكتب، وينشر. إنه مشروع قديم طموح جداً، صار يعرف الآن أنه لن يستطيع تنفيذه. فهو يرغب في تأليف تاريخ اقتصادي للبيرو، يكون شاملاً ومفصلاً، منذ الثقافات ما قبل الإنكية وحتى أيامنا هذه. ولكن المشروع استُبعد، مثل كل المشاريع الأكاديمية الأخرى! إن الإبقاء على المركز حياً يعني أنه عليه أن يكون إدارياً، دبلوماسياً، دعائياً، وفوق كل ذلك بيروقراطياً طوال أربع وعشرين ساعة في اليوم. لا، بل طوال ثمان وعشرين ساعة، ثلاثين ساعة، لأن الأيام عنده تدوم ثلاثين ساعة.

ـ القضية لا تحتمل المزيد ـ اعترض الرفيق خواكين ـ. لا تحتمل المزيد. ألا تلاحظون ذلك؟

وفكر مايتا: فعلاً، لا تحتمل، ثم.. ما هي القضية المقصودة؟ فمنذ بعض الوقت، وبسبب الرفيق ميداردو الذي أدخل في النقاش مشاركة سوفيتات الجنود في الثورة الروسية، راحوا يتناقشون حول تمرد بحارة كرونستاد وسحقه. وحسب رأي ميداردو، فقد كان ذلك التمرد المناهض للاشتراكية في شباط 1921، دليلاً جيداً على تذبذب الوعي الطبقي لدى القوات العسكرية وعلى

خطورة المجازفة بالثقة بالقوة الثورية الكامنة لدى الجنود. ولكن الرفيق خاثينتو أحس بلسانه يلدغه، فرد بأنه بدل التكلم عن سلوكهم في 1921، كان يتوجب على ميداردو أن يتذكر ما فعله بحارة كرونستاد في 1905. أولم يكونوا أول من انتفض ضد القيصر؟ وفي عام 1917، ألم يسبقوا معظم المصانع في تشكيل سوفييتهم؟ وقد انحرف النقاش بعد ذلك حول موقف تروتسكي بشأن كرونستاد. وتذكر ميداردو وأناتوليو بأن تروتسكي في كتابه تاريخ **الثورة** وافق على قمع التمرد، باعتباره أهون الشرور، لأنه كان تمرداً معادياً للثورة موضوعياً، ويخدم الروس البيض والقوى الإمبريالية. ولكن مايتا كان متأكداً من أن تروتسكي قد صحح فيما بعد أطروحته هذه وأعلن أنه لم يتدخل في قمع البحارة، لأن قمع الانتفاضة كان عملاً اقتصر على لجنة بتروغراد التي يرأسها زينوفيف. بل انه كتب كذلك بأنه في إبادة البحارة المتمردين، خلال حكم لينين، تبدت السوابق الأولى للجرائم ضد البروليتارية التي اقترفتها البيروقراطية الستالينية. وأخيراً، بانقلاب مفاجئ، توقفت المناقشة حول إذا ما كانت مؤلفات تروتسكي قد تُرجمت بصورة دقيقة إلى الاسبانية.

قال مايتا مبدياً رأيه:

ـ لا أجد معنى لتصويتنا حول هذه المسألة. فلنتوصل إلى تراضٍ، ويمكننا مصالحة طروحات الجميع. إنني أعترف، بالرغم من ضعف هذا الاحتمال، بأنه يمكن لباييخوس أن يكون مكلفاً باختراقنا أو باقتراف عمل استفزازي. ومن جهة أخرى، مثلما قال الرفيق خاثينتو، يتوجب علينا ألا نبدد الفرصة المتاحة لنا بكسب

عسكري شاب إلى جانبنا. وإليكم اقتراحي: سأواصل الاتصال به، وأجس نبضه، وأرى إذا ما كانت ثمة طريقة لاجتذابه. دون أن أقدم إليه بالطبع أي معلومات حول الحزب. فإذا ما شممت شيئاً مريباً، أضع نقطة وأنهي العلاقة. وإذا لم أجد شيئاً من هذا، فسنرى ما الذي نفعله، حسب الوضع.

لقد وافقوا. إما لأنهم كانوا متعبين وإما لأنه كان أكثر إقناعاً. وحين رأى الرؤوس الأربعة تهتز موافقة، ابتهج: سأتمكن الآن من شراء السجائر والتدخين.

ويقول موسيس:

- إذا كانت لديه أزمات فإنه كان يتقن إخفاءها جيداً. وهذا أمر كنت أحسده عليه على الدوام: الثقة بما يفعله. ليس في ح ع ث (ت) فقط. وإنما قبل ذلك أيضاً، حين كان موسكوفي أو أبريستا.

- كيف توضح إذن كل تلك التقلبات. أكانت نتيجة قناعات أيديولوجية؟ أم لأسباب نفسية؟

فيصحح موسيس ما قلته:

- بل لأسباب أخلاقية. مع أن التحدث عن الأخلاق في قضية مايتا قد يبدو لك غير ملائم، أليس كذلك؟

يلمع في عينيه بريق خبيث. هل ينتظر تلميحاً صغيراً لكي يتحول إلى ناحية الأقاويل والنميمة؟

- ليس هناك ما يبدو لي غير ملائم على الإطلاق - أقول له مؤكداً - فقد كنت أرتاب على الدوام بأنه لابد لكل تحولات مايتا تلك من سبب عاطفي أو أخلاقي أكبر من الدافع الأيديولوجي.

- إنه البحث عن الكمال، عن النقاء - يبتسم موسيس - لقد

كان كاثوليكياً متديناً جداً في صغره. حتى إنه أضرب عن الطعام ليتعلم كيف يعيش الفقراء. هل تعرف هذا الأمر؟ ربما كان هناك أصل كل شيء. فعندما يسعى المرء إلى النقاء في السياسة، يصل إلى اللاواقعية.

ظل يراقبني لحظة وهو صامت، بينما الجرسون يقدم لنا القهوة. أناس كثيرون كانوا قد غادروا **الشاطئ الأخضر**، ومنهم الرجل المهم مع حراسه الشخصيين المسلحين بمسدسات رشاشة، وإضافة إلى أننا أخذنا نسمع من جديد صوت البحر، فقد بدأنا نرى، إلى جهة اليسار، بين حائل الأمواج في بارانكيتو، بعض المتزلجين على الماء ينتظرون الأمواج وهم جالسون على ألواح التزلج مثل فرسان. «عملية اغتيال من البحر هي أسهل ما يمكن تحقيقه هنا. فالشاطئ غير محروس. يجب تنبيه الإدارة إلى ذلك.»

يسألني موسيس بينما هو يقيس درجة حرارة القهوة بلسانه:

ـ ما الذي يهمك في مايتا إلى هذا الحد. إنه المطموس والمنسي أكثر من سواه بين جميع ثوريي تلك السنوات.

ـ لست أدري، هناك شيء في حالته يشدني إليه أكثر مما يشدني الآخرون. شيء من الرمزية لما جاء فيما بعد، إنذار بشيء لم يراود الشك أحد حينذاك بأنه سيأتي يوماً.

لست أدري كيف أواصل، ولو استطعت لأوضحت ذلك، ولكن بعد الوصول إلى هذا الحد، فإن ما أعرفه فقط هو أن قصة مايتا هي ما أريد معرفته واختلاقه، بأكبر قدر ممكن من الحيوية. يمكنني إعطاؤه مبررات أخلاقية، اجتماعية، أيديولوجية، وأن أثبت له أنها أكثر القصص أهمية وإلحاحاً. كل

شيء سيكون كذباً. والحقيقة أنني لا أعرف لماذا تتملكني قصة مايتا وتُقلقني.

يقول موسسيس:

ـ ربما أعرف أنا السبب. لأن قضيته كانت الأولى قبل انتصار الثورة الكوبية.. قبل هذا الحدث الذي شق اليسار إلى قسمين.

ربما كان محقاً، ربما كان السبب هو الطابع الريادي لتلك المغامرة. هذا صحيح، فقد افتتحت تلك المغامرة حقبة جديدة في البيرو، شيئاً لم يكن بإمكان مايتا ولا باييخوس أن يتنبأا به في ذلك الحين. ولكن من الممكن أيضاً أنه ليس لكل هذا السياق التاريخي من أهمية سوى التزيين وأن العنصر الإيحائي الغامض فيها، بالنسبة لي، هو عناصر القسوة، الهامشية، التمرد، الهذيان، المغالاة التي تؤثر في تلك الحادثة التي كان بطلها زميلي في مدرسة ساليسيانو.

ـ عسكري تقدمي؟ ـ قال الرفيق ميداردو ساخراً ـ. هل أنت متأكد من وجود شيء كهذا؟ لقد أمضى الأبريستا حياتهم في البحث عنه، لينجز لهم الثورة ويفتح لهم أبواب القصر. وقد هرموا دون أن يتمكنوا من العثور عليه. أتريد أن يحدث لنا الشيء نفسه؟

ـ لن يحدث لنا ذلك ـ ابتسم مايتا ـ. لأننا لن نقوم بانقلاب وإنما سنصنع ثورة. لا تقلق يا رفيق.

فقال الرفيق خاثينتو:

ـ أما أنا فإنني قلق. ولكن قلقي لسبب أكثر دنيوية. هل دفع الرفيق كارلوس الإيجار؟ لا أريد أن تداهمنا العجوز مرة أخرى.

كانت الجلسة قد انتهت، وبما أنهم لا يخرجون مطلقاً دفعة

واحـدة، فقـد انـصرف أولاً أنـاتوليو وخـواكين. وبقـي الآخـرون ينتظـرون لـبعض الوقت قبل أن يغـادروا الـكراج. ابتسم مايتا وهـو يتذكر. كانت العجوز قد ظهرت فجأة فـي أثناء مناقشة حامية حول الإصلاح الزراعي الذي حققته فـي بوليفـيا الحركة القومية الثورية بقيادة باث استنستسوريو. لقد جمدتهم من الذهول، كما لو أن الـشخص الـذي فـتح البـاب هـو واشٍ ولـيس العجـوز الـهشة ذات الشعر الأبيض والظهر المحدودب المتوكئة على عكاز من المعدن.

وجاء رد فعل الرفـيق كارلوس:

ـ سيدة بلومبرغ، مساء الخير. يا للمفاجأة.

ـ لماذا لا تطرقين الباب؟ ـ اعترض الرفـيق خاثينتو.

فردت السيدة بلومبرغ غاضبة:

ـ لست مضطرة إلى طرق باب كراج بيتي. لقد اتفقنا على أن تدفعوا لي فـي اليوم الأول من الشهر. ماذا جرى؟

تقدم الرفـيق كارلوس منها محاولاً أن يخفـي بجسده ملصق الملتحين الثلاثة ورزم **صوت العمال**:

ـ مجرد تـأخير بسيط بسبب إضراب المصارف. ولكن هـاهو شيك الإيجار معي.

هـدأت الـسيدة بلـومبرغ حـين رأت كـارلوس يُخـرج مغلفـاً مـن جيبه. تفحصتْ الشيك بتمعن، وهزت رأسها موافقة، وودعتهم وهـي تتمتم بألا يتأخروا فـي المستقبل، لأنها لم تعد فـي سن تـسمح لها بالتنقـل مـن بيـت إلى بيـت لتقـبض الإيجـارات. داهمـتهم نوبـة مـن الـضحك، ثـم نـسوا المناقـشة وراحـوا يتخيلـون: هـل رأت الـسيدة بلـومبرغ وجـوه مـاركس ولـينين وتـروتـسكي؟ أتكـون فـي طريقهـا

إلى الشرطة؟ هل سيُدَاهم المقر هذه الليلة؟ لقد قالوا لها إنهم يستأجرون الكراج ليقيموا فيه نادياً للشطرنج، والشيء الوحيد الذي لم يكن بإمكانها أن تراه هو أي رقعة شطرنج أو أي بيدق. ولكن الشرطة لم تأتِ، أي أن السيدة بلومبرغ لم تنتبه إلى أي شيء مثير للريبة.

وقال ميداردو:

ـ اللهم إلا إذا كان هذا الملازم الذي يريد صنع الثورة هو استمرار لزيارة العجوز تلك. وأنهم قرروا اختراقنا بدلاً من مداهمتنا.

فألمح مايتا، خائفاً من تجدد فتح النقاش الذي سيبعده عن السيجارة:

ـ بعد مضي كل هذه الشهور؟ وأخيراً، سنعرف من يكون. لقد انقضت عشر دقائق. هل ننصرف؟

وقال خاثينتو:

ـ يجب السؤال عن سبب عدم مجيء باياردي وكارلوس.

ويقول لي موسيس:

ـ كان كارلوس هو الوحيد الذي يعيش حياة طبيعية بين السبعة. فقد كان متعهد أعمال بناء، وصاحب معمل لصنع الطوب. هو من كان يمول إيجار المقر، وتكاليف المطبعة، والمنشورات. الجميع كانوا يساهمون، ولكن مساهماتنا كانت بائسة. وقد كانت زوجته تكرهنا إلى حد الموت.

ـ وماذا عن مايتا؟ لا بد أنه كان يكسب قليلاً جداً في فرانس برس.

وافق موسيس:

ـ ومع ذلك، كان ينفق نصف راتبه أو أكثر على الحزب. وكانت زوجته أيضاً تكرهنا بالطبع.

ـ زوجة مايتا؟

ـ كان متزوجاً وكل شيء ـ ضحك موسيس ـ. ولكن لوقت قصير. فتاة تدعى آديلايدا، موظفة مصرف جميلة جداً. وهو أمر لم نفهمه قطّ. ألم تكن تعرف؟

لم أكن أعرف. خرجوا معاً. أقفلوا بالمفتاح باب الكراج وتوقفوا في الحانة عند الناصية ليشتري مايتا علبة سجائر إنكا. قدم سجائر إلى خاثينتو وميداردو ثم أشعل سيجارته بتسرع شديد أحرق معه أصابعه. وفي الطريق إلى جادة ألفونسو أوغارتي، سحب عدة أنفاس، وكان يغمض عينيه قليلاً ليستغرق في متعة سحب ونفث تلك السحب من الدخان التي تتلاشى في ظلمة الليل.

وفكر بصوت عال:

ـ لقد عرفت الآن لماذا تسلل وجه الملازم إلى هنا.

ـ هذا العسكري جعلنا نضيع وقتاً طويلاً ـ تذمر ميداردو ـ. ثلاث ساعات من أجل ملازم!

وواصل مايتا وكأنه لم يسمع:

ـ ... بسبب الجهل، أو انعدام الخبرة، أو أي سبب آخر، كان الملازم يتحدث عن الثورة بطريقة لم نتحدث بها نحن قط.

فقال خاثينتو ساخراً:

ـ دعك من التقولات الصعبة، فأنا عامل ولستُ مثقفاً يا رفيق.

وكانت هذه مزحة يرددها بكثرة إلى حد دفع مايتا إلى التساؤل عما إذا كان الرفيق خاثينتو لا يشعر بالحسد تجاه هذه

الصفة التي يدعي أنه يزدريها كثيراً. وفي أثناء ذلك، كان على الثلاثة أن يلتصقوا بالجدار لكي لا تصدمهم حافلة تتقدم وحشد من الركاب يتعلقون على بابها.

- إنه يتكلم بمرح، بسعادة - أضاف مايتا -. وكأنه يتكلم عن شيء صحي وجميل. أما نحن فقد فقدنا الحماسة.

- هل تعني أننا قد هرمنا؟ هذا شأنك - قال خاثينتو مازحاً -. أما أنا فلي خمسون سنة غير مكتملة.

لكن مايتا لم يكن راغباً في المزاح، بل كان يتكلم بجزع، متعجلاً:

- لقد تحولنا إلى نظريين بمبالغة، وجديين بمبالغة، نشبه إلى حد ما السياسيين المدعين. لست أدري... إن سماع ذلك الملازم الفتى وهو يهذر عن الثورة الاشتراكية أثار في نفسي الحسد. صحيح أن النضال يصلب المرء. ولكن من السيئ التخلي تماماً عن الأحلام. من السيئ أن تنسينا المنهجية الأهداف يا رفاق.

هل يفهمون ما الذي يريد أن يقوله لهم؟ أحس بأنه يتكدر وغيّر الموضوع. ولكن الفكرة بقيت تجول في رأسه عندما ودعهم في شارع ألفونسو أوغارتي لكي يذهب إلى غرفته في شارع ثيبيتا. وبينما كان يقف قبالة مستشفى لوايزا منتظراً توقف نهر السيارات والشاحنات والحافلات التي تملأ مسارات الشارع الأربعة، اتضح له تداعي الخواطر الذي يمر بذهنه بصورة شبحية منذ الليلة الفائتة. أجل، إنها الجامعة، هذا هو الأمر. تلك السنة المخيبة للآمال، وتلك الدورات الدراسية في التاريخ، والأدب، والفلسفة التي انضم إليها في جامعة سان ماركوس. وسرعان ما

توصل إلى نتيجة بأن أولئك الأساتذة الجامعيين قد أصيبوا بضمور الميول المهنية، هذا إذا كانوا قد أحسوا في يوم من الأيام بحب تجاه الروائع الأدبية، أو تجاه الأفكار العظيمة. فمن خلال الحكم على ما يُعَلِّمُونه وما يطلبونه من تلاميذهم من أعمال، يتبين أنه كان هناك انقلاب في رؤوس أولئك المُنوِّمين متوسطي الذكاء. فأستاذ الأدب الاسباني يبدو مقتنعاً بأن قراءة ما كتبه السيد ليو سبيتزن عن لوركا هو أهم من قراءة قصائد لوركا، أو أن كتاب السيد آمادو ألونسو حول شعر نيرودا هو أهم من شعر نيرودا، ويبدو أستاذ التاريخ مهتماً بمصادر دراسة تاريخ البيرو أكثر من اهتمامه بتاريخ البيرو نفسه، وأستاذ الفلسفة تهمه الكلمات أكثر مما يهمه مضمون الأفكار وانعكاسها في الوقائع... الثقافة لديهم محنطة، تحولت إلى معارف للتباهي، وإلى تبحر قاحل منفصل عن الحياة. وقد قال عندئذ إن هذا هو ما يمكن انتظاره من الثقافة البرجوازية، من المثالية البرجوازية، الابتعاد عن الحياة. وتَرَكَ الجامعة مستاءً: فالثقافة الحقيقية مختلفة عما يعلمونه هناك. هل تأستذ هو وخاثينتو وميداردو والرفاق في ح ع ث (ت) وفي ح ع ث الآخر؟ هل نسوا المرتبة ما بين الأساسي والثانوي؟ هل تحول عملهم الثوري إلى شيء سري ومتحذلق مثل ذلك الشيء الذي حوّل إليه أساتذة جامعة سان ماركوس الأدب والتاريخ والفلسفة؟ لقد كان سماع بايبخوس دعوة إلى التنبه: «يجب عدم نسيان ما هو جوهري يا مايتا. يجب عدم التورط في الأباطيل يا رفيق». فبايبخوس لا يعرف شيئاً، لم يقرأ شيئاً، إنه بكر، أجل، ولكنه يتفوق عليه بمعنى ما: فالثورة بالنسبة إليه هي العمل، إنها شيء

ملموس، إنها إقامة الفردوس على الأرض، مملكة العدالة، المساواة، الحرية، الإخاء. أدرك الصور التي تتبدى بها الثورة لباييخوس: فلاحون يحطمون قيود الإقطاع، عمال يتحولون من خدم إلى سادة للآلات والورش، مجتمع يتوقف فيه فائض القيمة عن تسمين حفنة ضئيلة لكي يرجع بالفائدة على كل الشغيلة... وأحس بقشعريرة. أليس هذا تقاطع شارعي كانيتي وثيبيتا؟ لقد خرج من تأملاته وفرك ذراعيه. يا للعنة! كم كان ساهياً لتقوده قدماه حتى هنا. أهو مغنطيس الخطر؟ أهي مازوشية سرية؟ لقد كان يتفادى المرور من هذا التقاطع بين شارعي كانيتي وثيبيتا، بسبب المرارة التي يحس بها في فمه كلما اجتازه. فهناك بالتحديد، قبالة كشك الصحف، فرملت في ذلك الصباح السيارة الرمادية المائلة إلى الخضرة بصرير ما زال يتردد في مسمعيه. وقبل أن يتنبه إلى ما كان يحدث، نزل أربعة أشخاص ورأى المسدسات مصوبة نحوه، ثم فتشوه، وجروه، وأدخلوه بالدفش إلى السيارة. لقد أُدخل من قبل إلى مفوضيات الشرطة، وإلى سجون مختلفة، ولكن تلك المرة كانت الأسوأ والأطول، والمرة الأولى التي تعرض فيها للاغتصاب بوحشية. اعتقد أنه سيصاب بالجنون، فكر في الانتحار. ومنذ ذلك الحين صار يتفادى هذا التقاطع بسبب نوع من التطير كان يخجل من الاعتراف به. انعطف عبر شارع ثيبيتا ومشى ببطء الكوادرتين المتبقيتين للوصول إلى بيته. كان الإرهاق يتركز في قدميه كالعادة. اللعنة على الأقدام المسطحة. وفكر: «إنني فقير هندي، وها أنا أضع قدمي على آلاف الإبر الصغيرة...» ثم فكر: «الثورة هي حلم الملازم غير الناضج».

كانت غرفته هي الثانية في أعلى بناء من طابقين. إنها فسحة من ثلاثة أمتار عرضاً وخمسة أمتار طولاً مترعة بالكتب والمجلات والصحف المنثورة على الأرض، وفيها سرير دون مسند لا يوجد عليه سوى فرشة ودثار. وهناك بضعة قمصان وبناطيل معلقة على مسامير في الجدار، ووراء الباب توجد مرآة صغيرة ورف عليه أدوات الحلاقة. وهناك مصباح معلق بحبل يضيء بنور وسخ الفوضى غير المعقولة التي تجعل الغرفة أشد ضيقاً. وما كاد يدخل حتى انحنى على أربع ـ جعله الغبار يعطس ـ ليُخرج من تحت السرير الطست المشقق، والذي ربما كان الشيء المفضل لديه في ذلك المكان. لم يكن في الغرف حمامات؛ وقد كان هناك في البهو مرحاضان للاستخدام المشترك لساكني البناء وصنبور يأخذ منه الجيران الماء للطبخ والاغتسال. خلال النهار يكون هناك طابور انتظار على الماء دوماً، ولكن ليس في الليل، وهكذا نزل مايتا، وملأ طست الغسل ورجع إلى غرفته ـ بتؤدة، حتى لا يهدر قطرة واحدة ـ خلال دقائق قليلة. تعرى، واستلقى على السرير وغمس قدميه في الطست. آه، يا للراحة. خطر له أن يغفو وقدماه في هذا المغطس؛ ولكنه سيستيقظ عندئذ في الفجر وهو يعطس ويكاد يموت من البرد. لم يغفُ. وبينما الإحساس البارد والبلسمي يصعد من قدميه إلى كاحليه وإلى ساقيه والإرهاق يتقلص، فكر ـ مع أنه لم تكن لديه نتيجة أخرى ـ بأنه كان من الجيد أن يأتي من يُذكّره: يجب ألا يحدث للثوري ما يحدث لهؤلاء الأدباء والمؤرخين والفلاسفة في جامعة سان ماركوس، فعلى الثوري ألا ينسى أنه يعيش ويناضل ويموت من أجل تحقيق الثورة وليس من أجل، من أجل...

ـ ... دفع الحساب ـ يقول موسيس ـ. يكفي نقاشاً. أنا سأدفع. أو بكلمة أدق، المركز سيدفع. وأَعدْ هذه المحفظة إلى حيث لا تصيبها الشمس.

ولكن لم تكن هناك شمس. فقد غامت السماء، وحين خرجنا من الشاطئ الأخضر كان الجو يبدو شتائياً: إنه مساء من هذه المساءات التقليدية في ليما، مساءات مبللة، بسماء منخفضة، مشحونة ومخادعة، تهدد بعاصفة لا تأتي أبداً. لدى استرداد موسيس سلاحه ـ يقول لي «إنه براونينغ 65ر7 مم»ـ يتأكد من أن مسمار الأمان في موضعه. ويضع المسدس في تابلوه السيارة.

ـ أخبرني على الأقل عما توفر لديك من معلومات عن مايتا حتى الآن ـ يسألني بينما نحن نصعد عبر فج ارمينداريث في سيارته الكاديلاك التي بلون ثمالة النبيذ.

وألخص له:

ـ أربعيني مسطح القدمين أمضى حياته في سراديب الثورة النظرية، حتى لا نقول المكائد الثورية. أبريستا، ثم أبريستا منشق، موسكوفي، وموسكوفي منشق، وأخيراً تروتسكي. كل أشكال الذهاب والإياب، كل تناقضات اليسار في الخمسينات. عرف حياة السرية، وسُجن، وعاش دائما في عوز، ولكن...

ـ ولكن؟

ـ ولكن الإحباط لم يسبب له المرارة أو الفساد. بقي نزيهاً، مثالياً، على الرغم من شظف هذه الحياة. أيبدو لك ما أقوله دقيقاً.

ـ بصورة أساسية، نعم ـ يؤكد موسيس وهو يوقف السيارة لكي أنزل ـ ولكن، هل فكرت في أنه حتى الفساد ليس سهلاً

فــي بلادنـا؟ إذ لا بـد مـن تـوفر الفرصـة. الأغلبيـة شـرفاء لأنـه لـيس لديهم بديل، ألا ترى ذلك؟ هل خطر لك ما الذي كـان سيحدث لـو توفرت لمايتا فرصة الفساد؟

ـ لقـد فكـرت فــي أنـه كـان يتـصرف علـى الـدوام بطريقـة لا تتيح المجال لتوفر فرصة للفساد.

وانتهى موسيس إلى القول:

ـ ليس لديك شيء كثير حتى الآن.

وفـي البعيد كان يُسمع تبادل إطلاق نار.

الفصل الثالث

من أجل الوصول إلى هناك، للقادم من بارانكو، لا بد من الذهاب إلى مركز ليما، واجتياز ريماك ـ وهو نهر مياه قذرة في هذه الفترة من السنة ـ عبر جسر ريكاردو بالما، ومتابعة التقدم من خلال بيدرا ليسا والالتفاف حول رابية سان كريستوبال. الطريق طويل وينطوي على مجازفة، وهو في ساعات معينة بطيء جداً بسبب احتقان حركة المرور. وهو أيضاً طريق الفقر التدريجي لليما. فازدهار ميرافلوريس وسان ايسيدرو يأخذ بالانحدار والتشوه في لينثي و لافيكتوريا، ثم ينبعث بصورة مخادعة في مركز المدينة من خلال الكتل الثقيلة لأبنية المصارف والشركات المتضامنة وشركات التأمين ــ حيث تتكاثر فيما بينها مع ذلك أبنية سكنية مختلطة وبيوت قديمة جداً مازالت تقف على أقدامها بأعجوبة ـ ولكن فيما بعد، عند اجتياز النهر، في ما يسمى قطاع تحت الجسر، تتهاوى المدينة إلى أراضٍ خلاء نتأت فيها أكواخ من حُصر وأنقاض، أحياء مختلطة بالمزابل تتوالى لكيلومترات. وفي ليما الهامشية هذه كان يوجد فقرٌ أولاً وقبل كل شيء. أما الآن ففيها أيضاً دم ورعب.

عند مستوى جادة تشاسكيس، يفتقد الاوتستراد الإسفلت ويمتلئ بالحفر، ولكن السيارة مازالت تستطيع التقدم لبضعة

أمتار، مهتزة وسط زرائب كبيرة وزوابع، ما بين أعمدة نور فقدت مصابيحها التي حطمتها مقاليع صبية الشوارع. بما أنها المرة الثانية التي أجيء فيها، فإنني لم أتهور بالتقدم إلى ما بعد الحانة التي عَلقتُ قبالتها في المرة الأولى. لقد خطر لي يومئذ شيء مضحك. فحين أدركت أن السيارة لن تخرج من التراب، طلبت من بعض الفتية الذين كانوا يتبادلون الحديث عند الناصية أن يدفعوها. وقد ساعدوني، ولكنهم قبل أن يفعلوا ذلك وضعوا سكيناً على حنجرتي وهددوا بقتلي إذا لم أعطهم كل ما أملكه. وقد انتزعوا ساعتي، ومحفظتي، وحذائي، وقميصي. ووافقوا على أن يتركوا لي البنطال. وبينما كنا ندفع السيارة لنُخرجها، تحدثنا. هل هناك اغتيالات كثيرة في الحي؟ كفاية. أهي سياسية؟ أجل، هناك اغتيالات سياسية أيضاً. أمس بالذات ظهرت عند المنعطف جثة مقطوعة الرأس وعليها لوحة تقول: «كلب واشٍ».

أُوقفُ السيارة وأمشي بين مزابل هي في الوقت نفسه حظائر خنازير. وأرى الخنازير تتقلب في أعلى أكوام القمامة وأضطر إلى التلويح بكلتا يدي لأُبعد عني الذباب. فوق القمامة وما بينها تتزاحم مساكن من صفيح، من طوب، من خشب، بدئ ببنائها للتو أو أنها نصف مبنية، ولكنها غير منتهية جميعها، وهي كلها قديمة، مستندة بعضها إلى بعض، متداعية أو في طريقها إلى التداعي، مزدحمة بأناس ينظرون إليّ بالنظرة المتثاقلة نفسها التي كانوا ينظرون بها إلي في المرة السابقة. إلى ما قبل شهور قليلة لم يكن العنف السياسي يؤثر على تلك الأحياء المحيطة بالمدينة مثلما هو الحال في أحياء المركز السكنية. أما الآن، فمعظم الاغتيالات

وعمليات الاختطاف التي تقوم بها الجماعات الثورية، أو القوات المسلحة، أو الكتائب المناهضة للثورة، تحدث في هذه القطاعات. هناك شيوخ أكثر من الشباب، ونساء أكثر من الرجال، ويراودني لدقائق الإحساس بأنني لست في ليما ولا على الساحل وإنما في قرية من قرى الأنديز: صنادل أوخوتا، تنانير مزركشة، عباءات بونتشو، صدريات مطرزة بأشكال حيوانات لاما صغيرة، وحوارات بلغة الكيتشوا. أيعيشون حقاً في هذه النتانة وهذه القذارة أفضل من حياتهم في الدساكر الجبلية التي هجروها ليأتوا إلى ليما؟ أجل، فهناك علماء اجتماع واقتصاديون وانثروبولوجيون يؤكدن ذلك، مهما بدا الأمر مستهجناً. فاحتمالات التحسن والعيش هي أفضل على ما يبدو في هذه المزابل النتنة مما هي عليه في جبال آنكاش، أو بونو، أو كاخاماركا حيث الجفاف والأوبئة وجَدب الأرض وانعدام العمل يُهلك السكان الهنود. يجب أن يكون ذلك صحيحاً. وإلا ما هو التفسير الذي يمكنه أن يوضح إقدام أحدهم على العيش في هذا الازدحام والقذارة؟

ـ هذا في نظرهم هو أهون الشرور، وهو المفضل لديهم ـ قال مايتا ـ. ولكن إذا كنت تعتقد بأن الأحياء الهامشية تشكل، بسبب بؤسها، قوة ثورية كامنة، فأنت مخطئ. هؤلاء ليسوا بروليتاريا وإنما بروليتاريا رثة. ليس لديهم وعي طبقي لأنهم لا يشكلون طبقة. بل إنهم لا يفهمون ما هو الصراع الطبقي.

فابتسم باييخوس:

ـ إنهم يشبهونني في هذا الأمر إذن. أي براز هو هذا الصراع الطبقي؟

وأوضح له مايتا بجدية وباقتناع بدوره كأستاذ:

ـ إنه محرك التاريخ. الصراع الناجم عن تناقض المصالح القائمة لكل طبقة في المجتمع. وهي مصالح تتولد من الدور الذي يؤديه كل قطاع في عملية إنتاج الثروة. هناك مالكو رأس المال، وهناك مالكو الأرض، وهناك مالكو المعرفة. وهناك من لا يملكون شيئاً سوى قوة عملهم: أي العمال. وهناك أيضاً الهامشيون، وهم هؤلاء الفقراء في الضواحي، البروليتاريا الرثة. هل تشعر بأن الأمر عويص؟

قال باييخوس متثائباً:

ـ ما أشعر به هو الجوع. هذه الأحاديث تفتح شهيتي. فلننس اليوم الصراع الطبقي ولنتناول بيرة مثلجة. ثم سأدعوك بعد ذلك لتناول الغداء في بيت أبوي. اليوم ستحضر أختي. وهذا حدثٌ مهم. فالمسكينة تعيش في ظروف أسوأ من ظروف العيش في الثكنة. سأعرفك عليها. وعندما نلتقي في المرة القادمة سأحضر لك «المفاجأة» التي حدثتك عنها.

كانا في غرفة مايتا الذي كان يجلس على الأرض بينما الملازم يجلس على السرير. وكانت تصل من الخارج أصوات ضحكات، وهدير سيارات، وتطفو في الجو ذرات من الغبار كأنها حيوانات حبلى.

وانتهى الأمر بمايتا إلى الاستسلام:

ــ إذا بقيتَ على هذا المنوال فلن تتعلم حرفاً واحداً من الماركسية. الحقيقة أنه ليس لديك أستاذ جيد، أنا نفسي أجد ما أعلمك إياه معقداً.

فشجعه باييخوس ضاحكاً:

ــ أنت أفضل من أساتذة كثيرين علموني في الكلية العسكرية. أتعرف ما الذي يحدث لي؟ الماركسية لا تهمني كثيراً. إنني أتكلف مشقة في فهم الموضوعات المجردة. ولكنني أكثر نفعاً في الممارسة العملية، في ما هو محسوس. بالمناسبة، هل أُطلعك على خطتي الثورية قبل أن نتناول البيرة؟

ـ لن أسمع شيئاً عن خطتك المباركة إلا بعد أن تجتاز الامتحان

ـ وقلده مايتا قائلاً: ـ أي براز إذن هو الصراع الطبقي؟

ـ هو أن السمك الكبير يأكل السمك الصغير ـ أطلق باييخوس قهقهة صاخبة ــ وماذا يمكن أن يكون سوى ذلك يا أخي. فنحن لا نحتاج إلى كثير من الدراسة لكي نعرف أن الإقطاعي الذي يملك ألف هكتار يتبادل الكراهية إلى حد الموت مع هنوده المزارعين. هل نجحتُ وحصلتُ على عشرين درجة؟ سيصيبك الحَوَل من خطتي يا مايتا. وسيصيبك ما هو أكثر من ذلك حين ترى مفاجأتي. هل ستأتي لتناول الغداء معي؟ أريدك أن تتعرف على أختي.

ـ أأدعوكِ الأم؟ الأخت؟ الآنسة؟

ـ نادني خوانيتا ـ تحسم هي الأمر ــ من الأفضل رفع الكلفة، فنحن في السن نفسها تقريباً. أليس كذلك؟ أُعرِّفك على ماريا.

كلتاهما تنتعلان صنادل من الجلد، ومن المقعد الذي أجلس عليه أرى أصابع أقدامهما: أصابع قدمي خوانيتا ساكنة، وأصابع قدمي ماريا تتحرك بقلق. تلك سمراء، حيوية، متينة الذراعين والساقين، وهنالك ظلال زغب عند حافتي شفتيها؛ وهذه ضئيلة، بيضاء، لها عينان فاتحتان وتعبير ساهٍ.

تسألني خوانيتا:

ـ أتتناول باستورية□ أم كأس ماء. من الخير أن تختار المياه الغازية. فالماء كالذهب هنا. يجب الذهاب حتى جادة تشاسكيس لإحضاره في كل مرة.

المكان يذكرني ببيت في رابية سان كريستوبال كانت تشغله منذ سنوات طويلة راهبتان فرنسيتان من أخوية الأب دو فوكو. فالجدران هنا أيضاً مطلية بالكلس وعارية، والأرضية مغطاة بحصر من القش وبطانيات، مما يحمل على التفكير ببيت في الصحراء.

وتقول ماريا:

ـ الشيء الوحيد الذي ينقصنا هو الشمس. الأب شارل دو فوكو. لقد قرأت كتابه في **قلب الجماهير**. كان مشهوراً جداً في زمانه.

وتقول خوانيتا:

ـ وأنا أيضا قرأته. ولست أتذكر شيئاً يذكر منه. فأنا لم أتمتع بذاكرة جيدة في يوم من الأيام، حتى في شبابي.

ـ هذا مؤسف. ـ في الحجرة كلها لا يوجد أي مصلوب، أو أي عذراء، أو أي صورة، أو أي كتاب صلوات، أو أي شيء يشير إلى تدين قاطنتيّ البيت. وأتابع قائلاً: ـ أعني ضعف الذاكرة، لأنني...

فتعاتبني خوانيتا بعينيها وهي تقدم لي الباستورية، وتتبدل نبرة صوتها:

□ـ باستورية pasteurina شراب معقم وفق طريقة باستور

ـ آه، حسن، هو ما زلت أتذكره. فأنا لم أنس أخي بالطبع.

ـ وكذلك مايتا؟ ـ أسألها وأنا أشرب من فم الزجاجة جرعة من الشراب الدافئ والحلو.

وتوافق خوانيتا:

ـ وهو أيضاً مازلت أتذكره. لقد رأيته مرة واحدة. في بيت أبويّ. ولست أذكر الكثير لأنها كانت المرة قبل الأخيرة التي التقيتُ فيها بأخي. أما المرة الأخيرة، فكانت بعد أسبوعين من ذلك، ولم يفعل يومئذ شيئاً سوى التحدث لي عن صديقه مايتا. كان يحبه، ويقدره. لقد كان ذلك التأثير... حسن، من الأفضل أن أصمت.

ـ آه، هذا هو الأمر إذن ـ تقول ماريا وهي تنش الذباب عن وجهها بقطعة كرتون. لا هي ولا خوانيتا ترتديان مسوح الراهبات، بل تنورتين من قماش صوفي وكنزتين رماديتين، ولكن المرء يدرك أنهما راهبتان من طريقتهما في ارتداء هذه الملابس، ومن شعرهما المثبت بشبكتين، ومن أسلوبهما في التكلم والتحرك، . وتضيف ماريا: ـ لحسن الحظ أن الأمر مرتبط بهما وليس بنا. كنا قلقتين، والآن أستطيع أن أصارحك بذلك. لأن الدعاية سيئة جداً في عملنا الذي نقوم به.

ـ وما الذي سنقوم به؟ ـ قال مايتا ذلك باستهزاء وهو يبتسم ابتسامة ساخرة: ـ نحتل القرية، ومراكز الشرطة، والسجن، ونستولي على الأسلحة التي في خاوخا. ثم ماذا بعد ذلك؟ هل نهرع راكضين إلى الغابة مثل مَعز برية؟

فرد الملازم دون أن يغضب:

ـ ليس مثل معز برية. يمكننا أن نذهب على الخيول، أو

الحمير، أوالبغال، أو فـي شاحنة، أو علـى الأقدام. ولكـن الوسـيلة الأكثـر أمنـاً هـي الأقدام، ليست هنـاك وسـيلة أفضل منهـا للتنقـل فـي الغابة. من الواضح أنك لا تعرف سلسلة الجبال يا أخي.

ـ هذا صحيح ـ وافق مايتا ـ، فأنـا أعرفهـا بصورة سـيئة جداً. وهذه هي نقطة خجلي الكبير.

فلكزه باييخوس بمرفقه:

ـ لكـي تتخلص مـن هـذا الخجـل، تعـال معـي غـداً إلى خاوخـا. ستحصل على مكـان للنوم وعلى الطعام مجاناً. أو فلتذهـب إذا شئت فـي نهايـة الأسـبوع يـا أخـي. سـأريك الميـدان، وسـنذهب إلى قـرى الهنـود، سـترى الـبيرو الحقيقيـة. اسمـع، لا تفـتح «المفاجـأة». أنـت وعدتني بألا تفتحها. وإلا سأنتزعها منك.

كانـا يجلسان علـى رمـال أغـوا دولثـي، ينظـران إلى الـشاطئ المقفـر. وفـيما حولهمـا كانـت تحـوم طيـور النـورس وهـواء خفـيف رطب محمل بالملوحة يبلل وجهيهما. ما الذي يمكن أن تكونـه هـذه «المفاجأة»؟ العلبة مصنوعة بدقـة شـديدة وكأنهـا تضم شيئاً ثمينـاً. وهي ثقيلة جداً.

ـ أحب بالطبع أن أذهب إلى خاوخا ـ قال مايتا ـ. ولكـن...

فقاطعه باييخوس:

ـ ولكنك لا تملك قرشـاً واحـداً مـن أجـرة الطريـق. لا تقلـق. أنـا سأدفع لك أجرة الحافلة.

وقال مايتا بإصرار:

ـ حسن، سنرى، فلنرجع الآن إلى الموضوع الأساسي. إلى الأمور الجدية. هل قرأت الكتاب الذي أعطيتك إياه؟

ـ لقد أعجبني كثيراً، فهمته بالكامل، باستثناء بعض الأسماء الروسية. هل تعرف لماذا أعجبني هذا الكتاب يا مايتا؟ لأنه عملي أكثر مما هو نظري. **ما العمل، ما العمل**. الحقيقة أن لينين كان يعرف ما يجب عمله يا صاحبي. لقد كان رجل أفعال، مثلي. أم أن خطتي بدت لك غير نافعة؟

تفادى مايتا الرد على سؤاله بالقول:

ـ لحسن الحظ أنك قرأت الكتاب، ولحسن الحظ أن لينين قد أعجبك، إنك تتقدم. أتريد أن أخبرك شيئاً؟ أنت محق، فأختك قد أثرت في كثيراً. لم يبدُ لي أنها راهبة. لقد جعلتني أتذكر أزمنة أخرى. هل تعرف أنني في طفولتي كنت شديد التدين مثلها؟

وتقول لي خوانيتا:

ـ كان يبدو أكبر سناً مما هو عليه. لقد كان في العقد الرابع، أليس كذلك؟ ولكنني قدرت بأن عمره خمسون سنة. وبما أن أخي كان يبدو أصغر من سنه، فقد كانا يبدوان مثل أب وابنه. كان ذلك في إحدى زياراتي النادرة لبيت الأسرة. فقد كنا في ذلك الحين في محبس الدير، فنحن لم نكن حينذاك مثل هؤلاء الراهبات السخيفات اللواتي يقضين الآن نصف وقتهن في الدير والنصف الآخر في الشارع.

احتجت ماريا. إنها تهز قطعة الكرتون أمام وجهها بسرعة كبيرة، مستثيرة جنوناً ذبابياً. فالذباب ليس في الهواء، يطن حول رؤوسنا وحسب: إنه يملأ الجدار كأنه مسامير. «لقد عرفتُ ما هو موجود في هذه العلبة ـ هكذا فكر مايتا ـ لقد عرفتُ ما هي المفاجأة». أحس بحرارة في صدره وفكر: «إنه مجنون». كم

يمكـن أن يكـون عمـر خوانيتـا؟ مـن الـصعب تحديـده: إنهـا قـصيرة القامة، منتصبة القوام، إيماءاتها وحركاتها تقطر نشاطاً وأسنانها الناتئـة تعـض علـى الـدوام شـفتها الـسفلى. لقـد أمـضت فـترة تـدربها كـراهبة مستجدة فـي إسبانيا. هل أمضت سنوات طويلة هناك؟ لأن فـي نبرة صوتها شـبه بعيد باللهجـة الإسـبانية، لهجةُ إسـبانيةٍ فقـدت الخـاءات والـراءات لـديها حـدتها، وفقـدت الثـاء تـدويرها. «مـا الـذي تفعله هنا يا مايتا؟ ـ فكـر بانزعاج ـ ما الذي تفعله هنـا مـع راهبـة؟» مد يده خفـية على الرمل الرطب وجس «المفاجأة». أجل، إنهـا قطعـة سلاح.

أقولُ لهما:

ـ كنت أظن أنكما تنتميان إلى الأخوية نفسها.

ـ لقـد أسـأت الظـن إذن ـ ردت ماريـا. إنهـا تبتـسم بـكـثرة، أمـا خوانيتا بالمقابل فهي جدية حتى عندما تمزح. هناك فـي الخارج وابل من النباح، وكأن قطيع كلاب ضارية تتصارع. وتتابع ماريـا: ـ أنـا كنـت مـع الراهبـات البروليتاريـات، وهـي مـع الأرسـتقراطيات. أمـا الآن فكلتانا انتهينا إلى البروليتاريا الرثة.

بـدأنا بالتحـدث عـن مايتـا وبـاييخوس، ولكننـا انتقلنـا دون أن ندري إلى الحديث عن الجرائم فـي الحي. لقد كان الثوريون أقوياء جداً هنا فـي البداية: يجمعون التبرعات فـي وضح النهـار، ويعقـدون كـذلك الاجتماعـات. وكـانوا يقتلـون أحـدهم بـين الحـين والآخـر متهمينه بالخيانة. ثم ظهرت بعد ذلك كتائب الحرية لتقطع الرؤوس وتبتر الأطراف وتشوه بالأسيد وجوه متواطئين مزعومين أو حقيقـيين مـع الانتفاضـة. لقـد تـضاعف العنـف. وخوانيتـا تعتقـد بـأن الجـرائم

العادية ما زالت أكثر عدداً من الجرائم السياسية، وكثيراً ما تكون هذه الأخيرة قناعاً لتلك.

وتروي ماريا:

ـ قبل أيام قليلة قتل أحد جيراننا زوجته لأنها كانت تضايقه بالمشاحنات بسبب غيرتها. وقد وجده أخوتها يحاول تغطية الجريمة بوضع بطاقة «كلبة واشية» الشهيرة على الضحية.

أقترحتُ عليهما:

ـ فلنعد إلى ما جئت من أجله. إلى الثورة التي بدأت تتفاعل في تلك السنوات. ثورة مايتا وشقيقك. لقد كانت الأولى بين ثورات كثيرة. بما في ذلك القصة التي انتهت إلى هذا الذي نعيشه الآن.

وقاطعتني خوانيتا:

ـ ربما لم تكن أي واحدة من ثورات هذه السنوات هي الثورة العظمى، وإنما ثورتنا نحن المتدينين هي التي كانت كذلك. أقول هذا لأنني أتساءل: هل خلّفت كل تلك الميتات والاغتيالات أي أثر إيجابي؟ ذلك العنف لم يجلب إلا مزيداً من العنف، أليس هذا صحيحاً؟ هناك فقر أكثر من أي وقت مضى.. هنا، وفي الريف، وفي قرى سلسلة الجبال، وفي كل مكان.

ـ هل تحدثتما في هذا الأمر ـ سألتها ـ. هل حدثك مايتا عن الفقراء، عن البؤس؟

وتقول خوانيتا:

ـ تحدثنا عن الدين. ولا تظن أنني أنا من سعيت إلى هذا الموضوع. بل هو.

ـ أجل، كنتُ كاثوليكياً متديناً جداً، ولكنني لم أعد

كذلك، لقد تخلصتُ من هذه الأوهام - دمدم مايتا ثم أحس بالندم لأنه قال ذلك، خشية أن تسيء شقيقة بايخوس فهمه، وأضاف: - وأنتِ، ألا تراودكِ الشكوك مطلقاً؟

فتلعثمتْ هي:

- منذ أن أستيقظ وحتى أنام. من قال لك إن الإيمان هو مضاد للشكوك؟

تحمس مايتا:

- أعني.. أليس خدعة كبرى القول بأن مهمة المدارس الكاثوليكية هي تكوين النخبة؟ هل من الممكن يا ترى إقناع أبناء الطبقات المهيمنة بالمبادئ الإنجيلية حول الإحسان وحب الغير؟ ألا تفكرين مطلقاً في هذا؟

ابتسمت له الراهبة:

- إنني أفكر في هذا وفي أشياء أخرى أسوأ بكثير. ومن الأصح القول إننا نفكر. هذا صحيح. عندما انضممت إلى الرهبانية، جميعنا كنا نؤمن بأن الرب هو الذي منح هذه الأسر، بسلطتها وثروتها، مهمة مساعدة اخوتهم المعوزين. وبأننا إذا أحسنا تربية أولئك الفتيات الصغيرات، وهن الرؤوس، فسوف يتولين تحسين الجذع، والأذرع، والأرجل. ولكن أياً منا لم تعد تؤمن الآن بهذه الطريقة لتغيير العالم.

وفوجئ مايتا وهو يسمعها تروي قصة المؤامرة التي قامت بها هي وزميلاتها الراهبات في المدرسة. ولم يتوقفن إلى أن تم إغلاق مدرسة الفقراء المجانية التي كانت تعمل في الدير. وفُرض على كل واحدة من الصغيرات القادرات على الدفع أن تتولى نفقات

طفلة من المدرسة. لكل منهن فقيرتها. تحضر لها الحلوى، والملابس، وتقوم مرة في السنة بزيارة إلى بيت أسرة محميتها، وتحمل إليها الهدايا. تذهب في سيارة البابا، ومعها الماما، وقد يكتفين أحياناً بأن ينزل السائق ليسلم الصرة. يا للعار، يا للفضيحة. هل يمكن تسمية هذا ممارسة للإحسان؟ لقد ألححن، وانتقدن، وكتبن، واعترضن كثيراً، لكي يجري أخيراً إغلاق مدرسة الدير المجانية.

وقال لها مايتا:

ـ لسنا متباعدين كثيرا كما يبدو أيتها الأم. يسعدني أن أسمعك تتكلمين هكذا. أيمكنني أن أذكر لك شيئاً قاله رجل عظيم؟ لقد قال إنه حين تنجز الإنسانية الثورات التي لا بد منها لتجاوز الظلم، فسيولد دين جديد.

ـ ولماذا نحتاج إلى دين جديد إذا كان لدينا الدين الحقيقي ـ ردت عليه الراهبة وهي تمد إليه طبق الحلوى ـ: تفضل، قطعة بسكويت.

ـ القائل هو تروتسكي ـ حدد مايتا ـ. وهو ثوري وملحد. ولكنه كان يحترم مسألة الإيمان.

ـ هذا الذي يقال عن أن الثورة تطلق طاقات الشعب يُفهم أيضا هنا بالذات ـ أطلق باييخوس حصاة نحو طير الكاتراث□وأضاف:ـ هل بدت لك خطتي سيئة حقاً إلى هذا الحد؟ أم أنك قلت ذلك لإزعاجي فقط يا مايتا؟

□ ألكاتراث alcatraz : طير أميركي يشبه البجع.

ـ لقد بدت لنا تشويهاً ممسوخاً ـ تهز خوانيتا كتفيها وتومئ بحركة تعبر عن خيبة الأمل ـ وأنا أتساءل الآن عما إذا لم يكن من الأفضل، رغم التشوه وكل شيء، أن تجد هاتيك الصغيرات مكاناً يتعلمن فيه القراءة ويتلقين على الأقل صرة كل سنة. لم أعد أعرف، لستُ واثقة مما إذا كنا قد أحسنا صنعاً بذلك. ماذا كانت النتيجة؟ لقد كنا في المدرسة اثنتين وثلاثين راهبة وحوالى عشرين أختاً. والنسبة تدور حول هذا المعدل في معظم المدارس. لقد تمزقت الجمعيات الدينية إرباً... هل كان وصولنا إلى الوعي الاجتماعي جيداً؟ وهل كانت تضحية أخي جيدة؟

تحاول رسم ابتسامة وكأنها تعتذر عن مشاركتي في تشوشها.

ـ هذا منطقي، إنه خبز جاهز للأكل، إنه قهوة بالحليب ـ يتحمس بابيخوس ـ إذا كان الهنود يعملون لرب عمل يستغلهم، فإنهم يعملون دون حماس ويكون مردودهم قليلاً. وعندما يعملون من أجل أنفسهم يُنتجون أكثر، وهذا يفيد المجتمع كله. هل حصلتُ على عشرين درجة يا أخي؟

فأوضح له مايتا:

ـ شريطة ألا تُخلَق طبقة طفيلية تنتزع لنفسها جهود البروليتاريا والفلاحين. شريطة ألا تراكم طبقة بيروقراطية سلطات واسعة بحيث تخلق بنية جديدة غير عادلة. هذا ما يوضحه ليون دافيدوفيتش في نظرية الثورة الدائمة... أوف، أنا نفسي مللت من خطاباتي.

تنهد بابيخوس:

ـ أحب أن أذهب لمشاهدة كرة القدم، ألا تحب ذلك أنت؟ لقد هربتُ من خاوخا لكي أشاهد مباراة القمة. لا أريد إضاعة فرصة مشاهدة فريقي أليانثا ـ أونيفرسيداد. هلم بنا، أنا أدعوك.

أقول لها وقد رأيتها تصمت:

ـ ما هو الرد على هذا السؤال؟ هل كانت الثورة الصامتة في تلك الأيام نافعة للكنيسة أم أنها ألحقت بها الضرر؟

ـ لقد كانت مفيدة لنا نحن اللواتي فقدنا الأوهام الزائفة، ولكننا لم نفقد الإيمان، أما بالنسبة للأخريات فمن يدري ـ تقول ماريا ذلك، ثم تضيف وهي تلتفت نحو خوانيتا ـ كيف كان مايتا؟

ـ كان يتكلم بنعومة، بلباقة، ويلبس بصورة متواضعة ـ تتذكر خوانيتا ـ. لقد حاول إبهاري بكلمات متمادية ضد الدين. ولكنني أظن أنني أنا التي بهرته. لم يكن يعلم بما يدور في الأديرة، وفي المدارس الدينية، وفي الكنائس. لم يكن يعرف أي شيء عن ثورتنا... ففتح عينيه على اتساعهما عندما أخبرته وقال لي: «لسنا متباعدين كثيراً إذن». وقد أظهرت السنوات أنه كان على حق، أليس كذلك؟

وتروي لي أن الأب ميغيل، وهو خوري من الحي قد اختفى بطريقة غامضة قبل حوالى سنتين، ويبدو أنه كان هو نفسه الرفيق ليونثيو الذي قاد الهجوم الدامي على قصر الحكومة في الشهر الماضي.

ـ أنا أشك في ذلك ـ تعترض ماريا ـ. الأب ميغيل كان متبجحاً، مُحْرِقاً من فمه إلى الخارج فقط، أما في داخلة فكان إطفائياً. أنا متأكدة من أن الشرطة أو كتائب الحرية قد قتلته.

أجل، هذا ما كانته «المفاجأة» التي أحضرها باييخوس. ليست مسدس طاحون ولا مسدساً عادياً، وإنما مسدس رشاش قصير، خفيف، يبدو وكأنه قد خرج لتوه من المصنع: أسود، زيتي، لامع. تفحصه مايتا وهو مُنوِّم. رفع بصره بصعوبة عن السلاح الذي كان يرتعش بين يديه وألقى نظرة فيما حوله وهو يشعر بأن المخبرين سيبرزون من بين الكتب المبعثرة والصحف المنثورة بفوضى في الغرفة، ويشيرون إليه وهم يموتون من الضحك: «لقد وقعت يا مايتا»، «لقد خوزقت نفسك يا مايتا»، «بالجرم المشهود يا مايتا»، وفكر: «أنت متهور، في دماغك خلل، أنت...» ولكنه لم يكن يشعر بأي حقد تجاه الملازم. بل كان يشعر بالرفق الذي توحي به شقاوة طفل عزيز، وبرغبة في رؤيته بأسرع ما يمكن. وفكر: «لكي أشده من أذنيه. لكي أقول له...»

ـ يحدث لي معك أمر غريب. لست أدري إذا ما كان علي أن أخبرك به أم لا. آملُ ألا تغضب. هل يمكنني أن أكلمك بصراحة؟

كان ملعب كرة القدم شبه خاو وكانا قد وصلا باكراً جداً؛ حتى إن التمهيد للمباراة لم يكن قد بدأ بعد.

ـ يمكنك ـ قال باييخوس ذلك وهو يطلق الدخان من أنفه وفمه ـ أعرف ما الذي ستقوله، ألن تقول إن خطتي الثورية ليست إلا تبجحاً؟ أم أنك ستؤنبني مرة أخرى من أجل «المفاجأة»؟

ـ كم من الوقت مضى على لقاءاتنا؟ شهران؟ ـ قال مايتا.

ـ لقد صرنا مثل الظفر ولحمته، أليس كذلك؟ ـ رد باييخوس وهو يصفق لردة قام بها حارس مرمى ضئيل ورشيق جداً ـ ما الذي ستقوله لي؟

ـ كل هذا يبدو لي أحياناً وكأنه إضاعة للوقت.

سها بابيخوس عن المباراة:

ـ أتعني إعارتي الكتب وتعليمي الماركسية؟

فأوضح مايتا:

ـ ليس لأنك لا تفهم ما أعلمك إياه. فأنت لديك دماغ أكثر من قادر على فهم المادية الديالكتيكية أو أي شيء آخر.

فقال بابيخوس وهو يعود إلى مجريات المباراة:

ـ لحسن الحظ. ظننتُ أنك تضيع وقتك معي لأني غبي مقفل الدماغ.

ابتسم مايتا لبروفيل الملازم:

ـ لا، لستَ غبياً. ولكنني حين أتكلم معك، وأعرف ما الذي تفكر فيه، وأتعرف عليك، أشعر بأنه يمكن للنظرية أن تسبب لك الضرر بدل أن تفيدك.

نهض بابيخوس مصفقاً:

ـ اللعنة، كاد أن يكون هدفاً. لفة بديعة.

وتابع مايتا:

ـ بهذا المعنى، أترى؟

قال بابيخوس:

ـ لستُ أرى شيئاً. لقد تحولتُ إلى غبي. أجل، أأنت تحاول الآن أن تقول لي أن أنسى خطتي، وأنني أسأت صنعاً بإهدائك هذا الرشيش؟ أم ما الذي تعنيه يا أخي؟ جووول! أخيراً. برافو!

ـ النظرية ترى أن العفوية الثورية أمر سيئ ـ قال مايتا ـ. لأنه إذا لم يكن هناك عقيدة، معرفة علمية، فإن الاندفاع يتبدد في

ممارسات فوضوية. أما أنت فلديك حصانة غريزية من الوقوع في أسر النظرية. ربما كنتَ على حق، وربما لم يقع لك، بفضل هذا، ما وقع لنا نحن...

- من أنتم؟ - سأله باييخوس وهو يلتفت إليه من جديد.

- من نسينا الممارسة العملية لشدة اهتمامنا بتعبئة أنفسنا نظرياً و...

صمت لأن ضجة كبيرة تعالت في المدرجات: كان هناك إطلاق ألعاب نارية ومطر قصاصات ورقية يتساقط على الملعب. لقد تماديتَ في الكلام يا مايتا.

ـ لم تجب على سؤالي ـ قال باييخوس بإلحاح دون أن ينظر إليه، فقد كان يتأمل سيجارته: أهو واشٍ؟ ـ لقد قلتَ «نحن» وأنا سألت من أنتم. لماذا لا تجيبني يا أخي.

ـ الثوريون البيرويون، الماركسيون البيرويون ـ تهجى مايتا الكلمات وهو يمعن التفكير: أيكون عميلاً مكلفاً بمهمة التقصي والاستدراج؟ ثم أضاف: ـ إننا نعرف الكثير عن اللينينية وعن التروتسكية. ولكننا لا نعرف كيف نصل إلى الجماهير. هذا هو ما كنت أعنيه.

وتقول خوانيتا:

- سألته إذا ما كان مؤمناً على الأقل بالرب، وإذا ما كانت أفكاره السياسية تتطابق مع الإيمان المسيحي.

ـ ما كان علي أن أسألك هذا السؤال يا أخي ـ اعتذر باييخوس نادماً، وكلاهما كان ساهماً في سيل الجمهور الذي ينزل عن مدرجات الستاد ـ آسف. لا أريدك أن تخبرني بأي شيء.

فقال مايتا:

ـ وما الذي سأخبرك به ولا تعرفه؟ أنا سعيد لأننا جئنا، مع أن المباراة كانت سيئة. منذ قرون لم...

فألح باييخوس وهو يمسك بذراعه:

ـ أريد أن أقول شيئاً. أنا أتفهم جيداً أن تكون لديك ريبة.

ـ هل أنت مجنون ـ قال مايتا ـ ولماذا أرتاب منك؟

فقال باييخوس:

ـ لأنني عسكري ولأنك لا تعرفني كفاية. أتَفَهَّمُ أن تخفي عني بعض الأمور. لا أريد أن أعرف شيئاً عن حياتك السياسية يا مايتا. إنني مستقيم من رأسي حتى قدمي في علاقتي مع أصدقائي. وأنا أعتبرك أفضل أصدقائي. إذا لعبتُ معك لعبة قذرة، فلديك «المفاجأة» التي أهديتك إياها لتنتقم مني...

وأكد لها مايتا برقة:

ـ الثورة والديانة الكاثوليكية لا تتفقان. من الأفضل عدم خداع النفس أيتها الأم.

فقالت خوانيتا ساخرة:

ـ إنك مُضلّل ومتأخر كثيراً. هل تظن أنني أهتم بسماع مقولة إن الدين أفيون الشعب؟ قد يكون كذلك، وقد كان كذلك على أي حال. ولكن هذا كله انتهى. كل شيء يتبدل. فنحن أيضاً نصنع الثورة. ألا تعرف ذلك؟

هل كان قد بدأ آنذاك في البيرو عصر الرهبان والراهبات التقدميين؟ خوانيتا تؤكد لي ذلك، ولكن لدي شكوكي. فالأمر كان في أحسن الأحوال بدائياً ومتعثراً بحيث لم يُتَحْ لمايتا أن يعلم

به. هل كان سيسعده ذلك؟ هل كان الطفل السابق الذي أعلن إضراباً عن الطعام لكي يتماثل مع الفقراء سيشعر بالسعادة لأن المونسنيور بامبران، أسقف الضواحي الهامشية، يحمل كما قيل خاتمه الشهير مع أسلحته الأسقفية في جانب والمنجل والمطرقة في الجانب الآخر؟ وأن الأب غوستافو غوتيريث صاغ تصوره للاهوت التحرر في القول إن صنع الثورة الاشتراكية هو واجب الكاثوليكيين؟ وأن المنسنيور مينديث أرثيو ينصح المؤمنين المكسيكيين بالحج إلى كوبا مثلما كانوا يحجون من قبل إلى لورديز[1]؟ أجل، دون ريب. وربما كان بإمكانه أن يبقى كاثوليكياً مثل الكثير من الثوريين في هذه الأيام. أكان يثير الانطباع بأنه دوغمائي، وصاحب أفكار متيبسة؟

تغرق خوانيتا في التأمل لحظة، وتقول موافقة:

- أجل، أظن ذلك، دوغمائي. فهو لم يكن يتمتع بأي مرونة على الأقل فيما يتعلق بالدين. لقد تبادلنا الحديث لبرهة فقط، ربما لم أفهم جيداً أي نوع من الرجال كان. لقد فكرت فيه كثيراً فيما بعد. وقد تمكن من التأثير كثيراً على أخي. لقد غيّر له حياته. جعله يقرأ، وهو ما لم يكن يفعله من قبل. وكانت القراءة كتباً شيوعية بالطبع. حاولت أن أحذره: ألا تلاحظ أنه يجتذبك إلى معتقداته؟

- أجل، أعرف ذلك، ولكنني أتعلم منه أشياء كثيرة يا أختاه.

---

[1] لورديز Lourdes : كنيسة مكرسة للسيدة العذراء في جبال البيرينه الفرنسية يحج إليها المؤمنون الكاثوليكيون.

وتضيف خوانيتا:

ـ لقد كان أخي مثالياً ومتمرداً، لديه إحساس غير واضح بالظلم. وقد وجد في مايتا الناصح والدليل الذي كان يحركه على هواه.

أسألها:

ـ أيعني هذا برأيك أن مايتا كان المسؤول؟ أتظنين أنه هو الذي خطط لكل شيء، وورط باييخوس في قضية خاوخا؟

قال مايتا مرتاباً:

ـ لا، لأنني لا أعرف حتى كيف أستخدم السلاح. سأعترف لك بشيء. أنا لم أطلق النار في حياتي حتى من مسدس أطفال. ولنرجع إلى موضوعنا السابق، مسألة الصداقة..أريد أن أقدم لك تحذيراً في هذا الشأن.

فقال باييخوس:

ـ لا تحذرني من أي شيء، لقد طلبت منك المعذرة لعدم تكتمي. إنني أفضل أن تقدم لي إحدى محاضراتك. فلنتابع مسألة ازدواجية السلطة، هذه الطريقة في سحب الأرضية شيئاً فشيئاً من تحت أقدام البرجوازية والإمبريالية.

وقال مايتا

ـ يجب أن تعرف أنه لا يمكن حتى للصداقة أن تكون فوق الثورة، ضع هذا عميقاً في رأسك ولا تنسَه. الثورة أولاً. وبعد ذلك كل ما عداها. هذا هو ما حاولت أن أوضحه لأختك في ذلك المساء. أفكارها جيدة، فهي تمضي إلى أبعد ما يمكن لكاثوليكي أن يصل إليه. ولكن هذا غير كافٍ. لأنك إذا كنت

تؤمن بالنعيم، وبالجحيم، فإن كل ما هو هنا على الأرض سيكون ثانوياً على الدوام. وهكذا لن تكون ثمة ثورة على الإطلاق. إنني أثق بك، وأعتبرك كذلك صديقاً عظيماً. فإذا ما أخفيت عنك شيئاً، إذا...

ـ يكفي ـ أسكته باييخوس ـ. لقد اعتذرت منك، ولا أريد أي كلمة أخرى. أقلت لي إنك لم تطلق النار قط من قبل؟ غداً سنذهب إلى لورين، ونأخذ معنا المفاجأة. سأعطيك درساً. إن إطلاق النار من مسدس رشاش أسهل من أطروحة ازدواجية السلطة.

ـ يجب أن يكون هذا هو ما حصل بالطبع ـ قالت خوانيتا. ولكن طريقتها في قول ذلك بدت غير واثقة كثيراً ـ فمايتا سياسي قديم، وثوري محترف. أما أخي فشاب مندفع يسيطر عليه الآخر بسبب السن والثقافة.

رددت عليها:

ـ لست أدري، فأنا غير واثق من ذلك. بل إنني أفكر أحياناً بأن الأمر كان معكوساً.

وتتدخل ماريا:

ـ يا للهراء. كيف يمكن لصبي أن يورط مُسناً مجرباً في حماقة كهذه؟

الأمر بالتحديد أيتها الأم هو أن مايتا كان ثورياً في الظل. أمضى حياته في التآمر والنضال ضمن جماعات صغيرة مثل ذلك الحزب الذي انضم إليه. وفجأة، حين كان يدنو من السن التي يتقاعد فيها آخرون من النضال، ظهر له شخص ليفتح أمامه للمرة الأولى أبواب العمل المباشر. أيمكن أن يكون هناك ما هو أكثر

سحراً بالنسبة لرجل مثله من أن يُوضع يوماً في يده سلاح؟

ـ هذا الذي تقوله كلام روايات ـ تقول خوانيتا وهي تبتسم في الوقت نفسه ابتسامة تعوضني بها عن الإساءة ـ هذا لا يبدو أنه القصة الواقعية بأي حال من الأحوال.

وأؤكد لها:

ـ لن يكون ما سأكتبه هو القصة الواقعية بالفعل، وإنما رواية. نسخة مختلفة جداً عن الواقع.. بعيدة عنه، بل ومزيفة إن أنتِ شئتِ.

فتقول بسخرية:

ـ لماذا كل هذا الجهد إذن، لماذا تحاول تقصي ما جرى، ولماذا تأتي لتحقق معي بهذه الطريقة. لماذا لا تكذب إذن منذ البداية؟

فأُوضحُ لها:

ـ لأنني واقعي، أحاول أن أكذب دائماً في رواياتي وأنا أعرف السبب. إنه أسلوبي في العمل. وأعتقد أنها الطريقة الوحيدة لكتابة قصة بالانطلاق من التاريخ.

وتقاطعني ماريا:

ـ إنني أتساءل عما إذا كان بإمكاني أن أتوصل يوماً إلى معرفة التاريخ. أو إذا لم يكن فيه اختلاق مثل الروايات أو أكثر. هذه القضية التي نتحدث عنها مثلاً. لقد قيل الكثير عن الرهبان الثوريين، وعن التغلغل الماركسي في الكنيسة... ومع ذلك، ليس هناك من يفكر في التفسير الأكثر بساطة.

ـ أي تفسير؟

ـ اليأس والغضب اللذان يمكن أن يتعايشا نهاراً وليلاً مع المرض، الإحساس بالعجز حيال كل هذا الجور ـ تقول ماريا ذلك

محتفظة بالرقة، وقد لاحظتُ أن الراهبة لا تكاد تحرك شفتيها وهي تتابع: ـ والانتباه بصورة خاصة إلى أن من يستطيعون أن يفعلوا شيئاً لا يقدمون على عمل أي شيء على الإطلاق. السياسيون، الأغنياء، من يمسكون المقلاة من ذراعها، من يحكمون.

وقالت له شقيقة بابيخوس مذهولة:

ـ ولكن، ولكن، كيف يمكن التخلي عن الإيمان من أجل هذا؟ الأحرى أن يرسخ هذا كله الإيمان، يجب...

فواصل مايتا تصليب نبرته:

ـ مهما كانت قوة الإيمان، فستأتي لحظة يقول فيها أحدنا «يكفي». لا يمكن أن يكون العلاج لكل هذا الظلم هو الوعد بالحياة السرمدية. هذا ما حدث يا أماه. فقد كنت أرى الجحيم ماثلاً في شوارع ليما. وخاصة في مونتون. أتعرفين ما هو المونتون؟

إنها ضاحية هامشية، إحدى أول هذه الضواحي، ليست أسوأ ولا أشد بؤساً من هذه التي تعيش فيها خوانيتا وماريا. لقد تغيرت الأمور كثيراً منذ اعتراف مايتا ذاك للراهبة، فالضواحي الهامشية قد تكاثرت، وأضيفت المجازر إلى البؤس والبطالة. هل صحيح أن مشهد المونتون ذاك هو الذي بدّل، قبل نصف قرن، المتدين مايتا وحوله إلى متمرد ثوري؟ العلاقة بهذا العالم لم تؤد على أي حال إلى النتيجة نفسها بالنسبة إلى خوانيتا وماريا. فأي منهما لا توحي بأنها يائسة أو ساخطة، وهما غير مستسلمتين كذلك، وما يمكنني أن أراه هو أن معايشتهما للجور أيضاً لم توصلهما إلى القناعة بأن الحل يكمن في القتل والقنابل. كلتاهما ما زالتا متدينتين، أليس كذلك؟ هل تتردد أصداء الطلقات بعيداً في صحراء لورين؟

ـ لا ـ سدد بابيخوس السلاح، وأطلق النار وكان الدوي أقل مما توقعه مايتا. كانت يداه مبللتين بالعرق من الإثارة. وأضاف بابيخوس قائلاً: ـ لم أكن آخذها لي، فقد كذبت عليك. كنت آخذ تلك الكتب في الواقع إلى خاوخا كي يقرأها الفتيان. إنني أثق بك يا مايتا. وأخبرك بشيء لا أخبر به حتى أختي، وهي أكثر شخص أحبه.

وبينما كان يتكلم وضع المسدس الرشاش بين يديه. شرح له كيف يمسك به، وكيف يحرر مسمار الأمان، وكيف يسدد، ويضغط الزناد، وكيف يملأ المخزن بالذخيرة ويفرغه.

أنبه مايتا:

ـ إنك تسيء التصرف، فهذه الأمور لا تُروى لأحد ـ وكان صوته متهدجاً بسبب الهزة التي أحس بها في جسده حين سمع زخة الرصاص واكتشف من اهتزاز معصميه بأنه هو من كان يطلق النار؛ وفي البعيد كان الرمل يمتد مُصفراً، باهتاً، مزرقاً، غير مبالٍ ـ إنها مسألة أمن بدائية. الأمر ليس متعلقاً بك وحدك، وإنما بالآخرين. ألا تفهم؟ للمرء الحق بأن يفعل بحياته ما يحلو له. ولكن ليس من حقه أن يعرض للخطر رفاقه والثورة لمجرد إظهار ثقته بصديق. ماذا لو أنني أعمل في خدمة الشرطة؟

ضحك بابيخوس:

ـ لستَ مناسباً لهذا العمل، ولن تستطيع أن تكون واشياً حتى لو أردت ذلك. ما رأيك بإطلاق النار؟ أليس سهلاً؟

ـ الحقيقة أنه سهل جداً ـ وافق مايتا وهو يلمس فوهة السلاح ويشعر بحريق في أصابعه، وأضاف: ـ لا تخبرني بأي كلمة أخرى

عن الفتيان. لا أريد مثل هذه الإثباتات للصداقة، إنها تبجحات.

كان قد هب هواء ساخن، وبدا كما لو أن الكثبان المحيطة بهما تقصفهما بوابل من حبيبات الرمل. أجل، لقد اختار الملازم مكاناً جيداً، فمن يمكنه سماع صوت الطلقات في هذه العزلة. يجب ألا يظن أنه قد عرف كل شيء. فالمهم ليس ملء خزان المسدس الرشاش وتفريغه، ولا التسديد وإطلاق النار، وإنما المهم هو معرفة كيفية تنظيف السلاح وإتقان فكه وتركيبه.

ـ لقد أخبرتك بذلك للأهمية ـ عاد بابيخوس إلى القضية نفسها، وكان يومئ له بيده بأن يرجعا نحو الطريق العام، لأن الرمال المتطايرة ستخنقهما ـ إنني بحاجة إلى مساعدتك يا أخي. إنهم فتيان من مدرسة سان خوسية، هناك في خاوخا. إنهم شباب صغار، في السنة الرابعة والخامسة المتوسطة. لقد صادقتهم ونحن نلعب كرة القدم، في ملعب السجن. إنهم الفتيان الخوسيفينيون.

كانا يتقدمان عبر الرمل ووجهاهما بعكس اتجاه الريح، وأقدامهما غاطسة حتى الكاحلين في الأرض اللينة، ونسي مايتا فجأة درس الرماية وانفعاله قبل لحظات، مذهولاً مما كان الملازم يقوله له.

ـ لا تخبرني بشيء قد تندم عليه ـ قال له مذكراً، ولكن الفضول كان ينهشه مع ذلك لمعرفة المزيد.

وقال بابيخوس الذي كان قد وضع منديلاً على فمه ليحميه من الرمال:

ـ اصمت، كراخو. لقد انتقلت مع الفتيان من لعب كرة القدم إلى تناول كأس من البيرة معاً، والذهاب إلى حفلة صغيرة، وإلى

السينما والتحدث كثيراً. ومنذ أن بدأنا اجتماعاتنا وأنا أحاول أن أعلمهم ما تعلمني إياه. ويساعدني أستاذ من مدرسة سان خوسيه. يقول إنه اشتراكي أيضاً.

سأله مايتا:

- أعطيتهم دروساً في الماركسية؟

فقال باييخوس مومئاً بيديه:

- أجل، العلم الحقيقي. البلسم المضاد لسموم هذه المعارف المثالية والميتافيزيقية التي يحشرونها في رؤوسهم. مثلما تقول أنت بلغتك المزهرة يا أخي.

قبل لحظات، حين كان يعلمه إطلاق النار، كان رياضياً بارعاً وآمراً. وها هو الآن يتحول إلى فتى خجول، مرتبك في رواية ما يرويه له. تطلع إليه مايتا من خلال وابل الرمل. وتخيل النساء اللواتي قبّلن هذه التقاطيع الشديدة، وعضضن هاتين الشفتين البارزتين، وتلوين تحت جسد الملازم القاسي. هتف قائلاً:

- أتعرف أنك تتركني مفتوح الفم من الانبهار. كنت أظن أن دروسي الماركسية تسبب لك ضجراً قاتلاً.

واعترف باييخوس:

- بصراحة، كانت تسبب لي الضجر أحياناً، وفي أحيان أخرى كنت أهيم في القمر. فالثورة الدائمة مثلاً. إنها شيء كثير دفعة واحدة. وهكذا فقد سببت خلطاً في رؤوس الفتيان. لهذا أطلب منك دائماً أن تأتي إلى خاوخا. هيا، ساعدني في تعليمهم. هؤلاء الفتيان مثل الديناميت النقي يا مايتا.

ابتسمت ماريا:

ـ ما زلنا متدينات بالطبع، ولكن دون براقع. لدينا فائض من المهمات، وليس من التجديف. لقد أعفونا من التعليم في المدرسة وسمحوا لنا بالعمل هنا. وجمعيتنا الرهبانية تساعدنا قدر المستطاع.

هل تشعر خوانيتا وماريا بأنهما تساهمان بتقديم مساعدة فعلية، بعيشهما في الضاحية الهامشية؟ هذا مؤكد، وإلا لما أمكن تفسير تعريض نفسيهما للخطر في هذه الظروف الحالية. حيث لا يمر يوم إلا ويسقط خوري أو راهبة أو عامل اجتماعي في الضواحي ضحية اعتداء. وبعيداً عن جدوى أو عدم جدوى ما تفعلانه، من المستحيل ألا نحسدهما على هذا الإيمان الذي يمنحهما القوة للصمود في الرعب اليومي. قلت لهما إنني أثناء سيري قادما إلى هنا، أحسست كما لو أنني أجتاز كل حلقات الجحيم.

ـ لا بد أن الوضع هناك أسوأ ـ قالت خوانيتا دون أن تبتسم.

فتتدخل ماريا:

ـ ألم تذهبي مطلقاً إلى تلك القرية المحدثة؟

ـ لا ـ ترد خوانيتا ـ، لم أذهب قطّ إلى مونتون.

ــ أنا ذهبت مرات كثيرة، في صغري، عندما كنت كاثوليكياً جداً ــ قال مايتا ذلك، ولاحظتْ هي عليه ملامح الشرود، أهو الحنين؟ ــ كنت أذهب مع بعض الفتيان من **العمل الكاثوليكي**. لقد كانت في تلك الضاحية بعثة كندية. راهبان وبضعة علمانيين. أتذكر أباً شاباً، طويلاً، متورداً. كان طبيباً، وقد اعتاد أن يقول: «لا شيء مما تعلمته ينفع». ولم يكن يتحمل رؤية الأطفال يموتون كالذباب، وأعداد المصابين بالسل، بينما هناك في الصحف صفحات وصفحات مخصصة للحفلات

والمآدب، ولزفاف الأغنياء. كان عمري خمسة عشر عاماً. فكنت أرجع إلى بيتي ولا أستطيع الصلاة في الليل. كنت أفكر: «الرب لا يصغي، إنه يغلق أذنيه كي لا يسمع وعينيه كي لا يرى ما يحدث في مونتون». إلى أن توصلت يوماً إلى الاقتناع. لكي أناضل ضد كل ذلك لابد من التخلي عن الإيمان بالرب يا أماه.

بدا لخوانيتا أن مايتا يخرج بنتيجة غير معقولة من مقدمات صحيحة، وأخبرته بذلك. ولكنها تأثرت للانفعال الذي بدا عليه، فقالت له:

ـ أنا أيضاً أمر بلحظات غم كثيرة فيما يتعلق بإيماني. مع أنني لم أصل حتى الآن، لحسن الحظ، إلى مطالبة الرب بالحساب.

ـ لا نتحدث في النظرية فقط، وإنما كذلك في الأمور العملية. ـ واصل باييخوس الكلام. وكانا يمشيان على الطريق، باتجاه ليما، وقد أخفيا المسدس الرشاش في الحقيبة، وكانا يحاولان إيقاف كل الشاحنات والحافلات التي تمر بهما.

قال مايتا ساخراً:

ـ في أمور عملية مثل إعداد الكوكتيل مولوتوف، ومفرقعات الديناميت والقنابل؟ أمور عملية مثل خطتك السياسية التي تكلمت عنها في المرة الماضية؟

قال باييخوس بنبرته المرحة دائماً:

ـ كل شيء في وقته المناسب يا أخي. أمور عملية مثل الذهاب إلى قرى الهنود للتعرف عن قرب على مشاكل الفلاحين. وحلولها. لأن هؤلاء الهنود بدؤوا يتحركون، بدؤوا يحتلون الأرض التي يطالبون بها منذ قرون.

ـ تعني يستعيدونها ـ همس مايتا. وكان ينظر إليه بفضول، حائراً، وكأنه يكتشف باييخوس الحقيقي على الرغم من أنه يلتقي به منذ عدة أسابيع ـ. هذه الأراضي كانت لهم، لا تنس ذلك.

فوافق الملازم:

ـ بالضبط، ما عنيته هو استعادتهم للأرض. نذهب ونتبادل الحديث مع الفلاحين، ويرى الفتيان كيف أن أولئك الفلاحين قد بدؤوا بتحطيم قيودهم دون أي مساعدة من أي حزب. وهكذا يتعلمون كيف ستصل الثورة إلى هذه البلاد. الأستاذ أوبييوث يساعدني بعض الشيء في شؤون النظرية، ولكنك تستطيع أن تساعدني أكثر منه بكثير يا أخي. ألن تذهب إلى خاوخا؟

ـ إنك تجعلني أفتح فمي من الدهشة ـ قال مايتا.

فضحك باييخوس:

ـــ أغلقه إذن، لأنه سيمتلئ بالرمل. انظر، هذه الحافلة ستتوقف.

ـ لديك إذن جماعتك وكل شيء ـ كرر مايتا وهو يفرك عينيه المتهيجتين من الغبار ــ. حلقة دراسات ماركسية.. في خاوخا! وقمتَ باتصالات مع قواعد فلاحية، هذا يعني...

فوجه إليه الملازم صفعة:

ـ هذا يعني أنه بينما تتكلم أنت عن الثورة، أقوم أنا بصنعها. أجل، كراخو. أنا رجل عمل. وأنت نظري. يجب أن نتحد. النظرية والممارسة يا صاحبي. فلنطلق مسيرة هذا الشعب ولن يستطيع أحد وقفه. سنحقق أشياء عظيمة. صافح هذه الأصابع الخمسة واقسم إنك ستجيء إلى خاوخا. بلادنا البيرو رائعة يا أخي!

بدا صبياً منفعلاً وسعيداً ببدلته المتقنة وغرته الهندية. أحس مايتا بالسعادة لوجوده معه مرة أخرى. جلسا إلى مائدة في الركن، وطلبا من النادل الصيني فنجاني قهوة وفكر مايتا فيما لو أنهما كانا طفلين ومتماثلين في العمر، لكانا مهرا صداقتهما بعهد بالدم.

ـ هناك الآن الكثير من الرهبان والراهبات مثل ذلك الأب الكندي الذي كان في مونتون ـ قالت الأم الراهبة دون أن تبدي ضيقاً ـ. لقد عرفتْ الكنيسةُ البؤس منذ الأزل، ومهما كان رأيكَ، فإنها قد عملتْ دائماً ما تستطيعه للتخفيف منه. ولكن الصحيح الآن هو أنها أدركت بأن الظلم ليس فردياً وإنما اجتماعي. فالكنيسة لم تعد تقبل أيضاً بأن يملك قلة كل شيء بينما الأغلبية لا تملك شيئاً. نعرف أن المساعدة الروحية الخالصة في هذه الظروف تتحول إلى سخرية... ولكن، أرى أنني أبتعد عن الموضوع.

شجعها مايتا:

ـ لا، فهذا هو الموضوع. البؤس، ملايين الجائعين في البيرو. هذا هو الموضوع الوحيد. هل هناك حل؟ ما هو؟ من يملكه؟ الرب؟ لا يا أماه. إنها الثورة.

بدأ الغروب يحل وحين أنظر إلى الساعة أرى أنه قد مضى عليّ هناك أربع ساعات. كان يروقني أن أسمع هذا الذي سمعته خوانيتا، أن أسمع من فم مايتا كيف تخلى عن الإيمان. في أثناء الحديث كان يطل أحياناً صبية من باب البيت الموارب: كانوا يطلون برؤوسهم، يتجسسون، يملون، ويذهبون. كم منهم سيجري

تجنيدهم في الانتفاضة؟ هل حدثني زميل الدراسة السابق يوماً عن ذهابه إلى مونتون لمساعدة رهبان البعثة الكندية؟ كم من هؤلاء الصبية سيَقْتُلون أو يُقتَلون اغتيالاً؟ خرجت خوانيتا لحظات إلى المستوصف المجاور لترى إذا ما كان هناك أي جديد. هل كان يذهب كل يوم بعد انتهاء الدروس في مدرسة ساليسيانو، أم في أيام الآحاد فقط؟ المستوصف يعمل من الثامنة حتى التاسعة، بطبيبين متطوعين يتبادلان المناوبة، وبعد الظهر يأتي ممرض وممرضة لإعطاء اللقاحات ولإجراء الإسعافات المستعجلة. هل كان مايتا يساعد المعالج ذا الشعر الأشقر، اليائس والغاضب، في دفن الأطفال الذين يصرعهم الجوع والالتهابات، وهل كانت تمتلئ عيناه بالدموع ويخفق قلبه الصغير بقوة ويطير خياله المحموم كطفل مؤمن إلى السماء ويسأل لماذا، لماذا تسمح يا رباه بحدوث كل هذا؟ إلى جوار المستوصف، في كوخ من ألواح خشبية، يقوم مركز العمل التعاوني بممارسة مهامه. وجود المركز الطبي هو مبرر حضور خوانيتا وماريا في الحي. هل كانت هكذا أيضاً البعثة الكندية التي مارس فيها مايتا عمله التطوعي؟ وهل كان يذهب إلى هناك أيضاً محام ليساعد الأهالي مجاناً في المشاكل القانونية، وتقني تعاوني ليرشدهم حول إقامة صناعات؟ كان يذهب إلى هناك، يغوص في هذا البؤس، ويبدأ إيمانه يتزعزع، ثم لا يقول لنا في المدرسة كلمة واحدة عن كل ذلك. كان يواصل الحديث معي عن المسلسلات وعن كم سيكون رائعاً لو أنهم يصنعون فيلماً عن **الكونت دي مونت كريستو**. تخبرانني أنهما، خوانيتا وماريا، قد عملتا بضع سنوات في معمل سان خوسيه دي

لوريغانتشو للتعليب. ولكن بعد أن أفلس المعمل ، كرستا نفسيهما للعمل التعاوني وحسب؛ وكانت أخوية كل منهما الدينية تقدم إليهما مبلغاً شهرياً ضئيلاً يتيح لهما العيش. لماذا وثق هكذا بشخص يراه للمرة الأولى؟ ألأنها راهبة، أم لأنها أثرت فيه، أم لأنها أخت صديقه الجديد، أم لأنه كان عليه أن ينتزع نفسه فجأة من السوداوية وهو يتذكر إيمانه المتأجج حين كان تلميذا في ساليسيانو؟

تقول ماريا:

ـ عندما بدأتْ الاغتيالات شعرنا بالخوف. كنا نخشى أن يضعوا لنا قنبلة ويدمروا هذا كله. ولكن وقتاً طويلاً انقضى ولم نعد نتذكر ذلك. لقد كنا محظوظتين. على الرغم من أن هذا الجانب وذاك قد أراقا دماء كثيرة في الحي، إلا أنهم احترمونا حتى الآن.

سألها مايتا:

ـ هل أسرتكِ كاثوليكية جداً؟ ألم تواجهي مشاكل في...؟

فابتسمتْ الراهبة:

ـ إنهم كاثوليك بحكم العادة أكثر من القناعة. مثل معظم الناس. لقد واجهتُ مشاكل بالطبع. فقد ذهلوا حين قلت لهم إنني أريد أن أترهب. كان ذلك هو نهاية العالم بالنسبة لأمي، وأحس أبي كما لو أنني سأُدفن وأنا على قيد الحياة. ولكنهما اعتادا.

ـ ابن إلى الجيش وابنة إلى الدير ـ قال مايتا ـ. كان هذا هو شعار كل الأسر الأرستقراطية في العهد الاستعماري.

ـ تعال، تعال ـ ناداه بابيخوس من المائدة ـ تحدث قليلاً أيضاً مع

بقية الأسرة ولا تحتكر أختي، فنحن لا نكاد نراها.

كلتاهما تقدمان دروساً في الصباح في المدرسة الصغيرة التي تعمل ضمن **العمل التعاوني**. وفي أيام الآحاد، عندما يأتي الكاهن من أجل القداس، يتحول المكان إلى مُصلى. ولكن الكاهن لم يعد يأتي كثيراً في الفترة الأخيرة: لقد وضعوا له مفرقعة من الديناميت في كنيسته فأصيب بانهيار عصبي.

وتقول ماريا:

ـ يبدو أن من وضعوها لم يكونوا من كتائب الحرية، وإنما بعض زعران الحي لكي يتسلوا ، لأنهم يعرفون أنه رعديد. لم يمارس المسكين أي نوع من السياسة مطلقاً، ونقطة ضعفه الوحيدة هي السكاكر. لقد فقد أكثر من عشرة كيلوغرامات من وزنه بسبب الرعب الذي سببته له المفرقعة.

ـ أيبدو لكَ أنني أتكلم عنه بشيء من الحقد، بكراهية؟ ـ تقوم خوانيتا بحركة مثيرة للفضول، وألاحظ أنها لا تسأل لمجرد السؤال؛ وإنما لأن هذا السؤال يؤرقها منذ زمن طويل.

فأقول لها:

ـ لم ألاحظ أي شيء من هذا. ولكنني لاحظت أنك تتجنبين ذكر مايتا باسمه. دائماً تقومين بالتفافة ما بدلاً من أن تقولي مايتا. هل السبب هو ما جرى في خاوخا، لأنك واثقة من أنه هو الذي دفع بابيخوس؟

تنكر خوانيتا:

ـ لست واثقة. من المحتمل كذلك أن يكون لأخي جزء من المسؤولية. ولكنني على الرغم مني، ألاحظ أنني أشعر نحوه بقليل

من الكراهية. ليس بسبب ما جرى في خاوخا. وإنما لأنه غرس في نفس أخي الشك. ففي المرة الأخيرة التي اجتمعنا معاً سألته: «هل ستصبح ملحداً مثل صديقك مايتا، هل ستصل إلى ذلك أيضاً؟» فلم يرد علي بالجواب الذي كنت أنتظره. بل هز كتفيه وقال:

- هذا ممكن يا أختاه، لأن الثورة أولاً وقبل أي شيء.

وتتذكر ماريا:

- الأب ارنستو كاردينال أيضاً كان يقول إن الثورة أولاً وقبل كل شيء. – ثم تضيف قائلة إنها لا تعرف لماذا يرد ذلك الأب الأشقر في قصة مايتا إلى ذاكرتها كلما فكرت بمجيء إيفان إليتش إلى البيرو أولاً، ثم بعد ذلك مجيء ارنستو كاردينال.

- أجل، صحيح - تقول خوانيتا -، ما الذي كان سيقوله مايتا في ذلك المساء الذي تبادلنا الحديث فيه لو أنه عرف بأنه يمكن سماع مثل هذه الأشياء داخل الكنيسة. فعلى الرغم من أنني كنت أظن أني قد تجاوزت كل شيء، إلا أنني وقفت مذهولة حين جاء إيفان إليتش. أيكون أسقفاً حقاً من يقول تلك الأشياء؟ هل وصلتْ ثورتنا الدينية إلى تلك الحدود؟ إنها لم تعد ثورة صامتة إذن.

وتعقب ماريا، وعيناها الزرقاوان تمتلئان بالخبث:

- ولكننا لم نسمع شيئاً يذكر من إيفان إليتش. كان لا بد من سماع أرنستو كاردينال لكي نعرف ما هو الجيد. في المدرسة طلب عدد منا الإذن بالذهاب لرؤيته في المعهد الوطني للثقافة وفي مسرح باردو وألياغا.

– إنه الآن وزير للثقافة، شخصية سياسية كاملة، أليس كذلك؟ - تسأل خوانيتا.

وعده مايتا بصوت خافت:

ـ أجل سأذهب معك إلى خاوخا. ولكن أرجوك أن تتكتم. خصوصاً بعد هذا الذي رويته لي. إن ما تعمله مع هؤلاء الفتيان هو عمل انقلابي يا رفيق. إنك تقامر بمستقبلك المهني وبأشياء أخرى كثيرة.

ـ أأنت من تقول لي هذا؟ أنت من تثقلني بالدعاية الانقلابية في كل مرة نلتقي فيها؟

غرقا في الضحك، وسألهما الصيني الذي أحضر لهما القهوة عن النكتة التي تُضحكهما. فقال له الملازم: «إنها واحدة من طرائف أوتو فيرتز»

وعده مايتا:

ـ عندما تأتي في المرة القادمة إلى ليما سنحدد موعد ذهابي إلى خاوخا. ولكن عاهدني بألا تقول شيئاً لجماعتك حول مجيئي.

ـ أسرار، أسرار، يا لهوسك بالأسرار ـ احتج بابيخوس ـ. أجل، أعرف أن الأمن حيوي. ولكن لا يمكنك أن تكون متكلفاً إلى هذا الحد يا أخي. هل أخبرك شيئاً بمناسبة الكلام عن الأسرار؟ أتذكر بيبوتي، ذاك الأبله الذي كان في حفلة خالتك. لقد انتزع مني صديقتي ألسي. ذهبت لزيارتها فوجدتها معه. يمسك كل منهما بيد الآخر. وقالت لي: «أقدم لك خطيبي». لقد سخرا مني.

لم يبد عليه الاهتمام بالأمر، فقد كان يرويه وهو يضحك. لن يقول شيئاً للفتيان ولا للأستاذ أوبييوث، سيفاجئهم بالزيارة. والآن عليه أن يذهب بأقصى سرعة. تصافحا مودعين ورآه مايتا يخرج من الحانة، منتصباً وراسخاً في زيه العسكري، ويمضي نحو جادة

إسبانيا. وبينما هو يراه يبتعد، فكر في أنهما قد التقيا للمرة الثالثة في المقهى نفسه. هل هذا تبصر؟ كان مركز الشرطة على بعد خطوة من المقهى ولم يكن مستغرباً أن يكون هناك وشاة كثيرون بين زبائنه. لقد شكل إذن حلقة ماركسية بمبادرة ومجازفة تلقائية. من كان سيصدق ذلك! أغمض عينيه ورأى، هناك على ارتفاع أكثر من ثلاثة آلاف متر، وجوههم المراهقة والجبلية، ألوانهم وشعورهم السبطة وأقفاصهم الصدرية العريضة. رآهم يتراكضون وراء كرة، متعرقين ومنفعلين. الملازم يركض بينهم، وكأنه في مثل سنهم، ولكنه أطول قامة، وأكثر رشاقة وقوة وبراعة، يغتاظ، ويضرب الكرة بقدمه وبرأسه، ومع كل ضربة بالقدم أو بالرأس تتصلب عضلاته. ورآهم بعد انتهاء المباراة محشورين في غرفة من الطين والتوتياء، تظهر من نوافذها سحب بيضاء تتلوى في ذؤابات بنفسجية. يستمعون باهتمام إلى الملازم الذي يريهم ما العمل للينين، ويقول لهم: «هذا ديناميت نقي يا شباب». لم يضحك. لم يكن يشعر بأي رغبة في السخرية، أو في قول ما كان قد قاله عنه لرفاقه في ح ع ث (ت): «إنه شاب فتي، ولكنه من طينة جيدة»، «ينفع، ولكنه بحاجة لأن ينضج». إنه يشعر في هذه اللحظة بتقدير شديد لباييخوس، بشيء من الحسد لشبابه وحماسته، وبشيء أكثر من ذلك، شيء حميم ودافئ. سيطلب في الاجتماع القادم للجنة المركزية لـ ح ع ث (ت) بنقاش معمق للأمر، لأن مسألة خاوخا بدأت تأخذ منحى آخر. كان سينهض عن الطاولة التي في ركن المقهى ـ فالحساب دفعه باييخوس قبل أن يغادر ـ حين لاحظ انتفاخ بنطاله. التهب وجهه، وجسده. وانتبه إلى أنه يرتجف بالشهوة.

ـ سنرافقك ـ قالت خوانيتا.

تحدثنا قليلاً عند مدخل البيت، تحت الشفق الذي سيصبح ليلاً عما قريب. قلت لهما إنه لا حاجة لذلك، فقد تركت السيارة على بعد كيلومتر تقريباً، فلماذا عليهما أن تمشيا هذه المسافة.

ـ ليس هذا بدافع اللطف ـ قالت ماريا ـ. ولكننا لا نريدهم أن يسرقوك مرة أخرى.

ـ لا يوجد لدي الآن شيء يسرقونه ـ قلت لهما ـ. فأنا لا أكاد أحمل سوى مفتاح السيارة وهذا الدفتر. الملاحظات لا تهمني أبداً. فما لا يبقى في الرأس لا ينفع في الرواية.

ولكن لم تكن هناك طريقة لثنيهما، وخرجتا معي إلى عفونة وغبار الحي. أمضي بين الاثنتين وأدعوهما حارستي الشخصيتين، بينما نحن نتقدم بين تضاريس هذيانية من أكواخ وكهوف وبسطات وزرائب خنازير وأطفال يتمرغون وكلاب فجائية. كان يبدو وكأن كل الناس يقفون أمام بيوتهم أو يتجولون في الدروب الترابية وتُسمع حوارات، ونكات، وكلمة بذيئة بين حين وآخر. وأصطدم أحياناً بحفرة أو بحجر، بالرغم من الحذر الذي أتوخاه وأنا أطأ الأرض، ولكن ماريا وخوانيتا تسيران بانطلاق، وكأنهما تعرفان العراقيل عن ظهر قلب.

تقول خوانيتا من جديد:

ـ عمليات السرقة والسطو أسوأ من الجرائم السياسية. سببها البطالة والمخدرات. لقد كان هناك على الدوام لصوص في الجوار بالطبع. ولكن لصوص الحي في السابق كانوا يذهبون للسرقة خارجه، حيث الأغنياء. أما الآن فقد اختفت أدنى مشاعر التضامن

الجواري بسبب البطالة والمخدرات والحرب. فالفقراء الآن يسرقون ويقتلون الفقراء.

وتضيف قائلة إن ذلك قد تحول إلى مشكلة كبيرة. فما إن يخيم الظلام حتى لا يعود هناك من يتجرأ على التجوال في الحي، اللهم إلا من يحمل سكيناً أو يكون قاتلاً، أو شخصاً غير واعٍ أو سكران فاقد الصواب، لأنه يعرف أنه سيتعرض للسطو. اللصوص صاروا يداهمون البيوت في وضح النهار، وتسفر عمليات السطو في الغالب عن أحداث دامية. يأس الناس لم يعد له حدود ولهذا تقع هذه الأحداث. مثل ذلك التعيس الذي وجده أهالي إحدى الضواحي يحاول اغتصاب طفلة فبللوه بالكيروسين وأحرقوه حياً.

وتقول ماريا:

ـ أمس بالذات اكتشفوا هنا معملاً لتحضير الكوكايين. كيف كان مايتا سيفكر في هذا كله؟ في ذلك الوقت لم تكن المخدرات موجودة عملياً، فقد كانت لعبة من ألعاب المتذوقين ومحبي الليل. أما الآن بالمقابل...

وأسمعهما تقولان إنهما لا تستطيعان ترك أدوية في المستوصف. ففي الليل تأخذان الأدوية إلى البيت الذي تعيشان فيه وتخفيانها في مخبأ، تحت صندوق. لأن هناك من يدخل إلى المستوصف كل ليلة لسرقة القوارير، والحبوب، والحقن. ليس للعلاج، فالمستوصف موجود لهذا الغرض والعلاج فيه مجاني، وإنما يسرقونها لتعاطيها كمخدرات. فهم يظنون أن كل دواء هو مخدر ويتناولون ما يجدونه. ويضطر لصوص كثيرون إلى المجيء إلى المستوصف في اليوم التالي وهم مصابون بحالات إسهال أو

تقيؤ أو بما هو أسوأ. فتيان الحي يتخدرون بقشور الموز أو بأوراق الفلوريبونديو[1]، وبالمطاط، وكل ما يمكن تصوره. ما الذي كان سيقوله مايتا عن كل هذا؟! لا أستطيع أن أخمن ذلك، كما أنني لا أستطيع أن أركز تفكيري على تذكر مايتا: فوجهه يظهر ويختفي في نار طافية.

حين وصلنا إلى المزابل ـ الحظائر، سمعنا قباع الخنازير. النتانة تتكثف وتتجسد. أُلح عليهما لترجعا، ولكنهما ترفضان. وتقولان: منطقة المزابل هذه هي الأخطر. هل أنا غير قادر على التركيز على مايتا لأن قصته، أمام هذا الخراب، تتضاءل وتتبخر؟ «أي وجه غريب هنا يصبح هدفاً مغرياً»، أهي ماريا التي قالت ذلك؟

وتضيف خوانيتا:

ـ هذا هو الحي الأحمر في المنطقة أيضاً ـ أم أن الأدب، وليس مايتا، هو الذي يصبح غير مجدٍ حيال هذا الخزي؟ـ . مؤلم جداً، أليس كذلك؟ التعهر من أجل كسب العيش مؤلم بالطبع، ولكن أن يُمارس ذلك هنا، وسط هذه الزبالة وهذه الخنازير...

وتحدد ماريا الأمر:

ـ التفسير هو أن لهن زبائن.

إنها أفكار سيئة هذه التي تخطر لي. أجل، فأنا أيضاً أسمح لليأس بأن يتغلب عليّ، مثل ذلك الأب الكندي في حكاية مايتا، لن أكتب هذه الرواية. فما كان لهذا أن يساعد أحداً في شيء؛

---

[1] فلوريبونديو Floipondio : نبتة باذنجانية موطنها البيرو، أزهارها بيضاء لها شكل الجرس.

مهما كانت الرواية يومية، فإنها ليست شيئاً بالمقارنة مع اليأس. أتشعران بالأمان وهما تتنقلان في الحي ليلاً؟ حتى الآن لم يحدث لهما أي شيء، والحمد لله. حتى ولا مع سكارى ساخطين يمكن لهم أن لا يتعرفوا عليهما.

وتطلق ماريا قهقهة:

ـ ربما أننا قبيحتان جداً ولا نغوي أحداً.

وتقول خوانيتا:

ـ الطبيبان هوجما. ولكنهما مازالا يأتيان مع ذلك.

أحاول متابعة الحديث، ولكنني أسهو وأحاول العودة إلى مايتا فلا أستطيع ذلك أيضاً، لأن صورته تتقاطع مرة بعد أخرى مع صورة ارنستو كاردينال، مثلما بدا في ذلك اليوم الذي جاء فيه إلى ليما ـ أكان ذلك منذ خمس عشرة سنة؟ ـ وأثر كثيراً في ماريا. لم أخبرهما بأنني أنا أيضاً ذهبت للاستماع إليه في المعهد الوطني للثقافة وفي مسرح باردو وألياغا وأنه سبب لي كذلك صدمة شديدة الحدة. سأندم على الدوام لأنني ذهبت للاستماع إليه، لأنني لم أعد أستطيع منذ ذلك الحين قراءة أشعاره التي كانت تعجبني كثيراً من قبل. أليس هذا ظلماً؟ وهل هناك علاقة يا ترى بين أحد الأمرين والآخر؟ يجب أن تكون هناك علاقة بطريقة لا أستطيع تفسيرها. ولكنها علاقة موجودة، لأني أعيشها. لقد ظهر متنكراً بهيئة تشي غيفارا ورد في الندوة على ديماغوجية المستمعين الاستفزازيين بديماغوجية أشد من تلك التي كانوا يأملون سماعها. لقد فعل وقال كل ما يلزم لكي يستحق تأييد وتصفيق أشد الناس جموداً: ليس هناك أي اختلاف بين ملكوت

الرب والمجتمع الشيوعي؛ الكنيسة تحولت إلى عاهرة، ولكنها ستعود إلى طهارتها بفضل الثورة، مثلما هي ترجع الآن في كوبا؛ والفاتيكان، وكر الرأسماليين الذي دافع على الدوام عن مصالح الأقوياء، تحول الآن إلى خادم للبنتاغون؛ والحزب الواحد في كوبا والاتحاد السوفييتي يعني أن النخبة قد تحولت إلى خميرة للجماهير، تماماً مثلما أراد يسوع أن تكون الكنيسة للشعب؛ وأنه من غير الأخلاقي التكلم عن معسكرات العمل الإجباري في الاتحاد السوفييتي، لأنه كيف يمكن تصديق الدعاية الرأسمالية؟ ثم الخبطة المسرحية الأخيرة، حين رفع يديه: من هذا المنبر أستنكر أمام العالم أجمع الإعصار الأخير في بحيرة نيكاراغوا لأنه كان نتيجة تجارب باليستية أمريكية... ما زلت حتى الآن أحتفظ بانطباع حي لعدم النزاهة والهوس الهستيري الذي سببه لي. منذ ذلك الحين صرت أتجنب التعرف على الكتّاب الذين يعجبونني حتى لا يحدث لي معهم ما حدث مع الشاعر كاردينال الذي كلما حاولت قراءته، تنتصب من النص نفسه، مثل حمض يجرده من وقاره، ذكرى الرجل الذي كتبه.

وصلنا إلى السيارة. لقد خلعوا بابها الذي عند المقود. وبما أن اللص لم يجد شيئاً يأخذه، فقد انتقم بتمزيق فرش المقعد وبهذه البقعة التي تشير أيضاً إلى أنه تبول عليه. أقول لخوانيتا وماريا إنه قد قدم لي خدمة بذلك، لأنه سيجبرني على استبدال قماش المقاعد العتيق جداً. ولكنهما تواسيانني بأسف وارتباك.

الفصل الرابع

ـ لا بد من كتابة القصة عاجلاً أو آجلاً ـ يقول السيناتور وهو يتحرك في المقعد إلى أن يجد وضعاً مريحاً لساقه الجريحة ـ القصة الحقيقية، وليس الأسطورة. مع أن الوقت لم يحن بعد.

كنتُ قد طلبت منه أن نُجري الحديث في مكان هادئ، ولكنه أصر عليّ لكي أحضر إلى الكونغرس. ومثلما كنت أخشى، كانت تتم مقاطعتنا في كل لحظة: فزملاء في المجلس وصحفيون يقتربون منه، يحيونه، يتبادلون النمائم والأقاويل، ويوجهون إليه أسئلة. فكان حديثنا متقطعاً، تتخلله وقفات طويلة. أشرح له مرة أخرى أنني لا أنوي كتابة «القصة الحقيقية» لمايتا. ما أريده هو جمع أكبر قدر من المعلومات والآراء عنه، لكي أضيف إلى هذه المواد فيما بعد جرعات وافرة من الاختلاق، وأبني شيئاً يكون رواية لا يمكن التعرف عليها لما حدث. تفحصتني عيناه الصغيرتان المتقافزتان والمرتابتان دون تعاطف. ودمدم قائلاً:

ـ في هذه الأيام بالذات يجب عدم الإقدام على عمل أي شيء قد يؤثر على عملية التوحيد العظمى لليسار الديمقراطي التي نسعى إليها، فالشيء الوحيد الذي يمكنه أن ينقذ البيرو هو الأوضاع الحالية. ويمكن لقصة مايتا، على الرغم من مرور خمس وعشرين سنة، أن تسبب بعض الآثار الضارة.

إنـه رجـل نحيـل وهــو يـتـكلم بطلاقــة. يلـبس بأناقـة، ويكثـر الشيب فـي شعره الأجعد، ويدخن بمبسم. يبدو أن ساقه المصابة تؤلمه أحيانـاً، ذلك أنه يمسدها بقوة. إنه يكتب بأسلوب منمق بالنسبة إلى سياسي. وقد كان هذا هو المفتاح الذي فتح أمامه أعلى الدوائر فـي الحكومة العسكرية للجنرال فـيلاسكو، الذي عينه مستشاراً له. وهو من اخترع قسماً كبيراً من العبارات الموزونة التي اكتسبت بها الدكتاتورية هالة التقدمية، وكان مديراً لإحدى الصحف المصادرة. وقد كتب الخطابات التي كان يلقيها الجنرال فـيلاسكو (يمكن التعرف عليها من بعض العبارات السوسيو ـ حقوقية التي كانت تتشابك بأسنان الدكتاتور) ومثّل، مع جماعة صغيرة، الجانب الأكثر راديكالية فـي النظام. أما الآن، فقد أصبح السيناتور كامبوس شخصية معتدلة يهاجمه اليمين المتطرف واليسار الماوي والتروتسكي المتطرف بغضب. وقد أصدر عليه رجال حرب العصابات حكماً بالموت وحذت حذوهم أيضاً كتائب الحرية. وهذه الأخيرة ـ وهي إشارة إلى عبثية الأزمنة التي نعيشها ـ تؤكد أنه الزعيم السري للتمرد الثوري. وقبل بضعة شهور دمرتْ قنبلةٌ سيارته وأدت إلى جرح سائقه وكسر ساقه اليسرى التي يرفعها مستوية الآن. من ألقى تلك القنبلة؟ لا أحد يعرف.

وحين كنتُ قد أيقنت أنه ليست هناك وسيلة لدفعه إلى الكلام، وبدأت أستعد لوداعه؛ هتف فجأة:

ـ ولكن، أخيراً.. إذا كنت قد عرفت أشياء كثيرة، فـيجب أن تعرف كذلك أمراً أساسياً: لقد تعاون مايتا مع أجهزة استخبارات الجيش، ومن المحتمل أن يكون قد تعاون مع الـ CIA أيضاً.

ـ هذا غير صحيح. ـ قال مايتا معترضاً.

ـ بل صحيح ـ رد أناتوليو ـ. لينين وتروتسكي أدانا الإرهاب على الدوام.

وقال مايتا:

ـ العمل المباشر ليس إرهاباً، وإنما هو ممارسة للانتفاضة الثورية بنقائها وبساطتها. فإذا كان لينين وتروتسكي قد أدانا هذا الذي أعنيه، فلست أدري إذن ما هو الشيء الذي عملاه طوال حياتيهما. إننا ننسى يا أناتوليو الشيء المهم. فواجبنا هو الثورة، وهذه هي المهمة الأولى لأي ماركسي. أليس غريباً أن يأتي ملازم ليذكرنا بذلك؟

قام أناتوليو بتراجع تكتيكي:

ـ ألا توافق على الأقل بأن لينين وتروتسكي قد أدانا الإرهاب؟

فوافق مايتا:

ـ وأنا أيضاً أدينه، ولكن مع الاحتفاظ بالمسافات الفاصلة. فالإرهاب الأعمى، المنفصل عن الجماهير، يُبعد الشعب عن الطليعة. أما نحن فسنكون شيئاً مختلفاً: نريد أن نكون الشرارة التي ستشعل الفتيل.. كرة الثلج التي ستتحول إلى تيار جارف.

ـ أراك صرتَ شاعراً اليوم. ـ قال أناتوليو ذلك وهو يطلق ضحكة بدت قوية جداً بالمقارنة مع حجم الحجرة الضيقة.

«لستُ شاعراً. وإنما حالم، متجدد الشباب.» وبتفاؤل لم يشعر بمثله منذ سنوات طويلة. بدا كما لو أن كتلة الكتب والصحف المتراكمة حوله تلتهب بنار فاترة متلوية تبقي جسده وروحه في حالة توهج، ولكن دون أن تحرقه. أهذه هي السعادة؟ لقد كانت

المناقشة في اللجنة المركزية لـ ح ع ث (ت) مؤثرة، بل هي أكثر المناقشات التي يتذكرها منذ سنوات إثارة للشجون. كان قد ذهب بعد الاجتماع إلى ساحة مسرح سيغورا، حيث مكاتب فرانس برس. وبقي يترجم نصوصاً هناك طوال أربع ساعات تقريباً. وبالرغم من كل هذا العمل، فقد كان يشعر بالحيوية وصفاء الذهن. لقد تمت الموافقة على تقريره حول الملازم، وكذلك على اقتراحه بأن تؤخذ خطة باييخوس بعين الاعتبار. وفكر: «قاعدة عمل، خطة عمل، يا للثرثرة». لقد كان الاتفاق مهماً في الواقع: القيام بالثورة الآن، ومرة واحدة. وبينما كان يطرح آراءه، تكلم مايتا بقناعة أثرت بعمق في رفاقه: لقد لمح ذلك في ملامح وجوههم وفي إصغائهم إليه دون أن يقاطعوه ولو مرة واحدة. أجل، إن الخطة قابلة للتحقيق، شريطة أن تقودها منظمة ثورية مثل ح ع ث (ت) وليس شاباً طيب النوايا ولكنه يفتقر إلى أيديولوجية راسخة: إن طليعةً ضئيلة مسلحة ومجهزة جيداً، مع دعم مديني وأفكار واضحة حول الهدف الاستراتيجي والخطوات التكتيكية، يمكن لها أن تكون البؤرة التي تشع منها الثورة نحو بقية أنحاء البلاد، وأن تكون زند وصوان القدح الذي سينبعث منه الحريق الثوري. أوليست الظروف الموضوعية متوفرة منذ زمن بعيد جداً في بلاد تعمها التناقضات الطبقية مثل البيرو؟ هذه البؤرة الابتدائية، ومن خلال ضربات دعائية مسلحة جريئة، ستخلق الظروف الذاتية لكي تنضم القطاعات العمالية والفلاحية إلى العمل النضالي. وعادت تتمثل له صورة أناتوليو وهو ينهض من الركن عن السرير الذي كان يجلس عليه.

ـ سـأذهب لأرى إذا مـا انتهـى طـابور الانتظـار علـى بـاب المرحـاض، وإلا فـإنني سأشـخ فـي بنطـالي، فأنـا لم أعـد أسـتطيع التحمل.

كـان قـد نـزل مـرتين وكـان يجـد مـن ينتظـر أمـام المرحاضـين فـي المرتين. رآه يخرج وهو منحن قليلاً ويضغط على معدته. كم هو رائع مجـيء أنـاتوليو هـذه الليلـة، وكـم هـو رائـع أنـه فـي هـذا اليوم الذي يحدث فـيه شيء مهم أخيراً، شـيء جديـد، يجـد مـن يشـاطره فوران الأفـكار التي تدور فـي رأسه. وفـكـر: «لقد قفز الحزب قفزة نوعية». كـان مستلقياً على سريره، مستخدماً ذراعه الأيمن وسـادة. بعـد أن وافقـت اللجنـة المركزيـة لــ ح ع ث (ت) علـى العمـل مـع باييخوس، عينت فريق عمل ـ مؤلفاً مـن الرفـيق خاثينتو، والرفـيق اناتوليو، ومايتـا نفسـه ـ مكلفـاً بإعـداد رزنامـة نشـاطات. وتقـرر أن يسافر مايتا فوراً إلى خاوخا ليرى على أرض الواقع ممَ تتألف منظمة بـاييخوس الـصغيرة، وأي نـوع مـن الاتـصالات تقـيم مـع تجمعـات الفلاحـين فـي وادي مانتـارو. وبعـد ذلـك يـذهب عـضوا فـريق العمـل الآخران إلى سلسلة الجبال أيضاً لتنسيق العمـل. وانتهـى اجتمـاع ح ع ث (ت) بجو من الانشراح. وقد بقي مايتا يشعر بهذا الانـشراح نفسه بينما هو يترجم برقيات الأخبار فـي مكتب فـرانس بـرس. وهـكـذا وصل إلى غرفته فـي جـادة ثيبيتـا. وعنـد مـدخل البنـاء كـان ينتظـره شبحٌ شـاب.. أسنان لامعة فـي الظلام الخفـيف.

قال له أناتوليو:

ـ لقد تأثرتُ إلى حد أنني جئتك لأرى إذا ما كـان بإمكاننـا أن نتحدث قليلاً. هل أنت متعب جداً؟

فريت مايتا على ظهره:

ـ بالعكس، فلنصعد. أنا أيضاً أشعر بانقلاب كامل. لأن الأمر صار ديناميتاً نقياً، مثلما يقول بابيخوس.

كانت هناك إشاعات، وتلميحات، وتقولات، بل وكان ثمة منشور يجري تداوله في أروقة جامعة سان ماركوس، يتضمن اتهامه. أيتهمه بأنه مندس؟ بأنه واشٍ؟ ثم كان هناك فيما بعد مقالان يتضمنان تفاصيل مثيرة للقلق حول نشاطات مايتا.

وأقاطعه:

ـ أتعني أنه كان واشياً؟ ولكنكم كنتم مع ذلك...

يرفع السيناتور كامبوس يده ولا يتيح لي مواصلة كلامي:

ـ نحن كنا تروتسكيين، مثل مايتا، وكانت تلك الهجمات تأتي من الموسكوفيين، ولهذا لم نعرها اهتماماً في أول الأمر ـ يشرح لي ذلك وهو يهز كتفيه ـ كانوا يقولون عنا في ح ع ث العجائب كل يوم. فقد كان الشقاق هو السائد على الدوام ما بين التروتسكيين والموسكوفيين. الفلسفة القائلة: «أسوأ الأعداء هو أكثرهم قرباً، ويجب القضاء عليه ولو بالتحالف مع الشيطان».

يصمت السيناتور مرة أخرى، فهناك صحفي يقترب منه ويسأله عما إذا كان صحيحاً ما جاء في الجريدة: إنه يستعد بسبب خوفه من التهديدات ضده، للهرب إلى خارج البلاد، وإنه سيغادر بحجة إجراء عملية جراحية أخرى لساقه. فيضحك السيناتور: « افتراءات محضة. ما لم يقتلوني، فسيجدني البيرويون أمامهم لوقت طويل». انصرف الصحفي مفتوناً بالعبارة. طلبنا جولة أخرى من القهوة. «أعرف أننا هنا في الكونغرس نتمتع بامتياز

تناول عدة فناجين قهوة في اليوم بينما تحولت القهوة إلى مادة رفاهية بالنسبة إلى البيرويين الآخرين. ولكن هذا لن يستمر لوقت طويل. مستثمر الكافيتريا كان يملك كمية احتياطية وهي آخذة بالنضوب». واستغرق لحظة في مونولوج عن آثار الحرب: التقنين، انعدام الأمن، الحالة النفسية المرضية التي يعيشها الناس هذه الأيام بسبب الإشاعات عن دخول قوات أجنبية إلى أراضي البلاد.

ثم يعود فجأة إلى ما كان يقوله لي:

ـ الحقيقة أن الرفاق الموسكوفيين كانوا يملكون تقارير موثوقة جداً. وقد وصلتهم المعلومة من فوق، من المؤكد أنها جاءت من موسكو، من الـ كي جي بي. من هناك اطلعوا على ازدواجية مايتا.

يضع سيجارة في المبسم، ثم يشعلها.. يأخذ نفساً، ويمسد ساقه. يبدي الغم في وجهه، وكأنه يتساءل إذا ما كان قد مضى بعيداً في الكشف. لقد ناضل هو وزميلي في الدراسة معاً، تشاطرا أحلاماً سياسية، وعملاً سرياً، وملاحقة. فكيف يمكن له أن يكشف لي أن مايتا كان صرصاراً قذراً بمثل هذه اللامبالاة؟

ينفض رماد السيجارة في فنجان القهوة الفارغ:

ـ أنت تعرف أن مايتا قد دخل السجن وخرج منه مرات كثيرة. ولا بد أنهم ابتزوه هناك لكي يعمل معهم. هناك من يُصلّبهم السجن، وهناك من يلينهم.

ينظر إليّ مُقدِّراً تأثير كلماته. وأراه هادئاً، واثقاً من نفسه، بهذا التعبير اللطيف الذي لا يفقده حتى في أشد المناظرات سخونة. لماذا تراه يكره رفيقه القديم؟

ـ هذه الأمور من الصعب إثباتها دوماً.

هناك، في لحظة ما من الماضي، يظهر مايتا لا يمكن التعرف عليه تحت لفاع مزيت، وهو يقدم دفاتر مكتوبة بحبر سري تتضمن أسماء، وخططاً، وعناوين، إلى عسكري يبدو متضايقاً من ارتدائه ملابس مدنية، وإلى أجنبي مرتاب لا يصيب في استخدام حروف الجر بالإسبانية.

ويصحح لي ما قلته:

ـ من المستحيل إثبات الأمر. ومع ذلك، فقد أمكن إثباته مرة. ـ يأخذ نفساً، ويُفلت شفرة المقصلة ـ في عهد الجنرال فيلاسكو اكتشفنا أن الـ CIA هي من تقود عملياً أجهزة مخابراتنا. وقد خرجت أسماء كثيرة. ومن بينها اسم مايتا. وبعد مراجعة الحسابات، والتذكر، اتضحت لنا بعض الأشياء. لقد كان سلوكه مريباً مذ تعرف على باييخوس.

أقول له:

ـ هذا اتهام فظيع. جاسوس للجيش، وعميل للـ CIA وفي الوقت نفسه...

فيحدد:

ـ جاسوس.. عميل.. هذه كلمات كبيرة. لقد كان مخبراً.. أداة، وربما ضحية. هل تحدثت مع أحد غيري ممن كانوا يعرفون مايتا في ذلك الحين؟

ـ مع موسيس باربي لييفا. كيف يمكن ألا يعرف هو أي شيء عن هذا؟ لقد كان موسيس حاضراً في الاستعدادات لقضية خاوخا، بل إنه رأى مايتا عشية...

فيبتسم السيناتور كامبوس:

ـ موسيس رجل يعرف أشياء كثيرة.

هل سيكشف لي أن موسيس أيضاً عميل للـ CIA؟ لا، لن يصل به الأمر مطلقاً إلى حد توجيه مثل هذا الاتهام إلى مدير مركزٍ نشرَ له كتابيّ أبحاث اجتماعية سياسية، وقد كتب مقدمة أحدهما باربي ليبفا نفسه.

ـ موسيس رجل حذر، ممتلئ بمصالح عليه حمايتها. ـ ينسل السيناتور بجرعة معتدلة من الحموضة، ويضيف: ـ لقد تبنى موسيس فلسفة «ما مضى قد مضى». وهي الأفضل إذا كان المرء يرغب في تجنب المشاكل. لسوء حظي أنني لست مثله. فأنا لم أعتد الصمت مطلقاً. وها هو جهري بكل ما أفكر فيه قد تركني أعرج. ويمكن أن يجلب لي الموت في أي لحظة. ما كسبته هو أنني أستطيع أن أنظر إلى أسرتي دون أي إحساس بالخجل.

يبقى مطرقاً للحظة، وكأنه مرتبك لانجراره إلى مثل هذا الاندفاع في السيرة الذاتية. ثم يسألني دون أن يتوقف عن النظر إلى مقدمة حذائي:

ـ ما رأي موسيس بمايتا ذلك الزمن؟

يستغرق في التأمل وسط حلقات الدخان، ثم يضيف :

ـ أنا سأقول لك: من الأفضل عدم رفع الغطاء عن هذه القِدر حتى لا تفوح منها روائح قد تخنق الكثيرين. ـ يتوقف قليلاً، يبتسم ويوجه ضربته الحاسمة: ـ لقد كان موسيس هو من وجه إليه تهمة الاختراق في الليلة التي طردنا فيها مايتا من ح ع ث (ت).

لقد أفقدني القدرة على النطق: في الكراج الصغير المتحول إلى محكمة، ينهي موسيس مراهقٌ ومزمجرٌ مرافعته مشهراً حفنة من الأدلة التي لا يمكن دحضها. واش! واش! ولا يستطيع زميل دراستي مايتا الرد بكلمة واحدة وهو منكمش على نفسه تحت صورة المنظّرين. فُتح الباب ودخل أناتوليو.

ـ ظننتك قد علقت في المرحاض ـ قال له مايتا مرحباً.

وضحك أناتوليو وهو يغلق الباب:

ـ أوف، الآن أشعر بالراحة. ـ كان قد بلل شعره ووجهه وصدره، وكانت بشرته تلمع بقطرات الماء. لقد رجع حاملاً قميصه في يده ورآه مايتا وهو ينشره بحذر على حافة السرير الضيق. وفكر: «كم هو جذاب». الأضلاع بارزة بوضوح في صدره الأهيف وخصل الشعر الناعم اللامع تغطي صدره. وذراعاه طويلتان ومتناسقتان. لقد رآه مايتا أول مرة قبل أربع سنوات، في محاضرة في نقابة عمال البناء. وفي كل لحظة كانت تقاطعه جماعة من الشبيبة الشيوعية، مرددة أهزوجة السخرية المعروفة واسعاً ضد تروتسكي والتروتسكية: حلفاء هتلر، عملاء الإمبريالية، أتباع وول ستريت. وكان أكثرهم عدوانية هو أناتوليو: شاب واسع العينين، وداكن الشعر، يجلس في الصف الأول. أكان هو من يعطيهم الإشارة للتهجم عليه؟ ولكن على الرغم من كل ذلك، كان ثمة شيء في الفتى جعل مايتا يستلطفه ويميل إليه. فقد أحس بإحدى تلك الاختلاجات التي كان يشعر بها أحياناً، وكانت تُخفق على الدوام. ولكنها أصابت في تلك المرة. فلدى الخروج من النقابة، وكانت الخواطر قد هدأت بعض الشيء، اقترب منه

وعرض عليه أن يتناولا معاً فنجاناً من القهوة «من أجل مواصلة مناقشة خلافاتنا»، ولم يجعله الفتى يتوسل. وفيما بعد، حين أصبح عضواً في ح ع ث (ت)، اعتاد أناتوليو أن يقول له: «لقد أجريت لي غسيل دماغ جيزويتي يا رفيق». والحقيقة أنه مارس معه عملاً ماكراً ومتودداً، فقد أعاره كتباً ومجلات، وأقنعه بأن يحضر حلقة دراسات ماركسية يشرف هو نفسه عليها، ودعاه إلى أعداد لا حصر لها من فناجين القهوة، وأقنعه في أثناء ذلك بأن التروتسكية هي الماركسية الحقيقية، وأنها الثورة الخالية من البيروقراطية ومن الاستبداد والفساد. وها هو الآن ، شاب وفتى طيب، صدره عارٍ، وهو يمسد قميصه تحت مخروط الضوء المغبر في الغرفة المزرية. وفكر: «مذ تعرفت على باييخوس لم أعد أرى وجه أناتوليو في أحلامي». كان متأكداً: ولا مرة واحدة. من حسن الحظ أنه جرى اختيار أناتوليو ضمن فريق العمل. فعلاقته به أفضل من علاقته بأي شخص آخر في الحزب، وهو يمارس عليه تأثيراً أكثر من سواه. وهو لم يجعله ينتظر مطلقاً كلما اتفقا على الخروج معاً لبيع صوت العمال أو لتوزيع منشورات أمام أبواب المصانع في جادة الأرجنتين، بالرغم من أنه يعيش في كايّاو.

- أشعر بالتكاسل وعدم الرغبة في الخروج في هذا الوقت...

- إذا لم يكن يزعجك ضيق المكان فابق هنا.

جميع الرفاق في اللجنة المركزية لـ ح ع ث (ت) كانوا قد ناموا في إحدى الليالي في الغرفة، وأحياناً كان يبقى عدد منهم وينامون محشورين بعضهم فوق بعض.

قال أناتوليو:

ـ لست أدري لماذا عليّ أن أجعلك تقضي ليلة مزعجة. عليك أن تقتني سريراً أكبر، من أجل حالات الطوارئ.

ابتسم له مايتا. وكان جسده المسترخي قد تصلب. فركز جهده للتفكير في خاوخا. هل طردوه من الحزب بعد قضية خاوخا؟

ـ بل قبلها ـ يصحح لي السيناتور وهو يراقب حيرتي بمتعة ـ قبل قضية خاوخا مباشرة. وإذا لم تخني الذاكرة، فقد قدموا الموضوع كما لو أن مايتا قد استقال من ح ع ث (ت). حيلة رحيمة، لكي لا نُظهر تصدعنا أمام العدو. ولكنه طُرد. وبعد ذلك حدثت مسألة خاوخا ولم يكن بالإمكان توضيح أي شيء. ألا تتذكر حملة القمع ضدنا؟ بعضنا وقع في الاعتقال، وانتقل آخرون إلى السرية. ودُفنت قضية مايتا. هكذا يُكتب التاريخ يا صديقي. ففي خضم الفوضى والهجمة الرجعية التي سببتها مسألة خاوخا، بدا مايتا وباييخوس كبطلين...

بقي مستغرقاً، يتأمل في غرائب التاريخ. وتركته يفكر دون أن أستعجله، واثقاً من أنه لم يتوصل إلى نتيجة بعد. أهو المرتد مايتا الذي تحول إلى مسخ بوجهين، يدبر مؤامرة شديدة المجازفة لكي ينصب فخاً لرفاقه؟ إنه لأمر قاس جداً: من المستحيل تبريره في رواية لا تتبنى، منذ البدء، عدم واقعية الجنس البوليسي.

ويضيف السيناتور:

ـ لم يعد لأي شيء من هذا أهمية الآن. لأنه أخفق. كانوا يريدون تصفية اليسار إلى الأبد. ولم يتوصلوا إلا إلى تعطيله لبضع سنوات. ثم جاءت كوبا، وفي 1965 جاءت حركة خافيير

هـيراودا، وفــي 65 حـرب عـصابات منظمـة الميـر وجبهـة التحريـر الـوطني. هزيمـة إثـر هـزيمـة لطروحـات الانتفاضـة المسلحة. وهـا هـم أخيراً قد خرجوا الآن وفق مزاجهم. باستثناء أن...

فأقول:

ـ باستثناء أن...

ـ باسـتثناء أن هـذا الـذي يجـري لـيس ثـورة وإنمـا كـارثـة. هـل كان هناك من يتصور يومـاً أن البيرو سـتعيش مثل هـذه المجـزرة؟ ـ ينظر إليّ ويضيف ـ ما يجري الآن دَفَنَ قصة مايتا وباييخوس نهائياً. ليس هناك من يتذكرهما اليوم، إنني واثق من هذا. طيب. ثم ماذا؟

أقول له:

ـ وهل كان باييخوس متآمراً أيضاً؟

يأخذ نفساً من مبسم سيجارته ويطلق سحابة من الدخان جانباً لكي لا ينفثها فـي وجهي.

ـ ليست هنـاك أدلـة بالنسبة لبـاييخوس. مـن الممكـن أنـه كـان أداة لمايتـا ــ يعـود مـرة أخـرى إلى تركيـب الفسيفسـاء ــ هـذا هـو المحتمـل، ألـيس كـذلك؟ لقـد كـان مايتـا ثعلبـاً عجـوزاً ومـاكـراً، بينمـا كـان الآخـر شـاباً عـديم الخبرة. ولكنني أقـول وأكـرر، لا توجد أدلة.

إنـه يتكلم بنعومـة طـوال الوقـت، ويحيـي فــي أثنـاء ذلـك مـن يدخلون ويخرجون.

يضيف قائلاً:

ـ أنت تعلم أن مايتـا أمضى حياته فــي التنقـل مـن حـزب لآخـر. ودائماً ضمن أحزاب اليسار. أهو مجرد تقلب أم براعة؟ لا يمكنني

حتى أنا نفسي الذي عرفته جيداً أن أحدد ذلك. لأنه كان مثل الحنكليس: ينزلق ولا توجد طريقة لمعرفته معرفة عميقة. ولكنه مع ذلك كان مع هذا الفريق وذاك، كان قريباً وضمن جميع المنظمات التقدمية. إنها مسيرة مريبة، ألا ترى ذلك؟

فأقول له:

ـ وكل تلك السجون التي دخلها. سجن الإصلاح، و السستو، والفرونتون.

فيلمح السيناتور:

ـ لدي معلومات بأن سجنه لم يكن يطول أبداً لفترات طويلة. من الأفضل القول إنه مرّ من سجون كثيرة بدل القول إنه كان فيها. والصحيح هو أن اسمه وارد في سجلات الخدمة في المخابرات.

كان يتكلم باتزان، دون أدنى أثر من الحقد ضد ذلك الرجل الذي يتهمه بأنه كان يكذب ليلاً ونهاراً، على امتداد السنوات، وبأنه كان يشي بمن يثقون به ويطعنهم في الظهر، وبأنه نظم انتفاضة مسلحة لمجرد توفير ذريعة تبرر القمع الشامل ضد اليسار. إنه يمقته بكل قواه، لا شك في ذلك. لا بد أن كل ما يقوله لي ويلمح به ضد مايتا مدروس وآتٍ من بعيد، فقد فكر به، وأعاد التفكير، ورواه مرة بعد أخرى خلال هذه السنوات الخمس والعشرين. هل هناك أساس صحيح لما حوله حقده إلى جبل؟ أهي مهزلة بالكامل من أجل تحقير ذكرى مايتا لدى أولئك الذين ما زالوا يتذكرونه؟ وما سبب كل هذا الحقد؟ أهو سبب سياسي، أم شخصي، أم كلا الأمرين؟

يُخرج عقب السيجارة من المبسم مستخدماً عود ثقاب ويسحقه في المنفضة:

- لقد كان شيئاً ميكافيلياً في الواقع. في البدء كنا نشك في ذلك، فالدقة التي رتب بها الكمين لنا تبدو مستحيلة. إنها عملية بارعة.

فأقاطعه:

ـ وهل هناك معنى لإقدام أجهزة المخابرات والـ CIA على ترتيب مثل هذه المؤامرة؟ أيفعلون كل ذلك من أجل تصفية منظمة من سبعة أعضاء؟

يضحك السيناتور كامبوس:

- بل ستة، ستة أعضاء. لا تنس أن مايتا كان واحداً منهم ـ ولكنه يستعيد جديته على الفور ويضيف: ـ هدف المكيدة لم يكن ح ع ث (ت)، وإنما اليسار بمجمله. عملية احترازية: بتر أي محاولة ثورية في البيرو من جذورها. ولكننا كشفنا لعبتهم، المؤامرة انفجرت ولم تحقق النتائج التي كانوا يأملونها. ومع أننا كنا منظمة صغيرة جداً، إلا أننا نحن في ح ع ث (ت) من أنقذنا اليسار من حمام دم مثل هذا الذي يجري في البلاد الآن.

فأرد عليه:

- وبأي طريقة أحبط ح ع ث (ت) المكيدة. فما كان مدبراً في خاوخا قد حدث. أليس كذلك؟

فيحدد هو:

- لقد أحبطناه بمعدل تسعين بالمئة. ولم يتوصلوا إلى ما كانوا يريدون إلا بمقدار عشرة بالمئة. كم أعتُقل منا؟ وكم هم الذين

اضطروا إلى الاختباء؟ لقد أبقونا محاصرين أربع أو خمس سنوات. ولكنهم لم يتمكنوا من القضاء علينا، وكان هذا هو الهدف الذي أرادوه.

أقول له:

ـ ألم يكن الثمن عالياً جداً؟ لأن مايتا وباييخوس...

فيقاطعني الفسيفسائي:

ـ أن يعمد المرء إلى الاستدراج والوشاية هو أمر ينطوي على مجازفة ـ ثم يؤكد بقسوة: ـ لقد أخفقا ودفعا الثمن بالطبع. أليس هذا هو ما يحدث في هذه المهنة؟ أضف إلى ذلك أن هناك دليلاً آخر. استعرض أسماء من ظلوا أحياء. ما الذي جرى لهم؟ ما الذي فعلوه فيما بعد؟ ما الذي يفعلونه الآن بالذات؟

يبدو أن السيناتور كامبوس قد فقد بمرور السنوات عادة النقد الذاتي.

ـ لقد كنتُ مؤمناً على الدوام بأن الثورة تبدأ بالإضراب العام ـ يقول أناتوليو.

فيسخر منه مايتا:

ـ تحريفية سوريلية شديدة الفوضوية. لم يقل ماركس، ولا لينين، ولا تروتسكي أبداً بأن الإضراب العام هو المنهج الوحيد للثورة. هل نسيت الصين؟ ماذا كان أسلوب ماو؟ الإضراب أم الحرب الثورية؟ تشبث وإلا ستقع.

انزلق أناتوليو قليلاً عن حافة السرير. وقال:

ـ إذا ما نُفذت الخطة، فلن يكون هناك أخوّة على الإطلاق بين الجنود والشعب في البيرو. ستكون حرباً مفتوحة.

ــ علينــا أن نحطـم الـصيغ الجـاهزة ــ وكـان مايتـا يرهـف مـسمعيه، لأن الأصوات تُسمع عموماً فـي مثـل هـذا الوقت. وعلى الـرغم مـن لهفتـه، فقـد كـان يفـضل عـدم مواصـلة التحـدث فـي السياسة مع أناتوليو. عمَ سيتحدثان إذن؟ عن أي شيء، ولكن ليس عن هذا النضال الذي يقيم بينهما تضامناً تجريدياً، وأخوة مبهمة. ثم أضاف: ـ وهذا أصعب بالنسبة إلي مما هـو بالنسبة إليك، لأنني أكبر منك سناً.

السرير الضيق لا يكاد يتسع لهما، وهو يئّن لدى أدنى حركة. لقـد كانـا دون قميـصيهما ودون حـذاءيهما، ولكنهمـا يلبـسان بنطاليهما. وكانا قد أطفأا النور فكان بريق مصباح الشارع ينفذ من النافذة الأمامية. وفـي البعيد، كان يُسمع بين حين وآخـر المواء الشبق لقطة متهيجة: كان هذا هو الليل.

ـ سأعترف لك بشيء يا أناتوليو ـ قال مايتا ذلك وهو مستلق، مستنداً إلى ذراعه الأيمن، وكان قد دخن علبة سجائر فـي ساعات قليلة. وبالرغم من هذه الوخزة التي يشعر بها فـي صدره، فإنه ما يزال راغباً فـي التدخين. كانت اللهفة تخنقه. وفكر: «إهدأ يا مايتـا. لـن تقـوم بنـذالات الآن، ألـيس كـذلك يـا مايتـا؟» ثم أضاف بصوت عال:ـ هذه هي أهم لحظة فـي حياتي. إنني متأكد من ذلك يا أناتوليو.

فقال الفتى وكأنه الصدى:

ـ إنها كذلك بالنسبة إلى الجميع. إنها أهم لحظة فـي حياة الحزب. وعساها تكون فـي حياة البيرو أيضاً.

وقال مايتا:

ـ الأمر مختلف في حالتك. فأنت فتي جداً. مثلما هو بيّاردي. إنكما تبدأان حياتيكما كثوريين وتبدأانها جيداً. أما أنا فقد تجاوزت الأربعين من عمري.

ـ وهل هذا يعني الشيخوخة؟ أليست هذه السن هي الشباب الثاني؟

فغمغم مايتا:

ـ أو الشيخوخة الأولى بكلمة أصح. لقد أمضيت قرابة خمس وعشرين سنة على هذه الحال. وفي الشهور الأخيرة، في هذه السنة الأخيرة، وخصوصاً بعد أن انقسمنا وبقينا سبعة أشخاص فقط، كانت تطن في أذني على الدوام كلمة واحدة: زبالة.

ساد الصمت. وحطمه مواء قطة. ثم سمع أناتوليو يقول:

ـ أنا أيضاً أشعر بالغم أحياناً. فرؤية السواد في كل شيء هو أمر إنساني حين تكون الأمور سيئة. ولكنني أستغرب أن تشعر أنت بذلك يا مايتا. لأنه إذا ما كان هناك شيء أقدره فيك دائماً، فإنه تفاؤلك.

كان الجو حاراً وكان ذراعاهما المتلامسان رطبين. وقد كان أناتوليو أيضاً مستلقياً على ظهره، وبإمكان مايتا أن يرى، في الظلام، قدميه العاريتين عند حافة السرير قريبتين من قدميه. وفكر في أن أقدامهما قد تتلامس في أي لحظة.

قال مواريا استياءه:

ـ افهمني جيداً. لست مغموماً لأنني كرست حياتي للثورة. هذا لا يمكن أن يحدث مطلقاً يا أناتوليو. في كل مرة أخرج إلى الشارع وأرى في أي بلاد أعيش، أدركُ أنه ليس ثمة ما هو أهم من

الثورة. إنني أصاب بالغم لأني ضيعت الوقت، لأني اتخذت طريقاً خاطئاً.

وقال أناتوليو مازحاً:

ــ إذا ما قلت لي إنك قد خُدعت بليون دافيدوفيتش وبالتروتسكية، سأقتلك. لا تجعلني أشعر بأنني قد قرأت كل تلك المجلدات عبثاً.

ولكن مايتا لم يكن يشعر برغبة في المزاح. كان يشعر بالحماس وبالغم في الوقت نفسه. وكان قلبه ينبض بقوة إلى حد قال معه في نفسه بأنه ربما كان أناتوليو يسمع تلك النبضات. وكان الغبار المتراكم ما بين كتب وأوراق وصحف البيت الصغير قد بدأ يدغدغ أنفه، ففكر بسخف: «اكبح عطاسك وإلا ستموت».

ــ لقد ضيعنا الكثير من الوقت يا أناتوليو في مسائل بيزنطية، وفي ترهات لا علاقة لها بالواقع. كنا منفصلين عن الجماهير ودون جذور بين الشعب. أي نوع من الثورة كنا سنصنع؟ أنت ما تزال شاباً. أما أنا فقد أمضيت سنوات طويلة في هذا الأمر، ولكن الثورة لم تقترب ولو ميليمتراً واحداً. واليوم أحسست لأول مرة بأننا نتقدم، وبأن الثورة ليست شبحاً وإنما هي جسد من عظم ولحم.

ـ اهدأ يا أخي ـ قال له أناتوليو وهو يمد يده ويربت على رجله. فانكمش مايتا على نفسه كما لو أنه تلقى ضربة على فخذه وليس مجرد ملامسة ودودة ــ. في اجتماع اللجنة اليوم، عندما طرحتَ اقتراحك بالانتقال إلى العمل، وتساءلتَ إلى متى سنواصل

إضـاعة الوقـت، لمست أوتـار قلوبنـا. لم أسمعـك تتحـدث بمثـل هـذا الاندفاع من قبل يا مايتا. كان الكلام يخرج من أعماقك. وكنتُ أفكر:«فلنذهب الآن فوراً إلى الجبـال، مـاذا ننتظـر». لقـد تشـكلت عقدة هنا، فـي حلقي، أقسم لك.

مـال مايتـا علـى جانبـه بمشقة، ورأى بروفـيل أنـاتوليو مرسـوماً على خلفـية خزانـة الكتب الغائمـة: ناصية شعره، جبهتـه اللامعـة، بياض أسنانه، شفتيه المفتوحتين.

ـ سنبدأ حياة أخرى ـ همس ـ. سنخرج من الكهف إلى الهواء الطلـق، مـن دسـائس الكـراج والمقهـى إلى العمـل بـين الجمـاهير وتوجيه الضربات إلى العدو. سنسبح وسط الشعب يا أناتوليو.

كان وجهه قريباً جداً من كتف الفتى العاري. وتسربت إلى أنفـه رائحـة بـشرة بـشرية، قويـة، وشوشـته. ركبتـاه المنكمـشتان لامستا ساق أناتوليو. وكان مايتا لا يكاد يميز فـي العتمة بروفـيله الثابت. هل عينـاه مفتوحتـان؟ أنفاسـه تُحـرك صدره بانتظام. وببطء مـد يـده اليمنـى الرطبـة الـتي ترتجـف، وتلمـس، حتـى وصـل إلى بنطاله:

ـ دعني أداعبه لك ـ دمدم بصوت محتضر وهو يشعر أن جسده كله يلتهب ـ دعني يا أناتوليو.

ـ وأخيراً، هناك مسألة أخرى لم نتعرض لها، ولكننا إذا أردنا الوصول إلى عمق الأشياء فلا بد لنا من تناولها ـ تنهد السيناتور كامبوس، بحيث يمكن القول إنه محزون، وأضاف: ـ وأنت تعرف بالطبع أن مايتا كان لوطياً.

فقلت له:

ـ هذه تهمة توجه بكثرة إلى الخصوم في بلادنا. وهي تهمة من الصعب إثباتها أيضاً. هل لهذا علاقة بما جرى في خاوخا؟

ـ أجل، ربما كانت تلك هي نقطة الضعف التي أمسكوه منها. من هذه النقطة حصروه إلى الجدار وأجبروه على العمل من أجلهم. إنه عقب أخيله. يكفي أن يتنازل مرة واحدة. وماذا يبقى له بعدها سوى مواصلة التعاون معهم؟

ـ لقد عرفت من موسيس أنه كان متزوجاً.

ـ جميع المخنثين يتزوجون ـ ابتسم السيناتور ـ. إنها وسيلة التنكر الأكثر شيوعاً. وفضلاً عن التهريج، فقد كان زواجه كارثة حقيقية. لم يستمر إلا لوقت قصير.

لقد بدأت جلسة مجلس الشيوخ، أو مجلس النواب، لأن أصواتاً متصاعدة وضربات حافظات أوراق تأتي من قاعة الجلسات وتُسمع أصوات مضخمة بمكبرات الصوت. البار أقفر ولم يعد فيه أحد. ودمدم السيناتور كامبوس: «سنستجوب الوزير. المجلس سيطلب منه أن يقول بوضوح إذا ما كانت قوات أجنبية قد توغلت داخل التراب الوطني.» ولكنه لا يبدي أمارات التعجل. ويواصل التكلم دون فقدان هذه الموضوعية العلمية التي يغطي بها أحقاده.

ـ ربما كان التفسير هناك ـ يفكر وهو يتلاعب بالمبسم ـ أيمكن الثقة بشخص شاذ جنسياً؟ إنه كائن غير مكتمل، مخنث، معرض لكل أشكال الضعف، بما في ذلك الخيانة.

ويتحمس وقد سيطر عليه الموضوع، فيبتعد عن مايتا وعن أحداث خاوخا ويوضح لي أن الشذوذ الجنسي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالانقسام الطبقي وبالثقافة البرجوازية. وإلا، لماذا لا يوجد شاذون

جنسياً في البلدان الاشتراكية؟ ليس الأمر صدفة، وليس لأن هواء تلك البلدان يجعل الناس فاضلين. من المؤسف أن البلدان الاشتراكية تمد يد المساعدة إلى دعاة قلب النظام في البيرو. لأن في تلك المجتمعات أشياء كثيرة جديرة بأن تحاكى. فقد اختفت فيها ثقافة البطالة والكسل والخواء النفسي، وهذا القلق الوجودي التقليدي لدى البرجوازية التي ترتاب حتى في الجنس الذي تنتمي إليه. الشذوذ هو صفة مطلقة، رغم التباينات.

ـ ألا تخجل من نفسك؟ ـ سمعه يقول ـ تستغل صداقتنا، لأنني في بيتك. ألا تخجل من نفسك يا مايتا؟

كان أناتوليو قد جلس على حافة السرير واضعاً يديه فوق ركبتيه، وكانت يداه مجتمعتين تسندان ذقنه. وكان البريق الزيتي الآتي من النافذة يصفع ظهره ويغطي بلمعان أخضر قاتم بشرته الناعمة التي تظهر منها ضلوعه.

وتلعثم مايتا وهو يبذل جهداً ليتكلم:

ـ بلى، إنني اخجل. انس ما حدث.

ـ كنتُ أظن أننا صديقان ـ قال الفتى ذلك بصوت مكسور، وهو ما يزال يدير له ظهره. وكان ينتقل من الغضب إلى الازدراء ثم إلى الغضب من جديد: ـ يا لخيبة الأمل، اللعنة! أكنت تظنني مخنثاً؟

ـ أعرف أنك لست كذلك ـ همس مايتا. والحر الذي كان يشعر به قبل لحظة تلاه برد ينخر عظامه: حاول أن يفكر ببابيخوس، بخاوخا، بالأيام المثيرة والمُطهرة الآتية، ثم أضاف: ـ لا تُشعرني بالذنب أكثر مما أشعر به.

ـ وكيف تراني أشعر أنا؟ ـ صرخ أناتوليو. واهتز السرير

الصغير مطلقاً صريراً وظن مايتا أن الفتى سينهض واقفاً، ويرتدي قميصه ويخرج صافقاً الباب بقوة. ولكن السرير هدأ من جديد وبقيت بشرة ذلك الظهر المشدودة أمامه. ثم أضاف الفتى: ـ لقد دمرتَ كل شيء يا مايتا. كم أنت فظيع. لقد اخترت لحظة طيبة. اليوم، هذا اليوم بالذات.

فتنهد مايتا:

ـ وهل حدث أي شيء؟ لا تكن طفلاً. إنك تتكلم وكأننا قد متنا.

ـ أنت بالنسبة إلي صرت ميتاً منذ هذه الليلة.

في هذه الأثناء سمعا فوق رأسيهما الضجيج الخافت: خافتاً، متعدداً، خفياً، مقرفاً، غامضاً. بدا لبضع ثوان وكأنه هزة أرضية، فقد ارتجت أخشاب السقف القديمة وبدا كما لو أنها ستنهار فوقهما. وفجأة، تلاشت الأصوات بصورة مباغته مثلما بدأت. إنها تسبب التشنج لمايتا في ليال أخرى، ولكنه كان يشعر بالامتنان نحوها في هذه الليلة. كان يحس بتشنج أناتوليو ويرى رأسه متقدماً، يصغي إذا ما كانت الأصوات ستعود: لقد نسي، لقد نسي. وفكر مايتا بجيرانه الذين ينامون في جماعات من ثلاثة أو أربعة أو ثمانية أشخاص في غرف البناء المصفوفة على شكل حذوة، غير مبالين بالقمامة، بالضجيج. إنه يحسدهم في هذه اللحظة.

تلعثم:

ــ إنها جرذان. هنالك الكثير منها ما بين السقفين. إنها تتسابق، تتشاجر، ثم تهدأ بعد ذلك. لا يوجد منفذ تدخل منه. لا تقلق.

ـ لست قلقاً ـ قال أناتوليو ذلك. ثم أضاف بعد قليل: ـ هناك حيث أعيش في كاياو توجد جرذان كذلك. ولكنها على الأرض، في المجارير، في... وليس فوق رؤوس الناس.

قال مايتا وقد تحسن صوته، وكان يسترد السيطرة على عضلاته، ويمكنه التنفس:

ـ في البدء كانت تأتيني الكوابيس. لقد وضعت سماً، ونصبت مصائد. وفي إحدى المرات تمكنا من جعل البلدية ترش المبيدات. ولكن دون جدوى. إنها تختفي بضعة أيام ثم تعود.

وقال اناتوليو:

ـ القطط خير من السموم والمصائد. يجب أن تحصل على قط. أي شيء بدل هذه السيمفونية فوق رأسك، يا للعنة.

وكما لو أن القطة النزوية قد أحست بالإشارة فعادت تطلق إحدى صرخاتها الفاحشة في البعيد. وبدا لمايتا أن أناتوليو يبتسم، فطفر قلبه.

ـ لقد تشكل في ح ع ث (ت) فريق عمل للإعداد مع بابيخوس لمسألة خاوخا. وقد كنتَ حضرتك واحداً من أعضاء ذلك الفريق، أليس كذلك؟ ما هي النشاطات التي قمتم بها؟

ـ قليلة جداً، وبعضها مضحك. ـ وبحركة ساخرة يحط السيناتور من قدر تلك الواقعة القديمة ويحولها إلى شقاوة صبيان: ـ لقد أمضينا مساء أحد الأيام مثلاً ونحن نطحن الفحم ونشتري ملح البارود والكبريت لكي نصنع باروداً. لم ننتج ميليغراماً واحد على ما أذكر.

يهز رأسه باستمتاع ويتأخر في إشعال سيجارة جديدة. يطلق

الدخان إلى أعلى ويتأمل الدوائر. حتى الندل قد ذهبوا، وصار بار الكونغرس يبدو أكثر اتساعاً. وفي داخل المجلس انفجرت عاصفة من التصفيق. «عسى المجلس يتمكن من جعل الوزير يتكلم على المكشوف. وأن نعرف إذا ما كان هناك مارينز في البيرو»، كان السيناتور يفكر بذلك متجاهلاً وجودي لبضع ثوان. «وإذا ما كان الكوبيون يستعدون لغزونا من الحدود مع بوليفيا.»

ثم عاد بعد ذلك إلى الموضوع:

- في فريق العمل بدأت شكوكنا تتأكد. كنا قد أخضعناه قبل ذلك إلى المراقبة، دون أن يلاحظ ذلك. منذ أن جاء بين عشية وضحاها بحكاية أنه قد التقى بعسكري ثوري. ملازم سيبدأ الثورة في الجبال، وأنه علينا مساندته. غيِّر الزمن، وانتقل إلى عام 1958. ألا ترى الأمر مثيراً للريبة؟ ولكن فيما بعد، حين ورطنا على الرغم من شكوكنا في مغامرة خاوخا، بدأت رائحته الكريهة تفوح.

ليست الاتهامات ضد مايتا وبابيخوس هي التي تثير حيرتي، وإنما منهج السيناتور الأملس كالأفعى، والزئبقي الذي لا يمكن الإمساك به. إنه يتكلم بنبرة ثابتة، ومن يسمعه يقول إن ازدواجية مايتا هي أمر بديهي. وفي الوقت نفسه، وعلى الرغم من جهودي، لم أستطع أن أنتزع منه دليلاً قاطعاً واحداً، ليس هناك سوى هذه الشبكة العنكبوتية من الظنون والافتراضات التي راح يحوكها حولي. ويصيح فجأة: «يقال أيضاً إن الكوبيين قد دخلوا وإنهم هم الذين يقومون بالعمليات العسكرية في كوسكو وبونو. الآن سنعرف ذلك.»

وأعيده إلى قضيتنا:

- أتتذكر بعض الوقائع التي دفعتك إلى الارتياب به؟

- هناك وقائع لا تحصى - يقول على الفور، بينما هو يطلق سحابة من الدخان - إنها وقائع قد لا تعني الكثير إذا أُخذت منفصلة، ولكنها تصبح أدلة حاسمة إذا وضعت في سياق مجرياتها.

- هل في ذهنك مثال محدد؟

ويقول السيناتور:

- في أحد الأيام اقترح علينا أن نضم إلى مشروع الانتفاضة المسلحة جماعات سياسية أخرى. ابتداء من الموسكوبيين. بل إنه كان قد قام بالاتصالات أيضاً. هل تلاحظ ذلك؟

وأجبته:

- بصراحة لا ألاحظ أي شيء. فكل الأحزاب اليسارية، من موسكوبيين، وبكينيين، وتروتسكيين تقبلوا بعد سنوات من ذلك فكرة التحالف، والعمل المشترك، بل والاندماج في حزب واحد. فلماذا يكون مريباً إذن هذا الشيء الذي لم يعد كذلك فيما بعد؟

فدمدم هو بسخرية:

- فيما بعد تعني بعد مرور خمس وعشرين سنة. فمنذ ربع قرن لم يكن بإمكان أي تروتسكي أن يدعو الموسكوبيين فجأة إلى التعاون. لقد كان الأمر حينذاك أشبه بأن تقترح الفاتيكان على الكاثوليك أن يتحولوا إلى الإسلام. إن مثل ذلك الاقتراح هو أشبه بوشاية ذاتية. لقد كان الموسكوفيون يكرهون مايتا إلى حد

الموت. وكان هو يكرههم أيضاً، في الظاهر على الأقل. أيمكنك أن تتصور تروتسكي يدعو ستالين إلى التعاون؟ ـ ويهز رأسه بأسف: ـ لقد كانت اللعبة واضحة.

قال أناتوليو:

ـ أنا لم أصدق ذلك مطلقاً. آخرون في الحزب صدقوه. أما أنا فكنت أدافع عنك دوماً قائلاً إنها افتراءات.

ودمدم مايتا:

ـ إذا كان التحدث في هذا الأمر سيجعلك تنسى، فلا بأس في أن نتحدث. أما إذا لم يكن كذلك، فمن الأفضل ألا نتحدث. إنه موضوع صعب يا أناتوليو، وأنا مشوش بشأنه على الدوام. إنها سنوات طويلة في السرية، وأنا أحاول خلالها أن أفهم.

سأله أناتوليو:

ـ أتريدني أن أذهب؟ سأذهب الآن حالاً.

ولكنه لم يتحرك. لماذا لا يستطيع مايتا أن يتخلى عن التفكير بتلك الأُسر التي في الغرف الأخرى، المتراكمة في العتمة، آباء وأبناء وأبناء للزوج أو الزوجة من زواج سابق يتقاسمون الفراش والبطانيات والهواء الفاسد ورائحة الليل العفنة؟ لماذا يسيطرون على تفكيره الآن، بينما هو لا يتذكرهم مطلقاً؟

قال:

ـ لا أريدك أن تذهب. أريدك أن تنسى ما حدث وألا نتحدث أبداً في هذا الأمر.

مرت في الشارع المجاور سيارة صاخبة ومدوية، لا بد أنها قديمة ومهترئة من أعلاها إلى أسفلها، فجعلت زجاج النوافذ يهتز.

ـ لست أدري ـ قال أناتوليو ـ. لست أدري إذا ما كان بإمكاني أن أنسى وأن يعود كل شيء مثلما كان من قبل. ما الذي جرى لك يا مايتا؟ كيف استطعت عمل ذلك؟

ـ سأخبرك بكل شيء مادمت مصراً إلى هذا الحد ـ سمع نفسه يقول ذلك بتصميم أدهشه. أغمض عينيه، وواصل وهو يخشى أن يخونه لسانه في أي لحظة: ـ لقد كنت سعيداً منذ اجتماع اللجنة. كنت مثل من استبدلوا دمه، سعيداً بفكرة الانتقال أخيراً إلى الممارسة العملية. كنت... باختصار، أنت رأيتني كيف كنت يا أناتوليو. وكان هذا هو السبب. الإثارة، الحماسة. إن الغريزة تعمي العقل، وهذا سيئ. لقد أحسستُ برغبة في لمسك، في مداعبتك. وقد راودتني هذه الرغبة مرات كثيرة منذ تعرفت عليك . ولكنني كنت أكبح نفسي على الدوام ولم تكن أنت تنتبه إلى ذلك. وفي هذه الليلة لم أستطع. أعرف أنك لن تشعر مطلقاً بالرغبة في أن ألمسك. إن أكثر ما يمكنني الحصول عليه من شخص مثلك يا أناتوليو هو السماح لي بأن أداعب عضوه.

ـ يجب علي أن أخبر الحزب بهذا وأن أطلب منهم أن يطردوك.

ـ والآن يتوجب عليّ أن أودعك ـ يقول السيناتور كامبوس فجأة وهو يلقي نظرة إلى ساعته ثم يلتفت بعينيه نحو قاعة الاجتماعات: ـ سيُناقَش مشروع تخفيض الخدمة العسكرية الإجبارية إلى سن الخامسة عشرة. جنود في الخامسة عشرة، ما رأيك. حسن، في صفوف الجانب الآخر هناك أطفال في سن المدرسة الابتدائية...

ينهض واقفاً وأحذو حذوه. أشكره على الوقت الذي خصصه

لي، ولكنني أعترف له مع ذلك بأنني أنصرف محبطاً بعض الشيء. فهذه الهجمات القاسية ضد مايتا وتفسيره لأحداث خاوخا على أنها مجرد مكيدة، لا تبدو لي شديدة التماسك. وواصل هو الابتسام بلطف، وقال لي:

ـ لست أدري إذا ما كنتُ قد أحسنت صنعاً بالتحدث إليك بكل هذه الصراحة. إنها نقيصتي، أعرف ذلك. غير أنه في هذه القضية بصورة خاصة، ولأسباب سياسية، يجب عدم تحريك الوحل كي لا نلوث أناساً كثيرين. ولكنك لستَ مؤرخاً وإنما أنت روائي. لو أنك قلت لي إنك ستكتب مقالاً أو كتاباً سوسيو بوليتيكياً، لكنتُ اعتصمت بالصمت. أما الرواية فهي شيء مختلف. إنها كتاب صدق أو لا تصدق بالطبع.

أوضح له أن كل الشهادات التي أحصل عليها، سواء أكانت صحيحة أم زائفة، ستنفعني. هل ظننت أنني سأستغني عن تأكيداتك؟ إنك مخطئ؛ فما أستخدمه ليس مصداقية الشهادات وإنما قدرتها على الإيحاء والابتداع، لونها، قوتها الدرامية. ولكنني أشعر بالمقابل أنك تعرف أكثر مما أخبرتني به.

فرد علي دون استغراب:

ـ مع أنني تكلمت مثل ببغاء. ولكن هناك أشياء لا أرويها حتى ولو سُلخت حياً. لا بد من منح وقت للوقت وللتاريخ يا صديقي.

مشينا باتجاه بوابة الخروج. وكانت ممرات الكونغرس مطروقة بكثرة: لجان آتية لمقابلة البرلمانيين، ونساء يحملن محافظ أوراق، وأنصار للأحزاب السياسية ينظمهم في جماعاتٍ أشخاصٌ يضعون أشرطة على سواعدهم، ويصطفون للصعود إلى شرفات

مجلس النواب، حيث ستكون المناقشة حامية حول قانون الخدمة العسكرية الجديد. الأمن مستتب في كل مكان: فهناك حراس من رجال الشرطة مزودون ببنادق، وتحريون باللباس المدني يحملون المسدسات الرشاشة، إضافة إلى الحراس الشخصيين للبرلمانيين. وبما أنه لا يُسمح لهؤلاء الأخيرين بدخول قاعات الجلسات، فقد كانوا يتمشون من جانب إلى آخر، دون أن يخفوا المسدسات التي يحملها بعضهم في قراب ويدسها آخرون ما بين البنطال والقميص. وكانت الشرطة تفتش بدقة كل شخص يجتاز البهو، فتجبره على فتح الأكياس أو المحافظ بحثاً عن متفجرات. ولكن هذه الاحتياطات لم تحل في الأسابيع الأخيرة دون وقوع محاولتي اغتيال داخل الكونغرس، كانت إحداهما جدية جداً: شحنة من الديناميت انفجرت ببعض السيناتورات وأدت إلى موت اثنين وجرح ثلاثة منهم. كان السيناتور كامبوس يعرج، مستنداً إلى عكاز، ويوجه التحيات ذات اليمين وذات اليسار. رافقني حتى المخرج. اجتزنا ذلك الجو المفعم بالناس، وبالأسلحة، وبالمجادلات السياسية، الذي يبدو أشبه بحقل ألغام. لدي إحساس بأنه يمكن لحادث تافه أن يفجر الكونغرس كله مثل برميل بارود.

ويقول السيناتور ونحن عند الباب:

ـ كم هو جيد التمتع بقليل من الهواء البارد. لست أدري كم من الساعات أمضيت هنا، والهواء في الداخل ملوث بكل هذا الدخان. حسن، لقد ساهمت بنصيبي في ذلك. إنني أدخن كثيراً. يجب علي أن أتخلى عن السيجارة في أحد هذه الأيام. الحقيقة أنني توقفت عن التدخين حوالى خمس مرات.

يمسك مرفقي بألفة، ولكن كي يقول لي هامساً في أذني:

- فيما يتعلق بحديثنا، أنا لم أقل لك شيئاً. لا حول مايتا ولا حول خاوخا. لا أريد لأحد أن يتهمني بالمساهمة، في هذه اللحظات، بانقسام اليسار الديمقراطي من خلال بعث جدل حول أحداث مما قبل التاريخ. إذا ما استعملتَ اسمي، فسوف تجبرني على تكذيبك - واصلَ الكلام وكأنه يمزح، ولكننا كلينا كنا نعرف أنه تحت النبرة المستخفة، كان يصوغ تحذيراً: - لقد صمم اليسار على دفن هذه الواقعة، وهذا هو الحل العقلاني في الوقت الحالي. ولا بد أن تحين الفرصة المناسبة لنشر الغسيل تحت الشمس.

- إنني أدرك ذلك بوضوح أيها السيناتور. لا تخش شيئاً.

- إذا ما قوّلتني شيئاً فسيكون علي أن أقاضيك بتهمة التزوير - يقول ذلك وهو يغمز لي بعينه ويمد يده بما يشبه المصادفة ليتلمس الجزء المنتفخ من سترته، حيث يخبئ المسدس، ويضيف: - ولكنك صرت تعرف الحقيقة، فاستخدمها دون ذكر اسمي.

يمد لي يداً متوددة ويغمز لي بعينه مرة أخرى، بخبث: إن له أصابع قصيرة ورقيقة من الصعب تصورها تضغط على الزناد.

- هل أحسست بالحسد نحو البرجوازيين يوماً؟ - قال مايتا.

- لماذا تسألني عن ذلك؟ - فوجئ أناتوليو.

- لأنني أنا الذي احتقرتهم على الدوام، أحسدهم على شيء واحد - قال مايتا ذلك، وفكر: هل سيُضحكه؟

- وما هو هذا الشيء؟

- تمكنهم من الاستحمام كل يوم - كان مايتا واثقاً من أن

الفتـى سيبتـسم علـى الأقـل، ولـكنـه لم يـره يبـدي أدنـى تـأثر. فقـد كان ما يـزال جالـساً علـى حافـة الـسريـر؛ وكـان قـد انحـرف قليـلاً بحيـث صـار بإمكانـه الآن أن يـرى بروفـيله، متطـاولاً، شـديد الجدية، أسمر، بارز العظام، يتسلط عليه البريق الآتـي مـن النافـذة. كـان لـه فـم عـريض الـشفتين وبارزهمـا، وبـدت أسـنانه الـكبيرة لامعة.

ـ مايتا.

ـ نعم يا أناتوليو.

ـ أتظن أنه يمكن لعلاقتنا بعد هذه الليلة أن تظل مثلما كانت فـي السابق؟

ـ أجل، ستبقى نفسها ــ قـال مايتـا ــ. لم يحـدث أي شـيء يـا أناتوليو. وهل حدث أي شيء؟ أدخل هذا فـي دماغك مرة واحدة.

وسُـمع مـرة أخـرى الـركض مـا بـين الـسقفـين، قـصيراً، متكتماً، وأحس مايتا أن الشاب قد انتصب متوتراً.

ـ لست أدري كيف يمكنك أن تنام مع هذه الضجة كل ليلة.

فرد مايتا:

ـ أستطيع النوم مع هذه الضجة لأنـه لا منـاص لـي. ولـكـن لـيس صـحيحاً أن الإنـسان يعتـاد علـى كـل شـيء مثلمـا يقولـون. فأنـا لم أعتد على عدم استطاعتي الاستحمام كلما رغبت. مع العلم أنني قد نسيت متى سكنت آخر مرة فـي بيت فـيه حمام. أظن أنه كـان بيت خالتي خوسيفا، فـي سوركييو، منذ قرون. ولكن الاستحمام مـازال مـع ذلـك أمـراً أتـشوق إليـه كـل يـوم. عنـدما أعـود متعبـاً وأتمكن من الاغتسال مثل قطٍ فقط هناك فـي الأسفل، ثم أصعد

بطشت ماء أغمس فيه قدمي، عندئذ أفكر بكم هو لذيذ الاستحمام بالدوش، الدخول تحت الماء المتدفق ليحمل الماء معه الوسخ، والهموم. ثم النوم منتعشاً بعد ذلك... يا لطيب حياة البرجوازيين يا أناتوليو.

- ألا يوجد حمام عمومي قريب؟

فقال مايتا:

- هناك واحد على بعد خمس كوادرات، وأنا أذهب إليه مرة أو مرتين في الأسبوع. ولكنني لا أملك النقود دائماً. فالحمام يكلف مثلما تكلف وجبة طعام في المطعم الجامعي. يمكنني أن أعيش دون استحمام، ولكنني لا أستطيع العيش دون أكل. هل لديك دوش في بيتك؟

- أجل. المشكلة أن الماء غير متوفر دائماً ـ قال أناتوليو.

- يا لك من محظوظ ـ تثاءب مايتا ـ. أترى.. هناك شيء على الأقل تشبه به البرجوازيين.

لم يبتسم أناتوليو هذه المرة أيضاً. بقيا صامتين وساكنين، كل منهما في مكانه. وبالرغم من أن الظلام مازال هو نفسه، إلا أن مايتا لاحظ قدوم تباشير الفجر في الجانب الآخر من النافذة: محركات سيارات، نفير بين حين وآخر، أصوات غير مميزة، حركة نشطة. أتكون الساعة الخامسة، السادسة؟ لقد أمضيا الليلة مؤرقين. كان يشعر بالضعف كما لو أنه بذل مجهوداً عظيماً، أو كأنه ناقه من مرض شاق.

- فلننم قليلاً - قال وهو ينقلب على ظهره. غطى عينيه بساعده وابتعد قدر ما يستطيع ليفسح له مجالاً ـ. لابد أن الوقت قد تأخر.

فـي الغـد، أو اليـوم بكلمـة أصـح، سـيكون علـي أن أبـدأ بقـصم ظهري من جديد.

لم يقل أناتوليو شيئاً، ولكن مايتا أحس به يتحرك بعد قليل، وسمع السرير يصر ورآه بطرف عينه وهو يستلقي على ظهره أيضاً، إلى جانبه، محاذراً ألا يلمسه.

ـ مايتا.

ـ أيوه يا أناتوليو.

لم يقل الفتى شيئاً، مع أن مايتا انتظر لوقت لا بأس به. كان يشعر بأنه يتنفس بقلق. وكان جسده الجامح قد بدأ يحمى من جديد. ولكنه قال:

ـ نم الآن. وغداً لن نفكر إلا بخاوخا يا أناتوليو.

ـ يمكنك أن تداعبه لي إذا رغبت ـ سمعه يهمس بخجل. ثم يضيف بصوت أشد خفوتاً، وبخوف: ـ ولكن ليس أكثر من ذلك يا مايتا.

يبتعد السيناتور كامبوس وأبقى أنا في أعلى أدراج الكونغرس، قبالة نهر من البشر، والميكروباصات، والسيارات، والحافلات، والحركة، والصخب في ساحة بوليفار. إلى أن يغيب عن النظر في جادة أبانكاي، ألحق حافلة نقل عتيقة، رمادية ومائلة إلى جهتها اليمنى، وعادمها، مثل مدخنة على مستوى السقف، تطلق سحابة دخان أسود، وعلى أبوابها تتعلق كتلة من الناس متمسكة بأعجوبة، يحتكون بالسيارات العابرة، وبأعمدة النور، وبالمشاة العابرين. إنها ساعة الخروج من العمل. في كل ناصية هناك حشد مزدحم ينتظر الحافلات والميكروباصات؛

وعندما يصل أحدها يدور حوله اشتباك من التدافع، والصراخ، والمماحكة والسباب. إنهم أناس بؤساء ومتعرقون، رجال ونساء تشكل معركة الشوارع هذه من أجل الصعود إلى الآليات النتنة روتينهم اليومي، حيث ينتقلون فيها، إذا استطاعوا الصعود إليها، مدة نصف ساعة أو ثلاثة أرباع الساعة، وقوفاً، محشورين، مختنقين من الحر. وهؤلاء البيرويون، على الرغم من ملابسهم البائسة والمضحكة بعض الشيء، ومن تنانيرهن المبتذلة، وربطات أعناقهم المزيتة، هم أعضاء في أقلية لمست إلهة الحظ جبهتها، فمهما كان تواضع ورتابة حياتهم، إلا أن لديهم عملاً كموظفات وموظفين، وراتباً صغيراً، وضماناً اجتماعياً وكفالة تقاعدية. وهذه امتيازات عظيمة إذا ما قورنوا على سبيل المثال بهؤلاء المولدين الحفاة الذين أراهم يجرون عربة ممتلئة بزجاجات فارغة، ويبصقون على السيارات وهم يتفادونها، أو بأفراد هذه الأسرة ذوي الأسمال ـ امرأة دون سن محددة، وأربعة أولاد لهم بشرة مغطاة بالقذارة ـ الذين يجلسون على أدراج متحف محكمة التفتيش، ويمدون أيديهم آلياً فور رؤيتي أقترب: «صدقة يا باباثيتو»، «أرجوك يا سينورثيتو»...

وفجأة، بدلاً من أن أواصل طريقي باتجاه ساحة سان مارتين، أقرر الدخول إلى متحف محكمة التفتيش. فأنا لم أذهب إليه منذ زمن طويل، ربما منذ الزمن الذي رأيت فيه زميلي في الدراسة مايتا للمرة الأخيرة. وبينما أنا أزور المكان، لم أستطع أن أنتزع من رأسي صورة وجهه، كما لو أن هيئة ذلك الرجل الهرم والمنهوك مبكراً الذي رأيته في الصورة الفوتوغرافية في بيت خالته وعرابته، قد استدعيت إلى ذهني بصورة لا تُقاوم بتأثير المبنى الذي

أزوره. ما هي العلاقة؟ ما هو الخيط السري الذي يجمع بين الهيئة كلية القدرة التي تولت طوال ثلاثة قرون حراسة الأصولية الكاثوليكية في البيرو وفي أميركا الجنوبية، وذلك المناضل الثوري الغامض الذي خرج إلى النور مثل وميض برق قبل خمس وعشرين سنة؟

المبنى الذي كان قصر محكمة التفتيش فيما مضى هو الآن مجرد أطلال، ولكن زخارف خشب الكابلي التي من القرن الثامن عشر مازالت محفوظة بحالة جيدة، مثلما توضح معلمة تلقينية لجماعة من التلاميذ. مشغولات بديعة: فقد كان قضاة محاكم التفتيش رجال ذوق. لقد اختفت تقريباً كل زخارف القيشاني الاشبيلية التي استوردها الرهبان الدومنيكانيون لتزيين المكان. وكذلك بلاط الأرضية الذي جُلب من إسبانيا؛ فهو لا يكاد يظهر تحت القذارة. أتوقف قليلاً أمام الشعار المنحوت في الحجر الذي كان يعلو باعتزاز واجهة هذا القصر، وفيه الصليب والسيف وغصن الغار. إنه يستقر الآن فوق طاولة مخلعة.

لقد استقر قضاة التفتيش هنا في سنة 1584، بعد أن أمضوا الخمس عشرة سنة السابقة قبالة كنيسة الرحمة. اشتروا العقار من دون سانتشو دي ريبيرا، ابن أحد مؤسسي ليما، بملبغ زهيد، ومن هنا سهروا على النقاء الروحي في الأراضي التي تسمى اليوم البيرو، والاكوادور، وكولومبيا، وفنزويلا، وبنما، وبوليفيا، والأرجنتين، وتشيلي، وباراغواي. من هذه القاعة، ومن وراء هذه المنضدة الثقيلة المصنوعة من قطعة خشب واحدة، ولها بدل القوائم أشكال مسوخ بحرية، كان قضاة التفتيش ذوو المسوح البيضاء

وجيشهم من المجازين والمحضرين والكتبة والسجانين والجلادين، يقارعون بحماسة كل أشكال الشعوذة، والشيطنة، واليهودية، والهرطقة، وتعدد الزوجات، والبروتستانتية، والشذوذ. وفكر: «كل أشكال الهرطقة والانشقاق». لقد كان شاقاً وصارماً، شرعياً ومهووساً عمل السادة القضاة الذين كان بينهم (أو تعاون معهم) أبرز مثقفي العصر من محامين ولاهوتيين وأساتذة وخطباء وناظمي أشعار وناثرين. وفكر: «كم من الشاذين جنسياً أحرقوا؟». هناك تحقيق مفرط في الدقة والتفصيل، يُحبّر عدداً لا حصر له من الصفحات في ملف محفوظ بإحكام، يسبق كل إدانة وإعدام للهراطقة بالحرق. وفكر: «كم من المجانين عذبوا؟ وكم من السذج خنقوا؟». كانت تمر سنوات قبل أن تصدر محكمة التفتيش القدسية العليا حكمها من وراء هذه المنضدة التي تزينها جمجمة ومحابر فضية مزركشة بأشكال سيوف وصلبان وأسماك، وعبارة: «أنا، نور الحقيقة، أقود ضميرك ويدك. فإذا لم تطبق العدالة، تصنع بحكمك دمارك نفسه.» وفكر: «كم من القديسين الحقيقيين، وكم من الجريئين، وكم من البسطاء المساكين أحرقوا؟»

لأن ما كان يقود يد حاكم التفتيش لم يكن نور الحقيقة، بل الوشاة. وهم من كانوا يُبقون هذه الزنازين والسجون ممتلئة، هذه الكهوف الرطبة والعميقة التي لا تصلها الشمس ولا يخرج منها السجين إلا كسيحاً. وفكر: «أنت كنت ستنتهي هنا على أي حال يا مايتا. بسبب طريقتك في الحياة.» كان الواشي ينعم بأقصى الحماية، وكانت سريته مكفولة، لكي يتعاون دون أي

خوف من العقاب أو الانتقام. هاهي ذي سليمة بوابة السر، وتطلع مايتا بإحساس قلقٍ من الفتحة الصغيرة، يراوده شعور بأنه ذلك الواشي الذي يمكن لشهادته أن تقود المرء إلى السجن لسنوات طويلة، وتحرمه من كل ثرواته، وتحكم عليه بحياة مشينة، أو بالحرق حياً. اقشعر بدنه: كم كان سهلاً التخلص من خصم. يكفي الدخول إلى هذه الحجرة الضيقة، ووضع اليد على الكتاب المقدس، والإدلاء بالشهادة. لقد كان بإمكان أناتوليو أن يأتي، وأن ينظر من الفتحة، وأن يهز رأسه موافقاً وهو يشير إليه ليقدمه إلى لهيب المحرقة.

لم يحرقوا الكثيرين في الحقيقة، فهناك لوحة مكتوبة بخط مريب توضح: خمسة وثلاثون شخصاً خلال ثلاثة قرون. ليس بالرقم المخجل. ومن بين الخمسة والثلاثين، هناك ثلاثون شخصاً ـ ويا للعزاء البائس ـ أعدموا بآلة الخنق قبل أن تأكل النار جثثهم. وأول بطل لاستعراض الحرق في ليما لم يحالفه الحظ: فذلك الفرنسي، ماتيو سالادو، أحرقوه حياً، لأنه كان ينصرف إلى إجراء تجارب كيميائية وشى بها أحدهم بأنها «اتصالات مع الشيطان». وفكر: «سالادو؟». أيكون ذلك الفرنسي هو الذي ولّد اللفظة البيروية «salado» للإشارة إلى الشخص سيئ الطالع؟ وفكر: «من الآن وصاعداً لن تكون ثورياً سالادو يا مايتا.»

ومع أن المحكمة المقدسة لم تحرق أناساً كثيرين، إلا أنها عذبت دون حدود. فبعد الوشاة، كان التعذيب الجسدي هو أكبر حمّال للضحايا، من كل الأجناس والظروف والأحوال، إلى قضاة الإيمان. وهنا تعرض جيداً، في معرض الرعب، الذي كانت

تستخدمه المحكمة المقدسة من أجل ـ الفعل الرياضي ـ «انتزاع الحقيقة» من المشبوه. وثمة دمى من الورق المضغوط تعرف الزائر على كيفية عمل «البكرة» أو «استرابادو»، وهو حبل يعلق به المتهم ببكرة، ويداه مقيدتان إلى ظهره بينما يربط بقدميه ثقل يزن مئة كيلوغرام. أو كيف كان يمدد على «البوترو»، وهي طاولة عمليات، يمكن بواسطة أربعة ضواغط خلع أطرافه الأربعة، واحداً بعد واحد أو الأربعة معاً. وأكثر أساليب التعذيب عامية هو الغل الذي يثبت رأس المتهم مثل نير بينما هو يُجلد؛ وأكثرها تخيلاً «المانكويردا»، وهي ذات تفنن وتخيل سوريالي، حيث يمكن للجلاد، بواسطة جهاز من الأصفاد والأغلال، أن يمارس التعذيب على ساقي أو ذراعي أو عضدي أو عنق أو صدر المتهم. وأكثر أساليب التعذيب معاصرة هو «الخِمار» ـ وهو قطعة قماش توضع على الأنف أو تحشر في الفم، ويسكب عليها ماء متواصل، فتمنع التنفس عندما تُشبع بالماء ـ وأكثرها استعراضية هو المجمرة التي تُقرّب من قدمي المحكوم المثبتتين مسبقاً والمطليتين بالدهن لكي تشويا. وفكر مايتا: «الآن لديهم الكهرباء في الخصيتين، والحقن بعقارالهلوسة، والتغطيس في براميل مملوءة بالبراز، والحرق بالسجائر.» لم يحدث تطور يذكر في هذا المجال.

ولكنه تأثر أكثر ـ لقد فكر عشر مرات: «ما الذي تفعله هنا يا مايتا، أهذا هو الوقت المناسب لإضاعة الوقت، أليس لديك أموراً أشد أهمية يجب إنجازها» ـ برؤية الحجرة الصغيرة التي تضم الملابس التي كان يتوجب على المتهمين باليهودية والشعوذة أو بمباضعة الشيطان أو الهرطقة أن يلبسوها لشهور، لسنوات أو حتى

موتهم، ممن أظهروا «توبتهم وندمهم الشديد» وارتدوا عن خطاياهم وتعهدوا بافتداء أنفسهم. إن حجرة لأدوات التنكر، وسط هذه الفظاعات، تبدو شيئاً أكثر إنسانية. هنا يوجد الـ«كوروثا» أو القبعة التي لها شكل طرطور والسامبينيتو[1] أو عباءة الجمال البيضاء المطرزة بصلبان وأفاع وشياطين ولهيب، وبها كان يسير المحكومون في موكب حتى ميدان بلاثا مايور ـ وهناك وقفة قصيرة في زقاق الصليب، حيث يتوجب عليهم أن يجثوا قبالة صليب دومنيكاني ـ، ليتعرضوا هناك للجلد أو الإعدام، أو يتوجب عليهم أن يرتدوا تلك الثياب نهاراً وليلاً طوال مدة الحكم. هذه هي الصورة الأخيرة التي بقيت عالقة في ذهني عندما أنهيت الزيارة، ومضيت نحو بوابة الخروج: إنها صورة أولئك المحكومين وهم يقومون بأعمالهم اليومية بذلك الزي الذي كان يثير الرعب والهلع والقرف والتقزز والسخرية والحقد فيما حولهم. لقد تصور ما كانت عليه أيام وشهور وسنوات أولئك الناس بتلك الملابس، ممن كان الجميع يشيرون إليهم ويتجنبونهم وكأنهم كلاب مصابة بداء الكلب. وفكر: «إنه متحف يستحق عناء زيارته.» تعليمي، مبهر. ففيه عنصر جوهري وثابت من تاريخ هذه البلاد، منذ أزمنتها المغرقة في القدم، عنصر مكثف في بضعة صور وأشياء مؤثرة: إنه العنف. العنف الأخلاقي والجسدي، العنف المتولد من التعصب والتزمت، العنف الأيديولوجي، عنف الفساد والحماقة

[1] ـ سامبينيتو (sambenito): بدلة العار التي كان يلبسها المحكوم عليهم في محاكم التفتيش.

الذي رافق السلطة على الدوام عندنا، وهذا العنف القذر، الضئيل، اللئيم، الانتقامي، المصلحي، الطفيلي الذي يتولد من العنف الأول. من الجيد المجيء إلى هنا، إلى هذا المتحف، للتأكد كيف وصلنا إلى ما نحن عليه اليوم، ولماذا نحن على ما نحن عليه.

عند بوابة متحف محكمة التفتيش، كانت قد انضمت إلى أسرة الأسمال الجائعة دزينة أخرى على الأقل من المسنين، والرجال والنساء والأطفال. لقد كانوا يشكلون بلاطاً صغيراً من معجزات نسالات وسخام وقشور. ما إن رأوني أظهرحتى مدوا على الفور أيادي ذات أظفار سوداء، طالبين صدقة. العنف من ورائي والجوع من أمامي. هنا، على هذه الأدراج، تتلخص بلادي. هنا يتلامس وجها تاريخ البيرو. وأفهم لماذا رافقني مايتا متسلطاً على عقلي خلال جولتي في المتحف.

أنطلق بما يشبه الركض حتى سان مارتين لأركب الحافلة، فقد تأخر الوقت، لأن حركة المرور تتوقف تماماً قبل نصف ساعة من موعد منع التجوال. أخشى أن يدركني حظر التجوال هذه المرة وأنا أمشي لأقطع الكوادرات التي تفصل ما بين جادة غراو وبيتي. إنها كوادرات قليلة، ولكنها تكون خطرة عندما يخيم الظلام. لقد وقعت فيها عدة عمليات سطو، وفي الأسبوع الماضي جرت عملية اغتصاب. فزوجة لويس سالدياس الذي تزوج حديثاً، ويعيش قبالة بيتي - إنه مهندس مائي - تعطلت سيارتها وتأخرت عن موعد حظر التجوال، فاضطرت إلى المجيء ماشية من سان إيسيدرو. وفي هذا الجزء الأخير من الطريق، أوقفتها دورية. كانوا ثلاثة من رجال الشرطة: أدخلوها إلى سيارتهم وعروها - بعد أن ضربوها،

لأنها قاومتهم ـ واغتصبوها. ثم أوصلوها بعد ذلك إلى بيتها قائلين لها: «احمدي الله أننا لم نطلق عليك رصاصة». فهذه هي الأوامر التي لديهم للتعامل مع من يخرقون حظر التجوال. روى لي لويس سالدياس ذلك بعينين مفعمتين بالغضب وأضاف أنه صار يشعر منذ ذلك الحين بالسعادة كلما جرى اغتيال شرطي. يقول إنه لم يعد يهمه أن ينتصر الإرهابيون، لأنه «لا يمكن لأي شيء أن يكون أسوأ مما نعيشه الآن». أنا أعرف أنه مخطئ، وأن الأمور قد تسوء، وأنه لا توجد حدود للإنحدار، ولكنني أحترم ألمه وأصمت.

الفصل الخامس

من أجل ركوب القطار إلى خاوخا يجب شراء التذكرة منذ اليوم السابق والحضور إلى محطة ديسامبارادوس في السادسة صباحاً. لقد قالوا لي إن القطار يسافر ممتلئاً على الدوام، وبالفعل، فقد اضطررت إلى ركوب القطار مزاحمة. ولكن الحظ حالفني بالعثور على مقعد، بينما كان معظم المسافرين وقوفاً. لا وجود في العربات لدورات مياه، وبعض المتهورين يتبولون من فوق السلم بينما القطار سائر. ومع أنني كنت قد تناولت بعض الطعام قبل أن أغادر ليما، إلا أنني بدأت أشعر بالجوع بعد ساعات قليلة. من المستحيل شراء أي شيء في المحطات التي ينزل أو يصعد فيها المسافرون: محطة تشوسيكا، سان بارتولومي، ماتوكانا، سان ماتيو، كاسابالكا، لاأوريا. قبل خمس وعشرين سنة، كان الباعة المتجولون يهاجمون العربات في كل موقف عارضين الفواكه والمياه الغازية والسندويشات والحلوى. أما الآن فإنهم لا ينادون إلا على بعض المأكولات التافهة أو الأعشاب المغلية. ولكن على الرغم من ازعاجات الرحلة وبطئها، فإنها مليئة بالمفاجآت، أولى المفاجآت هي هذه العربات التي تتسلق صاعدة من مستوى البحر إلى ارتفاع خمسة آلاف متر لتجتاز جبال الانديز من ممر

أنتيكونا، عند أقدام جبل ميغس. وحيال المشهد الشامخ نسيت وجود الجنود ببنادقهم المهيأة في كل عربة والرشاش الموجود فوق سطح القاطرة، تحسباً من الهجمات. كيف مازال هذا القطار يعمل؟ الطريق الإسفلتي إلى سلسلة الجبال المركزية يُدفن باستمرار تحت وابل من الصخور التي ينتزعها الإرهابيون من حواف الطريق بالمتفجرات، حتى أصبح الطريق غير صالح للاستخدام تقريباً. لماذا لم يُنسف هذا القطار حتى الآن، ولم تُسد أنفاقه ولم تُخرب جسوره؟ ربما كان من المناسب لهم، لهدف استراتيجي ما، إبقاء الاتصال بين ليما وخونين قائماً. ولكن هذا يسعدني، فالرحلة إلى خاوخا ضرورية من أجل إعادة بناء تحولات وتقلبات مايتا.

تتوالى الجبال، تفصل بينها أحياناً هاويات سحيقة تشخر في أعماقها أنهار متدفقة. يجتاز القطار جسوراً وأنفاقاً. من المستحيل عدم التفكير بمأثرة المهندس ميغس الذي شيد قبل أكثر من ثمانين عاماً هذه السكة في مثل هذه الجغرافية ذات الاختناقات والقمم والذرى التي تزمجر فيها العواصف، وتحت رحمة ما تحمله الأنهار. هل فكر الثوري مايتا بأوديسا ذلك المهندس حين ركب هذا القطار أول مرة، في صباح يوم من أيام شباط أو آذار، قبل خمس وعشرين سنة؟ لقد فكر في الآلام التي تحمّلها آلاف المولدين والهنود لكي يمدوا هذه السكة، ويقيموا هذه الجسور، ويشقوا هذه الأنفاق مقابل أجر رمزي، لا يكاد يكون في بعض الأحيان سوى حفنة من طعام سيئ مع قليل من أوراق الكوكا، كانوا يتعرقون اثنتي عشرة ساعة يومياً، ينحتون الأحجار،

ويفجرون الصخور، ويحملون الأثقال على كواهلهم وهم نائمون، ويسوون الأرض، حتى يتحول أعلى قطار في العالم إلى واقع. كم منهم فقدوا أصابعهم، عيونهم، وهم ينسفون سلسلة الجبال؟ كم منهم سقط في هذه الهاويات السحيقة أو دفن تحت الانهيارات التي كانت تخرّب المعسكرات حيث ينامون فوق بعضهم البعض، مرتجفين من البرد، سكارى من الإنهاك، مخدرين بالكوكا، لا يتدفؤون إلا بعباءات البونشو وبأنفاس رفاقهم؟ كان قد بدأ يشعر بدوار المرتفعات: بعض الصعوبة في التنفس، ضغط الدم في الصدغين، تسرع القلب. وفي الوقت نفسه لم يكن يكاد يستطيع مواراة انفعاله. كان يرغب في الابتسام، في الصفير، في مصافحة أيدي جميع من هم في العربة. وكان يموت لهفة للقاء بابيخوس.

ـ أنا الأستاذ أوبيبوث ـ قال لي ذلك وهو يمد يده فور اجتيازي حاجز محطة خاوخا، حيث كنت قد وقفت في طابور طويل ليفتشني شرطيان بالملابس المدنية ويفتحا حقيبتي اليدوية التي أضع فيها بيجامتي ـ. الأصدقاء يدعونني الأفطس. وإذا سمحت لي، فإننا أنا وأنت قد أصبحنا أصدقاء.

كنت قد كتبت له لأخبره برحلتي، وها قد جاء لانتظاري. هناك في محيط المحطة انتشار عسكري كبير: جنود يحملون البنادق وحواجز وأسلاك شائكة. ودبابة صغيرة تروح وتجيء في الشارع بمشية سلحفاة. مشينا. هل الوضع سيئ جداً هنا؟

فيقول لي أوبيبوث:

ـ أصبح أكثر هدوءاً نوعاً ما في هذه الأسابيع الأخيرة. حتى

إنهم أوقفوا العمل بحظر التجوال. لقد صار بإمكاننا الخروج لرؤية النجوم. كنا قد بدأنا ننسى كيف هي.

يروي لي أن المتمردين شنوا منذ شهر هجوماً واسعاً على ثكنة خاوخا. استمر تبادل إطلاق النار طوال الليل وبقي محيط الثكنة مزروعاً بالجثث. انبعثت الروائح الكريهة، وكانت الجثث كثيرة إلى حد أنه كان لا بد من رشها بالكيروسين وإحراقها. منذ ذلك الحين لم يعد المتمردون إلى القيام بأي عمل مهم في المدينة. ولكن الجبال المحيطة تستيقظ كل صباح على رايات حمراء منصوبة ومزينة بالمنجل والمطرقة. وتقوم الدورية العسكرية بانتزاع تلك الأعلام مساء كل يوم.

ـ لقد حجزت لك غرفة في نزل باكا ـ قال ـ. إنه مكان جميل، ستري.

إنه عجوز مربوع وقصير القامة، محشور في بدلة مخططة مزررة، مما يجعله يبدو أشبه بكيس متحرك. كان يضع ربطة عنق ذات عقدة ميلمترية وينتعل حذاء لا بد أنه اجتاز بركة موحلة. فيه ذلك التجمل التقليدي لأناس سلسلة الجبال ويتكلم اسبانية صافرة تتخللها بين حين وآخر ألفاظ بالكيتشوا. وجدنا سيارة تكسي عتيقة، بالقرب من الساحة. المدينة لم تتغير كثيراً منذ المرة الأخيرة التي زرتها فيها. ولا تبدو للنظرة المجردة على الأقل آثار تشير إلى الحرب. فليس هناك أكوام قمامة ولا حشود من المتسولين. البيوت تبدو نظيفة وخالدة، بأبوابها العتيقة وشبابيكها ذات القضبان الحديدية المتقاطعة. لقد أمضى الأستاذ أوبييوث ثلاثين سنة وهو يعلّم العلوم في مدرسة سان خوسيه الوطنية.

وعندما تقاعد ـ في الأيام التي بدأ يتحول فيها ما كنا نظن أنه مجرد غارة متطرفين ليتخذ أبعاد حرب أهلية ـ، أقيمت حفلة على شرفه حضرها جميع الطلاب السابقين الذين كانوا تلاميذه. وعندما ألقى كلمته، أجهش بالبكاء.

ـ مرحباً يا أخي ــ قال باييخوس.

ـ مرحباً يا رجل ــ قال مايتا.

ـ ها أنتذا قد جئت أخيراً ــ قال باييخوس.

ـ أجل، أخيراً ــ قال مايتا.

تعانقا. كيف ما يزال نزل باكا مفتوحاً؟ هل مازال السياح يأتون إلى خاوخا؟ لا، بالطبع لا. وما الذي سيأتون من أجله؟ كل الاحتفالات، بما في ذلك الكرنفالات الشهيرة، قد ألغيت. ولكن النزل ما يزال مفتوحاً لأن الموظفين الذين يأتون من ليما ينزلون فيه، وكذلك البعثات العسكرية أحياناً. يبدو أنه لا توجد الآن أي بعثة عسكرية، لأنه لا وجود لحراسة في المكان. النزل لم يعرف الطلاء منذ قرون، وهو يثير في النفس انطباعاً بالأسى. ليس هناك عمال خدمة ولا مدير، وإنما حارس فقط يقوم بكل الأعمال. بعد أن تركتُ حقيبتي الصغيرة في الغرفة الممتلئة بنسيج العناكب، مضيت للجلوس على الشرفة المطلة على البحيرة، حيث ينتظرني الأستاذ أوبييوث. أتراه يعرف قصة باكا؟ ويشير إلى المياه الصافية، والسماء المرسومة، والخط الناعم للجبال المحيطة بالماء: هذا المكان كان منذ مئات السنين قرية أناس أنانيين. وظهر المتسول في صباح يوم ذي شمس مشرقة وهواء عليل. ومضى من بيت لبيت يطلب الصدقات، وكان ساكنو جميع البيوت يطردونه

بفظاظة، ويستحثون الكلاب عليه. ولكنه وجد في أحد آخر البيوت أرملة رحيمة، تعيش مع طفل صغير. فقدمت له ما يأكله وبعض كلمات الأمل. عندئذ تألق المتسول، وأبدى للمرأة الرحيمة وجهه الحقيقي ـ وجه يسوع ـ وأمرها: «أخرجي من باكا مع ابنك الآن فوراً، واحملي معك كل ما تستطيعين حمله. ولا تلتفتي مطلقاً إلى هنا مهما سمعت». انصاعت الأرملة وغادرت باكا، ولكنها حين كانت تصعد الجبل سمعت ضجة قوية جداً، وكأنها صادرة عن طبل هائل، فدفعها الفضول إلى الالتفات. واقتصر ما رأته على انهيار الصخور والوحل المرعب الذي دفن باكا وساكنيها والمياه التي حولتْ ما كان قريتها إلى بحيرة هادئة للبط وأسماك الترويت. ولم تر هي أو ابنها ولم يسمعا أكثر من ذلك لأن التماثيل لا ترى ولا تسمع. أما أهالي خاوخا فيمكنهم رؤيتها هي وابنها، في البعيد: شكلان متحجران، يرصدان البحيرة، في نقطة من الجبال تحج إليها المواكب لتذكر أولئك السكان الذين عاقبهم الرب لجشعهم وقسوتهم وصاروا يرقدون هناك في الأسفل، تحت هذه المياه التي تنق فيها الضفادع وينعق البط ويجذف السياح منذ القدم.

ـ ما رأيك يا رفيق؟

أدرك مايتا أن بايخوس كان سعيداً ومتأثراً مثله. مشيا نحو النزل الذي يسكن فيه الملازم، في شارع تاراباكا. الرحلة؟ ممتازة جداً، ومؤثرة بصورة خاصة، لا يمكن للمرء أن ينسى أبداً ممر الجحيم. ودون أن يتوقف عن الكلام، كان يراقب البيوت التي تعود إلى العهد الاستعماري، ونقاوة الهواء، والشامات التي

ترسمها نساء خاوخا في وجوههن. ها أنتذا في خاوخا يا مايتا. ولكنه لم يكن يشعر بأنه على ما يرام:

ـ إنني مصاب بدوار المرتفعات. يسيطر عليّ إحساس غريب جداً. كما لو أنه سيغمى عليّ.

ـ بداية سيئة للثورة ـ ضحك باييخوس وهو ينتزع منه الحقيبة الصغيرة: كان يرتدي بنطالاً وقميصاً خاكي اللون، وجزمة ذات نعل ضخم وكان شعره الحليق قصير جداً ـ ستتناول متة الكوكا وتنام قيلولة فتعود جديداً. في الثامنة سنجتمع حيث يقيم الأستاذ أوبيبوث. إنه شخص رائع، سترى ذلك.

كان قد نصب له سريراً ضيقاً في غرفته نفسها في النزل ـ وهو مجموعة غرف علوية متتالية حول بهو ذي درابزين. وودعه وهو ينصحه بأن ينام قليلاً ليشفى من داء المرتفعات. انصرف، ورأى مايتا دوشاً في الحمام. وفكر: «سأستحم قبل النوم وعند الاستيقاظ في كل الأيام التي سأقضيها في خاوخا». سيأخذ معه مؤونة من الاستحمامات إلى ليما. استلقى بملابسه، دون أن يخلع شيئاً باستثناء الحذاء، وأغمض عينيه. ولكنه لم يستطع النوم. لم تكن تعرف الكثير عن خاوخا يا مايتا، ما الذي كنت تعرفه مثلاً؟ إنها أساطير أكثر منها حقائق، مثل التفسير التوراتي لميلاد باكا. لقد كانت تشكل جزءاً من حضارة هواناكا، إحدى أقوى الحضارات التي قهرها الإنكا، ولهذا السبب تحالف الخاوخيون مع القائد الإسباني بيثارو والفاتحين والمحاربين لينتقموا من أسيادهم السابقين. لا بد أن هذه المنطقة كانت شديدة الثراء في العصور الاستعمارية، حين كان اسم خاوخا مرادفاً للوفرة، ولكن

من يمكنه قول ذلك الآن وهو يرى بؤس الشعب! كان يعرف أن هذه البلدة الصغيرة كانت أول عاصمة للبيرو، وقد اختارها لتكون كذلك الفاتح بيثارو في أثناء رحلته الهوميرية من كاخاماركا إلى كوسكو، عبر أحد دروب الإنكا الأربعة التي كانت تتسلق وتهبط سلسلة الأنديز مثلما تتلوى فيها الآن الطوابير الثورية، وأن تلك الشهور التي تباهت فيها بلقب العاصمة، كانت الأكثر مجداً في تاريخها. ولكن، ما إن انتزعت منها مدينة ليما الصولجان، حتى دخلت خاوخا، مثل كل مدن وأناس وثقافات الأنديز، في انحدار لا مناص منه وفي تبعية لذلك المركز القيادي الجديد للحياة الوطنية القائم في أشد أركان الساحل وبالاً، والذي سيبدأ من موقعه ذاك بمصادرة وانتزاع كل طاقات البلاد لمصلحته.

كان قلبه ينبض بقوة، وكان يحس بالدوار الدائم بينما الأستاذ أوبييوث يواصل الكلام. وأسهو أنام محاصراً بصور الكابوس المرتبطة باسم خاوخا في طفولتي. مدينة المسلولين! فقد كان يأتي إلى هنا، منذ القرن الماضي، أولئك البيرويون ضحايا المرض المرعب آنذاك الذي حوله الأدب والسادية المازوشية الرومنسية إلى أسطورة، ذلك السل الذي كان مناخ خاوخا الجاف يعتبر بلسماً استثنائياً له. كانوا يأتون إلى هنا من أربع جهات البلاد، في أول الأمر على ظهور البغال وعبر دروب متعرجة، ثم بعد ذلك في قطار المهندس ميغس، جميع البيرويين الذين يبدؤون بالسعال دماً ويستطيعون دفع تكاليف الرحلة ولديهم الإمكانات اللازمة للشفاء أو الاحتضار في أجنحة مصح أولافيغويا الذي

كان يتوسع باطراد بفضل هذا الغزو المتواصل إلى أن اختلط ـ في أحد الأوقات ـ بالمدينة. الاسم الذي أيقظ قبل قرون الجشع، والإعجاب، والحلم بالذهب وبالجبال المكللة بهالات مذهبة، تحول معناه إلى رئات مثقوبة، وإفراط في السعال، وبصاق دامٍ، ونزيف، وموت من الهزال. وفكر:«خاوخا، اسم متقلب». وبينما هو يلمس صدره ليعد نبضاته، تذكر عرابته، في بيتها في شارع سوركييو، في تلك الأيام التي نَفَّذَ فيها إضرابه عن الطعام، حين كانت تؤنبه بإصبعها المرفوع ووجهها السمين الطيب:«أتريدنا أن نرسلك إلى خاوخا أيها الأحمق؟» وكانت أليثيا وثوليتا تجننانه كلما سمعتاه يتنحنح:«وي، آي، يا ابن الخالة، لقد بدأ السعال، إننا نراك ذاهباً إلى خاوخا». ما الذي ستقوله الخالة خوسيفا وثوليتا وأليثيا عندما يعلمن بما جاء يفعله في خاوخا الآن؟ فيما بعد، وبينما كان بابيخوس يقدمه إلى أوبييوث الأفطس، هذا السيد الاحتفالي الذي طأطأ رأسه محيياً وهو يمد يده لمصافحته، وإلى نصف دزينة من الفتيان الذين أحس بأنهم ليسوا من تلاميذ السنوات الأخيرة، وإنما السنوات الأولى في مدرسة سان خوسيه، قال مايتا لنفسه، فجأة، وجسده ما يزال منملاً من الإحساس بالدوش الجليدي، إنه يمكن أن تضاف إلى تلك الصور صورة أخرى: خاوخا، مهد الثورة البيروية. هل ستصبح الثورة في المستقبل جزءاً من أساطير المكان؟ هل ستكون هناك خاوخا ـ الثورة، مثل خاوخا ـ الذهب وخاوخا ـ السل؟ كانوا في بيت الأستاذ أوبييوث وكان مايتا يرى من خلال النافذة المغشّاة أبنية من الطين، وسقوفاً من القرميد والتوتياء، وجزءاً من شارع مرصوف بأحجار وأقنية

عالية للسيول التي تشكلها ـ مثلما شرح له باييخوس وهما قادمان ـ الأمطار الغزيرة في شهري كانون الثاني وشباط (يناير وفبراير). وفكر: «خاوخا، مهد الثورة الاشتراكية في البيرو». من الصعب تصديق ذلك، فالعبارة ذات وقع غير واقعي مثل تسميات: مدينة الذهب أو المسلولين. أقول له إن الجوع والبؤس في خاوخا يبدوان، للوهلة الأولى على الأقل، أخف مما هما عليه في ليما. ألستُ مُحقاً؟ وبدلاً من أن يرد علي، يبدي الأستاذ أوبييوث ملامح الجد ويتطرق فجأة، ونحن على ضفة البحيرة المقفرة، إلى القضية التي جاءت بي إلى هذه المنطقة:

ـ لقد سمعتَ بالطبع حكايات كثيرة عن قصة باييخوس. وستواصل سماعها في هذه الأيام.

فأجبته:

ـ مثلما يجري حول كل القصص. فالشيء الذي يتعلمه المرء حين يحاول إعادة بناء أحداث معينة بالاستناد إلى الشهادات، هو أن كل القصص هي حكايات.. وأنها مؤلفة من حقائق وأكاذيب.

اقترح عليّ أن نذهب إلى بيته. لحقتْ بنا عربة يجرها ثوران ووافق سائق العربة على نقلنا إلى المدينة. وبعد نصف ساعة تركنا أمام بيت أوبييوث، في الشارع التاسع من حي ألفونسو أوغارت. وقبل الإطلال على السجن قال لي قبل أن أسأله: «أجل. كانت تلك هي منطقة سيادة الملازم، وهناك بدأ كل شيء» كان السجن يحتل كل الرصيف المقابل، وبه ينتهي الشارع. بهذا السور الرمادي ذي الطنف القرميدية تنتهي المدينة. بعد ذلك يبدأ الريف: الحقول المزروعة، أشجار الأكالبتوس، الجبال. وأرى، في البعيد، خنادق

وأسلاكاً شائكة، وجنوداً متفرقين يقومون بالحراسة. لقد كانت إحدى الإشاعات الملحة، في السنة الماضية، تقول إن رجال حرب العصابات يعدون العدة للهجوم على خاوخا، وإنهم ينوون إعلانها عاصمة للبيرو المحررة. ولكن، ألم تسرِ إشاعات مماثلة حول آريكيبا، وبونو، وكوسكو، وتروخييو، وكاخاماركا، بل وحول إكيتوس كذلك؟ السجن وبيت الأستاذ أوبييوث يقومان في حي ذي اسم ديني، له رنة العذاب والتكفير: صليب الشوك. إنه بيت متواضع، منخفض ومظلم، فيه صورة ضخمة محاطة بإطار يتلألأ فيها سيد من أزمنة أخرى ـ ربطة عنق شريطية، وقبعة قشية، وشاربان مشذبان، ياقة قاسية، صدرية، ولحية صغيرة ميفيستوفيلية ـ لا بد أنه أبو الأستاذ أو جده، بالنظر إلى تشابه الملامح. وهناك أريكة طويلة مغطاة بعباءة بونشو متعددة الألوان وقطع أثاث متنوعة تبدو على وشك التداعي لكثرة ما استخدمت. وفي خزانة ذات واجهة زجاجية توجد أكداس صحف مختلطة. وهناك ذبابات تئز وتطير فوق رأسينا وأحد الفتيان يساعد في تمرير طبق شرائح جبن طازج وقطع خبز محمصة جعلت لعاب مايتا يسيل. إنني أموت جوعاً، وأسأل الأستاذ عما إذا لم يكن هناك مكان يمكن شراء ما يؤكل منه. فيقول: «في مثل هذه الساعة غير ممكن. ربما يمكننا الحصول على بعض البطاطا المسلوقة عند الغروب من محل صغير أعرفه. ولكنني أستطيع أن أقدم لك كأساً لا بأس به من البيسكو.»

ثم أضاف:

ـ لقد قيلت عن صداقتي لباييخوس أكثر الحماقات الممكنة.

قيل إننا تعارفنا في ليما، حين كنت أؤدي الخدمة العسكرية. وإننا بدأنا التآمر منذ ذلك الحين وواصلنا ذلك هنا، حين جاء كقائد للسجن. والشيء الوحيد الصحيح في هذا كله هو أنني مجاز من الجيش. ولكن، عندما كنت في الخدمة، كان بابيخوس ما يزال طفلاً رضيعاً... مجرد أوهام! لقد تعارفنا هنا، بعد أيام قليلة من مجيء بابيخوس لشغل منصبه. ويمكنني أن أقول لك بكل فخر إنني أنا الذي علمته كل ما عرفه عن الماركسية. لأنه لا بد لك من أن تعرف ـ وهنا خفض صوته، ونظر فيما حوله بشيء من الحذر، وأشار إلى بعض الخزائن الفارغة ـ أنني كنت أملك المكتبة الماركسية الأكثر اكتمالاً في خاوخا.

استطراد طويل في الكلام أبعده عن بابيخوس. فعلى الرغم من أنه رجل مسن ومريض ـ لقد استأصلوا إحدى كليتيه، وهو يعاني من ارتفاع الضغط ومن الدوالي التي تريه يهوذا ـ، كما أنه منعزل عن أي نشاط سياسي، فقد أقدمت السلطات منذ سنتين، عندما بلغت الأعمال الإرهابية أوجها في المقاطعة، على إحراق كتبه كلها وأبقته في السجن أسبوعاً. وعُذب في أثناء ذلك بالكهرباء في خصيتيه لإجباره على الاعتراف بتواطؤ مزعوم مع رجال حرب العصابات. أي تواطؤ يمكن له أن يتوصل إليه وهو المدان الذي يضعه المتمردون في قائمتهم السوداء، بسبب افتراءات خبيثة؟ ينهض، ويفتح صندوقاً، ويُخرج قصاصة ورق يعرضها عليّ: «لقد صدر حكم الشعب بإعدامك أيها الكلب الخائن». يهز كتفيه: إنه عجوز ولم تعد الحياة تهمه. فليقتلوه، ما أهمية ذلك. ولم يكن يحترس: إنه يعيش وحيداً وليس لديه ولو عصا للدفاع عن نفسه.

وأنتهزُ الفرصة لكي أقاطعه:

- أنت إذن من علّم بابيخوس الماركسية. كنت أظن أن مايتا هو الذي فعل ذلك.

فيتحرك في مقعده مومئاً بازدراء:

- أتعني التروتسكي؟ يا لمايتا المسكين! كان يمضي في خاوخا مثل مسرنم بسبب داء المرتفعات...

وكان ذلك صحيحاً. فمايتا لم يشعر مطلقاً بمثل ذلك الضغط في صدغيه وبمثل ذلك الاضطراب في قلبه الذي كانت تقطعه فجأة توقفات محيرة يبدو فيها وكأنه قد توقف عن النبض. كان مايتا يشعر بالخواء.. بالتلاشي المفاجئ لعظامه، وعضلاته، وأوردته، وببرودة قطبية تجمد التجويف الذي تحت جلده. هل سيغمى عليه؟ هل سيموت؟ إنه توعكٌ متلوٍ وغدار: يذهب ويجيء، فهو يشعر وكأنه على حافة هاوية ولكن التهديد بالسقوط في الهوة لا يتحقق أبداً. بدا له أن الجميع في حجرة أوبييوث الأفطس المزدحمة قد انتبهوا إلى حاله. كثيرون كانوا يدخنون وكانت سحابة رمادية، يتخللها الذباب، تشوه وجوه الفتيان الجالسين على الأرض، والذين كانوا بين الحين والآخر يقطعون منولوج أوبييوث موجهين أسئلة. لقد أضاع مايتا خيط الحديث: كان يجلس على مقعد إلى جوار بابيخوس، وظهره يستند إلى خزانة الكتب، ومع أنه كان يرغب في الاستماع، إلا أنه لم يكن ينتبه إلا إلى أوردته، إلى صدغيه، إلى قلبه. إلى داء الأعالي الذي يضفي عليه إحساساً بأنه مُضحك. وفكر بينه وبين نفسه:«أأنت هو الثوري الذي جاء ليفحص هؤلاء الرفاق؟ لقد حوّلتك الثلاثة آلاف وخمسمئة متر إلى قزم مصاب

بتسرع فـي القلب» وكـان يسمع أوبييوث بصورة غائمـة وهـو يشرح للفتيـان ــ أتـراه يحـاول أن يبهـره هـو بالـذات بمعارفـه الماركـسية المشوشة؟ ـ بـأن الطريقـة الـتي يمكـن بها للثورة أن تتقـدم هـي فـي التفسير الـصحيح للتناقضات الاجتماعيـة والمواصـفات الـتي يتخـذها النـضال الطبقـي فــي كــل مرحلــة مــن المراحــل. وفكــر: «أنــف كليوبـاترا». أجـل، إنـه هـو: الأمـر التافـه الـذي يقلـب قـوانين التـاريخ ويحوّل العلم إلى شِعر. يا للغباء فـي عدم رؤية ما هو جلي تمامـاً، فــي عـدم رؤيـة أن الرجـل الـذي يـصعد إلى جبـال الانـديز يمكـن لـه أن يصاب بداء الأعـالي، وعـدم شـراء بعـض أقـراص الكـورامين لتعـديل اختلاف الضغط الجوي على جسده. سـأله باييخوس «هل أنت على مـا يرام؟» «أجل، فـي أحسن حال». وفكـر: «لقد جئت إلى خاوخـا لكـي يأتيني أستاذ تافه يبول خارج المبولة ويعطيني درسـاً فــي الماركـسية». هـا هـو ذا الأفطـس أوبييـوث يـشير إليـه الآن، مرحبـاً بـه: إنـه الرفـيق القـادم مـن ليمـا الـذي حـدثكم عنـه بـاييخوس، وهـو شـخص يملـك تجربة ثوريـة ونقابيـة كـبيرة. دعـاه ليتـكلم، ودعـا الفتيـان إلى توجيـه الأسئلة إليه. ابتسم مايتا لنصف دزينـة الوجوه المُرْد الـتي راحـت تنظـر إليه بفضول وبشيء من التقدير. وفتح فمه.

ـ إنه المذنب الكبير، إذا كانت المسألة هي البحث عن مـذنب ـ يكرر الأستاذ أوبييوث بوجه تعلوه المرارة ـ فقد خدعنا على هـواه. كـان مـن المفـترض أنـه صـلة الوصـل مـع الثـوريين فــي ليمـا، مـع النقابات، مع الحزب، وأنه يمثل مئات الرفاق. والواقع أنـه لم يكـن يمثل أحـداً. والأدهـى مـن ذلـك أنـه تروتسـكي. ومجـرد مجيئـه أغلـق أمامنا إمكانية دعم الحزب الشيوعي لنا. لقد كنا سـاذجين جداً،

هذا صحيح. أنا كنت أعرف الماركسية، ولكنني لم أكن أعرف أي شيء عن قوة الحزب، ولا عن انقسامات اليسار. وبابيخوس كان أقل مني معرفة بالطبع. هل كنت تعتقد إذن أن التروتسكي مايتا هو الذي ثقف الملازم؟ لا شيء من هذا. فهما لم يلتقيا تقريباً إلا في بعض المرات التي كان يهرب فيها بابيخوس لوقت قصير إلى ليما. والملازم تعلم الدياليكتيك والمادية في هذه الغرفة بالذات.

الأستاذ أوبييوث ينتمي إلى أسرة عريقة من خاوخا، خرج منها نواب محافظون، وعمد وعدد كبير من المحامين (المحاماة هي المهنة المفضلة في سلسلة الجبال، وهناك في خاوخا أعلى نسبة من المحامين بالنسبة إلى عدد السكان) ولا بد أنهم أناس أغنياء، لأنه قال لي إن عدداً كبيراً من أقربائه قد سافروا إلى الخارج: إلى المكسيك، وبوينوس آيرس، وميامي. أما هو فلم يسافر، إنه سيبقى حيث هو حتى النهاية، سواء تلقى تهديدات أو أي شيء آخر، وسيغرق مع كل ما سيغرق. ليس لأنه لا يملك وسائل السفر وحسب، وإنما بسبب نزوعه إلى المعارضة، بسبب روح التمرد التي جعلته في شبابه يتميز عن أبناء عمومته وأعمامه وأخوته الذين كانوا يعيشون حياة يملؤها الاهتمام بقطع الأرض الزراعية أو تجارة البقالة أو ممارسة المحاماة والقانون، فكرس نفسه للتعليم وتحول إلى أول ماركسي في المدينة. ويضيف قائلاً إنه دفع الثمن في اعتقالات لا تحصى، وفي تلقي الضرب والإهانات. بل وما هو أسوأ من كل ذلك، في نكران الجميل من جانب اليسار نفسه الذي نما الآن وصار على وشك الاستيلاء على السلطة، متجاهلاً أولئك الذين حرثوا الأرض ونثروا فيها بذور الفكر اليساري.

ويهتف بافتخار:

ـ الدروس الحقيقية في الفلسفة والتاريخ.. الدروس التي لا يمكن تقديمها في مدرسة سان خوسيه، كنت أعطيها في هذه الغرفة. لقد كان بيتي جامعة للشعب.

يصمت، لأننا سمعنا ضجة معدنية وأصوات عسكرية. أُطلُّ من خلال الستارة لرصد ما يجري: الدبابة تمر، إنها الدبابة نفسها التي رأيتها في المحطة. وإلى جانبها تهرول جماعة من الجنود يقودها ضابط. ويغيبون عن النظر عند زاوية السجن.

أسأله بفظاظة:

ـ ألم يكن مايتا هو الذي خطط لكل شيء إذن؟ ألم يكن هو من فكر بكل تفاصيل الانتفاضة؟

المفاجأة التي استولت على وجهه شبه الداكن، الممتلئ بنقاط بيضاء في الذقن، بدت صادقة. ويقول متهجياً كلماته بتلك اللهجة الجبلية السريعة التي لا تسمح بإفلات حتى هالة الكلمات:

ـ أتعني أن التروتسكي مايتا هو الموجه الفكري للانتفاضة؟ أي خاطر هذا! عندما جاء إلى هنا كنا أنا وباييخوس قد طبخنا كل شيء. لم تكن له شمعة في ذلك المأتم حتى النهاية. سأقول لك أمراً آخر: نحن لم نخبره بالتفاصيل إلا في اللحظة الأخيرة.

فاستجوبه:

ـ بدافع عدم الثقة به؟

ويقول الأستاذ أوبيبوث:

ـ بدافع الحيطة والحذر. حسن، وإذا كانت الكلمة تروقك، فبسبب عدم الثقة. ليس من أن يكون واشياً، وإنما خشية أن

يتراجع ويتخلى عن الأمر. لقد قررت أنا وباييخوس أن نبقيه صائماً، حين أدركنا أنه ليس لديه أنصار، وأنه كان وحيداً. وما هو الغريب في أن يتراجع مثل هذا الشخص عندما تحين الساعة ويتخلى عن كل شيء؟ فهو لم يكن من هنا، بل ولم يكن قادراً على تحمل الأعالي. ولم يكن قد أمسك سلاحاً على الإطلاق. لقد علمه باييخوس الرماية، في رملة بالقرب من ليما. يا للثوري الذي حصل عليه! بل يقال إنه كان مخنثاً.

يضحك ضحكته الاضطرارية المعتادة، وكنت على وشك أن أقول له إنه هو نفسه على الرغم من ذلك، لم يكن في ذلك اليوم حيث كان عليه أن يتواجد ـ لسبب أرجو أن يوضحه لي ـ، أما مايتا فعلى العكس منه، وبالرغم من معاناته من داء الأعالي ومن أنه لا يمثل أحداً، كان إلى جانب باييخوس عندما ـ والتعبير له ـ «بدأت البطاطا تحترق». وكنت على وشك أن أقول له إن كثيرين آخرين قد قالوا عنه ما يقوله هو عن مايتا: لقد كان المذنب الأكبر، المنشق. ولكنني لم أقل له شيئاً من هذا. فأنا لست موجوداً هنا لأناقض أحداً. واجبي هو الاستماع، والملاحظة، ومقارنة الروايات، وعجن كل شيء والتخيل. وأعود لأسمع من جديد في الخارج صوت الدبابة المعدني ووقع خطوات الجند.

عندما قال أحد الفتيان «حان وقت المغادرة»، أحس مايتا بالراحة. لقد بدأ يشعر ببعض التحسن بعد أن أمضى لحظات احتضارية: كان يرد على أسئلة أوبييوث، وباييخوس، والفتيان، وكان تفكيره منصباً في الوقت نفسه على التوعك الذي يعذب رأسه وصدره ويبدو كما لو أنه يلهب دماءه. هل أجاب على أسئلتهم

بصورة جيدة؟ لقد أبدى على الأقل ثقة بالنفس كان أبعد ما يكون عن الإحساس بها، وحاول ألا يكذب عندما انتبه إلى شكوك الفتيان، ولكنه حاول أيضاً ألا يقول الحقائق التي قد تُفتر حماسهم. ولم يكن الأمر سهلاً. هل ستدعمهم الطبقة العاملة في ليما فور اندلاع العمل الثوري؟ أجل، ولكنها لن تفعل ذلك فوراً. فهي ستشعر في البداية بالتردد، وبالبلبلة، بسبب الأخبار التي ستنقلها الصحافة والإذاعة، وبسبب أكاذيب السلطة وأحزاب البرجوازية، وستُصاب بالشلل بسبب وحشية القمع. ولكن هذا القمع نفسه هو الذي سيفتح عينيها شيئاً فشيئاً، ويكشف لها من الذي يدافع عن مصالحها ومن الذي يخدعها ويستغلها. لأن العمل الثوري سيفاقم الصراع الطبقي ويوصله إلى مستويات شديدة العنف. عيون الفتيان المفتوحة على اتساعها، واهتمامهم المسلط عليه، أثر في نفس مايتا. وفكر:«إنهم يصدقون كل ما تقوله لهم.» والآن، بينما كان الفتيان يودعونه ويصافحونه باحتفالية، تساءل بينه وبين نفسه عما سيكون عليه في الحقيقة موقف البروليتاريا في ليما عندما تندلع العمليات. أيكون موقفها هو عدم المبالاة؟ العدائية؟ الازدراء تجاه هذه الطليعة التي تقاتل من أجلهم في الجبال؟ الحقيقة أن النقابات تحت سيطرة حزب الأبرا، حليف الحكومة، والمعادي لكل ما له رائحة الاشتراكية. ربما يكون الوضع مختلفاً في بعض النقابات القليلة، مثل نقابة البناء المدني، الواقعة تحت تأثير الحزب الشيوعي. لا، لن يحدث ذلك. ستتهمه الطبقة العاملة بالاستفزاز، بممارسة لعبة الحكومة، وبأنهم يقدمون لها على طبق الذريعة اللازمة لإعلان الحزب خارجاً على

القـانون وملاحقـة التقـدميين وسـجنهم. تـصور عنـاوين «أونيـداد»، ومضمون المنشورات التي سيوزعونها، ومقالات صوت **العمال** التي يصدرها ح ع ث الخصم. أجل، كل ذلك سيكون صحيحاً في المرحلة الأولى. ولكنه كان واثقاً، إذا ما تمكنت الانتفاضة من الاستمرار، والتطور، وزعزعة السلطة البرجوازية هنا وهناك، وإجبارها على نزع قناعها الليبرالي وإظهار وجهها الدموي الحقيقي، فإن الطبقة العاملة ستبدأ بالخروج من سباتها، وستنفض عنها الخدع الإصلاحية، وتتخلص من قادتها الفاسدين، ومن وهم إمكانية التعايش مع الطبقة المستسلمة وتلتحق بركب النضال.

ـ حسن، ها هم الصبية قد انصرفوا ـ قال الأفطس اوبييوث ذلك وهو يُخرج من فوق كومة من الكتب والنشرات والمجلات وشباك العنكبوت التي في غرفته، زمزمية وبعض الأقداح ـ. فلنتناول الآن بعض الكؤوس.

ـ ما رأيك بالفتيان؟ ـ سأله باييخوس.

ـ إنهم متحمسون جداً ـ قال مايتا ـ، ولكنهم صغار جداً أيضاً، لا بد أن بعضهم في الخامسة عشرة، أليس كذلك؟ هل أنت واثق من أنهم سيتجاوبون؟

وقال باييخوس ضاحكاً:

ـ أنت لا تؤمن بالشباب. إنهم سيتجاوبون بالطبع.

وقال الأفطس أوبييوث وهو يتحرك مثل عفريت بين رفوف الكتب ليرجع إلى مقعده:

ـ تذكر عبارة غونثالث برادا: «الشيوخ إلى القبر والشباب إلى العمل».

ـ ثم إن كل شخص سيكون له عمله ـ قال بابيخوس ذلك وهو يضرب راحة إحدى يديه بقبضته، وفكر مايتا: «حين أسمعه لا أستطيع الشك، يبدو أن كل شيء خاضع لمشيئته، إنه قائد منذ مولده، بل إنه لجنة مركزية بمفرده». وأضاف بابيخوس: ـ لن يطلب أحد من هؤلاء الفتيان إطلاق الرصاص. سيكونون مراسلين.

ـ إنهم تشاسكيو[1] الثورة ـ عمدهم الأفطس أوبييوث ـ. إنني أعرفهم مذ كانوا أطفالاً يحبون على أربع، إنهم زهرة وقشدة الشبيبة الخوسيفينية.

وأوضح بابيخوس مومئاً:

ـ سيتولون أمر الاتصالات. تأمين الاتصال بين رجال حرب العصابات والمدينة، وإحضار ونقل التعليمات والمؤن والأدوية. ولأنهم صغار السن تحديداً، سيكون بإمكانهم المرور دون لفت الأنظار. إنهم قادرون على التجوال في جبال المقاطعة كلها كما لو أنهم في بيتهم. لقد قمنا برحلات ترفهية عديدة، ودربتهم على المسيرات الطويلة. إنهم رائعون.

لقد كانوا قادرين على القفز من أعلى هاوية والسقوط إلى قعرها واقفين دون أن يصابوا بأي كدمة، وكأنهم مصنوعون من مطاط؛ ويجتازون تيارات المياه المندفعة مثل أسماك رشيقة دون أن تبتلعهم الحوامات أو تلطمهم بالصخور؛ يتحملون الثلج دون أن يشعروا بالبرد ويركضون في الأعالي الشاهقة ويقفزون دون أن

---

[1] ـ التشاسكي (chasqui): بلغة الكيتشوا، هو الهندي الذي كان يستخدم مراسلاً في امبراطورية الإنكا.

يعتريهم أي اضطراب. كان خفقان قلب مايتا قد ازداد كثيراً واشتد نبض الدم في صدغيه إلى حد لا يطاق. أيخبرهما بذلك؟ أيطلب منهما نبتة كوكا، أو دواء، أو شيئاً يخلصه من هذا الضيق؟

وقال بابيخوس:

- أما من سيحملون البنادق ويدخلون معنا في المعمعة، فستبدأ بالتعرف عليهم غداً في ريكران. استعد للصعود إلى البونا والتعرف على حيوانات اللاما وأعشاب الايتشو.

وفي خضم تكدره لاحظ مايتا الصمت. كان الصمت يأتي من الخارج، وكان ملموساً، يتبدى كلما سكت الأفطس أوبييوث أو بابيخو عن الكلام. ما بين كل سؤال وجواب، في وقفة مونولوج، هذا الغياب للمحركات، للأبواق، للمكابح، لمواسير دخان السيارات، للخطوات وللأصوات يبدو مدوياً. لا بد أن هذا الصمت الذي يخيم على خاوخا، مثل ليل يلف الليل، كان حضوراً كثيفاً في الغرفة وكان يشوشه. لقد بدا غريباً جداً ذلك الفراغ الخارجي، ذلك الغياب للحياة الحيوانية أو الآلية أو البشرية في الشارع. لا يتذكر أنه عرف مثل هذا الصمت الباهر في ليما، أو حتى في السجون التي أمضى فيها فصولاً (سجن سيستو، سجن بانوبتيكو، سجن فرونتون). وحين كان بابيخوس وأوبييوث يكسرانه، يبدوان وكأنهما ينتهكان حرمة شيء ما. كان الضيق قد تقلص، ولكن قلقه مازال قائماً، ذلك أنه يعرف بأنه يمكن في أي لحظة أن يعاوده الإحساس بالاختناق، وتسرع القلب، والضيق، والبرودة الثلجية. قدم له الأفطس نخباً، فرفع

الكأس إلى فمه وهو يجبر نفسه على الابتسام: المشروب الملتهب جعله يقشعر. وفكر: «يا للعبثية. على بعد أقل من ثلاثمئة كيلومتر عن ليما وأبدو كأنني أجنبي في عالم مجهول. أي بلاد هذه التي ما إن ينتقل المرء فيها من مكان إلى آخر حتى يشعر بأنه غريب، بأنه مريخي.» أحس بالخجل لأنه لا يعرف سلسلة الجبال، ولأنه لا يعرف أي شيء عن عالم الريف. وعاد باهتمامه إلى ما كان يقوله بابيخوس وأوبييوث. لقد كانا يتحدثان عن قرية، على السفح الشرقي، تمتد في الأدغال: تدعى أوتشوبامبا.

- وأين هي؟

فيقول لي الأستاذ أوبييوث:

- ليست على بعد كيلومترات كثيرة. إنها قريبة إذا نظرت إليها على الخريطة. ولكنها بعيدة بعد القمر إذا ما أردت الذهاب إليها من خاوخا. بعد سنوات من ذلك، في زمن بيلاوندي، شقوا درباً يغطي ربع الطريق. أما قبل ذلك، فكان لا بد من الذهاب زحفاً عبر البونا والوهاد والصدوع التي تنحدر باتجاه الغابة.

هل هناك الآن إمكانية للاقتراب من ذلك المكان؟ غير ممكن بالطبع: فقد صارت القرية ميدان معركة منذ عدة سنوات على الأقل. والشائعات تقول إنها قد تحولت إلى مقبرة هائلة. يقال إنه قد مات هناك أناس أكثر ممن مات في كل أنحاء البيرو مجتمعة. لن أستطيع إذن زيارة بعض الأماكن ذات الأهمية الحاسمة في القصة، التقصي سيبقى مبتوراً. وحتى لو استطعت تجنب الخطوط العسكرية ومواقع رجال حرب العصابات، فإن ذلك لن يفيدني كثيراً. فالجميع في خاوخا يؤكدون أن تشونان وكذلك

ريكران قد اختفتا من الوجود. أجل، أجل: الأستاذ أوبييوث يعرف ذلك من مصدر حسن الإطلاع. فتشونان قد اختفت من الوجود منذ ستة شهور تقريباً. لقد كانت حصن المتمردين، وحتى إنهم كانوا يملكون هناك كما يبدو مدفعاً مضاداً للطائرات. ولهذا دمر الطيران تشونان بالنابالم ولم ينجُ من الموت هناك حتى النمل. وفي ريكران جرت كذلك مذبحة منذ حوالى شهرين. إنها قصة لم تتضح مطلقاً. أهل القرية أسروا فصيلة من رجال العصابات، وقد شنقوهم هم أنفسهم حسب قول البعض، لأنهم كانوا يأكلون محاصيلهم ومواشيهم، بينما يقول آخرون إنهم سلموهم إلى الجيش الذي أعدمهم رمياً بالرصاص في الساحة، عند جدار الكنيسة. ثم جاءت بعد ذلك حملة تنكيل، وخَمّسَ الإرهابيون أهالي ريكران. أنا أعرف كيف يمارسون التخميس، أليس كذلك؟ واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، أنت.. أخرج من الصف! كل من كان رقمهم خمسة مزقوهم بالفؤوس، أو بالأحجار، أو بالسكاكين.. هناك في الساحة نفسها أيضاً. وريكران لم يعد لها وجود الآن كذلك. فمن بقوا على قيد الحياة انتقلوا إلى خاوخا، في حي المهاجرين هذا الذي انبثق في الشمال، أو أنهم يهيمون على وجوههم في الأدغال. يجب ألا تراودني الأوهام. يرفع الأستاذ كأسه إلى شفتيه ويتراجع في الكلام إلى حيث كنا. ويقول:

- الوصول إلى أوتشوبامبا كان من أمور الناس الفحول، ممن لا يخافون الثلج ولا الانهيارات الجبلية، أناس غير مصابين بداء الدوالي مثل هذا العجوز الذي صرتُ إليه الآن. لقد كنتُ قوياً وصلباً آنذاك ووصلتُ إلى هناك في إحدى المرات. إنه مشهد لا

يمكن تصوره.. رؤية منطقة الانديز وقد تحولت إلى أدغال، تملؤها الخضرة، والحيوانات، والبخار. أنقاض في كل مكان. أوتشوبامبا، هذا هو اسمها. ألا تتذكر الاسم؟ اللعنة! ولكن رجال كمونة أوتشوبامبا كانوا حديث البيرو بأسرها.

لا، الاسم لا يعني لي أي شيء. ولكنني أتذكر جيداً الظاهرة التي ذكرها الأستاذ أوبييوث، بينما كنتُ أدفئ بيدي كأس نبيذ البيسكو الذي سكبه لي بحذر شديد (بيسكو يسمى **شيطان الأنديز**، عَيّنةٌ متبقية من الأزمنة الطيبة كما يقول، عندما كان بالإمكان شراء أي شيء من الحوانيت، قبل هذا التقنين الذي يقتلنا جوعاً وظمأ). فقد فوجئت البيرو الرسمية، والمدينية، والساحلية، في منتصف عقد الخمسينات ببدء عمليات احتلال للأراضي في مناطق مختلفة من سلسلة الجبال في الجنوب والوسط. كنتُ آنذاك في باريس، وكنا مع جماعة من ثوريي المقاهي نتابع بنهم تلك الأخبار النائية التي تصل مقتضبة إلى لوموند، وانطلاقاً منها، تشيد مخيلتنا المشهد المستحلب: قرى هندية، هناك في جبال الأنديز، مسلحة بالعصي والمقاليع والأحجار، بشيوخها ونسائها وأطفالها وبهائمها في المقدمة، تنتقل في الفجر أو في منتصف الليل في جموع حاشدة إلى الأراضي الريفية التي يشعرون - وهم محقون في ذلك بكل تأكيد - بأنهم حرموا منها بسبب السيد الإقطاعي، ويحطمون علامات تقسيم الأرض ويعيدون ضمها إلى أراضي قراهم، ويسمون البهائم بعلاماتهم، ويبنون بيوتهم ويبدؤون في اليوم التالي العمل في هذه الأراضي الجديدة وكأنها أرضهم. وكنا نقول بأفواه مفتوحة

وسعادة: «أتكون هذه هي البداية؟ هل سيستيقظ البركان أخيراً؟» أجل، ربما كانت تلك هي البداية. في مقاهي باريس، تحت أشجار الكستناء ذات الحفيف، كنا نستنتج من أربعة اسطر اللوموند أن تلك الاحتلالات هي أعمال ثوريين، ناروديين جدد انتقلوا إلى الريف ليقنعوا الهنود بأن يتولوا بأنفسهم تطبيق الإصلاح الزراعي الذي تعد بتحقيقه كل الحكومات منذ سنوات طويلة دون أن تنفذه أي منها. وعرفنا فيما بعد أن هذه الأعمال لم تكن من صنع محرضين أرسلهم الحزب الشيوعي وليست من عمل الجماعات التروتسكية، وأنها ليست ذات طابع سياسي في الأصل، وإنما هي حركة عفوية، انبثقت بالكامل من الجماهير الفلاحية التي نخستها حالة الاستغلال الأزلية وجوعها إلى الأرض، وكذلك ـ إلى حد ما ـ الأجواء المشحونة بشعارات ودعوات العدالة الاجتماعية التي نشأت في البيرو منذ تصدع دكتاتورية الجنرال أودريا، فحسمت أمرها في أحد الأيام وانتقلت إلى الممارسة العملية.

أوتشوبامبا؟ هناك أسماء قرى أخرى استولى أهلها على الأرض ثم أُجلوا عنها بعد سقوط قتلى وجرحى، أو تمكنوا من الحفاظ عليها، تدور في ذهني: الغولان في جبل باسكو، وقرى وادي كونفينشيون في كوسكو. أما أوتشوبامبا في خاوخا؟

ـ أجل يا سيدي ـ قال بابيخوس ذلك متحمساً، وسعيداً لأنه استطاع أن يفاجئه، ثم أضاف: ـ أجل، هنود ذوو بشرة بيضاء وعيون زرق، بل إنهم غرينغيون أكثر مني ومنك.

قال الأفطس أوبييوث بخطابية:

ـ غزاهم أول الأمر الإنكا وأجبروهم على العمل تحت مقرعة رقباء العمال . ثم انتزع منهم الإسبان بعد ذلك أفضل أراضيهم واقتادوهم للعمل في المناجم. أي للموت بعد زمن قصير برئات منخورة. ومن بقي منهم في أوتشوبامبا وضعوهم تحت حماية أسرة تحمل لقب بيلايث ريوخا أدمتهم طوال ثلاثة قرون.

وأنهى باييخوس الكلام بالقول:

ـ ولكنك ترى أنهم لم يستطيعوا القضاء عليهم.

كانوا قد غادروا بيت أوبييوث لكي يقوموا بجولة، وكانوا يجلسون الآن على مقعد في ساحة السلاح. وفوق رؤوسهم كان يخيم سكون رائع وآلاف النجوم. نسي مايتا البرد ودوار الجبال. لقد كان منفعلاً بحماس. وكان يحاول أن يتذكر الانتفاضات الفلاحية الكبرى: توباك آمارو، خوان بوستامانتي، أتوسباريا. فعلى امتداد القرون، وبينما هم يستغلونهم ويذلونهم، كان هنود أوتشوبامبا ما يزالون يحلمون بالأرض التي انتزعوها منهم ويبتهلون من أجلها. في أول الأمر إلى الأفاعي والطيور، وبعد ذلك إلى العذراء الطاهرة والقديسين، ثم من بعد إلى كل المحاكم التي في متناول أيديهم، في محاكمات كانوا يخسرونها على الدوام. أما الآن، منذ بضعة شهور لا أكثر، إذا صح ما سمعته، فقد خطوا الخطوة الحاسمة وحطموا في إحدى الليالي أسيجة إقطاعية آينا ودخلوا هذه الأراضي مع خنازيرهم وكلابهم وأحصنتهم قائلين: «نريد أخذ ما هو لنا». هذا ما حدث، وأنت يا مايتا، ألم تكن تعرف شيئاً عن هذا؟

ـ ولا كلمة واحدة ـ دمدم مايتا وهو يفرك يديه المنملتين من

البرد ـ بل لم أسمع شيئاً، ففـي ليما لم يُعرف شيء عن هذا كله.

كان يتكلم ناظراً إلى السماء، مبهوراً ببهاء القبة السماوية المصبوغة بلون ثان والمتلألئة، وبالصور التي يبعثها فـي رأسه ما يسمعه. قدم له أوبييوث سيجارة وأشعلها الملازم.

ـ مثلما أقول لك ـ أكد له بابيخوس ـ. لقد استولوا على مزرعة آينا واضطرت الحكومة إلى إرسال الحرس الأهلي لإخراجهم منها. الفرقة الشرطية التي خرجت من هوانكايو تأخرت أسبوعاً فـي الوصول إلى أوتشوبامبا. وقد أخرجتهم فـي النهاية بالرصاص. سقط عدة قتلى وجرحى بالطبع. ولكن العشيرة بقيت مؤرقة لا تستطيع النوم. وهم الآن يعرفون ما هو الطريق.

مرّت أسرة أو جماعة من الهنود بدا أفرادها لمايتا أشباحاً فـي ظلال ساحة خاوخا: واختفوا صامتين، متخفـين عند زاوية الكنيسة وهم يحملون على رؤوسهم أحمالاً يمكن لها أن تكون أسفاطاً.

قال الأفطس أوبييوث:

ـ ليست المسألة فـي أن فلاحي أوتشوبامبا مستعدون للذهاب إلى القتال، وإنما فـي أنهم يخوضون القتال فعلاً، فقد بدؤوا الثورة. وأما ما سنقوم به نحن فهو توجيهها وحسب.

كان البرد يذهب ويجيء، مثل داء المرتفعات. أخذ مايتا نفساً طويلاً:

ـ أهي معلومات من مصادر حسنة الإطلاع؟

فضحك بابيخوس:

ـ إنها مصادر فـي مثل حسن إطلاعي أنا بالذات. لقد كنتُ هناك. ورأيت الوضع بعيني هاتين.

وصحح له الأفطس أوبييوث بسيناته وراءاته المفخمة:

ـ بل كنا هناك. وقد رأينا الناس وتحدثنا معهم. لقد تركنا كل شيء جاهزاً.

لم يدر مايتا ما يقول، فهو الآن متأكد من أن باييخوس ليس صبياً عديم التجربة ومندفعاً مثلما ظنه في البدء، بل هو شخص أكثر جدية وتماسكاً وتعقيداً بكثير، وأكثر احتراساً، وقدماه راسختان تماماً في الأرض. فقد خطا خطوات أكثر مما كشف له عنه في ليما، فلديه مزيد من الناس، وخطته متشعبة أكثر بكثير من كل ما تصوره من قبل. من المؤسف أن أناتوليو لم يأت معه. من أجل تبادل الأفكار، والتأمل، والتعاون فيما بينهما من أجل تنظيم فوضى هذه التخيلات وهذه الحماسة التي تنهشه. من المؤسف أن جميع الرفاق في ح ع ث (ت) ليسوا موجودين ليروا أن الأمر ليس وهماً وإنما حقيقة ملتهبة. ومع أن الساعة لم تكن قد أعلنت العاشرة ليلاً، فقد بدا الثلاثة وكأنهم الوحيدون في خاوخا.

وعاد باييخوس إلى الضحك:

ـ هل أدركت الآن أنني لم أكن أبالغ عندما قلت لك إن جبال الأنديز صارت ناضجة؟ مثلما قلت لك ومثلما أكرر يا أخي: إنها بركان. ونحن سنجعله يثور.. يا للعنة.

ـ لأننا لم نذهب إلى أوتشومامبا خاليي الوفاض بالطبع ـ يقول لي الأستاذ اوبييوث ذلك بصوت خافت وهو يتلفت فيما حوله وكأنه ما زال يمكن لتلك الواقعة أن تورطه حتى الآن، ويضيف ـ لقد أخذنا معنا ثلاثة مسدسات رشاشة وبضع بنادق ماوزر حصل

عليها الملازم من مكان لا أعرف حقيقته. وأخذنا كذلك أدوية طوارئ. وخبأنا كل شيء جيداً بعد لفه بقماش مشمع.

يصمت لكي يتذوق الشراب، ويتمتم بأن الأمور التي يرويها لي يمكن أن تؤدي إلى إعدامنا نحن الاثنين رمياً بالرصاص في أقل من صياح ديك.

ثم يضيف بعد أن يتلاشى صدى مرور الدبابة في الليل: وكنا نسمع مرورها قبالة البيت طوال المساء، في تناوب منتظم:

ـ ها أنت ترى، لم تكن مسألة مرتجلة مثلما يظن الجميع. لقد كان عملاً خُطط له دون رومنسية، بعلمية، وكان يمكن له أن ينجح لو لم يرتكب بابيخوس حماقة تقديم الموعد المقرر. لقد قمنا بعمل أشبه بعمل النمل، عمل دقيق حقاً. ألم يكن اختيارنا للمنطقة جيداً؟ أليس رجال حرب العصابات هم سادة هذه المنطقة الآن؟ إن الجيش لا يملك الجرأة على الذهاب إلى هناك. لا يمكن لفيتنام أو السلفادور أن تقارنا بها. في صحتك!.[٣]

إن رجلاً، أو مجموعة رجال، أو فصيلة هناك، ستكون أشبه بإبرة وسط كومة من القش. وتحت دثار النجوم اللامعة رأى مايتا الموقع: إنها أدغال كثيفة، متشابكة، محكمة، ورأى نفسه إلى جانب بابيخوس وأوبيوث وجيش من الأشباح يجتاز تلك الأدغال عبر دروب ملتوية. لم تكن بطاحاً أمازونية وإنما غابة متماوجة، منحدرات أدغال جبلية، وانكسارات وشروخ ومضايق وممرات ضيقة وأفجاج، إنها تضاريس مثالية من أجل الضرب والهرب، وقطع طرق اتصالات العدو، وتدويخه، وبلبلته، وإيصاله إلى الجنون، والانقضاض عليه في المكان والزمان اللذين لا

يتوقعهما، ودفعه إلى اليأس، إلى الذوبان، إلى التفتت في المتاهة التي لا توصف. وتخيل نفسه وقد نمت لحيته، وصار نحيلاً، في عينيه تصميم جامح، وأصابعه قد تقرحت من كثرة الضغط على الزناد وإشعال الفتائل ورمي شحنات الديناميت. ويختفي أدنى أثر للقنوط واليأس حيال الالتحاق المؤكد لمناضلين جدد في كل يوم، فتتسع الجبهة، ويبدأ العمال والخدم والطلاب والموظفون والفقراء هناك في المدينة بتفهم أن الثورة من أجلهم، ولهم. أحس بحاجة ملحة إلى وجود أناتوليو معه، وإلى تبادل الحديث معه طوال الليل. وفكر: «لو كنت معه لفارقني هذا الإحساس بالبرودة».

ـ هل تمانع في أن نتحدث قليلاً أيضاً عن مايتا يا أستاذ؟ فلنرجع إلى تلك الرحلة التي قام بها في آذار 1958. لقد عرّفته حضرتك على الفتيان، وعَلِمَ أنكم قد أقمتم علاقات مع فلاحي أوتشوبامبا، وأن بابيخوس يفكر في بدء حرب العصابات من هناك. هل فعل شيئاً آخر، هل عرف شيئاً آخر في رحلته الأولى تلك؟

ينظر إلي بعينين فيهما خيبة الأمل بينما هو يرفع إلى شفتيه كأس البيسكو. يفرقع لسانه راضياً. ما الذي يفعله لكي يستمر النبيذ عنده طوال هذا الوقت؟ لا بد أنه لا يكاد يرشف منه أكثر من قطرة في كل مرة. ويدمدم قائلاً: «أعرف أنه عندما تنتهي هذه الزجاجة لن أعود إلى تناول أي جرعة من الخمر حتى مماتي، فالأمور تمضي نحو الأسوأ.. نحو الأسوأ.» وبما أنني لم أكن أشرب بفواصل متباعدة، فقد شوش البيسكو ذهني. إنني مشوش ومضطرب، مثلما كانت حال مايتا بفعل داء المرتفعات.

ـ يا للمسكين! لقد كانت تلك مفاجأة حياته ـ يقول لي ذلك

أخيراً، بنبرة احتقار يستخدمها كلما تحدث عنه. أهو حقد ضد مايتا بالذات أم أمر أكثر عمومية وتجريداً.. حقد جبلي وريفي موجه إلى كل من في ليما، كل من في العاصمة، وكل شيء ساحلي؟ ثم يواصل قائلاً: ـ جاء إلى هنا بتجربته الثورية ومروره في السجن، مقتنعاً بأنه سيكون الآمر الأكبر هنا. فوجد أن كل شيء كان منجزاً، وعلى أكمل وجه.

تنهد بتثاقل، تنهد على البيسكو الذي سينتهي، على الشباب الذاهب، على ذلك الساحلي الذي لقنه هو والملازم درساً، وعلى الجوع الذي يعانيه والقلق الذي يعيش فيه. خلال الوقت القصير الذي أمضيناه في تبادل الحديث أدركت أنه رجل متناقض. يصعب فهمه. فهو يطلق في بعض الأحيان صرخات من هذا النوع: «يمكن للإرهابيين أن يأتوا في أي لحظة، ويعدموني ويلصقوا على جثتي لوحة تقول "كلب خائن". أو تأتي إحدى فصائل الحرية وتقطع خصيتي من جثتي وتدسهما في فمي. هذا ما يفعلونه هنا. هل يفعلون ذلك في ليما أيضاً؟» وفي بعض الأحيان يغضب مني: «كيف يمكن لك كتابة الروايات وسط هذا الكابوس؟» أتراه سيعود إلى الحديث في ما يهمني؟ أجل، إنه يعود:

ـ يمكنني أن أحدثك بالطبع عن كل ما فعله، وما قاله، وما رآه وما سمعه في تلك الرحلة الأولى. لقد استبقيته معلقاً بي مثل بقرة. نظمنا له اجتماعين، أولاً مع الفتيان، ثم مع رفاق أوسع تجربة. عمال من مناجم أورويو، وكاسابالكا، وموروكوتشا. إنهم عمال من خاوخا ذهبوا للعمل في مناجم أكبر إخطبوط إمبريالي في ذلك الحين، شركة ثيرّو دي باسكو كوبر

كُربوريشن. وكانوا يأتون من المناجم في الأعياد وفي نهاية الأسبوع أحياناً.

- وهل كان هؤلاء مشتركين في الخطة أيضاً؟

بابيخوس وأوبييوث يقولان نعم، ولكن مايتا لم يكن ليضع يديه في النار ويراهن على المنجميين. لقد كان عددهم خمسة عمال، وكانوا قد تبادلوا الحديث معه في اليوم التالي، في بيت الأفطس كذلك، لمدة ساعتين تقريباً. وجد الاجتماع رائعاً والتواصل سهلاً معهم جميعاً - وخصوصاً مع لوريتو، أكثرهم تسيساً وقراءة -، ولكنهم لم يقولوا في أي لحظة إنهم مستعدون لمغادرة عملهم وبيوتهم لحمل السلاح. ولكن مايتا ما كان ليقسم كذلك بأنهم لن يفعلوا ذلك. وفكر: «إنهم متكتمون». لقد كانوا عمالاً، يعرفون ما الذي يجازفون به. وكانوا يلتقون به للمرة الأولى. أليس من المنطق أن يُظهروا الحرص والحذر؟ كانوا يبدون أصدقاء قدماء لأوبييوث. وواحد منهم على الأقل، لوريتو، الذي تملأ فمه أسنان ذهبية، كان قد انضم سابقاً إلى الأبريستا. وهو يعلن الآن أنه اشتراكي. عندما يتحدثون عن أمريكيي شركة ثيرو دي باسكو، يبدون معادين حاسمين للإمبريالية؛ وعندما يتحدثون عن الأجور، وعن حوادث العمل، وعن الأمراض التي تسببها أنفاق المناجم، يبدون ثوريين مصممين. ولكن كلما حاول مايتا أن يعرف بالتحديد الطريقة التي سيشاركون بها في الانتفاضة، تأتي إجاباتهم غامضة. وعند الانتقال من العموميات إلى التفاصيل المحددة، يصبح تصميمهم الحاسم أضعف.

- ذهبنا كذلك إلى ريكران - يضيف الأستاذ أوبييوث مفلتاً

قليلاً قليلاً كنوزه من المعلومات ـ أنا نفسي أخذته إلى هناك، في شاحنة ابن أخ لي، لأن بابيخوس اضطر إلى البقاء في ذلك اليوم في السجن. ريكران... ريكران التي اختفت من الوجود. هل تعرف كم من القرى الصغيرة مثل ريكران قد دُمرت في هذه الحرب؟ لقد أخبرني قاض قبل أيام، بالاستناد إلى كولونيل في الأركان العامة، أن إحصاءات القوات المسلحة قد سجلت نصف مليون قتيل منذ بدء الأحداث. أجل، لقد أخذتُهُ إلى ريكران. أربع ساعات من القعقعة في الصعود، حتى بلغنا فجأ على ارتفاع أربعة آلاف وخمسمئة متر. يا للتروتسكي المسكين! بدأ أنفه ينزف وبلل منديله. لم يكن قادراً على تحمل المرتفعات. وكانت تخيفه الهاويات. وأقسم لك أنه كان يصاب بالدوار.

ظن أنه سيموت، سيهوي إلى القاع، وأن نزيف أنفه لن يتوقف أبداً. ومع ذلك، فإن تلك الرحلة التي دامت أربعاً وعشرين ساعة إلى قرية ريكران، هناك، في منعطفات سلسلة الجبال، كانت أكثر الأعمال التي قام بها في خاوخا إثارة. إنها أرض نسور الكوندور، والثلج، والسماء النقية، والقمم ذات اللون الأمغر. وقد فكر: «لا أكاد أصدق أنه يمكن العيش في هذه الارتفاعات، وترويض هذه الجبال، وزراعة وفلاحة هذه المنحدرات، وبناء حضارة في هذه القفار.» الرجال الذين عرفه عليهم الأفطس أوبييوث ـ نحو عشرة أشخاص من المزارعين صغار الملاكين والحرفيين ـ كانوا متحمسين جداً. وقد استطاع التفاهم معهم، إذ إنهم جميعاً يتكلمون الإسبانية. وجهوا إليه أسئلة كثيرة، ولشدة حماسه حيال اندفاعهم، أكد لهم ـ أكثر مما فعل مع الفتيان في

خاوخا ـ على الدعم الذي سيلقونه من القطاعات التقدمية في ليما. يا للحماس الذي تبعثه في النفس عفوية هؤلاء الرجال البائسين، وبعضهم ينتعلون الصنادل، وهم يتكلمون عن الثورة وكأنها شيء وشيك، محدد، لا جدال فيه ولا رجعة عنه. لم تكن هناك أي مواربة في الحوار: جرى الحديث عن الأسلحة، عن المخابئ، وعن مشاركتهم في العمليات منذ اليوم الأول. ولكن مايتا مر بلحظة حرج قاسية عندما سألوه: ما هو الدعم الذي سيقدمه لهم الاتحاد السوفييتي؟ لم تواته الجرأة ليحدثهم عن الثورة المغدورة، وعن هيمنة البيروقراطية الستالينية، وعن تروتسكي. أحس بأنه من غير المناسب إحباطهم الآن بمثل هذه المسائل. فقال إن الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية ستقدم المساعدة، ولكن فيما بعد، عندما تصبح الثورة البيروية أمراً واقعاً. أما قبل ذلك، فسوف يقدمون لهم الدعم المعنوي فقط، بالكلام وحسب. فهذا ما يحدث مع بعض التقدميين الكريوليين. لا يضعون كتفهم إلا عندما يدفعهم كل شيء إلى عمل ذلك. ولكننا سندفعهم، لأن الثورة عندما تبدأ لن يكبحها أي شيء.

قال له بابيخوس:

ـ وباختصار، لقد أدهشتك ريكران. كنت أعرف أن ذلك سيحدث يا أخي.

كانوا قبالة محطة القطار، في مطعم صغير طاولاته مغطاة بمشمع ضارب إلى الزرقة وستائره من قماش البروكار «مطعم الخالاباتو». ومن الطاولة التي يشغلونها كان بإمكان مايتا رؤية الجبال، في الجانب الآخر من سياج السكة الحديد، وهي تصير

رمادية وسوداء بعد أن كانت ذات لون أمغر وذهبي. لقد أمضوا في المطعم عدة ساعات، منذ وقت الغداء. وقد تعرف صاحب المطعم على أوبييوث وباييخوس وصار يدنو منهم بين وقت وآخر لتبادل الحديث. وعندئذ كانوا يغيرون موضوع حديثهم، ويوجه مايتا أسئلة حول خاوخا. لماذا سمي المطعم «خالاباتو»؟ بسبب عادة يمارسونها في احتفالات العشرين من كانون الثاني في حي ياويوس: إذ يرقصون رقصة «العصابة» ويعلقون بطة حية في الشارع ويحاول الفرسان والراقصون قطع رأسها وهم منطلقون بأقصى سرعة.

يزمجر الأستاذ أوبييوث:

ـ بوركت تلك الأزمنة التي كان يوجد فيها بط لقطع رؤوسه في حفلات الخالاباتو. كنا نظن أننا نلامس القاع. ولكن كان هناك مع ذلك بط في متناول أي جيب، وكان الناس في خاوخا يأكلون وجبتين في اليوم، وهذا شيء لا يستطيع الأطفال اليوم أن يصدقوه. ـ وتنهد من جديد ـ لقد كانت احتفالات بديعة، بل إنها كانت أكثر مرحاً وشراباً من الكرنفالات.

قال باييخوس:

ـ الشيء الوحيد الذي نطلبه هو أن يقوم الحزب بواجبه عندما نبدأ العمل. إنهم ثوريون، أليس كذلك؟ لقد قرأتُ صوت العمال التي أعطيتني إياها من أولها إلى آخرها. الثورة هي الشغل الشاغل في كل مقال. حسن، فليكونوا منسجمين مع ما يكتبونه.

أحس مايتا بشيء من الانزعاج: فهذه هي المرة الأولى التي يُشعره فيها باييخوس بأنه يحتفظ ببعض الشكوك حول دعم ح ع ث (ت). لم يكن قد أخبره كلمة واحدة مما دار في المناقشات الداخلية حول مشروعه وشخصه.

ـ الحزب سيفي بمسؤولياته. ولكنه يريد أن يتأكد من أن هذا العمل جدي، ومخطط له، وأن له احتمالات في النجاح.

ويعود الأستاذ أوبييوث إلى الموضوع قائلاً لي:

ـ حسن، في تلك الأيام لم يرَ ذاك التروتسكي أن هناك أي تسرع أو جنون. فرأسه لم يكن يستوعب أننا قد أعددنا كل شيء على أحسن وجه.

ـ صحيح، الأمر أكثر جدية مما كنت أعتقد ـ التفت مايتا إلى بابيخوس ـ. أتعرف أنك استطعت خداعي تماماً؟ لقد أقمت شبكة متكاملة للانتفاضة، بما في ذلك الفلاحون والعمال والطلاب: إنني أخلع قبعتي احتراماً لك يا رفيق.

أشعلوا الأنوار في المطعم. ورأى مايتا أن بعض الحشرات الطنانة بدأت ترتطم بالمصابيح التي تتأرجح معلقة على حبل طويل جداً.

ـ لقد كان عليّ أنا أيضا أن أتخذ بعض الاحتياطات، مثلما فعلت أنت معي. ـ قال الملازم ذلك متكلماً بتلك الصرامة التي ما إن تظهر فيه حتى تحوله إلى شخص آخر. ـ لقد كان عليّ أن أتأكد أيضاً من أنه يمكنني الثقة بك.

ـ لقد تعلمت الدرس جيداً ـ قال له مايتا ذلك مبتسماً. وتوقف عن الكلام ليلتقط أنفاسه. لقد كان تأثير داء المرتفعات عليه اليوم أقل، فقد استطاع أن ينام بضع ساعات بعد يومين من الأرق. هل بدأت سلسلة الجبال تتقبله؟ ثم أضاف: ـ هناك رفيقان آخران، هما أناتوليو وخاثينتو، سيأتيان الأسبوع القادم. وسيكون تقريرهما حاسماً في انغماس الحزب تماماً في العملية. وعندما يريان ما رأيته، سيدركان أنه ليست هناك أية مسوغات للتراجع.

هنا دون شك، خلال رحلته الأولى إلى خاوخا، خطرت لذهن مايتا تلك الفكرة التي جلبت له مشاكل كثيرة. هل أطلعهما عليها في الخالاباتو؟ هل طرحها بصوت خافت، منتقياً الكلمات، كي لا يبلبلهما بانقسامات ذلك اليسار الذي يظنانه متجانساً؟ الأستاذ أوبييوث يؤكد لي أن لا. «إذا كان جسدي قد ضعُف وتهلهل بفعل السنين، فإن ذاكرتي مازالت سليمة ولم تضعف.» ومايتا لم يطرح عليه مطلقاً نيته في الطلب من جماعات وأحزاب أخرى المشاركة في العملية. هل طرح هذه الفكرة إذن مع بابيخوس وحده؟ مما لا شك فيه على أي حال أنه قد حسم أمر تلك المبادرة في خاوخا، ذلك أن مايتا لم يكن متهوراً. وإذا كان قد ذهب لدى رجوعه إلى ليما للقاء بلاكير، وربما التقى كذلك أناساً من ح ع ث الآخر، فلأنه كان قد قلب الأمر كثيراً أثناء وجوده في سلسلة الجبال في الأيام السابقة. لقد فعل ذلك في إحدى ليالي الأرق وتسرع النبض تلك، في نزل شارع تاراباكا، بينما هو يسمع في الظلام أنفاس صديقه الهادئة وطفرات قلبه بالذات. ألم يكن ما سيجري عظيم الشأن بحيث لا يمكن لحزب صغير مثل ح ع ث (ت) أن يتولى منفرداً مسؤولية الانتفاضة؟ الجو بارد، وهو ينكمش على نفسه تحت الدثار. يده على صدره، يستمع إلى نبضاته. المنطق العقلاني كان واضحاً جداً. فالانقسامات في صفوف اليسار سببها، إلى حد بعيد، غياب الممارسة العملية الحقيقية، والانشغال بأعمال عقيمة: وهذا يجعل قوى اليسار تنحدر وتلتهم ذاتها، أكثر مما تفعل ذلك الخلافات الأيديولوجية. ويمكن لخوض حرب العصابات أن يعدل الوضع وأن يوحد الثوريين

الحقيقيين مُظهراً لهم مدى بيزنطية اختلافاتهم. أجل، ستكون الممارسة العملية هي الدواء ضد الفئوية التي تتولد من العجز السياسي. العمل المباشر سيكسر الدائرة المغلقة، وسيفتح عيون الرفاق المتخاصمين. لا بد من الجرأة، ومن الوقوف على مستوى الظروف. «ما أهمية "البابلوية" و"مناهضة البابلوية" أيها الرفاق حين يتعلق الأمر بمصير الثورة؟» وتصور في ليل خاوخا البارد، القبة السماوية الملطخة بالنجوم وفكر: «هذا الهواء النقي أنار لك الطريق يا مايتا». أنزل يده من صدره إلى عضوه، وبدأ يداعبه بينما هو يفكر في أناتوليو.

وأسأله بإصرار:

ـ أولم يقل لكما إن الخطة على قدر من الأهمية بحيث لا يمكن لها أن تكون احتكاراً لفئة تروتسكية صغيرة؟ وإنه سيحاول الحصول على مشاركة حزب العمال الثوري الآخر، بل والحزب الشيوعي كذلك؟

فيجيب الأستاذ أوبييوث في الحال:

ـ لم يفعل ذلك بالطبع. لم يقل لنا أي شيء في هذا الشأن وحاول أن يخفي عنا أن اليسار منقسم على نفسه وأن ح ع ث (ت) هو حزب لا قيمة له. لقد خدعنا بكل أشكال المراوغة المخاتلة. فقد كان يحدثنا عن الحزب. الحزب من هنا والحزب من هناك. وأنا كنت أفهم أن المقصود هو الحزب الشيوعي بالطبع، وأظن أن ذلك يعني آلاف وآلاف العمال والطلاب.

تُسمع من بعيد زخة رصاص. أم تراه يكون رعداً؟ ثم تتكرر مرة أخرى بعد ثوان قليلة، فيخيم علينا الصمت ونصيخ السمع.

وتسمع من بعيد أيضاً زخة أخرى فيتمتم الأستاذ أوبييوث: «إنها مفرقعات من الديناميت يفجرها رجال العصابات في الجبال لكي يحطموا أعصاب جنود الثكنة. حرب نفسية.» لا: بل هي طيور بط، إنه سرب منها يطير وينعق فوق نباتات القصب. كانا قد خرجا للقيام بجولة وكان مايتا يحمل حقيبته في يده. فبعد ساعة تقريباً سيركب القطار إلى ليما.

قال له باييخوس:

ـ هناك متسع للجميع بالطبع. وكلما كانوا أكثر يكون الوضع أفضل. وستكون هناك أسلحة لكل من يريد أن يطلق النار. الشيء الوحيد الذي أطلبه منك هو أن تقوم بمساعيك بسرعة.

كانا يمشيان على ضفاف المدينة وكانت تبدو من بعيد بعض السطوح ذات القرميد المائل إلى الحمرة. وكانت الريح تصفر بين أشجار الأوكالبتوس والصفصاف.

ـ لدينا كل الوقت الذي نحتاجه ـ قال مايتا ـ. لا يوجد مبرر للتسرع في الأمور.

ـ بل يوجد مبرر ـ قال باييخوس ذلك بجفاء. وعاد ينظر إليه وكان في عينيه تصميم أعمى. ففكر مايتا: «هناك شيء آخر، سأعرف شيئاً جديداً»، وواصل باييخوس قائلاً: ـ القائدان الرئيسيان في أوتشوبامبا، من قادا الاستيلاء على مزرعة آينا موجودان هنا.

فقال مايتا:

ـ هنا في خاوخا؟ ـ قال مايتا ـ ولماذا لم تعرفني عليهما؟ كنت أود التحدث إليهما.

ـ إنهما فـي السجن ولا يمكـن زيارتهمـا ـ ابتسم بـاييخوس ـ. إنهما معتقلان، أجل.

كانت قد نقلتهما إلى السجن دورية من الحرس الأهلي الذي كُلف بقمع عمليـات الاستيلاء على الأراضـي. إنمـا لم يكـن من المؤكد أن يبقيا فـي السجن لوقت طويل. ففـي أي لحظة يمكـن أن تأتي أوامر بتحويلهما إلى هوانكـايو أو إلى ليمـا. والخطة الموضوعة تعتمـد فـي معظمهـا عليهمـا. فهمـا سـيقودانهم مـن خاوخـا إلى أوتشوبامبا بصورة سريعة ومضمونة، وهما من سيضمن مشاركة الفلاحين فـي الانتفاضة. فهل تـرى كيف أن الوقت المتوفر محدود جداً؟

ـ إنهما أليخانـدرو كونـدوري وثينـون غونثـالس ـ أقـول لـه ذلـك مستبقاً نطقـه بالاسمين. فـيفتح أوبييـوث فمـه من الدهـشة. وكـان ضوء المصباح قد تضاءل كثيراً حتى صرنا وكأننا فـي الظلام.

يقول متلعثماً:

ـ أجل، هكذا يسميان. إنك واسع الإطلاع.

أأنا واسع الإطلاع؟ أظن أنني قرأت كل ما ظهر فـي الصحف والمجلات حول هذه القصة، وتحدثت مع عدد كبير من المشاركين والشهود. ولكنني كلما كنت أتقصى أكثر، أشعر بأنني أعـرف أقـل عمـا حـدث فعـلاً. فمـع كـل معلومـة جديـدة، يـبرز مزيـد مـن التناقضات، والتخمينات، والأسرار، والتنافرات. كيف أمكن أن ينتهـي الأمـر بهـذين القائـدين الفلاحـيين اللـذين ينتميـان إلى جماعـة عريقة من منطقة الأدغال فـي خونين، ليصلا إلى سجن خاوخا؟

وأوضح له باييخوس:

ـ مصادفة رائعة. أنا لم أتدخل في هذا الأمر بأي حال. فقد كان هذا هو السجن الذي يجب إحضارهما إليه، لأنه يجب على القاضي أن يفتح التحقيق معهما هنا. لو كانت أختي معنا لقالت إن الرب يساعدنا، أترى؟

ـ وهل كانا مرتبطين بكم قبل اعتقالهما؟

فيقول لي أوبييوث:

ـ بصورة عامة فقط. تحدثنا إليهما خلال الرحلة التي قمنا بها إلى أوتشوبامبا وساعدانا في إخفاء الأسلحة. ولكنهما لم يلتزما معنا بالكامل إلا هنا، خلال الشهر الذي أمضياه في الاعتقال. فقد صارا صديقين حميمين لسجانهما، أي الملازم. وأنا أعرف أنه لم يطلعهما على التفاصيل إلى أن اندلعت الأحداث.

هذا الجزء من القصة، الجزء الأخير، يسبب قلقاً للأستاذ أوبييوث، على الرغم من الوقت الطويل الذي مضى على الأحداث. إنه يتحدث في هذا الجزء بحقد، ودوره في هذا الجزء موضع نقاش وشك. سمعنا دفقة أخرى من إطلاق النار، آتية من بعيد. فزمجر:«ربما هم يعدمون بعض المتواطئين مع الإرهابيين». فهذا هو الوقت الذي يخرجونهم فيه من بيوتهم، ويحملونهم في سيارة جيب أو في مصفحة، ويأخذونهم إلى خارج المدينة. وتظهر الجثث في اليوم التالي على الدروب. ويسألني فجأة، دون أي تمهيد: «وما مغزى كتابة الرواية بينما البيرو في هذه الحال التي هي عليها، حيث جميع البيرويين يعيشون حياة غير مضمونة؟» هل لهذا أي مغزى؟ وأقول له إنه لا بد أن يكون له مغزى بالتأكيد، ذلك أنني أكتب الرواية فعلاً. هنالك شيء مُحبط في الأستاذ أوبييوث:

فكل ما يقوله يسبب لي طعماً من الحزن. إنه حكم مسبق، ولكنني غير قادر على التخلص من الإحساس بأنه يتخذ على الدوام موقفاً دفاعياً وأن كل ما يرويه لي ليس له من هدف سوى تبرير موقفه. ولكن، ألا يفعل الجميع ذلك؟ من أين إذن يتولد ارتيابي به؟ هل من بقائه حياً؟ أم من الأقاويل والهمسات الكثيرة التي سمعتُ بها ضده؟ ولكن، ألست أعرف أن هذه البلاد كانت، في مجال المشاحنات السياسية، مزبلة ضخمة قبل أن تتحول إلى المقبرة التي صارت إليها الآن؟ ألا أعرف الحقارات الكثيرة التي يمكن للخصوم أن ينسبوها إلى بعضهم البعض بالتبادل دون أن يكون لها أي أساس؟ لا، لا يمكن أن يكون هذا هو ما يبدو لي مدعاة للرثاء فيه، وإنما ببساطة انحداره، ومرارته، والحجر الذي يعيش فيه.

أقول له:

ـ أنت تعني، باختصار، أن مشاركة مايتا في خطة العمل كانت معدومة تماماً.

ـ لكي أكون عادلاً، أقول إنها كانت في الحدود الدنيا ـ صحح لي وهو يهز كتفيه. ثم تثاءب فامتلأ وجهه بالتجاعيد قبل أن يضيف ـ ثم إن مشاركته أو عدم مشاركته ما كانت ستغير شيئاً في النتائج. لقد تقبلناه معتقدين أنه قائد سياسي ونقابي له بعض الوزن. كنا بحاجة إلى الدعم العمالي والثوري في بقية أرجاء البلاد. وكنا نتصور أن تلك ستكون مهمة مايتا. ولكن تبين أنه لم يكن يمثل حتى جماعته الصغيرة في ح ع ث (ت). لقد كان، بعبارة سياسية، يتيماً كاملاً.

«يتيماً كاملاً». بقيت العبارة ترن في مسمعي بينما أنا أودع الأستاذ أوبيبوث وأخرج إلى شوارع خاوخا المقفرة، متوجهاً إلى نزل باكا، تحت سماء متألقة بالنجوم. لقد قال لي الأستاذ إنه بإمكاني البقاء للنوم في صالة بيته الصغيرة إذا ما كنت أخشى اجتياز الطريق الطويل إلى النزل. ولكنني فضلت الانصراف: إنني بحاجة ماسة إلى الهواء والوحدة. إنني بحاجة إلى تهدئة طنين رأسي والابتعاد بعض الشيء عن شخص يُفقدني حضوره الحماس لعملي. لقد توقفت رشقات الرصاص وبدا كما لو أن هناك حظراً للتجوال لأنه لم يكن ثمة أحد في الشوارع. أسير في منتصف الشارع، وأخطو بقوة، باذلاً جهدي في أن أكون مرئياً حتى لا تظن أي دورية قد تظهر فجأة أنني أحاول التخفي. هناك ضياء يجعل السماء أكثر انخفاضاً، وأشد فرادة بالنسبة إلى شخص يعيش في ليما، حيث لا تكاد النجوم تظهر على الإطلاق، أو أنها تُلمح منطفئة بسبب الضباب. البرد يقصم الشفاه. لقد فارقني الجوع الذي كنت أشعر به في المساء. يتيم كامل. عادت العبارة إلى ذهني، فقد ناضل دوماً متنقلاً إلى فئات أصغر حجماً وأكثر راديكالية في كل مرة، بحثاً عن نقاء أيديولوجي لم يتوصل إلى العثور عليه أبداً، وكان يتمه الأكبر في إلقائه بنفسه وسط هذه المؤامرة الغريبة، من أجل بدء حرب في مرتفعات خونين، مع ملازم سجان في الثانية والعشرين من عمره وأستاذ مدرسة عامة، كلاهما منفصل تماماً عن حركة اليسار البيروي. لقد كان ذلك مذهلاً، أجل. وما زال يذهلني بعد سنة أمضيتها في التحري والبحث، مثلما ذهلتُ في ذلك اليوم في باريس عندما علمت بما حدث في

خاوخا... الضوء الزنخ المنبعث من مصابيح الأعمدة المتباعدة يلف بظلال سرية واجهات المباني القديمة، لبعضها بوابات ضخمة ومقارع، وأسيجة حديد مشغول وشرفات ذات ستائر معدنية، أتخيل أن وراءها دهاليز وباحات فيها أشجار ونباتات متسلقة، وحياة منظمة ومُضجرة منذ القدم انكمشت اليوم دون شك بفعل الخوف. ولكن اليتيم الكامل كان يشعر دون شك في زيارته الأولى تلك إلى خاوخا بالحماس والسعادة مثلما لم يشعر بذلك من قبل. فهو سيعمل فعلاً، والانتفاضة اتخذت شكلاً ملموساً: هناك وجوه، وأماكن، وحوارات، ووقائع محسوسة. وكأن كل حياته كمناضل، كمتآمر، كتقدمي ومعتقل سياسي قد وجدت فجأة مبرر وجودها وانقذفت بقوة نحو واقع أسمى. ثم إن ذلك يتوافق مع تحقيق ما كان يبدو له قبل أسبوع مجرد حلم هذياني. ألم يكن يحلم؟ لا، إنها الحقيقة والواقع مثلما هي الانتفاضة الوشيكة: إنه يحتضن بين ذراعيه الفتى الذي رغب فيه سراً لسنوات طويلة. لقد أمتعه واستمتع معه، أحس به يئن تحت مداعباته. أحس بدغدغة في خصيتيه، بسابقة للانتصاب وفكر: «هل أُصبتَ بالجنون؟ أتفعل ذلك هنا؟ في وسط المحطة؟ هنا، أمام بايبخوس؟» وفكر: «إنها السعادة. فأنت لم تشعر قطّ بمثل هذا الشعور يا رفيق». لا وجود لأي شيء مفتوح، وأتذكر رحلة سابقة، منذ سنوات، قبل كل هذا، حين كانت دكاكين خاوخا الصغيرة التي لا تنسى عند الغروب، مضاءة بمصابيح كيروسين: محلات الخياطة، والشموع، والحلاقة، وتصليح الساعات، ومتاجر الخبز، ومحلات القبعات. وكان بإمكان المرء أن يرى على الشرفات أحياناً،

صفوفاً من الأرانب تجفف نفسها في العراء. يعاودني الجوع فجأة، ويمتلئ فمي باللعاب. أفكر بمايتا: متهيجاً، سعيداً، وهو يستعد للعودة إلى ليما، واثقاً من أن رفاقه في ح ع ث (ت) سيؤيدون خطة العمل دون تردد. وفكر: «سألتقي بأناتوليو، وسنقضي الليل في الحديث، سأخبره بكل شيء، سنضحك، وسيساعدني في تشجيعهم. وبعد ذلك...» يخيم صمت مطبق، يقطعه أحياناً نعيب طائر ليلي، غير مرئي تحت أفاريز السطوح القرميدية. إنني أخرج من البلدة. هنا حدث الأمر، هنا فعلوا ذلك، في هذه الأزقة التي كانت شديدة الهدوء واللازمانية في ذلك الحين، في هذه الساحة ذات الأبعاد البديعة والتي كان فيها قبل خمس وعشرين سنة شجرة صفصاف ودائرة من أشجار السرو. هنا، في هذه البلاد التي خيل إليهم أنها لا يمكن أن تكون في وضع أسوأ مما كانت عليه، وأنه لا يمكن للمجاعة والمجازر وخطر الانقسام أن تصل إلى الأبعاد الحالية. هنا، وقبل أن يرجع إلى ليما، وبينما هما يتبادلان الوداع في المحطة، أشار اليتيم الكامل إلى الملازم المندفع بأنه من أجل تحقيق اندفاعة أعظم في بداية الانتفاضة، من المناسب التفكير ببعض أعمال الدعاية المسلحة.

فقال باييخوس:

- وما هي هذه الدعاية المسلحة؟

كان القطار على الرصيف والناس يصعدون متزاحمين. وكانا يتبادلان الحديث قرب السلم، مستغلين اللحظات الأخيرة.

قال مايتا:

- إذا ترجمنا هذا إلى اللغة الكاثوليكية فإنه يعني الوعظ

بالمثال. القيام بأعمال لتثقيف الجماهير، تترسخ في مخيلتها، وتقدم لها أفكاراً، وتُظهر لها قوتها. إن عملاً من أعمال الدعاية المسلحة يساوي أكثر من مئات الأعداد من مجلة صوت العمال.

كانا يتكلمان بصوت خافت، ولكن لم يكن هناك خطر من أن يسمعهما أحد في صخب الهجوم على عربات القطار.

ـ وهل تريد دعاية مسلحة أكبر من احتلال سجن خاوخا والاستيلاء على الأسلحة؟ وأكبر من احتلال المفوضية ومركز الحرس الأهلي؟

فقال مايتا:

ـ أجل، أريد ما هو أكثر من ذلك.

فاحتلال هذه المواقع هو عمل عسكري، حربي، يشبه إلى حد ما أجواء الثكنة منذ أن يتزعمه ملازم. وهو غير واضح كفاية من الوجهة الأيديولوجية. يجب استغلال هذه الساعات الأولى إلى أقصى مدى. فالصحف والإذاعات ستنقل الأخبار بتواتر. وكل ما سيفعلونه في هذه الساعات الأولى سيكون له صدى وسيبقى محفوراً بعمق في ذاكرة الشعب. يجب استغلال هذه الساعات جيداً، وتنفيذ أعمال ذات شحنة رمزية، وأن تصل رسالتها الثورية والطبقية إلى المناضلين الحزبيين، وإلى الطلاب والمثقفين، وإلى العمال والفلاحين.

فقال باييخوس:

ـ هل تعرف؟ أظن أنك على حق.

ـ المهم هو أن نعرف مقدار الوقت المتوفر لدينا.

ـ سيكون لدينا عدة ساعات. فبعد قطع خطوط الهاتف

والتلغراف وتعطيل جهاز اللاسلكي، ستكون الطريقة الوحيدة لنقل الخبرهي في الذهاب إلى هوانكايو. والذهاب والعودة وتعبئة رجال الشرطة يتطلب حوالى خمس ساعات.

فقال مايتا:

ـ هذا يكفي إذن من أجل بعض الأعمال التثقيفية. لتعريف الجماهير بأن حركتنا موجهة ضد السلطة البرجوازية، وضد الإمبريالية والرأسمالية.

ضحك باييخوس وهو يعانقه:

ـ إنك تلقي خطاباً. اصعد، اصعد. وبما أنك عائد الآن، فلا تنس المفاجأة التي أهديتك إياها. ستحتاج إليها كثيراً.

«لقد كانت الخطة متكاملة»، قال ذلك الأستاذ أوبييوث عدة مرات خلال محادثتنا معاً. أين كان العيب إذن يا أستاذ؟ العيب كان في تبديلها، في التسرع، في قلبها رأساً على عقب. ومن الذي قلب الخطة وتسرع بها؟ «لا يمكنني تحديد ذلك بدقة. لقد كان باييخوس بالطبع. ولكن، ألا يكون قد فعل ذلك بتأثير ذلك التروتسكي. سأذهب إلى القبر وأنا أحمل هذا الشك.» ويقول إن هذا الشك قد أكل حياته، ومازال يأكلها، أكثر من تلك الافتراءات التي تشاع ضده، بل وأكثر من كونه على القائمة السوداء لدى رجال حرب العصابات. لقد اجتزت نصف الطريق نحو النزل دون أن ألتقي بأية دورية أو دبابة أو إنسان أو حيوان: لا شيء سوى نعيب غير مرئي. النجوم والقمر تتيح رؤية الحقول الهادئة بلونها المائل إلى الزرقة، والمزروعات، وأشجار الأكالبتوس والجبال، والبيوت الصغيرة على جانبي الطريق مسورة بالحجر

والطين مثل بيوت المدينة. لا بد أن مياه البحيرة تستحق الرؤية في ليلة مثل هذه. عندما أصل إلى النزل سأخرج لأراها. المسيرة أعادت إليّ الحماسة لكتابي. سأطل على الشرفة وعلى المرسى، ولن تأتي أي رصاصة طائشة أو متهورة لتقطع عليّ متعتي. وسأفكر، وأتذكر، وأتخيل إلى أن أتوصل قبل أن يبدأ النهار إلى إعطاء شكل لهذا الفصل من قصة مايتا. دوت صافرة وبدأ القطار يتحرك.

الفصل السادس

ـ كانت زيارته هي الأشد رعباً بين الزيارات التي أتتني ـ يقول لي بلاكير ـ لقد بقيت أرمش، وكأنني أريد ولا أريد التعرف عليه. أكان هو حقاً؟

ـ أجل، إنني أنا ـ قال له مايتا بسرعة ـ هل يمكنني الدخول؟ الأمر مستعجل.

ـ تصور! تروتسكيّ في بيتي ـ ابتسم بلاكير متذكراً القشعريرة التي أحس بها في ذلك الصباح، حين وجد نفسه أمام تلك الزيارة المفاجئة ـ لا أظن أن هناك حديثاً يمكن أن يجمع بيني وبينك يا مايتا.

ـ الأمر مهم، مستعجل، إنه فوق كل خلافاتنا ـ «كان يتكلم باحتدام، وكان بادياً عليه أنه لم ينم ولم يغتسل، وبدا شديد الانفعال» ـ أتخشى أن أورطك بمجيئي إلى بيتك؟ فلنذهب إلى أي مكان تشاء إذن.

ويضيف بلاكير:

ـ كنا قد التقينا ثلاث مرات. المرتان الأوليان قبل اجتماع ح ع ث (ت) الذي طردوه فيه باعتباره خائناً. أي بسبب مجيئه للقاء بي. أنا، الستاليني.

ويبتسم من جديد بأسنانه الملوثة بالتبغ، ويتأملني للحظة من

وراء نظارة قصر البصر السميكة بفتور. إننا في **مقهى هايتي** في حي ميرافلوريس، والمقهى ما يزال في حالة النقاهة، لم يُنه بعد إصلاح الأضرار التي ألحقها به الانفجار: فنوافذه مازالت دون زجاج، وطاولة الكونتوار والأرضية مازالت مهشمة ومتشظية. ولكن ذلك لا يظهر هنا في الشارع. فالجميع فيما حولنا يتكلمون في المسألة نفسها، وكأن زبائن العشرين طاولة التي على الرصيف يشاركون في محادثة واحدة: أيكون صحيحاً أن قوات كوبية قد اجتازت حدودنا مع بوليفيا؟ وأن المتمردين مع «المتطوعين» الكوبيين والبوليفيين الذين يدعمونهم يدفعون الجيش منذ ثلاثة أيام إلى التقهقر، وأن المجلس العسكري الحاكم قد نبه الولايات المتحدة إلى أن عدم تدخلها سيتيح للمتمردين احتلال مدينة آريكيبا خلال بضعة أيام والإعلان هناك عن قيام جمهورية البيرو المستقلة؟ ولكنني أنا وبلاكير تجنبنا الخوض في هذه الأحداث الكبرى وتحدثنا عن تلك الحادثة الضئيلة والمنسية منذ ربع قرن والتي تدور حولها روايتي.

ـ لقد كنتُ ستالينياً في الواقع ـ يضيف بلاكير بعد لحظة ـ مثلما كان الجميع في ذلك الحين. أولم تكن ستالينياً أنت أيضاً؟ ألم تكن تنفعل حماساً لسيرة ستالين المقدسة التي كتبها باربوس؟ ألم تكن تحفظ عن ظهر قلب قصيدة نيرودا في تبجيله؟ ألم يكن لديك ملصق لرسمه الذي رسمه بيكاسو؟ أولم تبكِه عندما مات؟

لقد كان بلاكير أستاذي الماركسي الأول ـ قبل خمس وثلاثين سنة ـ في حلقة دراسية سرية نظمتها الشبيبة الشيوعية،

فـي بيت صغير فـي بويبلو ليبري. صحيح أنـه كـان فـي ذلـك الحـين سـتالينياً، مجـرد آلـة مبرمجـة علـى ترديـد البيانـات، إنـسان آلـي يتكلم بنمطية مرسومة. أما الآن فهو رجل مسن، يعيش حياة بائسة بمزاولة أعمال مطبعية. أما زال عضواً فـي الحـزب؟ ربمـا، ولـكنـه عضو تابع لن يتوصل مطلقاً إلى تسلق المراتب القيادية: والـدليل علـى ذلك أنه هنا، معـي، أمـام العيـان فـي وضـح النهـار، فـي هـذا اليـوم الرمادي بغيومه الملبدة التي تبدو وكأنها نذر خبيثة، تتفق تماماً مـع الإشـاعات حـول التـدويل النهـائي للحـرب فـي جنـوبي الـبلاد. لـيس هناك من يطارده بينما أدنى قيادات الحزب الـشيوعي ـ أو أي حـزب آخر من أحزاب اليسار ـ قد تـوارت عـن الأنظـار، أو أنهـا اعتقلـت أو قتلت. أعرف قصته المشوشة مـن بعـض مـا سمعتـه عنـه فقـط ولـست أنوي التقصي عنها الآن. (لأنـه إذا مـا صـحت الأخبـار عـن أن الحـرب قد عمّت، فلن يكون لدي ما يكفـي مـن الوقت إلا لإنجـاز الروايـة وحـدها؛ وإذا مـا وصـلت الحـرب إلى ليمـا، وإلى بـاب بـيتي، فـإنني أشك فـي إمكانية إنجازهـا.) ما يهمني من بلاكير الآن هو شهادته حـول تلـك الاجتماعـات الثلاثـة الـتي عقـدها مـع مايتـه قبـل خمـس وعـشرين سـنة ــ اجتماعهمـا همـا النقيـضان معـاً: التروتـسكـي والستاليني ـ عشية الانتفاضـة فـي خاوخـا. ولـكنني كنـت مـأخوذاً طوال الوقت لكون بلاكير الذي كان مهيأً دون ريـب للوصـول إلى اللجنـة المركزيـة وربمـا إلى زعامـة الحـزب الـشيوعي، أصـبح الآن الـسيد لا أحـد. مـا جـرى لـه وقـع فـي أحـد بلـدان وسـط أوربـا، فـي هنغاريـا أو تـشيكوسلوفاكيا، حيـث كـان قـد أُرسـل إلى مدرسـة للكـوادر، وحيـث وجـد نفـسه متورطـاً فـي مـشكلة. وحـسب

الاتهامـات الـتي شـاعت همـساً ــ الـشائعات المعتـادة: نـشاطات انقـسامية، فرديـة متطرفـة، عجرفـة برجوازيـة صـغيرة، عـدم انضباط، تخريب فـي خط الحزب ـ كـان مـن المستحيل معرفة ما قالـه أو فعلـه ليـستحق الحرمـان. أيكـون قـد اقـترف الجريمـة القصوى: أي انتقـاد الاتحـاد السوفـييتي؟ وإذا كـان قد فعل ذلك، فلماذا انتقده؟ الشيء المؤكد هو أنه طُرد من الحزب بضع سنوات، عاش خلالها فـي المطهر الكئيب للشيوعيين المتطهرين ـ ليس هناك مـن هـو أشد يتماً مـن عضو مطـرود مـن الحـزب، حتـى ولا الخـوري الذي يخلع مسوح الكهنوت ـ، مترديًا بكل المعاني، إلى أن تمكـن مـن الرجـوع كمـا يبـدو، بعـد تقـديم النقـد الـذاتي الـلازم علـى مـا أعتقـد. ولـكـن عودتـه إلى الحظـيرة لم تنفعـه كـثيراً، إذا حكمنـا على ما صار إليه منذ ذلك الحين. فالحزب، حسب علمـي، أوكـل إليـه مهمـة تـصحيح بروفـات جريـدة أونيـداد وبعـض الكراسـات والمنـشورات، إلى أن اتخـذت الانتفاضـة الأبعـاد الـتي وصلت إليهـا، فـأعتُبر الـشيوعيون خـارجين علـى القـانون وبـدأت ملاحقـتهم أو اغتيالهم على يد كتائب الحرية. ولكن من غير المحتمل أن يسجنوا أو يغتـالوا الرجل المحطم الـذي صـار إليـه، اللهم إلا نتيجـة خطـأ أو حماقـة هائلـة. لا بـد أن مـرارة ذكريـات الماضـي قـد وضـعت حـداً لأوهامه. ففـي كل المرات التي رأيته فـيها خلال السنوات الأخيرة ـ ودائماً ضمن جماعة من الناس، وهذه هـي المرة الأولى منـذ عشر أو خمس عشرة سنة التي نتحدث فـيها على انفـراد ـ كـان يبعـث فـي الانطباع بأنه كائن مرير ودون فضول.

ـ لم يطردوا مايتا من ح ع ث (ت). ـ أقـول لـه مـصححاً ـ وإنمـا

هـو الـذي اسـتقال. فـي ذلـك الاجتمـاع الأخـير بالتحديـد. رسـالة استقالته نُشرت فـي صوت العمال (ت). ولدي قصاصة منها.

فـيصحح لي هو بدوره مؤكداً:

ـ بل طـردوه. أعـرف مـا جـرى فـي جلسة التروتسكيين تلك كما لو أنني كنتُ معهم. لقد روى لـي مايتـا نفسه تفاصيلها فـي المرة الأخيرة التي التقينا بها. المرة الثالثة. سأطلب فنجان قهوة آخـر، إذا كنت لا تمانع.

الشيء الوحيد الذي يمكن طلبه هو القهوة والمياه الغازية، فحتى قطع البسكويت أصبحت مقننة الآن، ومن المفترض ألا يقدموا أكثر من فنجان قهوة واحد فقط لكل زبون. ولكنه ترتيب لا يحترمه أحد. النـاس منفعلـون جـداً، فـالجميع علـى الطـاولات المجـاورة يتكلمـون بصوت عـال. وعلـى الـرغم مـني أجـد نفسي مشدوداً لـسماع مـا يقولـه شـاب يـضع نظـارة: فـي وزارة العلاقـات الخارجيـة يقـدرون أن عـدد الأمميين الكوبيين والبوليفـيين الذين عبروا الحـدود «يصل إلى بضعة آلاف». وتفتح الفتاة التي معه عينيها: «أيكون فـيدل كاسترو قد دخل أيـضاً؟» فـيخيب الـشاب أملـها: «لقـد كـبر كـثيراً علـى مثـل هـذه المـشقات». الـصبيان الحفـاة ذوو الثيـاب الرثـة فـي شـارع دياغونـال يتهافتون مثل النحل على كل سيارة تريد التوقف، عارضين غسلها، حراستها، تنظيف زجاجها. وآخرون يتجولون بين الطاولات، عارضين على زبـائن مقهى هـايتي مـسح أحـذيتهم وتحويلـها إلى مـرآة. (يقـال إن القنبلـة الـتي انفجـرت هنـا، وضعها أطفـال مثل هـؤلاء.) وهنـاك أيضاً جماعات من النساء يقفزن بين المارة والسائقين ـ حين يتوقف هـؤلاء عند إشارات المرور ـ عارضين عليهم سجائر مهربة. ففـي نـدرة المـواد

الرهيبة التي تعيشها البلاد، ظلت السجائر هي الشيء الوحيد الذي لم يختف. لماذا لا يهرِّبون كذلك معلبات أغذية محفوظة، وبسكويت، وشيئاً لقتل الجوع الذي ننام ونقوم عليه؟

- هذه هي المسألة - قال مايتا لاهثاً. وكان قد تكلم بهدوء، بترتيب، دون أن يقاطعه بلاكير. وقد قال ما أراد قوله. هل أحسن صنعاً بذلك أم أساء؟ لم يكن يعرف ذلك ولا يهمه أن يعرف: كان يشعر كما لو أن كل نعاس الليلة التي أمضاها ساهراً قد داهمه دفعة واحدة ـ أترى، لقد كنتُ محقاً عندما طرقت بابك.

بقي بلاكير صامتاً، ينظر إليه والسيجارة تحترق بين أصابعه النحيلة المصفرة. الحجرة الضيقة كانت غرفة هجينة ـ فهي مكتب، وغرفة طعام، وغرفة استقبال ـ، مترعة بالمفروشات، والكراسي، وبعض الكتب، وكانت تبدو في ورق الجدران الباهت بقع من الرطوبة. وبينما كان مايتا يتكلم، سمع في الأعلى صوت امرأة وبكاء طفل. وقد بقي بلاكير جامداً دون حراك، ولولا عيناه المثبتتان عليه لظنه نائماً. لقد كان هذا القطاع من حي خيسوس ماريا هادئاً، ودون سيارات.

- لا يمكن أن يكون هناك استفزاز ضد الحزب أشد فظاظة من هذا ـ قال بلاكير أخيراً بصوته الخالي من التلونات. وسقط رماد سيجارته على الأرض فداسه بقدمه، وأضاف: ـ كنت أظن التروتسكيين أكثر تهذباً في مكائدهم. يمكنك أن توفر على نفسك هذه الزيارة يا مايتا.

لم يفاجأ: فقد قال بلاكير ما كان يجب عليه أن يقوله، ربما باستخدام كلمة أقل أو كلمة أكثر. وقد رأى بينه وبين نفسه أنه

على حق: فعلى المناضل أن يرتاب وبلاكير مناضل جيد، وهذا أمر يعرفه عنه مذ كانا معتقلين معاً في تلك المرة. وقبل أن يرد عليه، أشعل سيجارة وتثاءب. وعاد الطفل في الأعلى إلى البكاء. وكانت المرأة تهدئه هامسة.

قال له مايتا:

ـ تذكر أنني لم آت لأطلب شيئاً من حزبك. وإنما لإطلاعك وحسب. وهذا أمر فوق كل خلافاتنا. إنه يخص جميع الثوريين.

فدمدم بلاكير:

ـ بمن في ذلك الستالينيون الذين خانوا ثورة أكتوبر؟

ـ أجل، بمن في ذلك الستالينيون الذين خانوا ثورة أكتوبر ـ وافق مايتا، ثم بدل نبرة صوته قائلاً ـ لقد فكرتُ في الأمر طوال الليل، قبل أن أقوم بهذه الخطوة. إنني أرتاب فيك بقدر ما ترتاب أنت في. ألا تلاحظ ذلك؟ أتظنني لا أُدرك مدى مجازفتي؟ إنني أضع بين يديك ويدي حزبك سلاحاً رهيباً. ومع ذلك، ها أنا ذا هنا. فلا تتكلم عن استفزازات لستَ مؤمناً بها. فكر قليلاً.

هذا أحد الأمور التي لا أستطيع فهمها تماماً في هذه القصة، إنه الحدث الأكثر غرابة. ألم يكن من العبث كشف تفاصيل انتفاضة مسلحة أمام عدو سياسي لن يقترح عليه ـ وهذا هو الأسوأ ـ عقد تحالف، أو القيام بعمل مشترك، أو تقديم مساعدة محددة؟ ما هو معنى كل ذلك؟ ويقول أحدهم في المقهى: «صباح هذا اليوم، قالوا في إذاعة الثورة هذه، إن الرايات الحمراء ترفرف فوق مدينتي اريكيبا وكوسكو». فيرد آخر «أوهام».

ـ وعندما جاء لرؤيتي، لم يَبدُ لي أن للأمر أي معنى ـ يوافقني

بلاكير ـ فقد ظننت أول الأمر أنها مكيدة. أو أنه قد تورط في أمر ما وندم عليه ويريد التملص منه بخلق تعقيدات ومصاعب... وفيما بعد، على ضوء الأحداث التي جرت، اتضح الأمر.

ـ الأمر الوحيد الواضح هو الخنجر المسدد إلى الظهر ـ زمجر الرفيق بيّاردي ـ. فتسول الدعم من الستالينيين من أجل هذه المغامرة ليس عملاً ينم عن عدم انضباط. بل هو ببساطة ووضوح: خيانة.

ـ سأشرح لك مجدداً إذا اقتضى الأمر ـ قاطعه مايتا دون غضب. وكان يجلس على رزمة من أعداد **صوت العمال** ويسند ظهره إلى ملصق لوجه تروتسكي. وخلال ثوان قصيرة سيطر توتر مكهرب على الكراج في شارع ثوريتوس ـ ولكن علينا أيها الرفاق أن نوضح أمراً قبل كل شيء. فهل ما تعنيه هو الثورة عندما تتكلم عن مغامرة؟

يتذوق بلاكير ببطء قهوته كثيرة الماء ويمر بطرف لسانه على شفتيه المزمومتين. يغمض عينيه ويبقى صامتاً، وكأنه يفكر في الحوار الدائر على طاولة مجاورة: «إذا كان الخبر صحيحاً، فغداً أو بعد غد ستكون الحرب هنا في ليما.» «أتعتقد ذلك يا باتشو؟ آه، كيف ستكون الحرب، أليس كذلك؟» يتقدم المساء، وحركة مرور السيارات تزداد كثافة. شارع دياغونال مختنق. أعداد الصبية المتسولين وبائعات السجائر قد ازدادت أيضاً. ويصرخ شخص حانق: «يسعدني أن يدخل الكوبيون والبوليفيون. فالآن لم يعد لدى "المارينز" الذين في الإكوادور ذرائع لعدم التدخل. بل ربما يكونون قد أصبحوا في بيورا، في تشيكلايو. فليقتلوا

كل من يجب قتلهم ويضعوا حداً لكل هذا، اللعنة!» أنا أكاد لا اسمعه، لأن تكهناته الدموية أقل حيوية في الحقيقة من ذلكما الاجتماعين، في مدينة ليما نفسها، ولكنها ليما ذات سيارات أقل، وبائسين أقل، ومهربين أقل، ويبدو من المستحيل فيها وقوع الأحداث التي تجري الآن: مايتا يذهب في الاجتماع الأول ليشاطر أعداءه الستالينيين أسراره التآمرية، ومايتا يتجادل في الاجتماع الثاني مع رفاقه في الجلسة الأخيرة للجنة المركزية لـ **حزب العمال الثوري (التروتسكي).**

ـ مجيئه لرؤيتي هو التصرف العاقل الوحيد الذي قام به وسط الرعونة التي ورط نفسه بها ـ يضيف بلاكير. وكان قد خلع نظارته لينظفها فبدا وكأنه أعمى ـ. إذا ما توطدت جماعة حرب العصابات، فسوف يحتاجون لدعم من المدينة. شبكات ترسل إليهم الأدوية والمعلومات، ويمكنها إخفاء ومعالجة الجرحى، وتجنيد مقاتلين جدد. شبكات تكون أجهزة إعلام وتشهير بالعمليات الانتقامية. من سيشكل هذه الشبكات؟ أيشكلها العشرون تروتسكياً الذين كانوا في البيرو؟

قال له مايتا محدداً:

ـ الواقع أننا سبعة فقط.

هل فهمه بلاكير؟ جموده كان مرة أخرى مثل تمثال. كان يقرب رأسه، شاعراً بأنه يتعرق، متابعاً الكلمات التي يختلسها مني التعب والقلق، سامعاً من حين لآخر، في هذه الأعالي المجهولة، صوت الطفل والمرأة. وقد أوضحت له مجدداً: لا أحد يطلب من أعضاء الحزب الشيوعي الذهاب إلى الجبال ـ وكان قد

احتاط ولم يأت على ذكر باييخوس أو خاوخا أو أي موعد محدد ـ، ولا أن يتخلوا عن طروحاتهم، وأفكارهم، وأحكامهم المسبقة، ومعتقداتهم الدوغمائية وأي شيء آخر. وإنما أن يعرفوا بالأمر فقط ويكونوا متأهبين. فعما قريب سينشأ وضع يجدون أنفسهم فيه أمام خيار تطبيق قناعاتهم عملياً أو التنكر لها، عما قريب سيتوجب عليهم أن يبرهنوا للجماهير عما إذا كانوا يريدون فعلاً إسقاط النظام المستغِل واستبداله بنظام عمالي ــ فلاحي ثوري، أو أن كل ما كانوا يقولونه هو مجرد خطابية للعيش في خمول في ظل القوة العظمى الحليفة التي تتبناهم بانتظار أن يأتي يوم تسقط الثورة فيه على البيرو كهدية من السماء.

ـ عندما تهاجمنا تبدو أنك أنت نفسك ـ قال بلاكير ـ. ما الذي جئت تطلبه؟ حدد ما تريده قليلاً.

ـ أن تكونوا جاهزين. ـ وفكرتُ: «هل سينقطع صوتي؟» فأنا لم أشعر مطلقاً بمثل هذا الإنهاك؛ كان علي أن أبذل جهداً كبيراً كي أنطق كل حرف. وفي الأعلى، انطلق الطفل يبكي صارخاً من جديد ـ لأننا عندما نبدأ العمل، سيكون هناك هجمة مضادة شرسة. وأنتم لن تنجوا من القمع بالطبع.

ـ بالطبع ـ تلعثم بلاكير ـ. إلا إذا كان ما تقوله مجرد هراء. فالحكومة والصحافة والجميع سيقولون إننا نحن من خططنا للأمر ونفذناه بذهب موسكو وأوامرها. أليس كذلك؟

ــ من المحتمل أن يكون الأمر كذلك ــ قلت موافقاً. وكان بكاء الطفل يزداد قوة وبكاؤه يشوشني ــ. ولكن، ها أنتم قد علمتم الآن. يمكنكم اتخاذ الاحتياطات. أضف إلى ذلك...

بقيت مفتوح الفم وليس بي رغبة في إكمال كلامي، وللمرة الأولى منذ بداية دردشتي مع بلاكير أحسست بالتردد. كان وجهي مغطى بالعرق، والحدقتان متسعتين، ويداي ترتعشان. أمغامرة وخيانة؟

- إنهما الكلمتان المناسبتان وأنا أؤكد عليهما - قال الرفيق كارلوس بجفاء، ثم أضاف: - فالرفيق بياردي لم يقل سوى الحقيقة.

فنبهه الأمين العام:

- يجب التركيز على باييخوس الآن. لقد اتفقنا على مناقشة مسألة خاوخا أولاً. أما مقابلة الرفيق مايتا مع بلاكير، فسنناقشها فيما بعد.

- صحيح - أجاب الرفيق كارلوس، وفكر مايتا: «إنهم يقلبون لي كل شيء»، وتابع كارلوس: - إنه ملازم يطرح ثورة على شكل «انقلاب»، دون دعم نقابي، ودون مشاركة من جانب الجماهير. ماذا يمكننا أن نطلق على هذا كله سوى أنه مغامرة؟

- يمكننا أن نسميه استفزازاً أو تهريجاً - تدخل الرفيق ميداردو. ثم نظر إلى مايتا دون رحمة وأضاف بحركة حاسمة: - لا يمكن للحزب أن يقدم على التضحية في سبيل أمر ليس له أدنى حظ من النجاح.

أحس مايتا بأن رزمة صوت العمال التي يجلس عليها أخذت تميل وفكر بكم سيكون مضحكاً الانزلاق عنها والسقوط قاعداً على مؤخرته. نظر بطرف عينه إلى رفاقه وفهم سبب تحيتهم له عن بعد عندما وصل، وسبب عدم تغيب أحد عن هذه الجلسة.

أيكونـون جميعهم ضـده؟ بمـن فــي ذلـك أعـضاء فريـق العمـل؟ وأناتوليو أيضاً ضده؟ وبدلاً من اليأس أحسست بغثيان غضب.

ـ أضـف إلى ذلـك أي شـيء؟ ـ شـجعني بلاكـير على مواصلة الكلام.

ـ البنادق ـ قلت بطرف صوتي ـ. لدينا أكثر مما نحتاج إليه. فإذا أراد الحزب الشيوعي أن يدافع عن نفسه عندما يبدأ إطلاق النار، فسنعطيه أسلحة. وبالمجان طبعاً.

رأيـت أن بلاكـير، وبعـد بـضع ثـوان مـن الـصمت، قـد أشـعل سيجارته ذات العدد غير المحدد في هذا الصباح. ولكن الثقاب انطفـأ مـرتين وحـين سـحب الـنفس الأول منهـا اختنـق. «هـذه المـرة اقتنعت بأن الأمر جدي.» رأيته ينهض واقفاً، ينفث الدخان من أنفه وفمه، ويطل إلى الغرفة المجاورة ويصرخ: «خذيه للقيام بجولة. إنه لا يتركنا نتكلم ببكائه هذا». لم يأته أي جواب، ولكن الطفل توقف عن البكاء فوراً. عاد بلاكير للجلوس.. ليتأملني.. ليستعيد هدوءه. ثم دمدم:

ـ لست أدري إذا كانت هذه مكيدة يا مايتا. ولكنني أعرف أمراً واحداً مؤكداً. لقد أصابك الجنون. هل تعتقد فعلاً أنه يمكن أن تكون للحزب، في أي حال، ولأي سبب، قضية مشتركة مع التروتسكيين؟

ـ مع الثورة، وليس مع التروتسكيين ـ أجبته ـ. أجل، أعتقد بذلك. ولهذا جئت لمقابلتك.

ـ إنها مغامرة برجوازية صغيرة، إذا ما توخينا الدقة ـ قال ذلك أنـاتوليو، وبمجـرد ملاحظـتي أنـه بـدأ يتلعـثم، عرفـت مـا الـذي

سيضيفه، وعرفت أنه قد حفظ ما سيقوله: ـ الجماهير غير مدعوة وليس لها أي دور في الخطة. ومن جهة أخرى، ما هي الضمانة بأن قرويي أوتشوبامبا سينتفضون إذا ما ذهبنا إلى هناك؟ لا توجد أي ضمانة. ومن منا رأى هذين القائدين السجينين؟ لا أحد. ومن سيقود كل هذا؟ هل سنكون نحن؟ لا. من سيقود العمل هو ملازم ذو عقلية انقلابية ومغامر إلى أقصى الحدود. وما هو الدور الذي يقدمه لنا؟ أن نكون العربة الأخيرة في القطار، ولحم المدافع. ـ ثم التفت الآن وكانت لديه الجرأة على النظر إلى عيني مباشرة ليضيف: ـ واجبي أن أقول ما أفكر فيه يا رفيق.

«لم يكن هذا ما كنت تفكر فيه ليلاً» أجبته في ذهني. أو ربما كان كذلك بينما لم يكن موقفه في العشية إلا مجرد تصنع لتضليلي. ولكي أفعل شيئاً يشغلني، قمت بتسوية الصحف التي أجلس عليها بتأنٍ وأعدت إلصاقها إلى الجدار. فعندما وصلت الأحوال إلى هذا المستوى، أصبح الأمر جلياً: لقد كان هناك اجتماع مسبق، اتفقت فيه اللجنة المركزية لـ ح ع ث (ت) على ما يدور الآن. ولا بد أن أناتوليو قد حضر ذلك الاجتماع. أحسست بطعم لاذع، وبتوعك في العظام. إنه تهريج مبالغ فيه. ألم نكن قد تحدثنا مطولاً في الليلة السابقة في غرفتي في شارع ثيبيتا؟ ألم نراجع معاً خطة العمل؟ هل ستودع أحداً قبل أن تصعد إلى الجبال؟ سأودع أمي فقط. وماذا ستقول لها؟ سأقول لها إنني قد حصلت على منحة دراسية في المكسيك، وسأكتب إليك كل أسبوع يا أماه. وهل كان لديه آنذاك تردد، قلق، شكوك، تناقضات؟ ولا أي شيء من هذا، بل كان يبدو متحمساً وثابت

الجأش تماماً. كنا مستلقيين في الظلام، وكان السرير الضيق يصر بنفور جسده المجاور لجسدي كلما سمع ركض الجرذان في بطانة السقف. تلك الاهتزازات المفاجئة كانت تكشف لي لهنيهة أجزاء من بشرة أناتوليو، وكنتُ انتظرها بلهفة. وبينما فمي قبالة فمه قلت له فجأة: «لا أريدك أن تموت أبداً.» ثم قلت بعد لحظة من ذلك: «هل فكرت في أنك قد تموت؟». وبصوت جعلته الرغبة لزجاً وخافتاً، أجابني في الحال: «لقد فكرت في ذلك بالطبع. ولستُ أبالي» وبينما أنا متألم ومزعزع فوق رزمة صوت **العمال** التي تهدد بالانفراط ثانية، فكرت: «الواقع أنك تبالي».

ـ ظننت أنه يريد التظاهر، أو أنه يعاني مشاكل عصبية، ظننت أنه... ـ ويصمت بلاكير لأن الفتاة التي إلى المنضدة المجاورة أطلقت ضحكة. ثم يضيف: ـ قد يحدث للرفاق أحياناً مثلما يحدث للعسكريين الذين يظنون يوماً أنهم نابليون. وقد فكرت يومذاك: حين استيقظ مايتا صباح اليوم أحس أنه لينين عند وصوله إلى محطة فنلندا.

يصمت ثانية بسبب ضحكات الفتاة. وعلى طاولة أخرى هناك سيد يوجه تعليمات بملء حنجرته: املؤوا مغاطس البانيو، والمغاسل، والدلاء، والبراميل، وضعوها في كل الغرف والأركان، املؤوها ولو بماء البحر. لأنه إذا دخل الشيوعيون، فالولايات المتحدة ستقصف، والحرائق ستكون عندئذ أخطر من القنابل. هذه هي الأولوية، صدقوني: يجب أن يكون الماء في متناول اليد لإطفاء الحرائق فور اشتعالها.

وواصل بلاكير:

ـ ولكن على الرغم من الوقع الخيالي لكلامه، فقد كان صحيحاً. كل ما قاله كان صحيحاً. كان لديهم فائض من البنادق. فالملازم كان قد سرق بعض الأسلحة من أحد مستودعات الجيش، هنا في ليما. وكان يخفيها في مكان ما. أنت تعرف أنه كان قد أهدى إلى مايتا مسدساً رشاشاً، أليس كذلك؟ لقد كان من تلك الغنائم المخبأة على ما يبدو. لا بد أن فكرة التمرد المسلح كانت متسلطة على عقل باييخوس مذ كان تلميذ ضابط. لم يكن مجنوناً، فقد كان عرضه صريحاً. عرض أحمق، ولكنه صريح.

طيف ابتسامة يكشف عن أسنانه الملوثة. وبحركة فظة يبعد صبياً يحاول أن يمسح له حذاءه، ويقول ساخراً:

ـ لم يكن لديهم من يعطونه السلاح، كانت تنقصهم الأيدي لحمل تلك البنادق.

ـ وماذا كانت ردة فعل الحزب؟

ـ لم يول أحد الأمر اهتماماً، ولم يصدق أحد كلمة واحدة من ذلك. لا بشأن البنادق، ولا بخصوص حرب العصابات. ففي صيف 1958، وقبل شهور من دخول الملتحين إلى هافانا، من كان سيصدق مثل هذه الأمور؟ وكان رد فعل الحزب مثلما هو متوقع منطقياً. لا بد من قطع الاتصال مع هذا التروتسكي، لأنه يحمل في يديه ألعوبة ما. وقد قطعتُ علاقتي به بالطبع.

هناك سيدة تتهم رجل دلاء الماء بالجهل. ففي مواجهة القنابل لا سبيل سوى تسليم الأمر لله! دلاء ماء لمواجهة القصف! أيظن هذا التعيس البائس أن الحرب كرنفالاً؟ فيزمجر الرجل: «مؤسف أنكِ لستِ رجلاً، وإلا كنتُ هشمت وجهك» فيرد عليه مرافق السيدة

بشهامة: «أنا رجل، هيا هشم وجهي لأرى». يبدو أنهما سيتشاجران.

ـ مكيدة أو جنون أو أي شيء آخر، لا نريد معرفة أي شيء عن القضية ـ قال بلاكير لمايتا ـ ولا نريد رؤيتك أنت أيضاً.

ـ كنت أتوقع ذلك. فأنتم ما أنتم عليه وستظلون كذلك لوقت طويل.

يفصلون بين الرجلين المتشاجرين، وبالسرعة التي اشتدت بها حميتهما عادت تهدأ من جديد. وقالت الفتاة: «لا تتشاجرا، علينا في هذه اللحظات أن نكون متحدين». وكان هناك رجل أحدب ينظر إلى ساقيها.

ـ لقد كانت صفعة قاسية بالنسبة إليه ـ يقول بلاكير ذلك وهو يبعد ماسح أحذية آخر كان يحاول إمساك حذائه ـ فمن أجل المجيء للقاء بي، كان عليه أن يحطم كوابح كثيرة. لا شك في أنه توصل إلى القناعة بأنه يمكن للانتفاضة أن تزيح الجبال التي تفصل ما بيننا. إنها السذاجة القصوى.

يرمي عقب السيجارة على الأرض، وفي الحال يرتمي شبح يرتدي ما يشبه ممسحة ملطخة بالسواد، فيحمل العقب ويحاول مصه، يحاول سحب نفس أخير من دخانه. أهكذا كنت عندما أقدمت على الخطوة التي لا تصدق بالذهاب إلى بلاكير؟ أهكذا كنت متلهفاً عندما أدركت أن ساعة الصفر قد أزفت ولسنا سوى حفنة نحن الذين سننتفض، وأننا نفتقر إلى أدنى حد من تنظيمات الإسناد في المدينة؟

ـ وكان ما يزال بحاجة إلى طلقة الرحمة ـ يضيف بلاكير ـ فقد طرده حزبه بتهمة الخيانة.

كان هذا ما قاله خاثينتو ثيفايوس حرفياً. فأن يقول ذلك المناضل المجرب، العامل، لقية البيرو التروتسكية، كان الأمر الأكثر بلبلة في تلك الجلسة التي سمع فيها الكثير من العبارات المعادية. لقد كانت أقسى من بهلوانيات أناتوليو. لأنه كان ينظر باحترام ومحبة إلى العجوز ثيفيايوس. لقد تكلم الأمين العام بسخط ولم يتحرك أحد:

- أجل يا رفيق، فطلب التعاون مع الستالينية المحلية في هذا المشروع، ومن وراء ظهرنا، مستخدماً اسم الحزب، هو أمر أكبر من أن يكون عملاً انشقاقياً. إنه الخيانة. وتوضيحاتك تزيد الأمور سوءاً، فأنت تقدم التبريرات بدل أن تعترف بأخطائك. يجب علي أن أطلب فصلك من الحزب يا مايتا.

أي توضيحات قدمتُ إليهم؟ مع أن أياً ممن حضروا تلك الجلسة لا يوافق على أنها قد جرت، إلا أنني أشعر بالحاجة إلى أن تكون قد حدثت مثلما يرويها لي بلاكير. ماذا يمكن أن يقال لهم لتبرير زيارتي للعدو اللدود؟ ولكن بالنظر إلى ما جاء فيما بعد، فإن هذا العدو لم يعد يبدو لدوداً جداً. فهؤلاء «الحمر» الذين يمكن لهم أن يدخلوا إلى ليما غداً أو بعد غد ينتمون إلى طيف واسع من الماركسيين، ممن يقاتلون الآن ظاهرياً تحت راية واحدة، فهناك بينهم موسكوبيون وتروتسكيون وماويون. فالثورة بالغة الأهمية والجدية والصعوبة بحيث لا يمكن لها أن تكون احتكاراً لأحد، أو امتيازاً لمنظمة بعينها، حتى وإن كانت هذه المنظمة قد حللت الواقع البيروي بصورة صحيحة أكثر من سواها. فالثورة لن تكون ممكنة مالم يستبعد جميع الثوريين خلافاتهم، ولكن دون أن يتخلوا في

المرحلة الأولى عن مبادئهم الخاصة، ويتوحدوا في عمل محدد ضد العدو الطبقي. سيئ اللباس، أربعيني، متعرق، منفعل بإفراط، عيون ترمش بكثرة، كان يحاول أن يبيعهم هذه الدمية الغرائبية التي بدلت حياته وهو متأكد من أنه يمكن لها أن تبدل أيضاً حيواتهم وحياة اليسار كله: الممارسة العملية، الممارسة المطهرة، الفادية، المُبرئة. فهي التي ستهذب الفظاظة والعداوات وليدة الأنانية والشخصانية، وستوحد الجماعات والاتجاهات في تيار منيع سيجرف كل الثوريين، يا رفاق. ولهذا ذهب للتكلم مع بلاكير. لا ليكشف له أي عنصر حساس، لأنه لم يخرج من فمي أي اسم أو موعد محدد أو مكان، ولم أفعل ذلك لأورط ح ع ث (ت)، لأن أول ما لفتُ نظر بلاكير إليه هو أنني أتكلم بصفتي الشخصية وأن أي اتفاق مستقبلي يجب أن يتم حزبياً لحزب. وقد ذهبت للقائه دون طلب تفويض من أجل كسب الوقت يا رفاق. ألا يستعد للذهاب إلى خاوخا؟ وقد ذهب ببساطة لينبههم إلى أن الثورة ستبدأ، حتى يستخلصوا النتائج اللازمة إذا كانوا ثوريين وماركسيين، مثلما يدعون. لكي يكونوا مستعدين للدخول في النضال. لأن الرجعية ستدافع عن نفسها، وستضرب مثل وحش محاصر، ومن أجل مواجهة أنيابها ومخالبها لا بد من تشكيل جبهة موحدة... هل استمعوا إليه حتى النهاية؟ هل أجبروه على الصمت؟ هل طردوه بصفعات وشتائم من الكراج في شارع ثوريتوس؟

ـ تركوه يتكلم عدة مرات. ـ يؤكد لي بلاكير ـ كان الجو متوتراً جداً، وظهرت إلى العلن شؤون شخصية، وكاد مايتا وخواكين أن يتبادلا الضرب. وبعد أن صوتوا ضده، بعد أن قتلوه

وأجهزوا عليه، رفعوه عن الأرض، حيث كانوا قد حولوه إلى خرقة قذرة، وقدموا إليه مخرجاً. نوع من الميلودراما التروتسكية. هذا الاجتماع الأخير لحزب العمال الثوري (التروتسكي) سيكون مفيداً جداً لك على ما أظن.

ـ أجل، أظن ذلك. ولكنني لم أفهم بعد، لماذا ينكر موسيس وأناتوليو وبياردي وخواكين إنكاراً حاسماً انعقاد هذا الاجتماع؟ إن رواياتهم تتعارض في مواقع كثيرة، ولكنها تتفق تماماً في هذه النقطة: فهم يقولون إن استقالة مايتا قد وصلتهم بالبريد، استقال بمبادرته الشخصية عند ذهابه إلى خاوخا، حين قرر ح ع ث (ت) عدم المشاركة في الانتفاضة. أهو ضعف ذاكرة جماعي؟

ـ بل ضعف ضمير جماعي ـ همس بلاكير ـ. لم يكن بإمكان مايتا أن يختلق هذه الجلسة. جاء ليروي ما جرى فيها بعد انعقادها بساعات. لقد كانت طلقة الرحمة ولا شك في أنه قد أزعجهم. لأنهم في وسط الحملة عليه، واجهوه بكل شيء، بما في ذلك عقب أخيله. أتتصور مدى القسوة؟

ـ من الأفضل أن تقول إننا مقبلون على نهاية العالم يا صديقي ـ هتف زبون ساهٍ. وكانت الفتاة تضحك ضحكة مجنونة وسعيدة، بينما الأطفال المتسولون لا يتركون لحظة تمر بهدوء، فقد راحوا يتقاذفون بأقدامهم علبة صفيح بين أرجل المارة في الشارع.

ـ وهل أخبرك بهذا الأمر أيضاً؟ ـ أقول له متفاجئاً ـ لقد كان موضوعاً لا يتطرق إليه مطلقاً، حتى مع أفضل أصدقائه. لماذا بحث عنك أنت بالذات في تلك اللحظة؟ لست أفهم ذلك.

ـ وأنا لم أفهم الأمر في البداية، أما الآن فأظن أنني أفهمه ـ

يقول بلاكير ـ يجب ألا تنسى أنه كان ثورياً مئة بالمئة. وقد طردوه من ح ع ث (ت). ربما أمكن لذلك أن يدفعنا إلى إعادة النظر بموقفنا السلبي. وربما نأخذ على محمل الجد خطة انتفاضته.

ـ لقد كان علينا في الواقع أن نطردك منذ زمن ـ يؤكد الرفيق خواكين، وينظر مجدداً إلى مايتا بطريقة دفعتني إلى التفكير: «لماذا يكرهني؟»، ويتابع: ـ سأقول لك دون مواربة، كماركسي وثوري. أنا لا أستغرب إقدامك على ما أقدمتَ عليه، هذه المكيدة، وذهابك للتحدث خفية مع ذلك الشرطي الستاليني المدعو بلاكير. لستَ رجلاً سوياً لأنك بكل صراحة لستَ رجلاً في الأصل يا مايتا.

فقاطعه الأمين العام:

ـ غير مسموح التحدث في الشؤون الشخصية.

ما قاله خواكين فاجأ مايتا فلم يستطع قول شيء: سوى هز كتفيه. لماذا فوجئت إلى هذا الحد؟ أليس أمراً في إحدى ثنايا الدماغ السرية، وكنت أخشى أن يبرز في كل المناظرات، ضربة مفاجئة إلى أسفل تمنع الهواء عني وتتركه كسيحاً طوال ما تبقى من المناقشة؟ كان يحس تشنجاً في جسمه كله، فعدل من وضعه فوق رزمة الصحف، وفكر مذعوراً: «سينهض أناتوليو ويعترف بأننا نمنا معاً في الليلة الماضية». ماذا سيقول؟ ماذا سيفعل؟

ـ الأمر ليس شخصياً، بل له علاقة بما جرى ـ رد الرفيق خواكين، ووسط خوفي وتشوشي، عرف مايتا أنه يكرهه فعلاً: هل فعلتُ له شيئاً خطيراً وجارحاً في أحد الأيام ليوجه إليّ مثل هذا الانتقام؟ وواصل الرفيق خواكين: ـ هذه الطريقة الملتوية

والنــزوية فــي التـصرف، وهـذا الـذهاب بحثـاً عـن أعـدائنا، هـو تصرف مخنث يا رفاق. لم يقل قطّ من قبل بسبب بعض الاعتبارات أن مايتا لم يكن معنا. فهل يمكـن للمـرء أن يكـون ثوريـاً مخلصـاً ومثلياً فـي آن واحد؟ هذا هو جوهر المسألة يا رفاق.

وفكـرت بسخف: «لماذا يقـول مثليـاً ولا يقـول مخنثـاً؟ أليست كلمـة مخنـث هـي التسمية الدقيقـة؟» وبينمـا هـو يستعيد السيطرة على نفسه رفع يده مشيراً إلى الرفـيق خاثينتو بأنه يريد الكلام.

ـ هـل أنـت متأكـد مـن أن مايتـا نفسـه هـو الـذي أخبرهم بأنـه ذهب للقاء بك؟

ـ أكيد. كان يظن أنه يفعل الصواب ـ يؤكـد بلاكـير ـ. أراد أن يقوم بحركة ناجحة. فعندما يذهب الثلاثة الذين عليهم الـذهاب إلى خاوخـا، يحـاول الآخـرون الـذين سيبقون فـي ليمـا الاتفـاق معنـا مجدداً. لقد كان ذلك التصرف هو تماديه الأكبر. فالتروتسكيون الذين ما كانوا يعرفون كيف يتملصون من مسألة خاوخـا الـتي لم يؤمنوا بها مطلقاً، والتي رأوا أن مايتا قد جـرهم إليهـا، وجـدوا فـي تصرفه ذاك الذريعة المناسبة. لكـي يتخلصوا مـن الالتـزام، ولكـي يتخلصوا فوق ذلك منـه بالـذات. أو بكلمة أخـرى، لكـي ينقسموا علـى أنفسهم مـرة أخـرى. فهـذه كانـت علـى الـدوام هـي الرياضـة الكبرى للتروتسكيين: التطهير، الانقسام، التشرذم، الطرد.

ويضحك كاشفاً لي أسنانه النيكوتينية.

ـ المسائل الشخـصية لا علاقـة لهـا، مـسائل الجـنس والأسـرة الشخصية لا علاقة لها ـ كـررت ذلـك دون أن أستطيع رفـع نظـري عـن رقبـة أنـاتوليو الـذي كـان يجلـس علـى أحـد مقاعـد الحلابـات

وينظر بعناد إلى الأرض، وأضفتُ ـ ولهذا لن أرد على استفزازاتك. ولهذا لن أرد عليك بما تستحق يا خواكين.

فرفع الأمين العام صوته:

ـ ليس مسموحاً تحديد شخص بعينه، وغير مسموح توجيه التهديد.

وسمع الرفيق خواكين يقول له:

ـ هل أنت كذلك أم لا يا مايتا؟ ـ ولاحظتُ أنه يطبق قبضتيه، وأنه مستعد للدفاع عن نفسه أو للهجوم ـ. كن صريحاً بشأن رذيلتك على الأقل.

ـ غير مسموح بالحوارت الشخصية ـ أصر الأمين العام ـ. وإذا كنتما تريدان الشجار فاذهبا خارجاً.

ـ معك حق يا رفيق ـ قال مايتا ذلك متوجهاً إلى خاثينتو ثيفايوس ـ. لا حوارات شخصية ولا مشاجرات، ولا أي شيء قد يبعدنا عن الموضوع. هذه المناقشة ليست حول قضايا الجنس. سنناقش ذلك في مرة أخرى إذا كان الرفيق خواكين يعتبره أمراً مهماً. فلنعد إلى جدول أعمال اليوم. ولا تقاطعني على الأقل.

كنتُ قد استعدت توازني، وتركوني أتكلم بالفعل، ولكني وأنا أتكلم، كنت أقول في نفسي إن ذلك لن يفيد كثيراً: فقد اتخذوا القرار، من وراء ظهري، بالانسحاب من التمرد المسلح، ولا يمكن لأي حجة أن تبدل قرارهم. لم أسمح لتشاؤمي بالظهور حين كنت أتكلم. وكررت عليهم بتأثر كل الحجج التي كنتُ قد عرضتها عليهم، تلك المسوغات التي ما زالت حتى الآن، بالرغم من المعارضات، ترن في مسمعي بطريقة لا يمكن دحضها. أليست الظروف الموضوعية متوفرة؟ ألا يشكل ضحايا الإقطاع والتسلط

والاستغلال الرأسمالي والإمبريالي قوة ثورية؟ حسن إذن، الظروف الذاتية تخلقها الطليعة، بعمليات دعائية مسلحة، بتوجيه ضربات إلى العدو في عمليات تثقيفية تعبئ الجماهير وتضمها تدريجياً إلى العمل. ألا توجد أمثلة كثيرة على ذلك؟ أمثلة الهند الصينية، الجزائر، كوبا موجودة وماثلة تثبت أنه يمكن للطليعة المصممة أن تبدأ الثورة. وليس صحيحاً أن مسألة خاوخا هي مغامرة برجوازية صغيرة. إنها عملية متماسكة تماماً وتعتمد على بنية تحتية صغيرة ولكنها كافية. وستتكلل بالنجاح إذا ما قمنا جميعنا بدورنا. وليس صحيحاً أيضاً أن ح ع ث (ت) سيكون في العربة الأخيرة: بل سيكون القيادة الأيديولوجية بينما يقتصر دور باييخوس على القيادة العسكرية. لا بد من رؤية واسعة الأفق، كريمة، ماركسية، تروتسكية، وليس نظرة فئوية أيها الرفاق. الدعم هنا في ليما ضعيف. ولهذا كان لا بد لنا من التساهل في أمر التعاون مع قوى يسارية أخرى، لأن النضال سيكون طويلاً وشاقاً و...

وذكّر الرفيق بيّاردي:

ـ هناك اقتراح يطالب بطرد مايتا وهذا هو ما نناقشه.

قال بلاكير وهو يسدّ أمامه الطريق إلى بيته:

ـ ألم يكن واضحاً لك بأننا يجب ألا نلتقي ثانية؟

ـ إنها قصة طويلة ـ رد مايتا ـ. لم يعد بإمكاني توريطك. فقد طردوني من ح ع ث (ت) لأني تحدثتُ إليك.

ويقول لي بلاكير بنبرته المشاكسة:

ـ وقد طردوني أنا لأني استقبلته. فعلوا ذلك بعد عشر سنوات.

ـ هل كانت مشاكلك مع الحزب بسبب تلك المحادثات؟

كنـا قـد غادرنـا مقهـى هـايتي ورحنـا نتمـشى فـي حديقـة ميرافلـوريس، باتجـاه ناصـية لاكـرو حيـث سـيركب بلاكـير الميكروباص. كان هنـاك حشد كثيف يحوم حول باعة البضائع الرخيصة المنثورة على الأرض والتي تتشابك بأقـدام المـارة. الهيـاج بسبب أخبار الغزو صار عاماً، ومحادثتنا تتلطخ بأصوات تقول «كوبيون»، «بوليفيون»، «قصف»، «مارينـز»، «حرب»، «حمر».

ـ لا، ليس صحيحاً ـ يوضح لي بلاكير ـ. مشاكلي مع الحزب بدأت لأنني بدأت أناقش خط القيادة. ولكنهم عاقبوني لأسباب ليست لها في الظاهر علاقة بانتقاداتي. وبين التهم العديدة، خرج إلى النور تقاربي المزعوم مع التروتسكية. قيل إنني كنت قد اقترحت على الحزب عملاً مشتركاً مع التروتسكيين. إنه الوضع المألوف: تسفيه الناقد أخلاقياً، بحيث يصبح كل ما يأتي منه قمامة لمجرد أنه آت منه. لم يتفوق علينا أحد في ذلك أبداً.

ـ أي أنك كنت أيضاً واحداً من ضحايا خاوخا ـ أقول له.

ـ بطريقة ما. ـ ويعيد النظر إلي بوجهه العجوز الذي له لون رق جلدي أكسبته ابتسامته ملمحاً إنسانياً، ويضيف: ـ كانت هناك أدلة أخرى على التواطؤ مع التروتسكيين، ولكنهم لم يكونوا يعرفونها. لأنني كنت قد ورثت كتب مايتا عندما ذهب إلى الجبال.

قال له مايتا بنبرة ساخرة:

ـ ليس هناك من أترك له كتبي. لقد صرت بلا رفاق. ومن الأفضل أن تأخذها أنت بدل أن يأخذها المخبرون. افهم الأمر على هذا النحو حتى لا تشعر بتأنيب الضمير. احتفظ بأوراقي وتثقف.

ـ كان هناك قدر كبير من البراز التروتسكي الذي قرأته

خفية، مثلما كنا نقرأ فارغاس فيلا في المدرسة ـ يقول لي بلاكير ذلك ضاحكاً ـ أجل، خفية. انتزعت من الكتب الصفحات التي كتب عليها مايتا الحروف الأولى من اسمه، كيلا يبقى أي أثر للجريمة.

ويضحك من جديد. هناك جوقة من الناس تتقدم برؤوسها محاولة سماع نشرة أخبار من مذياع نقال يحمله أحد المشاة عالياً. وتصل إلينا نهاية بيان رسمي: مجلس الإصلاح الوطني يشكو لهيئة الأمم غزو التراب الوطني من قبل قوات كوبية ـ بوليفية ـ سوفيتية، وأنها منذ صباح هذا اليوم قد خرقت حرمة تراب البيرو المقدس من ثلاث نقاط على الحدود، في مقاطعة بونا. وفي الساعة الثامنة ليلاً سيتوجه المجلس إلى البلاد عبر الإذاعة والتلفزيون لإطلاعها على أخبار هذه الإهانة التي هزت البيرويين، الذين اتحدوا الآن مثل قبضة واحدة للدفاع عن... الأمر صحيح إذن، لقد دخلوا. ومن المؤكد إذن أن «المارينز» سيأتون كذلك، من قواعدهم في الإكوادور، هذا إذا لم يكونوا قد فعلوا ذلك. نواصل طريقنا بين أناس مذهولين أو مذعورين بسبب الأخبار.

ويقول لي بلاكير فجأة بنبرة ضجر أكثر مما هي خوف:

ـ سيان من سيكسب، لأنني سأخرج خاسراً. فإذا كسب «المارينز»، فلا بد أن أكون وارداً في قوائمهم باعتباري عميلاً قديماً للشيوعية العالمية. وإذا انتصر المتمردون، سيعتبرونني تحريفياً، واشتراكياً– إمبريالياً وخائناً سابقاً للقضية. لن أعمل بنصيحة ذلك الشخص الذي في مقهى هايتي. لن أضع دلاء ماء في غرفتي. فالحريق بالنسبة إلي قد يكون الحل.

فـي الموقـف، قبالـة محـل تينـديثيتا بلانكـا هنـاك ازدحـام يستدعي انتظاراً طويلاً قبل التمكن من صعود أحد الميكروباصات. ويقول لـي إنـه فـي السنوات التي أمضاها فـي مطهر المطرودين من الحـزب تفهم بصورة أفضل حـال مايتـا فـي ذلـك اليـوم. وأنـا أسمعه ولكنني أمشي منفصلاً عنه، مفكراً. فكون أحداث خاوخا قد نفعت، بعد سنوات، وإن كـان بصورة غير مباشرة، فـي تـردي بلاكير إلى حافة العدم الذي عاش فيه، لهو دليل آخر على مدى غرابة وعدم توقع ما هـي عليه تشعبات الأحداث، تلك الآلية المعقدة جداً لأسباب ونتائج، لانعكاسات وحوادث، هـي التاريخ البشري. وهو لا يحقد كما يبدو على مايتا بسبب تلك الزيارات المفاجئة. بل يبدو أنه، مع مرور الزمن، قد بدأ يكن له التقدير.

ـ لا أحد يمتنع عن التصويت، يمكنك أن تعد الأيدي ـ قال خاثينتو ثيبايوس ـ إنه إجماع يا مايتا. لم تعد تنتمي منذ الآن إلى ح ع ث (ت). لقد طردت نفسك بنفسك.

كـان يخيم صـمت كـصمت القبـور ولم يتحـرك أحـد. هـل يتوجب عليه أن ينصرف؟ هل يتوجب عليه أن يتكلم؟ أيترك الأبواب مفتوحة أم يلعن أمهاتهم؟

ـ قبل عشر دقائق كنا نعرف كلانا بأننا عدوان حتى الموت ـ قال بلاكير متنقلاً بنزق قبالة كرسي مايتا ـ وها أنت تتصرف الآن كما لو كنا رفاقاً منذ الأزل. هذا مضحك!

ـ لا تتصرفوا ـ قال الرفيق ميداردو بنعومة ـ. لدي طلب لحفظ الاعتبار يا رفاق.

ـ إننا في خندقين مختلفين، ولكننا ثوريان كلانا ـ قال

مايتا لبلاكير ـ ونحن نتماثل في شيء آخر: فأنت وأنا نرى أن الشؤون الشخصية تأتي بعد القضايا السياسية. ولهذا دعك من التنكر ولنتحدث بصراحة.

حفظ اعتبار؟ كل العيون اتجهت نحو الرفيق ميداردو. كان هناك دخان كثير، حتى إن مايتا من مكانه إلى جانب رزم أعداد صوت العمال، كان يرى الوجوه مطموسة.

ـ أكان يائساً، مثقلاً، يشعر بأن الأرض تنشق تحته؟

وينفي بلاكير بحركة من رأسه:

ـ كان واثقاً، هادئاً بل ومتفائلاً، أو أنه كان يتظاهر بذلك على أحسن وجه. كان يريد أن يُظهر لي أن الطرد لم يؤثر عليه. وربما كان ذلك صحيحاً. هل تعرفت على أولئك الرجال الذين يكتشفون الجنس أو التدين وهم في سن الشيخوخة؟ إنهم يصبحون متلهفين، متوقدين، لا يملون. وهكذا كان هو. فقد اكتشف الممارسة العملية وصار يبدو مثل صبي صغير. لقد كان يثير انطباعاً مضحكاً، مثل أولئك الشيوخ الذين يحاولون أن يرقصوا الرقصات الحديثة. وكان من الصعب في الوقت نفسه عدم الإحساس بشيء من الحسد تجاهه.

ـ لقد كنا أعداء لأسباب أيديولوجية، ولهذه الأسباب نفسها يمكننا أن نكون الآن أصدقاء ـ ابتسم مايتا وهو يقول له ذلك، وأضاف: ـ الصداقة والعداء فيما بيننا هي مسألة تكتيكية محضة.

فضحك بلاكير أخيراً:

ـ هل ستقدم نقدك الذاتي وتطلب الانضمام إلى الحزب الشيوعي؟ الثوري المجرب، الذي صار في طور الأفول، ويكتشف في

يوم طيب النضال العملي ويندفع فيه دون تحفظ، بتلهف، آملاً في أن المعارك والمسيرات ستعوضه خلال أسابيع قليلة أو شهور عن سنوات العجز السابقة: إنه مايتا في تلك الأيام، الذي ألمحه بصورة أفضل من كل المايتات الآخرين. هل كانت الصداقة والحب من الأشياء التي يديرها وفق المصلحة السياسية؟ لا: إنها كلمات لكي يكسب بها بلاكير. فلو أنه تحكم بهذه الصورة بعواطفه وغرائزه، لما كان عاش الحياة المزدوجة التي عاشها، حياة التمزق التي كانت عليها دون شك ميول المناضل السري المستغرق تماماً في مهمة تغيير العالم، وحياة الموبوء الذي يبحث في الليل عن مخنثين. مما لا شك فيه أنه كان قادراً على اللجوء إلى أقصى الوسائل، وتُثبت ذلك محاولته الأخيرة في التوصل إلى ما هو مستحيل، أي التحالف مع ألد أعدائه في سبيل حركة تمرد غير واضحة المعالم. مرت حافلتان، ثلاث حافلات ميكروباصات دون أن يتمكن بلاكير من ركوبها. فقررنا النزول عبر لاركو، فربما يكون الركوب أسهل في بينابيداس.

ـ ليكن معروفاً أن هذا لن يفيد أحداً سوى الرجعية، وسيضر بالمقابل بالحزب ـ أوضح الرفيق ميداردو بحساسية ـ. سيفرك أعداؤنا أيديهم، بمن في ذلك جماعة ح ع ث الآخر. وسيقولون: ها هم ينقسمون مرة أخرى في صراعاتهم الداخلية. لا تقاطعني يا خواكين، لن أطالب بسر الغفران المسيحي أو أي شيء مماثل. أجل، سأوضح أي نوع من إعادة الاعتبار أعني.

كانت أجواء الكراج في شارع ثوريتا قد توترت؛ وكان الدخان كثيفاً حتى إن عيني مايتا توقدتا. ولاحظ أنهم يستمعون

إلى موسيس براحة تتفتح في وجوههم، وكأنهم بعد أن فوجئوا بأنهم قد هزموه بسهولة، سعدوا بوجود من يقدم لهم إثباتاً معاكساً يتيح لهم أن يغادروا من هناك بضمائر مطمئنة.

ـ لقد تم إنزال العقوبة بالرفيق مايتا ـ أضاف الرفيق ميداردو ـ. وهذا أمر يعرفه هو ونعرفه نحن. ولن يعود إلى ح ع ث (ت)، لا الآن ولا في الظروف الحالية. ولكن، أيها الرفاق، لقد قال لنا إن خطط باييخوس ما زالت قائمة. والتمرد المسلح سيقع سواء أشاركنا فيه أم لم نشارك. أي أنه سيحدث سواء شئنا أم أبينا.

إلى أين يريد موسيس الوصول؟ لقد فوجئ مايتا بأنه مازال يدعوه «رفيقاً» عند الحديث عنه. ارتاب إلى أين وتبددت في لحظة اليأس والغضب اللذين أحس بهما حين رأى كل الأيدي ترتفع مؤيدة الاقتراح: يجب انتهاز هذه الفرصة بسرعة.

ـ التروتسكية لن تدخل حرب العصابات ـ قال ـ فحزب العمال الثوري (التروتسكي) قرر بالإجماع أن يدير ظهره. و ح ع ث الآخر لا علم له بالقضية كلها. الخطة جدية، ومتماسكة. ألا ترى ذلك؟ لدى الحزب الشيوعي الآن فرصة عظيمة لملء الفراغ.

فزمجر بلاكير:

ـ بوضع الرأس في المقصلة. يا للامتياز العظيم! تناول هذه القهوة وحدثني، إذا أردت، عن غرامياتك المأساوية مع التروتسكيين. أما عن التمرد فلا أريد سماع كلمة واحدة يا مايتا.

فواصل مايتا دون أن يوليه اهتماماً:

ـ لا تحسموا هذه المسألة الآن، ولا خلال أسبوع، خذوا ما تحتاجونه من الوقت. العقبة الأساسية بالنسبة إليكم كانت تتمثل

فـي ح ع ث (ت). وهو لم يعد موجوداً الآن. التمرد صار الآن لجماعة عمالية فلاحية من الثوريين المستقلين وحسب.

ـ أنت ثوري مستقل؟ ـ صفر بلاكير.

ـ اشتر العدد القادم من صوت العمال (ت) وستقتنع ـ قال مايتا ـ. فهذا ما صرتُ إليه: ثوري بلا حزب. أترى؟ لديكم فرصة عظيمة. فرصة القيادة، فرصة أن تكونوا الرأس.

ويقول لي بلاكير:

ـ كانت تلك هي الاستقالة التي قرأتها أنت. ـ وخلع نظارته لينفخ عليها بخاراً من فمه ويمسحها بالمنديل ـ. مجرد تظاهر. لم يكن يؤمن بتلك الاستقالة من وقعها ولا من نشروها. لماذا كانت هناك إذن؟ أمن أجل خداع القراء؟ أي قراء؟ وهل كان هناك قارئ واحد لـ صوت العمال (ت) باستثناء أولئك، كم قلت عددهم؟، سبعة؟، التروتسكيون السبعة؟ هكذا يُكتب التاريخ يا رفيق.

جميع محلات شارع لاركو كانت مغلقة، بالرغم من أن الوقت كان ما يزال مبكراً. هل السبب هو أخبار الغزو في الجنوب؟ في هذا القطاع من المدينة هناك أناس أقل مما في دياغونال أو في باركي. وحتى جماعات المتسولين التي تعج بها هذه المنطقة في العادة، ما بين السيارات، هي أقل من المعهود. تظهر على جدار البلدية كتابة هائلة بطلاء أحمر ـ «انتصار الحرب الشعبية يقترب» ـ ومعها المنجل والمطرقة. لم تكن هذه الكتابة موجودة عندما مررت من هنا، قبل ثلاث ساعات. أتكون جماعة ثورية قد جاءت حاملة الفراشي وعلب الطلاء وكتبتها أمام رجال الشرطة؟ ولكنني أنتبه إلى أنه لا وجود لشرطيين يحرسون المبنى.

وواصل الرفيق ميداردو بحذر:

ـ فليجنب الحزب مزيداً من الأذى على الأقل. فليستقل. ولننشر استقالته في صوت العمال (ت). فيقدم دليلاً على الأقل على أن الحزب غير مسؤول عما يمكن أن يذهب لعمله في خاوخا. إنني أعني إعادة اعتبار من هذا النوع يا رفاق.

ورأى مايتا أن عدداً من أعضاء اللجنة المركزية لحزب العمال الثوري (ت) يهزون رؤوسهم موافقين. اقتراح موسيس/ميداردو يتمتع بإمكانات القبول. فكر في الأمر، قام بمراجعة سريعة للمنافع والمَضار. أجل، إنه أهون الشرور. رفع يده: أيمكنه التكلم؟

هناك أناس كثيرون في بينافيديس ينتظرون الميكروباصات مثلما في تينديثيتا بلانكا. هز بلاكير كتفيه: الصبر. أقول له إنني سأبقى معه إلى أن يركب. أجل، ثمة عدد من الناس هنا يتكلمون عن الغزو.

ويقول بلاكير:

ـ مع مرور الوقت توصلت إلى ملاحظة أنه لم يكن أحمق تماماً. فلو تمكنت البؤرة الثورية من الاستمرار، لكانت الأمور جرت وفق حسابات مايتا. لو أن التمرد ترسخ، لوجد الحزب نفسه مضطراً إلى الدخول، إلى محاولة تولي القيادة. مثلما يجري مع هذا التمرد الآن. من يتذكر أننا كنا نعارض طوال السنتين الأوليين؟ ونحن الآن ننازع الماويين القيادة، أليس كذلك؟ ولكن الرفيق «تاريخ» لا يسامح. لقد أجرى حساباته قبل الوقت المحدد بخمس وعشرين سنة.

ولتشوشي من الطريقة التي يتكلم بها عن الحزب، سألته إذا ما كان قد أعيد قبوله أخيراً أم لا. فرد علي بطريقة مُشفّرة: «بصورة

وسطية فقط». هناك سيدة تحمل طفلة بين ذراعيها بدت وكأنها تسمعه، قاطعتنا فجأة: «هل صحيح أن الروس قد دخلوا؟ ما الذي فعلناه لهم؟ ماذا سيحدث لابنتي الآن؟» وتصرخ الطفلة أيضاً. فيواسيها بلاكير:«اهدئي، لن يحدث شيء، إنها مجرد إشاعات» ويشير في الوقت نفسه إلى حافلة ميكروباص مزدحمة تواصل طريقها دون توقف. وفي جو لا يشبه على الإطلاق الجو الذي كان مخيماً قبل دقائق، همس الأمين العام بأن اقتراح الرفيق ميداردو عقلاني: فهو يحرم منشقي ح ع ث الآخر من استغلال الأمر. ونظر إليه: لا مانع من أن يتكلم صاحب الشأن. «الكلمة لك يا مايتا».

ـ تحدثنا لوقت طويل. وعلى الرغم مما فعلوه به، كان يشعر بالغبطة وهو يتكلم عن التمرد ـ يقول بلاكير ذلك وهو يشعل سيجارة ـ. لقد عرفت أن العمل سيبدأ خلال أيام، ولكنني لم أعرف المكان. ولم أكن أتصور على الإطلاق أن يكون خاوخا. فكرت بكوسكو، حيث كانت قد جرت في ذلك الحين عمليات استيلاء على الأراضي. ولكن، من كان سيخطر بباله أن هناك ثورياً في سجن خاوخا؟

وأسمع من جديد ضحكته التي بلا طعم. ونواصل المشي، دون اتفاق مسبق، باتجاه موقف 28 تموز. تمر الساعات وهو ما يزال هناك، متعرقاً، ملابسه مجعدة ومتسخة، وحول عينيه دوائر بنفسجية والشعر المموج مشعث، على حافة المقعد، في الصالة الصغيرة المكتظة البائسة في بيت بلاكير: يتكلم، يومئ، يدعم كلماته بإيماءات حازمة وهناك في عينيه قناعة راسخة. «هل ترفضون دخول التاريخ، صنع التاريخ؟»، يقول مقرعاً بلاكير.

وأسمع هذا الأخير يقول لي، بعد أن مشينا نصف كوادرا أخرى:

ـ كل شيء صار إلى نقيضه في تلك القضية. فحزب العمال الثوري (ت) نفسه الذي طرد مايتا لأنه أراد إدخاله في مسألة خاوخا، اندفع بعد وقت قصير من ذلك إلى ما هو أشد عقماً: السطو على المصارف.

أيكون دخول فيدل كاسترو إلى هافانا، الذي جرى ما بين الأمرين، هو الذي حوّل ح ع ث (ت) الحذر الذي تملص من مؤامرة مايتا إلى الجهاز المحارب الذي انهمك في سلب مصارف البرجوازية؟ لقد هاجموا هذا الفرع للبنك الدولي بالذات الذي تجاوزناه الآن ـ وقد جرى اعتقال خواكين في العملية ـ، ثم بعد أيام من ذلك، الهجوم على مصرف ويز في لافكتوريا، حيث سقط بيّاردي. هاتان العمليتان أدتا إلى انفراط عقد ح ع ث (ت). أم أنه كان في ذلك شيء من تأنيب الضمير، نوع من الاندفاع لإثبات أنهم يستطيعون رغم تخليهم عن مايتا وبابيخوس، أن يقامروا بكل شيء؟

ـ لا تأنيب ضمير ولا أي شيء مشابه ـ قال بلاكير ـ. السبب هو كوبا. فالثورة الكوبية كسرت المحرمات. قتلت الأنا الأعلى الذي كان يأمرنا بالإذعان إلى أن «الظروف لم تنضج بعد»، وإلى أن الثورة هي تآمر بلا نهاية. فمع دخول فيدل إلى هافانا، بدت الثورة وكأنها في متناول يد جميع من يتجرؤون على خوض القتال.

ـ إذا لم تأخذها أنت فسوف يبيعها صاحب بيتي في مزاد لابارادا ـ ألح مايتا ـ. يمكنك أن تأخذها منذ يوم الاثنين. وهي ليست كتباً كثيرة أيضاً.

ـ حسن ـ استسلم بلاكيرـ، سآخذ كتبك. ولنقل إنني سأحفظها لك في أثناء غيابك.

في موقف 28 تموز هناك الازدحام نفسه الذي في المواقف السابقة. ثمة رجل بقبعة يحمل مذياعاً نقالاً، يبحث فيه ـ وسط لهفة الحاضرين ـ عن محطة تبث أخباراً. لا يجد ما يريده: جميع المحطات تبث موسيقى. أنتظرُ مع بلاكير حوالى نصف ساعة، وفي هذه الأثناء يمر ميكروباصان ممتلئان حتى الذروة، ولا يتوقفان، أودعه، فأنا أريد أن أصل إلى بيتي في الوقت المناسب لأسمع رسالة المجلس العسكري حول الغزو. عند زاوية شارع مانكو كاباك، ألتفت إلى الوراء وأرى بلاكير ما يزال هناك، يمكن تمييزه بهيئته المدمرة وسلوكه التائه، على حافة الشارع، وكأنه لا يعرف ما عليه عمله، أو إلى أين يذهب. لا بد أن مايتا كان في مثل هذا الوضع في ذلك اليوم، بعد تلك الجلسة. ومع ذلك فإن بلاكير يؤكد لي أنه بعد أن ورَّثه كتبه وأخبره أين يخبئ مفتاح غرفته، ودعه وهو ينضح تفاؤلاً. «لقد كبُر بالعقاب»، هذا ما قاله لي. وهذا تعبير دقيق دون شك: فقدرته على الصمود، وتحديه، ازدادا من خلال المواجهة.

بالرغم من أن المتاجر مغلقة أيضاً في هذا الجزء من شارع لاركو، إلا أن الشوارع ما تزال ممتلئة بباعة المناظر الأنديزية، والصور، والرسوم الكاريكاتورية، والمشغولات اليدوية والتفاهات. أتفادى البسط المغطاة بأساور وعقود يحرسها شبان بشعور طويلة وصبايا يلبسن الساري. أشم هواء مفعماً بالبخور. في منطقة الحالمين وأزقة المتصوفين تلك لا تُلحظ حالة الاستنفار، ولا

حتى الفضول، تجاه أحداث الجنوب. ويمكن القول إنهم لا يعرفون أن الحرب قد اتخذت، في الساعات الأخيرة، مظهراً أشد خطورة وأنها قد تصل إليهم في أية لحظة. عند ناصية شارع أوتشران أسمعُ نباح كلب: إنها ضجة غريبة، تبدو وكأنها آتية من الماضي، فمنذ بدأت المجاعة اختفت الحيوانات الأليفة من الشوارع. كيف كان يشعر مايتا في ذلك الصباح، بعد الليلة الطويلة التي بدأت في كراج شارع ثوريتوس، بطرده من ح ع ث (ت)، والاتفاق على تمويه الطرد بالاستقالة، وانتهت بتلك المحادثة في بيت بلاكير الذي حولته الأحداث من عدو إلى موضع سره ومنديل دموعه؟ لقد كان يشعر بالنعاس، وبالجوع والإنهاك، ولكنه يحتفظ بالاستعداد الحماسي نفسه الذي رجع به من خاوخا وبالقناعة نفسها بأنه قد أحسن التصرف. لم يطردوه لأنه قابل بلاكير؛ إذ إنهم كانوا قد قرروا التراجع قبل ذلك. غضبهم المزعوم، والاتهامات بالخيانة، كانت وسيلة لإغلاق الطريق على أي محاولة لمراجعة ما تم إقراره. أهو الخوف من خوض القتال؟ لا، فالأصح أنه التشاؤم، فقدان الإرادة، العجز النفسي عن كسر الروتين والانتقال إلى العمل الحقيقي. كان قد ركب أومنبوس، ومضى فيه واقفاً، يمسك بمسند الأيدي، محشوراً ما بين زنجيتين تحملان سلالاً. ألم يكن يعرف هذا السلوك؟ «ألم يكن سلوكه طوال سنوات؟» إنهم لا يؤمنون بالجماهير بسبب عدم اتصالهم بها، وهم يرتابون بالثورة وبأفكارهم نفسها لأن حياة التآمر بين الفئات جعلت قدرتهم على العمل تصاب بالضمور. أخذت إحدى الزنجيتين تضحك وهي تنظر إليه، وانتبه مايتا إلى أنه يكلم نفسه. فضحك أيضاً. من الأفضل

أن يمتنعوا عن المشاركة وهم فـي مثل هـذه الحالـة المعنوية، لأنهم سيكونون عقبـة. أجل، سيفتقدهم، ولـن يجـد فـي ليمـا مـساندة مدينيـة. ولكـن كلمـا تـصاعد الـنضال، ستبدأ بـالظهور منظمـة مـساندة، هنـا وفـي كـل مكـان. وعنـدما يـرى الرفـاق فـي ح ع ث (ت) أن الطليعـة تكتسب الـسمعة وأن الجمـاهير تـنظم، سـيندمون علـى تـرددهم. وكـذلك الفجليـون. المسعى مع بلاكـير كـان قنبلـة موقوتـة. عنــدما يــرون أن الــساقية قــد تحولــت إلى تيــار جــارف، سـيتذكرون أن البـاب كـان مفتوحـاً لهـم، وأنهـم كـانوا مـدعوين. وسيأتون، سيذعنون. كـان مستغرقاً تمامـاً حتـى إنـه لم ينـزل عنـد ناصية بيته وإنما بعد كوادراتين.

وصل إلى الزقاق منهوكاً. كـان هنـاك فـي الفنـاء صـف طويل من النسـاء يحملـن دلاء، ويتـذمرن لأن الأولى بينهـن تبقـى دهـراً علـى الصنبور. دخل إلى غرفته وتمدد على السرير دون أن يخلع حذاءه. لم يتحمسن للنزول والوقوف فـي الصف. ولكـن، كـم سيكـون رائعـاً لو أنه يستطيع الآن تغطيس قدميه المتعبتين فـي مغطس مـاء بـارد. أغمض عينيه، وبينما هو يصارع النعـاس، بحـث عـن الكلمـات مـن أجل الرسـالة الـتي عليـه أن يوصلها هـذا المسـاء إلى خـاثينتو ليـضمها إلى عدد **صوت العمال (ت)** الذي يجري إعداده فـي المطبعة. إنه عدد يكـاد لا يزيد عن أربع صفحات، ملزمة واحدة، وهو أصفـر إلى حـد أنـني حـين أمـسكته ـ وأنـا جـالس قبالـة جهـاز التلفزيـون الـذي لم يظهـر فـيه جنـرالات المجلـس العـسكري بعـد رغـم تجـاوز الـساعة للثامنـة ـ أحسـست بأنـه سـيتفتت بـين يـدي. الاسـتقالة ليـست فــي الــصفحة الأولى المقــسومة إلى مقــالين طــويلين وذكــرى صــغيرة.

الافتتاحية، بخط أسود، تملأ العمود الأيسر: «توقفوا أيها الفاشست!» وهي تشير إلى بعض الأحداث التي وقعت في سلسلة الجبال الوسطى، على اثر إضراب في موقعين منجميين لشركة ثيرو دي باسكو كوبر كوربوريشين. فلدى إجلاء العمال المضربين، جرحت الشرطة عدداً منهم، ويبدو أن أحدهم قد مات. ليست صدفة، وإنما هو جزء من خطة تخويف وإضعاف الطبقة العاملة التي تنفذها الشرطة والجيش والرجعية وفق مخططات البنتاغون والـ CIA لأميركا اللاتينية. ما هو المضمون في الحساب الأخير؟ لقد بدأت بعض المارشات العسكرية، وتلت صور الشعار والعلم الوطنيين، في التلفزيون، تماثيل وصور شخصيات بارزة. هل سيبدؤون أخيراً؟ زحف الجماهير العمالية نحو الاشتراكية يتقدم، وهو في كل يوم أشد اندفاعاً ولا يمكن كبحه. وهذه الأساليب لا يمكنها أن تفاجئ من فهموا دروس التاريخ: فقد استخدمها موسوليني في إيطاليا، وهتلر في المانيا، وتطبقها واشنطن اليوم في أميركا اللاتينية. ولكنها لن تجد النجاح، وستأتي بناتج عكسية، وستكون سماداً مخصباً، لأن ضربات القمع، مثلما كتب ليون تروتسكي، هي أشبه بالتقليم للنباتات. أجل، ها هم الآن: قادة البحرية والطيران والمشاة، ووراءهم الضباط المرافقون، والوزراء، وقادة الحاميات والفرق العسكرية لمنطقة ليما. الوجوه المكفهرة تبدو وكأنها تؤكد أسوأ الشائعات. افتتاحية صوت العمال تنتهي إلى حث العمال والفلاحين والطلاب والفئات التقدمية على رص الصفوف في مواجهة المؤامرة النازية الفاشية. إنهم ينشدون الآن ـ في التلفزيون ـ النشيد الوطني.

المقال الآخر حول سيلان. صحيح، ففي تلك الفترة وصل مد التروتسكية إلى أقصاه هناك. والنص يؤكد أن التروتسكيين هم القوة الثانية في البرلمان والقوة الأولى في النقابات السيلانية. ومن خلال استخدام أزمنة الأفعال، يبدو أنه مترجم عن الفرنسية. أيكون مايتا هو من ترجمه؟ والأسماء، ابتداء من السيدة باندرانايكا، رئيسة الوزراء، يصعب حفظها. ها قد انتهى النشيد الوطني وتقدم قائد الجيش، الناطق الرسمي المعهود باسم المجلس العسكري. وعلى غير عادة، بدلاً من أن يوغل كعادته في الخطابة الوطنية الرنانة، يدخل فوراً في الموضوع. رنة صوته أقل عسكرية وأكثر ارتعاشاً. ثلاث فرق عسكرية، من الكوبيين والبوليفيين، قد توغلت عميقاً في التراب الوطني، مدعومة بطائرات حربية تقصف منذ الليلة الماضية أهدافاً مدنية في أقاليم بونو وكوسكو وآريكيبا، في خرق سافر لكل القوانين والمعاهدات الدولية؛ وقد تسببوا في وقوع أعداد من الضحايا وأضرار جسيمة، بما في ذلك في مدينة بونو نفسها حيث دمرت القنابل جزءاً من مستشفى الضمان الاجتماعي، وأوقعت عدداً لم يحصر بعد من القتلى. هل سيقول إذا ما كان «المارينز» قد اجتازوا الحدود مع الإكوادور؟ المربع الصغير يعلن أن ح ع ث (ت) سيُقيم قريباً جداً، في مقر نقابة البناء المدني، المهرجان المؤجل حول: «الثورة المغدورة: رؤية تروتسكية للاتحاد السوفييتي». ومن أجل العثور على الاستقالة لا بد من قلب الصفحة. ففي زاوية، تحت مقال طويل «فلننشئ السوفيتات في الثكنات العسكرية!»، ودون ترويسة أو حواش: «استقالة من ح ع ث (ت)». قائد الجيش

يؤكد الآن أن قوات البيرو، بالرغم من أنها تقاتل في ظروف أدنى عددياً ولوجستياً، فإنها تتصدى ببطولة للغزو الإجرامي الذي يقوم به الإرهاب الشيوعي الدولي، بدعم حاسم من جانب الأهالي المدنيين. والمجلس العسكري أصدر هذا المساء مرسوماً سامياً يدعو فيه إلى الالتحاق ثلاثة مستويات جديدة من قوات الاحتياط. هل سيقول إذا ما كانت هناك طائرات أمريكية تقصف الغزاة؟

الرفيق الأمين العام لـ ح ع ث (ت)

المدينة

أيها الرفيق:

أُعلمكم في هذه الرسالة باستقالتي النهائية من صفوف حزب العمال الثوري (التروتسكي) الذي أنا عضو فيه منذ أكثر من عشر سنوات. وقراري هذا هو نتيجة أسباب شخصية. إنني راغب في استرداد استقلاليتي لأتمكن من العمل تحت مسؤوليتي المطلقة، دون أن يكون ما أقوله أو أفعله ملزماً بأي حال للحزب. إنني بحاجة إلى حريتي في العمل في هذا الوقت الذي تشهد فيه بلادنا الجدل مرة أخرى حول الخيار القديم ما بين الثورة والرجعية.

إن ابتعادي عن ح ع ث (ت) بمحض إرادتي لا يعني قطيعتي مع الأفكار التي أوضحت طريق الاشتراكية الثورية لعمال العالم. وأريد أيها الرفيق، أن أؤكد مرة أخرى على أن إيماني بالبروليتاريا البيروية هو أشد قوة من أي وقت مضى، وقناعتي بأن الثورة ستصبح واقعاً وستحطم نهائياً أغلال الاستغلال والظلامية التي تُثقل منذ قرون على شعبنا وأن عملية التحرر ستتحقق على

ضوء النظرية التي وضعها ماركس وانجلز وجسدها لينين وتروتسكي.

أطلب نشر استقالتي في صوت العمال (ت) بهدف إطلاع الرأي العام.

بكل ثورية.

آ. مايتا آبيندانيو

لقد قال قائد الجيش ذلك في النهاية فقط، وبسرعة كبيرة، وبنبرة أقل رسوخاً، كما لو أنه غير متأكد: باسم شعب البيرو الذي يقاتل قتالاً مجيداً للدفاع عن حضارة العالم الحر الغربية والمسيحية ضد هجمة الإلحاد الجماعي والشمولي، طلب المجلس العسكري وحصل من حكومة الولايات المتحدة الأمريكية على إرسال قوات إسناد ومواد لوجستية لصد الغزو الشيوعي الروسي ـ الكوبي ـ البوليفي الذي يرمي إلى استعباد وطننا. أي أن هذا صحيح أيضاً. لقد انتهى الأمر. فالحرب لم تعد بيروية، البيرو ليست إلا مسرحاً آخر للنزاع الذي تخوضه القوى العظمى، مباشرة ومن خلال أفلاكها وحلفائها. أياً يكن الرابح فإن مئات الألوف، وربما الملايين سيموتون، وستبقى بلادنا البيرو منهوكة مستنزفة، إذا بقيت على قيد الحياة. أحسست بنعاس شديد لم أجد معه الحماسة لإطفاء التلفزيون. لقد اتضح قلق مايتا عندما التفت: كان أناتوليو يصوب نحوه مسدساً. لم يشعر بالخوف وإنما بالأسى: التأخير الذي سيعنيه ذلك! وماذا عن باييخوس؟ المواعيد يجب إنجازها بدقة ميليمترية، وقد كان الأمر واضحاً، فأناتوليو لا ينوي قتله وإنما

منعه من السفر إلى خاوخا. تقدم خطوات حازمة نحو الفتى، لجعله يتعقل، ولكن أناتوليو مدّ ذراعه بقوة ورأى مايتا أنه سيضغط على الزناد. رفع ذراعيه مفكراً: «سأموت دون أن أكون قد قاتلت». وأحس بحزن جارح، فهو لن يكون معهم، هناك في الجلجلة، عندما سيبدأ «عيد الغطاس». «لماذا تفعل هذا يا أناتوليو؟» وأحس بالاستياء من صوته: فالثوري الحقيقي منطقي وبارد الأعصاب، وليس عاطفياً. «لأنك مخنث»، قال أناتوليو ذلك بصوت هادئ، ثابت، حاسم، لا عودة عنه، أراد إظهاره في تلك اللحظة. «لأنك مخنث وهذا أمر يجب دفع ثمنه»، أكد ذلك الأمين العام وهو يطل برأسه الكئيب ذي الأذنين المدببتين. «لأنك مخنث وهذا يبعث على القرف»، أضاف الرفيق موسيس/ميداردو وهو يطل ببروفيله من فوق كتف الرفيق خاثينتو. اللجنة المركزية لـ ح ع ث (ت) كلها كانت هناك، واحداً وراء الآخر وكانوا كلهم مسلحين بمسدسات. لقد حُوكم، وأدين وسينفذون به الحكم. ليس بسبب عدم الانضباط، أو الخطأ، أو الخيانة، وإنما ــ يا للبؤس، ويا للسخف ــ لأنه أدخل لسانه مثل خنجر ما بين أسنان أناتوليو. وبفقدان كل اتزان، راح يصرخ منادياً بايبخوس، وأوبييوث، ولوريتو، وفلاحي ريكران، والفتيان التلاميذ: «أخرجوني من هذه المصيدة يا رفاق». استيقظ وظهره مبلل: ومن حافة السرير كان أناتوليو يتأمله، وسمعه يهمس:

ـ لم يكن ما تقوله مفهوماً.

فتلعثم مايتا دون أن يكون قد خرج تماماً من الكابوس:

ـ ما الذي تفعله هنا؟

ـ لقد جئت ـ قال أناتوليو. وكان ينظر إليه دون أن يرمش، وبوميض خبيث في حدقتيه ـ هل أنت غاضب مني؟

ـ الحقيقة أنك صفيق ـ دمدم مايتا دون أن يتحرك. كان يحس بالمرارة في فمه، وبأن عينيه مغمصتان، وبقشعريرة الخوف ما تزال تسري في جلده ـ الحقيقة أنك وقح يا أناتوليو.

ـ أنت علمتني ـ قال الفتى بنعومة، وهو ينظر إلى عينيه مباشرة بتعبير غير محدد كان يستثير غضب مايتا ويسبب له الندم. بدأت حشرة طيارة تحوم حول بؤرة النور.

ـ أنا علمتك أن تتصرف كرجل، لا أن تكون منافقاً ـ قال مايتا وهو يبذل جهداً لكبح غضبه. وفكر: «اهدأ، لا تشتمه، لا تضربه، لا تناقش. أخرجه من هنا.»

ـ مسألة خاوخا عمل جنوني. لقد ناقشنا الأمر وكنا جميعنا متفقين على وجوب وضع حد له ـ قال أناتوليو بشيء من الجفاء، دون أن يتحرك ـ. لم يكن هناك من يفكر بطردك. لماذا ذهبت إلى بلاكير؟ لولا ذلك ما كان أحد سيطردك.

وقال مايتا:

ـ لن أتناقش معك. كل هذا صار قصة قديمة. هيا، انصرف.

لكن الفتى لم يتحرك ولم يتوقف عن النظر إليه بتلك الطريقة التي تنطوي على استفزاز وشيء من السخرية.

ـ لسنا رفاقاً ولا أصدقاء. أي براز تريد؟ ـ قال مايتا.

ـ أريدك أن تمصه لي ـ قال الفتى بتمهل، ناظراً إلى عينيه وملامساً ركبته بأصابعه الخمسة.

الفصل السابع

ـ ما الذي تفعله هنا يا مايتا؟ ـ هتفت آديلايدا ـ لماذا جئت؟

يقع قصر روسبيغليوسي على الحد الفاصل بين لينثي وسانتا بياتريث، وهما حيّان لا يمكن التمييز بينهما الآن. أما في الزمن الذي تزوج فيه مايتا من آديلايدا فكان هناك بين الحيين صراع طبقي. فقد كان لنثي حياً متواضعاً على الدوام، حي طبقة متوسطة تميل نحو البروليتاريا، فيه بيوت ضيقة وبلا لون، وأديرة وأزقة، ودروب متصدعة وحدائق صغيرة وعرة. أما سانتا بياتريث بالمقابل، فكان حياً مزهواً، حيث شيدت بعض الأسر الثرية بيوتاً كبيرة على الطراز «الاستعماري» أو «الاشبيلي» أو «القوطي المحدث»، مثل نصب الشذوذ هذا الذي يمثله قصر روسبيغليوسي، قصر ذو شرفات وقناطر قوطية من الإسمنت المسلح. وكان أهالي لينثي ينظرون بحقد وحسد إلى أهالي سانتا بياتريث، لأن هؤلاء بدورهم كانوا ينظرون إليهم باستعلاء ويزدرونهم.

ـ أرغب في أن أتحدث إليكِ لحظة ـ قال لها مايتا ـ. وأن أرى ابني إذا كنتِ لا تمانعين.

لقد صار حيا سانتا بياتريث ولينثي الآن شيئاً واحداً؛ فقد انحدر الأول وتحسن الثاني إلى أن التقيا في نقطة وسطية: حي بلا هوية، يسكنه موظفون وتجار وحرفيون ليسوا أثرياء ولا معدمين ولكنهم

يواجهون المشاكل للوصول إلى نهاية الشهر. وهذه الوسطية تبدو ممثلة على أحسن وجه في زوج آديلايدا، دون خوان ثاراتيه، موظف البريد والبرق الذي لديه سنوات طويلة من الخدمة. صورته معلقة إلى جانب النافذة التي بلا ستارة والتي يمكن من خلالها رؤية قصر روسبيغليوسي: وبسبب وجود هيئة تابعة لوزارة الطيران هناك، فقد أحيط القصر بأسلاك وأكياس رمل، تبرز من فوقها خوذات وبنادق الحراس. إحدى تلك الدوريات أوقفتني وأنا قادم إلى هنا، وفتشتني من قدميّ حتى رأسي قبل السماح لي بالمرور. جنود سلاح الطيران كانوا عصبيين جداً، أصابعهم على الزناد. وهذا ليس كثيراً بالنظر إلى الأحداث. في الصورة، يظهر دون خوان ثاراتيه ببدلة وربطة عنق، وقوراً، وآديلايدا ممسكة بذراعه، وهي عابسة أيضاً.

هذه الصورة التقطت عندما تزوجنا، في كانيتي. ذهبنا لقضاء ثلاثة أيام هناك في بيت شقيق لخوان. وكنتُ حبلى في الشهر السابع. يكاد لا يظهر ذلك عليّ، أليس كذلك؟

بالفعل، لا يمكن لأحد أن يقول إنها امرأة بمثل ذلك الحمل المتقدم. لا بد أن عمر الصورة حوالي ثلاثين سنة. وهذه المرأة التي كانت، لوقت قصير، زوجة زميلي في مدرسة ساليسيانو ما زالت تحتفظ بجمالها بصورة غريبة.

وتضيف آديلايدا:

ـ كنتُ حبلى من مايتا.

أستمعُ إليها باهتمام وأتأملها. لم أخرج من المفاجأة التي سببتها لي رؤيتها، لدى الدخول إلى البيت الصغير الكئيب. كنتُ قد تحدثت معها قبل ذلك بالهاتف فقط، ولم أتصور مطلقاً أن صاحبة

ذلك الصوت هي امرأة ما تزال جذابة، على الرغم من سنوات عمرها. لها شعر رمادي متموج يصل حتى كتفيها، ووجه ناعم التقاطيع، تبرز فيه شفتان ممتلئتان وعينان عميقتان. إنها تُقاطع ساقيها: وهما ساقان ناعمتان، مسبوكتان، طويلتان، ثابتتان. لا بد أنها كانت آية في الجمال عندما كانت زوجة لمايتا.

ـ ها أنت تتذكر ابنك الآن ـ صرخت به آديلايدا.

ـ إنني أتذكره دوماً ـ ردّ مايتا ـ. فعدم رؤيته شيء وعدم التفكير فيه شيء آخر. لقد عقدنا اتفاقاً وأنا أتقيد به.

ولكنني ألمحُ فيها شيئاً من الكآبة، من القنوط، ملمح هزيمة. ولا مبالاة شاملة: لا يبدو عليها أنها مهتمة بكون المتمردين قد استولوا على مدينة كوسكو وأقاموا هناك حكومة، ولا بأصوات الرصاص التي لا يمكن تفسيرها في شوارع ليما ليلاً، ولا بما إذا كان صحيحاً أو زائفاً نزول مئات «المارينز» في الساعات الأخيرة في قاعدة خويا، في آركيبا، لتعزيز الجيش الذي يبدو أنه قد انهار في الجبهة الجنوبية كلها. إنها لا تأتي ولو مرة واحدة على ذكر الأحداث التي تُقلق ليما بأسرها ويشد انتباهي للحظة عابرة ـ على الرغم من الانتصار الذي يمثله بالنسبة إلي التحدث معها ـ مشهد رايات حمراء، وبنادق مشهرة، وهتافات انتصار في شوارع كوسكو.

وقالت له آديلايدا وهي تزيح خصلة من شعرها عن جبهتها:

ـ ولكنك لا تتقيد بالاتفاق عندما تصل بك الجرأة إلى الحضور إلى بيتي. ألا تدرك المشكلة التي قد تسببها لي مع زوجي؟

بينما أنا أسمعها تتحدث عن تعجيل زواجها من خوان ثاراتيه

لكـي يولـد ابـن مايتـا بكنيـة أخـرى وأب آخـر، فـي بيـت مـستقر، أكرر لنفسي بأنني أسيء التصرف بعدم الانتباه؛ فقد بقـي لـي وقـت قـصير. فوجـودي معهـا هنـاك هـو مكافـأة لمثـابرتي. لقـد رفـضتْ آديلايدا مرات كثيرة اللقاء بي، وفـي المرة الثالثة أو الرابعة أغلقت الهاتف. فكان لا بد من الإلحاح، التوسل، والقسم لها بأنـه لـن يظهـر اسمها ولا اسم خوان ثاراتيه ولا اسم ابنها أبـداً فـي مـا سـأكتبه، ثـم الاقتراح عليها أخيراً ـ وكأن الأمر يتعلق بعمل ـ أن تـروي لـي حياتهـا مع مايتا ولقاءهـا الأخير معه، قبل ساعات من ذهابه إلى خاوخـا ـ وأن تحـدد تعويضاً ماليـاً مقابـل الوقت الـذي ستضيعه معـي. وافقت علـى منحي ساعة من الحديث مقابل مئتي ألف سول. وستلتزم الصمت عـن كل ما يبدو لها «شديد الخصوصية».

ـ إنه ظرف خاص ـ ألح مايتا ـ. سأغادر الآن بالذات. أقسم لكِ.

وتقول آديلايدا:

ـ ظننـت أنـه بحاجـة إلى مخبـأ ولـيس لديـه مكـان يـذهب إليـه. شأنه فـي حياته كلها. لأنه منذ تعرفت عليه إلى أن انفصلنا، كـان يعـيش وهـو يـشعر بأنـه مُطَـارَد. سـواء أكانـت هنـاك مـبررات أم لم تكـن. وكان ممتلئاً بالأسرار، يخفـيها حتى عني.

هـل توصلتْ إلى حبـه؟ لم يكـن لـديها سـبب آخـر للعـيش معـه. كيـف تعرفـتْ عليـه؟ فـي سـوق خيري، فـي سـاحة سـوكري. لقـد راهنتْ هي على الـرقم 17، وكـان هـو إلى جانبهـا وراهـن علـى الـرقم 15. وتوقف الدولاب على الرقم 15 بالضبط. فهتفت آديلايـدا «آي، يـا للحظ. إنه سحبٌ على الدب الـصغير». فقـال لها جارهـا: «يمكـنني أن أهديك إياه. أتسمحين لي بأن أهديك إياه؟ فلنتعارف. أنا أدعى مايتا.»

ـ حسن، أدخل، أفضل ألا تراني الجارة الحشرية التي قبالتنا معك هنا في الشارع ـ وفتحت له أخيراً الباب، وأضافت: ـ خمس دقائق فقط، أرجوك. إذا ما اكتشف خوان أنك هنا فسيغضب مني. لقد سببتَ لي ما يكفي من أوجاع الرأس في الحياة.

ألم تَرْتَبْ بسبب اضطرابه وعصبيته بأن هذه الزيارة الفريدة تأتي عشية إقدامه على أمر استثنائي؟ ولا بأي شكل. لأنها فوق ذلك لم تلاحظ أنه كان عصبياً أو منفعلاً. كان كعادته وحسب: هادئاً، سيئ الملابس، وأكثر نحولاً بقليل. عندما أحسا ببعض الثقة، اعترف لها مايتا بأن اللقاء في سوق ساحة سوكري الخيري لم يكن صدفة: لقد كان قد رآها من قبل، وبعد ذلك كان قد طاف حولها باحثاً عن طريقة للتحدث معها.

ـ جعلني أعتقد بأنه قد أحبني من النظرة الأولى ـ أضافت آديلايدا ذلك بنبرة ساخرة. وفي كل مرة تذكر فيها اسمه تبدو كأنها تحس بشيء من المرارة. فعلى الرغم من مرور السنوات، ما زال هناك جرح ينز قيحاً، وتواصل قائلة: ـ إنها مهزلة عظيمة، وقعتُ فيها مثل بلهاء. لم يكن مغرماً بي على الإطلاق. وبسبب أنانيته الكبيرة لم ينتبه حتى إلى الأذى الذي ألحقه بي.

ألقى مايتا نظرة فيما حوله: بحر من الرايات الحمراء، بحر من القبضات المرفوعة، غابة من البنادق المشرعة، وعشرة آلاف حنجرة مجرحة من كثرة الهتاف والصراخ. بدا له من غير المفهوم وجوده هنا، في بيت آديلايدا، وأنه بين هذه المقاعد ذات الأغطية البلاستيكية وهذه الجدران المقشرة يعيش طفل هو ابني على الرغم من أنه يحمل كنية أخرى. أحسستُ باستياء عميق. هل

أحسنتُ صنعاً بالمجيء؟ أهذا الذي ينشدونه هو النشيد الأممي بلغة الكيتشوا؟

ـ سأسافر ولا أعرف متى سأعود إلى البيرو ـ أوضح لها مايتا وهو يجلس على ذراع أقرب مقعد ـ. لم أشأ الذهاب دون أن أتعرف عليه. هل يضايقك أن أراه لحظة؟

فقاطعته آديلايدا بجفاء:

ـ يضايقني كثيراً بالطبع. إنه لا يحمل اسمك، وخوان هو أبوه الوحيد الذي يعرفه. ألا تعرف كم تحملتُ من أجل الحصول له على بيت طبيعي وعلى أب حقيقي؟ ولن أسمح لك بأن تقوض كل هذا الآن.

ـ لا أريد تقويض أي شيء ـ قال مايتا ـ. لقد احترمتُ طوال الوقت اتفاقنا. وأنا أريد ببساطة أن أتعرف عليه. لن أقول له من أنا، بل لن أكلمه إذا أنتِ رغبت.

لم يخبرها بكلمة واحدة عن نشاطاته الحقيقية في لقاءاتهما الأولى؛ بل قال لها فقط إنه يكسب عيشه من العمل كصحفي. لم يكن بالإمكان القول إنه كان شاباً رائعاً بطريقته تلك في المشي وكأنه يطأ بيضاً وبأسنانه المتباعدة، أو إنه في وضع مادي جيد بالنظر إلى ملابسه. ولكن هناك شيء أعجبها فيه على الرغم من كل ذلك. ما الذي أعجب الجميلة الموظفة في مصرف الاعتماد في لينثي بالشاب الثوري؟ جنود سلاح الطيران الذين يحرسون قصر روسبيغليوسي عصبيون جداً، أجل: إنهم ينقضون على أي عابر سبيل ويطلبون منه وثائقه ويفتشونه بإسهاب مهووس. هل حدث شيء جديد؟ أيعرفون شيئاً لم يُقَلْ بعد من المذياع؟ لقد وجهوا ضربة بعقب بندقية إلى فتاة تحمل سلتين أبدت تمنعاً حين أرادوا تفتيشها.

ـ إلى جانبه كنتُ أشعر بأنني أتعلم شيئاً ـ تقول آديلايدا ـ. هذا لا يعني أنه كان عالماً. لقد كان يحدثني في أمور لم يكن يقربها الشبان الآخرون المعجبون بي. وبما أنني لم أكن أفهم شيئاً من ذلك، فقد كنت أبقى مثل العصفور الصغير أمام الثعبان.

وقد أثر فيها كذلك كونه وقوراً، أنيساً، متحكماً بنفسه. كان يقول لها أشياء جميلة. لماذا لم يكن يقبّلها؟ لقد أخذها في أحد الأيام لزيارة خالة له في سوركييو. وهي القريب الوحيد لمايتا الذي تعرفتْ عليه. وقد أعدت لهما السيدة خوسيفا وجبة خفيفة، قطع حلوى، وعاملت آديلايدا بحنان. جلسوا يتبادلون الحديث، وفجأة اضطرت دونيا خوسيفا إلى الخروج. بقيا في الصالة الصغيرة يستمعان إلى المذياع، وفكرت آديلايدا: «الآن سيقبلني». كان مايتا إلى جوارها، على المقعد، وكانت هي تنتظر. ولكنه لم يحاول أن يمسك يدها وقالت لنفسها: «لا بد أنه مغرم بي جداً». كانت الفتاة ذات السلتين قد أذعنت ووافقت على أن يفتشوها. عندئذ سمحوا لها بالمرور. وعندما مرت قبالة النافذة لاحظتُ أنها تحرك شفتيها، إنها تشتمهم.

ـ أرجوكَ ألا تلح ـ قالت آديلايدا ـ. ثم إنه الآن في المدرسة. لماذا تريد أن تراه، ما الهدف من ذلك؟ إذا ما أحس بشيء، فسيكون الأمر رهيباً.

وقال مايتا ساخراً:

ـ هل سيكتشف بمعجزة أنني أبوه عندما يرى وجهي؟

ـ إنني خائفة، أحس بأني أستدعي سوء الطالع ـ تلعثمت آديلايدا.

وبالفعل، كان الخوف البالغ يأكل صوتها ووجهها. لا فائدة من

مواصلة الإلحاح. أليس عارضاً خبيثاً هذا النزوع العاطفي لرؤية ابن نادراً ما يتذكره؟ إنه يضيع دقائق ثمينة، وقد كان مجيئه تهوراً. إذا ما وجده خوان في البيت، سيقع في مشكلة. وأي فضيحة، مهما صغر شأنها، سيكون لها تأثير سلبي على الخطة. «انصرفْ، ودّعْها وانصرفْ.» ولكنه كان ملتصقاً بذراع المقعد.

- كان خوان مسؤولاً عن مركز البريد هنا في لينتشي - تقول لي آديلايدا. وكان يأتي ليراني وأنا أدخل إلى مكان عملي، وليراني وأنا أخرج. كان يلاحقني، ويوجه لي الدعوات، ويعرض علي الزواج كل أسبوع. وكان يتحمل صدي ورفضي له دون أن يستسلم.

- أكان هو من عرض عليك منح اسمه للطفل؟

- كان هذا هو الشرط الذي فرضتُه عليه لكي نتزوج. - ألقيتُ نظرة على الصورة الملتقطة في كانيتي وفهمتُ الآن لماذا رضيت الموظفة الجميلة الزواج من موظف البريد القبيح والمتقدم في السن. لا بد أن ابن مايتا قد تجاوز الآن الثلاثين من عمره. هل عاش الحياة الطبيعية التي أرادتها له أمه؟ أتراه يقف إلى جانب المتمردين والأمميين أم إلى جانب الجيش و«المارينز»؟ أم تراه يعتقد مثل أمه بأن هذا الطرف أو ذاك ليس إلا قمامة؟.. وأضافت آديلايدا: - ودون أن يكون قد قبلني، فاجأني في المرة الخامسة أو السادسة التي خرجنا فيها معاً.

- ماذا ستقولين إذا ما عرضتُ عليك الزواج يوماً؟

- فلننتظر ذلك اليوم وستعرف جوابي - قالت له بتغنج.

- ها أنذا أعرض الأمر عليك - قال مايتا -. هل توافقين على الزواج مني يا آديلايدا؟

وتكرر وهي تهز رأسها:

ـ لم يكن قد قبّلني ولو قبلة واحدة. وعرض عليّ الأمر دون مقدمات. ودون مقدمات كذلك وافقتُ على العرض. أنا من ورطتُ نفسي بنفسي، لا يمكنني أن ألقي اللوم على أحد.

ـ هذا دليل على أنكِ كنت واقعة في الحب.

ـ ليس الأمر هو أنني كنتُ أتلهف للزواج ـ أكدت ذلك وهي تقوم بالحركة التي لاحظت أنها قامت بها عدة مرات: دفع شعرها إلى الوراء. وأضافت: ـ لقد كان شاباً، على قدر من الوسامة. لم تكن تنقصني الخيارات. ولم يكن خوان ثاراتيه هو المتقدم الوحيد لي. ولكنني وافقت على من لم يكن يملك مكاناً يموت فيه، على الثوري، والذي كان من كان فوق ذلك. أليس هذا جنوناً؟

ـ حسن، لن أراه ـ دمدم مايتا، ولكنه لم ينهض في هذه المرة أيضاً عن المقعد ـ. حدثيني عنه على الأقل. وعن نفسكِ. هل أنت على ما يرام بهذا الزواج؟

ـ أفضل من زواجي منك ـ قالت آديلايدا بصبر.. بل بكآبة ـ. إنني أعيش مطمئنة، ودون أن أفكر بأن المخبرين قد يأتون في أي لحظة لينشروا الفوضى في أرجاء البيت وليأخذوا زوجي. إنني أعرف وأنا مع خوان بأننا سنأكل كل يوم وبأنهم لن يطردونا لعدم دفع الإيجار.

ـ بالنظر إلى طريقتكِ في الكلام، لا يبدو أنك سعيدة جداً ـ دمدم مايتا. أليس من العبث الخوض في مثل هذا الحديث في هذه اللحظة بالذات؟ أما كان يتوجب عليه الآن أن يذهب لشراء المواد اللازمة، وأن يقبض تصفية حسابه من فرانس برس، وأن يُعدّ حقيبته؟

ـ لستُ كذلك ـ قالت آديلايدا. وكانت تبدو مضيافة أكثر منذ أن وافق هو على عدم رؤية الطفل ـ. لقد جعلني خوان أستقيل من المصرف. لو أنني واصلت العمل لكان بإمكاننا أن نعيش حياة أفضل ولكنتُ التقيت بالناس، والشارع. إنني أقضي الوقت هنا في الكنس والغسل والطبخ. وهذا لا يشجع على الشعور بسعادة كبيرة.

وقال مايتا وهو يلقي نظرة على الصالة الصغيرة:

ـ لا، لا يشجع. مع أنك تعيشين حياة جيدة يا آديلايدا بالمقارنة مع ملايين غيرك.

ـ هل ستحدثني في السياسة؟ ـ انتفضت ـ فلتتصرف إذن. لقد صرت بسببك أكره السياسة أكثر من أي شيء آخر.

تزوجا بعد ثلاثة أسابيع من تعارفهما، وكان زواجهما مدنياً، في بلدية لينثي. وحينئذ بدأت تتعرف على مايتا الحقيقي: تحت السماء الصافية وفوق سطوح القرميد الأحمر في كوسكو تخفق مئات، بل آلاف الرايات الحمراء، وواجهات كنائسها وقصورها القديمة، وأحجار شوارعها المغرقة في القدم مضمخة بحمرة دماء المعارك الأخيرة. في البدء لم تفهم جيداً ما سمعته عن حزب العمال الثوري. لقد كانت تعرف أن هناك حزباً في البيرو، هو حزب أبرا، وأن الجنرال أودريا قد اعتبره حزباً خارجاً على القانون، وعندما صعد برادو إلى السلطة، سمح للحزب بالعمل من جديد. أما عن حزب يدعى ح ع ث؟... مظاهرات صاخبة، إطلاق نار في الفضاء، خطابات حماسية تطالب بالبدء بعصر آخر، بقيامة الإنسان الجديد. بدأت اعدامات الخونة، الوشاة، الجلادين، المتعاونين مع النظام القديم في ساحة السلاح البديعة حيث مزقت

سلطات الفاتحين الاسبان الأوائل توباك آمارو؟ وشرح لها مايتا الأمر بصورة تقريبية: حزب العمال الثوري ما يزال حزباً صغيراً.

وتقول لي وهي تُبعد الشعر عن وجهها:

ـ لم أولِ الأمر أهمية، وبدا لي لعبة ما. ولكن لم يكن قد انقضى شهر عندما طرقوا الباب في إحدى الليالي، وكنت وحدي. فتحتُ وكان هناك تحريان. وبحجة القيام بالتفتيش أخذا حتى عبوة رز كنت أضعها في المطبخ. وهكذا بدأ الكابوس.

وكانت لا تكاد ترى زوجها، ولم تكن تعرف إذا ما كان في اجتماعات أم في المطبعة أو مختبئاً. لم تكن حياة مايتا هي الفرانس برس، فقد كان يذهب إلى هناك بضع ساعات فقط، وكان يكسب أجراً بائساً ما كان له أن يكفيهما مطلقاً لو أنها لم تواصل العمل في المصرف. وسرعان ما اكتشفت أن الشيء الوحيد الذي يهم مايتا هو السياسة. وكان يأتي إلى البيت أحياناً مع أولئك الأشخاص ويستغرقون في النقاش حتى الساعة ألف وخمسمئة. «أهذا يعني أن ح ع ث هو حزب شيوعي؟» هكذا سألتْهُ يوماً. فقال لها: «نحن الشيوعيون الحقيقيون». وبدأت تسأل نفسها: ممن تزوجتِ؟

ـ كنت أظن أن خوان ثاراتيه يحبك وأنه سيُنهك نفسه ليوفر لك السعادة.

ـ كان يحبني قبل أن تظهر أنت ـ دمدمت ـ. ولا بد أنه كان يحبني عندما وافق على منح اسمه لابنك. ولكنه ما إن فعل ذلك حتى بدأ بإظهار الحقد تجاهي.

أهو يسيء معاملتها إذن؟ لا، إنه يعاملها جيداً، ولكنه

يُشعرها بأنه هو الذي كان كريماً. أما مع الصبي بالمقابل، فكان طيباً، وكان يهتم بتربيته. ما الذي تفعله هنا يا مايتا؟ أتضيع ساعاتك الأخيرة في ليما في هذا الحديث؟ ولكن نوعاً من العطالة كان يمنعه من الانصراف. لقد كان يحبطني حديثهما عن المشاكل الزوجية في هذا اللقاء الأخير، في الوقت الذي كان فيه مايتا يضع إحدى قدميه في خاوخا. كنت أتشوق، في هذه المحادثة الأخيرة، إلى شيء استعراضي، دراماتيكي، يلقي ضوءاً على التعارض حول ما كان يشعر ويحلم به مايتا عشية الانتفاضة. ولكنني أرى، من خلال ما أسمعه، أنكما تحدثتما عنكِ أكثر مما تحدثتما عنه. اعذريني للمقاطعة، ولنواصل. أتعنين أن نشاطاته السياسية سببت لكِ آلاماً كثيرة؟

ـ ما آلمني أكثر هو كونه مخنثاً ـ أجابت، وتوردت حياء ثم أضافت: ـ اكتشافي أنه قد تزوج بي للتغطية على ما كانه.

ها هي ذي تكشف عن شيء دراماتيكي أخيراً. ومع ذلك، مازال اهتمامي موزعاً بين آديلايدا والرايات، والدماء، والإعدامات وبهجة المتمردين والأمميين في مدينة كوسكو. هل ستصبح ليما هكذا أيضاً خلال بضعة أسابيع؟ في الحافلة التي جئت بها إلى لينثي كان السائق يؤكد أن الجيش بدأ، منذ الليلة السابقة، إعدامات علنية لإرهابيين مزعومين في فييا السلفادور، وكوماس، وثيوداد دل نينيو وقرى فتيه أخرى. هل ستجري عمليات شنق ومجازر مثل تلك التي جرت عندما دخل التشيليون في حرب الباسفيك؟ وأعود لأسمع بوضوح محاضرة أحد المؤرخين في لندن، وهو يروي شهادة القنصل الإنكليزي في تلك الحقبة: بينما كان المتطوعون البيرويون يتمزقون

وهـم يـصدون الهجـوم التـشيلي فــي تـشوريبوس وميرافلـوريس، كــان رعــاع ليمــا يقتلـون الـصينيين أصـحاب الحانــات، بـشنقهم وطعـنهم بالسكاكين وإضرام النار بأجسادهم فـي الطريق العام، بتهمـة أنهـم متواطئون مع العدو، ثم راحـوا ينهبون بعد ذلك بيوت الأغنيـاء، بينمـا السيدات والسادة المذعورون يستغيثون من المفوضيات الدبلوماسية التي التجـؤوا إليهـا، ويطـالبون بـدخول الغـزاة بسرعة، وقـد اكتـشفوا فــي تلـك اللحظـة أن خـوفهم مـن الغـزاة الأجانـب أقـل مـن خـوفهم مـن تلـك الحـشود المنفلتـة مـن الهنـود والخلاسـيين والزنـوج الـذين سـيطروا علـى المدينـة. هـل سـيحدث شـيء مماثـل الآن؟ هـل ستدخل جمـوع الجـائعين لنهـب بيـوت أحيـاء سـان إيـسيدرو، وكاسـواريناس، وميرافلـوريس، وتشاكارياس، بينما آخر بقايا الجيش تتفكك أمام هجـوم المتمـردين الأخـير؟ أيكـون هنــاك هـروب إلى الـسفارات والقنـصليات بينمــا الجنرالات والأميرالات والموظفون والوزراء يتعلقون بالطـائرات والـسفن ومعهـم كـل المجـوهرات والـدولارات والأوسمـة الـتي ينبـشون عنهـا ويُخرجونها بتعجل من مخابئهـا؟ وهـل ستحترق ليمـا مثلمـا تحترق فــي هذه اللحظات مدينة الشموس الأربع؟

- يبدو أنك أنتِ أيضاً لم تغفري له ذلك؟ - أقول لها.

وتوافق آديلايدا:

- أتذكر الأمر فـيتجمد دمي.

أهــي تعـني تلـك المـرة؟ تلـك الليلـة، أو بكلمـة أدق، فــي ذلـك الفجـر. حـين سمعـتْ صـوت مكـابح سـيارة تتوقـف، صـوت انـزلاق عجلات مقابل البيت، ولأنها كانت تعيش فـي خـوف مـن الـشرطة، فقـد قفـزت مـن الـسرير لترصـد مـا يجـري. ورأت الـسيارة مـن خـلال

النافذة: فـي ضوء الفجر المائل إلى الزرقة كان شبح مايتا الذي بـلا وجـه ينــزل مـن السيارة، ونـزل السائق مـن البـاب الآخـر. وكانـت سترجع إلى السرير عندما أثار قلقها شـيء ـ شـيء غريـب، فريـد، يصعب شرحه وتحديده ـ. أبقت وجهها ملتصقاً بالزجاج. لأن الآخـر قام بحركة لوداع مايتا لم تبدُ لها طبيعية فـي حالـة زوجها، فمثل تلك الألاعيب يمكـن أن تحدث بـين أنـاس يحبـون المـزاح واللهو، أو بـين سـكارى. ولكـن مايتـا لم يكـن مـن النـوع اللاهـي ولا منفتحـاً على المزاح. كيف إذن؟ فقد كان الرجل قد أمسكه، علـى سـبيل الـوداع، مـن مقدمـة سـرواله. وكـان مـا يـزال يمسك بـه عنـدما دنـا مايتا منه بدل أن يزيح له يده ـ أبعد يدك أيها السكير! أفلت أيها المخمور! ـ وراح يعانقه. وأخذا يتبادلان القبلات. فـي الوجه، فـي الفم. «أيكون الشخص الآخر امرأة»، رغبتْ، فكـرتْ، توسلتْ أن يكون كذلك وهي تشعر بيديها وساقيها ترتجفان. امـرأة ببنطـال وسترة؟ البريق الضبابي لم يكـن يسمح لها أن تـرى بوضـوح مـع مـن يتبادل زوجها القبلات ويحك جسده فـي ذلك الزقاق المقفر، ولكـن لم يكن ثمة مجـال للشك فـي أنـه رجل ـ بسبب ضخامة جسده، وهيئته، ورأسه، وشعره ـ. أحست بـدافع يـدفعها إلى الخـروج، وهـي شبه عارية مثلما كانت، لتصرخ بهما: «مخنثـان، شـاذان». ولكـن بعـد ثـوان مـن ذلـك، عنـدما انفـصل الـرجلان وتقـدم مايتـا باتجـاه البيـت، تظـاهرت بـالنوم. وفـي الظلمـة، بينمـا هـي تمـوت خجـلاً، راقبتـه خفـية وهـو يـدخل. كـان تتضرع بـأن يكـون فـي حالـة مـن السـكر يمكنـه أن يقـول معهـا: «لا أدري مـا الـذي كنـت أفعلـه ولا مع من كنت» ولكنه لم يكن قد شرب بالطبع، وهـل تـراه كـان

يشرب؟ رأته يخلع ملابسه في الظلام، ويبقى بسرواله الداخلي الذي كان بيجامته، وينزلق إلى جانبها باحتراس، لكي لا يوقظها. وعندئذ داهم آديلايدا الغثيان.

ـ لستُ أدري لكم من الوقت ـ رد مايتا وكأن السؤال قد فاجأه ـ هذا يعتمد على الحالة التي ستسير عليها أموري. أريد أن أبدل حياتي. بل إنني لا أدري إذا ما كنت سأرجع إلى البيرو.

وسألته آديلايدا متفاجئة:

ـ وهل ستتخلى عن السياسة؟

ـ نوعاً ما ـ قال ـ سأذهب لسببٍ كنتِ تلاحقينني به على الدوام. لقد وجدتُ أخيراً أنك كنتِ على حق.

ـ من المؤسف أن يأتي ذلك متأخراً ـ قالت.

ـ أن تصل متأخراً خير من ألا تصل أبداً ـ ابتسم مايتا. كان يشعر بالعطش، وكأنه قد أكل سمكاً. ما الذي ينتظره ليذهب؟

أبدت آديلايدا تعبير الاستياء ذاك الذي يتذكره وظهرت الطائرات غير المتوقعة تماماً في السماء فلم تتمكن الحشود من فهم ما يحدث إلى أن انفجرت القنابل الأولى المدوية والكارثية. فبدأت تنهار أسقف، وجدران، وأبراج أجراس كوسكو، وتتطاير الأنقاض، والأحجار، والطوب، وتخرق الناس الذين يتراكضون ويطؤون بعضهم بعضاً مسببين فيما بينهم إصابات لا تقل عن تلك التي تسببها رشاشات الطائرات المنخفضة. في أزيز الأمس، رصاص وهدير، كان من يملكون بنادق يطلقون النار باتجاه السماء المتسخة بالدخان.

ـ لقد كنتِ الشخص الوحيد الذي ودعه مايتا ـ أقولُ لها

مؤكداً ـ. فهو لم يودع حتى خالته خوسيفا. ألم تبد لك الزيارة غريبة، بعد كل تلك السنوات؟

وترد آديلايدا:

ـ قال لي إنه سيسافر إلى الخارج، وأنه يريد أن يعرف شيئاً عن ابنه. ولكنني عرفت كل شيء بالطبع فيما بعد، من الصحف.

هناك في الخارج هياج مفاجئ عند بوابة قصر روسبيغليوسي، يبدو كأنهم يعززون الحراسة فيما وراء الأسلاك وأكياس الرمل. وهناك بعيداً، لم يستطع حتى رعب القصف أن يلغي التجاوزات: فشراذم الهاربين من مفوضيات الشرطة ومن السجن الهائجة تسلب وتنهب متاجر مركز المدينة. وقادة المتمردين يأمرون بإعدام من يُضبط متلبساً بالسلب برميه بالرصاص في عين المكان. وطيور الرخمة ترسم دوائر فيما حول جثث المقتولين رمياً بالرصاص الذين لا يعود بالإمكان تمييزهم بعد قليل عن ضحايا القصف. تنتشر رائحة بارود وجيف وشواط.

ـ انتهزْ الفرصة إذن لكي يعالجوك ـ همست آديلايدا بصوت خافت لم أكد أسمعه. ولكن كان لكلماتها عليّ تأثير ضربة سوط.

ـ لستُ مريضاً ـ تلعثم مايتا ـ. حدثيني عن الصغير قبل أن أذهب.

ـ بل أنت مريض ـ ألحت آديلايدا وهي تبحث عن عينيه ـ. وهل تراك شفيت؟

ـ ليس هذا مرضاً يا آديلايدا. ـ تلعثمتُ. وكنتُ أشعر بيدي مبللتين وبمزيد من العطش.

ـ بل هو مرض في حالتك ـ قالت، وفكر مايتا، وقد انبعثت

في ذاكرته كل ضغينة ذلك الزمن: «أنت المذنب. ما الذي تفعله هنا، لماذا لا تتصرف». وأضافت هي: ـ إنه انحلال عند آخرين، أما أنت فلست فاسداً. أنا أعرف ذلك، لقد استشرت الطبيب. وقال إن شفاءك ممكن، وأنت من لم توافق على العلاج بالصدمات الكهربائية. عرضتُ عليك الحصول على قرض من المصرف من أجل العلاج وأنت لا ولا ولا. والآن بعد أن مضت السنون، قل لي الحقيقة: لماذا لم توافق؟ هل بسبب الخوف؟

ـ الصدمات الكهربائية لا تنفع في هذه الحالات ـ تلعثم ـ. فلنترك الحديث في هذا الأمر. من الأفضل أن تقدمي لي كأس ماء.

ألا يمكن أن يكون زواجه منكِ هو «العلاج» يا سيدتي؟ ألا يكون قد تزوج منها مفكراً بأن معاشرة امرأة شابة وجذابة قد «يشفيه»؟

ـ هذا ما حاول أن يقنعني به عندما تحدثنا في الأمر أخيراً ـ دمدمت آديلايدا وهي تبعد بيدها خصلة الشعر ـ. إنها كذبة بالطبع. لو أنه أراد أن يشفى لبذل جهداً. لقد تزوج من أجل التغطية. وخاصة أمام أصدقائه الثوريين. وقد كنتُ أنا الستارة التي تخفي قذاراته.

ـ لا تجيبي على هذا السؤال إذا شئت ـ أقول لها ـ. هل كانت الحياة الجنسية بينكما طبيعية؟

لم يبد عليها الانزعاج. بما أن هناك موتى كثيرين ولم يكن من الممكن دفنهم، فقد أمر قادة المتمردين رشهم بأي مادة قابلة للاشتعال وإضرام النار فيهم. يجب الحيلولة دون أن تنشر الأشلاء المتعفنة المنتشرة في المدينة الأوبئة. الهواء كثيف وفاسد إلى حد لا يمكن معه التنفس. تقاطع آديلايدا ساقيها، تتخذ وضعاً مريحاً،

تتفحصني؛ وفي الخارج ينفجر ضجيج مفاجئ: لقد أتت دبابة صغيرة لتقف أمام سياج الأسلاك وأصبح عدد الحراس أكبر. لا بد أن الأمور قد ساءت؛ يمكن القول إنهم يتهيؤون لشيء ما. وهمست آديلايدا وكأنها قد قرأت أفكاري: «إذا ما هاجموهم، فسنكون نحن أول من سيتلقى الرصاص». فرقعة الحرائق حيث تشتعل الجثث لا تُسكت أصوات الأقارب والأصدقاء الغاضبين وفاقدي الصواب الذين يحاولون منع الحرق، مطالبين بدفن الضحايا وفق الطقوس المسيحية. ووسط الدخان، والنتانة، والهلع، والحزن، يحاول البعض اختطاف الجثث من الثوريين. ويخرج موكب من جمعية دينية، أو من كنيسة أو دير. يتقدم، شبحياً، وهو يرتل صلوات وأدعية، وسط الموت والدمار الذي صارت إليه مدينة كوسكو.

ـ لم أكن أعرف ما الذي تعنيه علاقات طبيعية وغير طبيعية ـ تدمدم وهي تُبعد الشعر بحركتها الطقوسية ـ. لم أكن قادرة على المقارنة. ففي ذلك الزمن لم تكن إحدانا تتحدث في هذه الأمور مع صديقاتها. ولهذا ظننت أنها علاقات طبيعية.

ولكنها لم تكن كذلك. لقد كانا يعيشان معاً، وبين حين وآخر يمارسان الحب. وهذا يعني أنهما في بعض الليالي كانا يتبادلان المداعبات، والقبلات، وينتهيان سريعاً وينامان. شيء سطحي، روتيني، صحي، وهو شيء ـ مثلما أدركتْ فيما بعد ـ ناقص، أدنى من حاجاتهما ورغباتهما. ليست المسألة في أنه لم تكن تروقها مظاهر حرج مايتا، مثل إطفائه النور مسبقاً على الدوام. ولكنها كانت تحس أنه مستعجل، قلق، وتفكيره في مكان آخر بينما هو يداعبها. هل كان في مكان آخر؟ أجل:

كان يتساءل في أي لحظة بدأت تتراجع هذه الرغبة التي أيقظت جنسه بقوة التخيل والذكريات وتتحرف، وتغرق في بئر القلق الذي كان يحاول الخروج منه متلعثماً ببعض التفسيرات التي كان يبدو على آديلايدا، لحسن الحظ، أنها تصدقها. لقد كان تفكيره يتجه إلى ليالٍ وأصباح أخرى، حيث لم تكن رغبته تتضاءل بل تشتد وكانت يده وفمه يجتهدان، ليس مع آديلايدا، وإنما مع واحد من أولئك المخنثين الذين كان يتجرأ، بتردد كبير، على الذهاب للبحث عنهم أحياناً إلى حانة بوربينير أو كايياو. الحقيقة أنهما كانا يمارسان الحب مرة من كل مرتين أو ثلاث مرات، ولكن آديلايدا لم تكن تعرف كيف تطلب منه ألا ينتهي بسرعة. وفيما بعد، عندما أحست بثقة أكبر، تجرأت على طلب ذلك. تجرأت على الطلب منه، على التوسل إليه بألا يبتعد عنها منهوكاً في اللحظة التي تبدأ هي الإحساس فيها بالدغدغة، بالدوار. ولم يكن ذلك يحدث في معظم الأحيان، لأن مايتا كان يبدو فجأة وكأنه يشعر بالندم. وكانت هي شديدة البلاهة حتى تلك الليلة تعذب نفسها بالسؤال: أأكون أنا المذنبة؟ هل أنا باردة؟ ألا أعرف كيف أستثيره؟

- قدمي لي كأساً أخرى من الماء - قال مايتا -. فأنا سأنصرف الآن يا آديلايدا.

نهضت هي، وحين عادت إلى الصالة كانت تحمل معها كذلك حفنة من الصور. قدمتها إليه دون أن تنطق بكلمة واحدة. صورة الطفل حديث الولادة؛ وحين كان عمره بضعة شهور، بالأقمطة، يحمله خوان ثاراتيه بين ذراعيه؛ في حفلة عيد ميلاد وإلى جانبه كعكة عليها شمعتان صغيرتان؛ وبسروال قصير وحذاء

وهـو ينظـر إلى المـصور بوضـعية التأهـب. تفحـصتُ الـصور مـرة بعـد أخـرى، وكـان يتفحص نفسه فـي الوقـت ذاتـه الـذي يـدقق النظـر فـيه بملامح، وأوضاع، وحركات، وملابس هذا الابن الذي لم يره ولن يراه أيضاً فـي المستقبل: هـل سيتذكـر هـذه الـصور غـداً، فـي خاوخا؟ هل سأتذكرها، وهل سترافقني، وتمنحني الحماسة فـي المسيرات عبر الجبال والأدغال، وفـي الهجمات والكمائن؟ ما الـذي أحس به عنـدما رآهـا؟ هـل سيشعـر عنـدما يتـذكـرها بـأن النضال، والتضحيات، والموت هي من أجله، ولـه؟ والآن بالـذات، أتـراه يشعـر بالحنـان، بالنـدم، بـالغم، بالحـب؟ لا: إنـه لا يـشعر إلا بالفـضول وبالامتنـان تجـاه آديلايـدا لأنهـا أرتـه الـصور. أهـذا هـو الـسبب الـذي دفعه للمجيء إلى هذا البيت قبل أن يغادر إلى خاوخا؟ أم أنـه كـان يريـد، أكثـر مـن التعـرف علـى ابنـه، أن يتقـصى إذا مـا كـانـت آديلايـدا مازالـت تـشعر نحـوه بالحقـد نفـسه لأنـه كـان دون شـك شوكة فـي حياتها؟

ـ لست أدري. ـ قالت آديلايدا ـ وإذا كـان قـد جـاء مـن أجـل ذلـك، فقـد انـصرف وهـو يعـرف أنـني، علـى الـرغم مـن مـرور السنوات، لم أغفر له أنه دمر حياتي.

ـ ولكنكِ على الرغم مما عرفتِه عنه، واصلتِ العيش معه لوقت لا بأس به. وإلى أن حبلتِ.

ـ إنها العطالة ـ دمدمت آديلايدت ـ. وكـان الحبَل هـو الـذي منحني القوة لوضع حد للمهزلة.

كانت ترتاب بذلك منذ أسابيع، لأن الحيض لم يتأخر عندها هكذا من قبل. ويوم قدموا إليها نتيجة التحليل انفجرت بالبكاء

متأثرة. ثم هيمنت عليها على الفور فكرة أن ابنها أو ابنتها سيعرف عاجلاً أو آجلاً ما تعرفه هي. وكانا في الأسابيع الأخيرة تحديداً قد تجادلا عدة مرات حول العلاج بالصدمات الكهربائية. وقد قال لها بصوت خافت وهو ينظر إليها:

ـ لم يكن السبب هو الخوف. وإنما لأنني لا أريد أن أشفى يا آديلايدا.

أي أنكما في ذلك اللقاء الأخير تطرقتما إلى الموضوع يا سيدتي. أجل، وقد بدا مايتا أكثر صراحة مما كان عليه وهما يعيشان معاً. الموكب راح يتعاظم بانضمام أناس إليه من الشوارع التي يجتازها، رجال ونساء مسرنمون بالرعب، أطفال ومسنون مذهولون على آبائهم، أبنائهم، أخوتهم، أحفادهم الممزقين بالشظايا أو المسحوقين تحت الانهيارات والمتفحمين في المحارق الوقائية. الموكب الأفعواني المنتحب والمرتل، المتزاحم في أزقة كوسكو المدمرة، بدا وكأنه يعزي، يصالح، من بقوا على قيد الحياة. وفجأة، على مقربة مما كان فيما مضى ساحة الملك، اصطدم الموكب وجهاً لوجه مع مظاهرة حازمة لنشطاء ومقاتلين يحملون البنادق والرايات الحمراء يحاولون رفع معنويات الشعب والحيلولة دون انتشار وهن العزيمة وضعف المعنويات. وتساقط وابل من الصرخات، والأحجار، والرصاص وعويل الذعر.

قال لها مايتا وكأنه قد وجد الجملة الجاهزة:

ـ لو لم يكن ذلك مخالفاً لمبادئك، لطلبت منك الإجهاض. الأسباب أكثر من كافية. فالحياة التي أعيشها، التي نعيشها... هل يمكن تربية طفل في هذا النوع من الحياة؟ ما أفعله يتطلب تفرغاً

كاملاً. لا يمكن لأحدنا أن يربط حزمة بعنقه. هذا إذا لم يكن الأمر مخالفاً لمبادئك، أما إذا كان كذلك، فسوف نتحمله.

لم تبك ولم يتجادلا. «لست أدري، سأرى، سوف أفكر بالأمر.» وفي تلك اللحظة عرفتْ ما يتوجب عليها عمله، بمنتهى الوضوح ومنتهى الحسم.

ـ لقد كنتَ تكذب عليّ إذن ـ ابتسمت آديلايدا بإحساس بالظفر ـ عندما كنتَ تقول لي إن ذلك يسبب لك الخجل، ويجعلك تشعر بأنك قمامة، وإنه نكبة حياتك. يسعدني أنك تعترف بحقيقتك أخيراً.

ـ إن ذلك يُخجلني، ويجعلني أشعر أحياناً بأنني قمامة ـ قال مايتا. كان خداي يتوقدان وأشعر بلساني ثقيلاً، ولكنني لم أندم على التحدث في الأمر: ـ وما زال نكبة في حياتي.

ـ لماذا لا تريد العلاج إذن؟ ـ كررت آديلايدا.

فتلعثمتُ:

ـ أريد أن أكون ما أنا عليه. إنني ثوري، لي قدمان مسطحتان. وأنا مخنث كذلك. ولا أريد أن أتخلى عن كوني كذلك. من الصعب أن أشرح لك الأمر. ففي هذا المجتمع هناك مجموعة من القواعد، مجموعة من الأحكام المسبقة، وكل من لا يقيد نفسه بها يبدو غير طبيعي، ويعتبر تصرفه جريمة أو مرضاً. ولكن المجتمع متعفن، يغص بأفكار حمقاء. ولهذا لا بد من ثورة، ألا ترين ذلك؟

وتقول لي آديلايدا:

ـ ومع ذلك، فقد قال لي هو نفسه إنه لو كان في الاتحاد السوفييتي لكانوا أدخلوه إلى مشفى للمجانين، أو لكانوا أعدموه

رمياً بالرصاص في الصين، فهذا ما فعلوه بالمخنثين. أمن أجل هذا تريد صنع الثورة؟

الاشتباك، وسط غبار الأنقاض، ودخان إحراق الجثث، وصلوات المؤمنين، وأنين الجرحى، ويأس المنكوبين السالمين، لم يكد يستمر سوى ثوان، إذ تعالى فجأة هدير المحركات من جديد. وقبل أن يتاح الوقت لمن كانوا يتبادلون تراشق الأحجار والضرب والشتائم لفهم ما يجري، تساقط المزيد من القنابل وصليات الرشاشات فوق كوسكو.

ـ من أجل هذا أريد صنع ثورة أخرى. ـ همس مايتا وهو يمر بلسانه على شفتيه الجافتين: إنه يموت ظمأ ولكنه لا يجرؤ على طلب كأس ماء ثالثة ـ. ليس نصف ثورة، وإنما ثورة حقيقية، شاملة. ثورة تقضي على كل المظالم، ولا يشعر فيها أحد، لأي سبب من الأسباب، بالخجل لكونه ما هو عليه.

ضحكت آديلايدا:

ـ وهذه الثورة ستصنعها أنت مع أصدقائك في ح ع ث؟

فابتسم لها مايتا:

ـ سيكون علي أن أصنعها بمفردي. فأنا لم أعد في ح ع ث. لقد استقلت في الليلة الماضية.

استيقظتْ في صباح اليوم التالي وكانت الفكرة قد اكتملت في رأسها خلال النوم. داعبتها، قلبتها، وأعادت تقليبها بينما هي ترتدي ملابسها، وفي أثناء انتظارها الامنبوس، وبينما هي تمشي مهتزة باتجاه مصرف الاعتماد في لينثي، وبينما هي تضبط حسابات الصندوق على مكتبها القزم. وعند الضحى،

طلبت إذناً للذهاب إلى البريد. وكان خوان ثاراتيه ما يزال هناك، وراء الزجاج المحزز. تدبرت الأمر لكي يراها، وعندما حياها ردتْ على تحيته بابتسامة بالألوان. وبالطبع، نزع خوان ثاراتيه نظارته، ورتب وضع ربطة عنقه وخرج راكضاً ليصافحها. الفوضى شاملة: هناك مزيد من الموتى في الشوارع التي تحولت إلى أنقاض، وهناك بيوت أخرى تتهدم، والبيوت التي ماتزال منتصبة تتعرض للسلب. وبين من يتأوهون أو يبكون أو يسرقون أو يحتضرون أو يبحثون عن موتاهم، هناك قلة فقط كانوا يسمعون الأوامر التي تصدرها على النواصي دوريات المتمردين: «الشعار هو مغادرة المدينة يا رفاق، مغادرة المدينة، مغادرة المدينة.»

وتقول آديلايدا وهي تتأمل صورة شهر عسلها:

- يذهلني أنني تجرأت على ذلك.

هذا يعني أنه في ذلك اللقاء الأخير، في هذه الصالة الصغيرة، تحدث مايتا مع من كانت زوجته عن أشياء حميمة ومثالية: الثورة الحقيقية، الشاملة، التي ستقضي على كل أشكال الجور دون أن تتسبب في ظهور أشكال أخرى جديدة. أي أنه على الرغم من العراقيل والمعوقات التي واجهته في الساعات الأخيرة، كان يشعر، مثلما أكد لي بلاكير، بالغبطة.. بل وبالغنائية:

ـ عسى أن تضيء ثورتنا الطريق لثورات أخرى. أجل يا آديلايدا، عسى أن تكون بلادنا البيرو مثالاً يحتذي به العالم.

ـ الصراحة هي أفضل شيء وهكذا سأكلمك ـ لم يكن بإمكان آديلايدا أن تصدق أن تلك الثقة وتلك الجرأة هي منها،

وأنها في الوقت الذي كانت تقول فيه هذا الكلام، كانت قادرة على الابتسام، وعلى الاستعراض وهز شعرها بطريقة جعلت مسؤول البريد في لينثي ينظر إليها بافتتان ـ أنتَ كنتَ تسعى بجنون للزواج مني، أليس هذا صحيحاً يا خوان؟

فاقترب خوان ثاراتيه فوق الطاولة في مقهى "بيتيت ثيوارز" حيث كانا يتناولان شراباً مرطباً:

ـ أنتِ قلتِ ذلك يا آديلايدا. إنني مجنون بك وأكثر من مجنون.

ـ انظر إليّ جيداً يا خوان وأجبني بصراحة. هل ما زلتُ أعجبك مثلما كنت قبل سنوات؟

ابتلع مسؤول بريد لينثي لعابه:

ـ بل تعجبينني أكثر. إنك الآن أجمل يا آديلايديتا!

ـ إذا أنت أردت إذن، ـ يمكنك الزواج مني ـ صوتها الذي لم يكن قد خانها من قبل لن يخونها الآن ـ. لا أريد أن أخدعك يا خوان. فأنا لستُ مغرمة بك. ولكنني سأحاول أن أحبك، وأن أقولب نفسي وفق رغبتك، وسأحترمك وأفعل كل ما يمكنني عمله لأكون زوجة صالحة.

كان خوان ثاراتيه ينظر إليها وهو يرمش؛ وبدأت كأس المرطب التي في يده ترتعش. وقال أخيراً:

ـ هل تتكلمين بجد يا آديلايدا؟

ـ إنني أتكلم بجد ـ لم تتردد الآن أيضاً ـ. ولكنني أطلب منك شيئاً واحداً فقط. أن تمنح اسمك إلى الابن الذي سأنجبه.

ـ أعطني كأساً أخرى من الماء ـ قال ذلك مايتا ـ. هذا العطش لا يفارقني، لست أدري ما الذي أصابني.

ـ ما أصابك هو أنك ألقيت خطاباً ـ قالت له وهي تنهض. ثم واصلت القول من المطبخ: ـ لم تتغير قطّ. بل يمكن القول إنك أسوأ مما كنتَ عليه. فأنت الآن لا تريد أن تصنع ثورة للفقراء فقط، وإنما للمخنثين أيضاً. أقسم لك أنك تجعلني أضحك يا مايتا.

وفكر: «ثورة للمخنثين أيضاً. أجل، ثورة للمخنثين البائسين.» لم يشعر بأدنى قدر من الاستياء للقهقهة التي أطلقتها آديلايدا: ما بين الدخان والنتانة، تُلمح أرتال الناس الهاربين من المدينة المدمرة، متعثرين بالأنقاض، مغلقين أفواههم وأنوفهم. لقد بقي بين الأنقاض القتلى والجرحى والمسنون والصغار جداً. والنهابون الذين يتحدون الاختناق والنار والقنابل المنثورة، ويدخلون إلى البيوت التي ما تزال منتصبة بحثاً عن أموال وطعام.

وأقولُ لها:

ـ وقد وافق. لا بد أن دون خوان ثاراتيه كان يحبك كثيراً يا سيدتي.

ـ تزوجنا في الكنيسة، ريثما يتم طلاقي من مايتا ـ تنهدت آديلايدا وهي تنظر إلى صورة كانيتي، وأضافت:ـ تأخرت معاملة الطلاق سنتين. ثم سجلنا عقد زواجنا بعد ذلك على الطريقة المدنية كذلك.

كيف تعامل مايتا مع هذه القصة؟ دون مفاجأة، وبشيء من الراحة دون شك. كان يتصنع ليقول لها إنه قلق جداً لزواجها بهذه الطريقة، دون حساب المشاعر.

ـ ألم يكن هذا هو ما فعلته أنت بي؟ مع الاختلاف. فأنت قد خدعتني، أما أنا فقلت لخوان كل شيء.

ـ ولكن حساباتك كانت خاطئة. ـ قال لها مايتا. وكان قد انتهى من تناول كأس الماء وبدأ يحس بالانتفاخ ـ. أتتذكرين بأنني حذرتك؟ لقد نبهتك منذ البداية بأنه...

فقاطعته آديلايدا:

ـ لا تحاول إلقاء خطبة أخرى.

ظلت صامتة، تدق على ذراع المقعد، وأستطيع أن أقرأ في وجهها بأنها تقدر إذا ما كانت الساعة قد انقضت. ولكنني أنظر إلى ساعة معصمي وأرى أنه ما زال هناك خمس عشرة دقيقة. وفي هذه الأثناء، يسمع صوت إطلاق نار. طلقة معزولة، ثم اثنتان أخريان، ورشة. وبحركة واحدة نتطلع أنا وآديلايدا من خلال النافذة: لقد اختفى الحراس، لا بد أنهم ينحنون متوارين وراء الأسلاك وأكياس الرمل. ولكن هناك في الجهة اليسرى دورية من جنود سلاح الطيران تتقدم باتجاه قصر روسبغليوسي دون أن تبدي قلقاً. صحيح أن الطلقات النارية دوت في مكان بعيد. أهي عمليات إعدام في الأحياء الهامشية؟ هل بدأت المعارك في محيط ليما؟

ـ وهل نَفَعَ ذلك حقاً؟ ـ أعود إلى حديثنا. فترفع هي بصرها عن النافذة وتنظر إليّ: ملامح الذعر التي بدت عليها عندما سمعتْ إطلاق النار، تلاها مرة أخرى ذلك الوجه الفظ الذي يبدو أنه وجهها المألوف، فأقول: ـ أعني مسألة الطفل.

ـ بقي نافعاً إلى أن عرف أن خوان ليس أباه ـ تقول ذلك. وتبقى شفتاها مفتوحتين، وتبدأ عيناها اللتان تنظران إليّ بثبات بالتألق.

فأقول معتذراً:

ـ حسن، هذا أمر لا يدخل في القصة، لا حاجة لأن نتحدث عن الابن. من الأفضل أن نرجع إلى مايتا.

ـ لن ألقي أي خطبة أخرى ـ طمأنها. وشرب آخر رشفة في الكأس: وماذا إذا كان كل هذا العطش يعني أنك مصاب بالحمى يا مايتا؟ ثم أضاف:ـ سأكون صريحاً معك يا آديلايدا. كنت أريد أن أعرف شيئاً عن ابني قبل أن أغادر، ولكنني كنت أريد أن أعرف أخبارك أيضاً. لم يسعدني المجيء. كنت أنتظر أن أجدك سعيدة، مطمئنة. ولكنني أجدك ممتلئة بالأحقاد ضدي وضد العالم بأسره.

ـ إذا كان هذا يعزيك فإنني أشعر نحوك بحقد أقل مما أشعر به نحو نفسي بالذات. لأنني أنا السبب في كل ما جرى لي في الحياة.

في البعيد، تدوي أصوات الرصاص من جديد. ومن الأفجاج، من السفوح، من القمم ومن النجود المحيطة، تبدو كوسكو دخاناً وتأوهات.

وتهمس هي بطريقة منفصلة:

ـ لم يكن خوان هو الذي أخبره وإنما أنا. وخوان لن يغفر لي ذلك أبداً. لقد أحبَ خوانثيتو دوماً كما لو كان ابنه.

وتروي لي القصة القديمة التي لا بد أنها تقرض أيامها ولياليها، قصة يختلط فيها الدين بالغيرة بالإحباط. فخوانثيتو فضل منذ طفولته أباه المستعار على أمه، وكان يلتصق به أكثر مما يميل إليها ربما لأنه كان يشم بطريقة غامضة أن هناك كذبة كبيرة في حياته بسبب آديلايدا.

ـ هل هذا يعني أن زوجك يأخذه إلى القداس كل يوم أحد؟ ـ فكر مايتا بصوت عالٍ. وأعادت إليّ الذاكرة، في دوامة متزاحمة، صلوات وترتيلات ومناولات واعترافات الطفولة، مجموعات من الصور الملونة التي كان يخبئها كأشياء ثمينة في دفتر الواجبات ـ. حسن، ففي هذا الأمر على الأقل لديه شيء مشترك معي. فعندما كنتُ في مثل سنه، كنت أواظب على الصلاة يومياً.

وقالت آديلايدا:

ـ خوان كاثوليكي. وهو يقول مازحاً إنه كاثوليكي رسولي روماني وورع. ولكنها الحقيقة الخالصة. وهو يريد أن يكون خوانثيتو هكذا بالطبع.

ـ بالطبع ـ وافق مايتا. ولكنه كان يفكر، بالتداعي، في فتية مدرسة سان خوسيه في خاوخا الذين استمعوا باهتمام، وهم شبه مذهولين، إلى كل ما قاله لهم عن الماركسية والثورة. تخيلهم: يطبعون بآلة طباعة بدائية، مخبأة تحت جلود وصناديق، البلاغات التي ترسلها إليهم القيادة، ويوزعون منشورات عند مداخل المصانع، والمدارس، وفي الأسواق، وفي دور السينما. رآهم في مخيلته يتكاثرون مثل خبز الإنجيل، ويجندون كل يوم عشرات الفتيان البائسين والمتفانين مثلهم، يذهبون ويجيئون على دروب خطرة وقمم جليدية متجمدة في سلسلة الجبال، متجنبين حواجز الجيش ودورياته، متسللين في الليالي مثل القطط إلى سطوح المباني العامة وإلى ذرى الجبال لغرس رايات حمراء مرسوم عليها المنجل والمطرقة، ورآهم يأتون متعرقين، باسمين، مهيبين، إلى معسكرات الأنصار

النائية وهم يحملون الأدوية والمعلومات، الملابس والمؤن التي تحتاجها حرب العصابات. وتخيل ابنه واحداً منهم. إنهم فتية في الرابعة عشرة، في الخامسة عشرة، في السادسة عشرة من عمرهم. وبفضلهم يمكن لقوات حرب العصابات أن تكون واثقة من الانتصار. وفكر: « واثقة من اقتحام السماء». ستُنزل الفردوس من السماء، ونقيمه على الأرض فتختلط السماء بالأرض في هذه الساعة الشفقية؛ سُحب الأعالي الرمادية تلتقي بسحب الرماد التي تطلقها الحرائق. وما هذه البقع السوداء الطيارة، الكثيرة، التي تأتي من الجهات الأربع نحو كوسكو؟ إنها ليست رماداً وإنما هي طيور جارحة، نهمة، جائعة، ينخسها الجوع، فتتحدى الدخان واللهيب، وتتحدر منقضة على جثث الطرائد المشتهاة. ومن الأعالي يمكن للناجين، للأقارب، للجرحى، للمقاتلين، للأميين، بأدنى حد من المخيلة، أن يسمعوا الانهماك في الطحن، ووقع المناقير المحمومة، وخفق الأجنحة الخسيسة، وأن يشموا رائحة النتانة المرعبة.

ـ أيعني هذا أنه...؟ ـ أشجعها على مواصلة الكلام. لقد صار إطلاق النار يُسمع الآن في كل لحظة، يسمع بعيداً، ولكنني لم أعد أنا ولا آديلايدا إلى النظر إلى الشارع.

ـ هذا يعني أن الموضوع لم يكن يُطرق أبداً أمام خوانثيتو ـ تقول مواصلة كلامها. وأستمع إليها وأنا أحاول جاهداً أن أهتم بقصتها، ولكنني أواصل رؤية المجزرة وشمها.

لقد كانت مسألة من المحرمات، تحتّ مثل حمض بطيء في أعماق علاقتهما الزوجية. كان خوان ثاراتيه يحب الفتى، ولكنه لم يغفر لها ذلك الاتفاق، ذلك الثمن الذي جعلته يدفعه مقابل أن

تكون زوجة له. وقد اتخذت القصة أبعاداً غير متوقعة يوم اكتشف خوانثيتو ـ وكان قد أنهى المدرسة الثانوية ودخل إلى الصيدلية ـ أن لأبيه عشيقة. دون خوان ثاراتيه لديه عشيقة؟ أجل، وقد فتح لها بيتاً منفصلاً. ولم تشعر آديلايدا بالغيرة، وإنما بالتجمد حين فكرت أنه يمكن أن تكون هناك عشيقة لذلك العجوز الذي يجر قدميه، وذي البصر التالف. كان الأمر يسبب لها الموت ضحكاً. فالمرأة تشعر بالغيرة عندما تشاء وهي لم تحب خوان ثاراتيه مطلقاً، بل إنها كانت تتحمله بصبر. وما أغضبها فقط هو أنه كان يستطيع فتح بيتين بذلك الراتب الزهيد الذي يتقاضاه...

ـ ولكن الأمر بالمقابل استثار غضب ابني، جننه ـ تضيف وهي في حالة من التنويم المغناطيسي ـ. وبدأ يتمرمر، يتآكل. فوجود عشيقة لدى أبيه بدا له نهاية العالم. أيكون ذلك بسبب تربيته الورعة؟ كان يمكن لي أن أفهم ردة الفعل تلك لدى طفل صغير. ولكن كيف يمكن فهمها لدى شاب في العشرين من عمره، يعرف أمور الدنيا؟

فأقول لها:

ـ لقد كان الفتى يتألم من أجلك.

ـ بل بسبب الدين ـ تصر آديلايدا ـ. لقد رباه خوان تلك التربية، جعله متديناً ورعاً. لقد أصابه الجنون. فهو لم يكن يتقبل من أبيه الذي علمه كيف يكون كاثوليكياً كاملاً أن يتحول إلى منافق. لقد كان يقول هذه الأشياء وكان عمره عشرين سنة.

صمتتْ لأن إطلاق النار سُمع هذه المرة أقرب. نظرتُ من النافذة: يجب ألا يكون الأمر مثيراً للذعر لأن الحراس يبدون

مطمئنين، من فوق سياج الأسلاك. إنهم ينظرون باتجاه الجنوب، وكأن تبادل إطلاق النار يأتي من جهة سان إيسيدرو أو ميرافلوريس.

أقول لها:

ـ ربما يكون قد ورث ذلك عن مايتا. فقد كان هكذا في صغره: مؤمن بصرامة، مقتنع بأنه عليه التصرف باستقامة في كل حين. لم يكن يتقبل التسويات. ولم يكن هناك ما يغضبه أكثر من شخص يؤمن بشيء ويمارس خلافه. ألم يحدثك عن إضرابه عن الطعام من أجل أن يتماثل مع الفقراء؟ الناس الذين على هذه الشاكلة لا يكونون سعداء في الحياة يا سيدتي.

فتدمدم آديلايدا بوجه ممتقع:

ـ لقد رأيت ابني يتعذب كثيراً فخطر لي أن أساعده بإخباره بالحقيقة. وأنا أيضاً أُصبت بالجنون، أليس كذلك؟

ـ أجل، سأذهب، ولكنني أطلب منك خدمة أخيرة ـ قال لها مايتا ذلك، وما كاد ينهض حتى ندم لأنه لم يغادر من قبل ـ. لا تخبري أحداً بأنكِ قد رأيتني. مهما كان السبب.

لم تكن تقتنع أبداً بتلك الأسرار، والاحتياطات، والشكوك، والمخاوف، لم تكن قادرة على أخذها على محمل الجد على الإطلاق، بالرغم من أنها حين كانت تعيش معه، رأت الشرطة في مرات كثيرة تأتي إلى البيت. لقد كانت تشعر دوماً بأنها لعبة شيوخ يتظاهرون بأنهم أطفال، وأنها إحساس بالاضطهاد يسمم الحياة. كيف يمكن الاستمتاع بالحياة في ظل الخوف من مؤامرة كونية ضد المرء يشارك فيها الوشاة، والجيش، والأبرا،

والرأسماليون، والستالينيون، والإمبرياليون، إلى آخره، إلى آخره؟ كلمات مايتا ذكرتها بكابوس التحذيرات التي كانت تسمعها من قبل، لا تكرري قول ذلك، لا تقوليه، يجب عدم معرفته، لا يمكن لأحد...، عدة مرات في اليوم. ولكنها لم تجادل: لا بأس، لن أخبر أحداً. هز مايتا رأسه، وودعها بنصف ابتسامة، وابتعد مسرعاً بمشيته تلك، مشية رجل يعاني من دمامل في باطن قدميه.

وتضيف آديلايدا ناظرة إلى الفراغ:

ـ لم يبكِ، ولم تجر أي دراما. وجه إليّ أسئلة قليلة، وكأنه يفعل ذلك بدافع الفضول فقط. كيف كان مايتا؟ ما سبب طلاقنا؟ ولا شيء غير ذلك. بدا مطمئناً إلى حد أنني فكرت: «لن يكون لإخبارك له بالأمر عواقب كبيرة».

ولكن الفتى اختفى في اليوم التالي. لقد مرت عشر سنوات ولم تعد آديلايدا خلالها إلى رؤيته. ينقطع صوتها وأراها تعتصر يديها وكأنها تريد أن تسلخ جلدهما. وتدمدم:

ـ أهذا تصرف كاثوليكيين؟ يقطع علاقته بأمه إلى الأبد بسبب ما يمكن اعتباره في أسوأ الحالات مجرد خطأ. أولم يكن كل ما فعلته من أجله يا ترى؟

لقد بحثا عنه حتى بمساعدة الشرطة، مع أن الفتى كان قد تجاوز سن الرشد. تحزنني رؤية عذابها وأُدرك أنها أضافت هذه الحادثة إلى رصيد إهانات مايتا، ولكنني أشعر في الوقت نفسه بأنني أتحلل من عذابها، وبأنني قريب من مايتا، أقتفي أثره في شوارع لينثي وهو يتجه نحو جادة أريكيبا ليركب الحافلة. أكان يمضي متضايقاً بسبب جفاء هذه الزيارة لزوجته السابقة وإخفاقه

فـي رؤية ذلك الابن الـذي لـن يـراه مطلقاً بكـل تأكيـد؟ هـل كـان قانطـاً ومتألمـاً؟ بـل كـان منبسطاً، مفعمـاً بالنـشاط، نافـد الـصبر، يـوزع فـي ذهنـه الـساعات المتبقيـة لـه فـي ليمـا. لقـد كـان يعـرف كيف يتجاوز المنغصات بقفزة انفعالية، وكيـف يستخلص منها قـوة لإنجاز المهمـة التاليـة. لقـد كـان خروجـه مـن خمـود الهمـة والإشـفاق على الذات يتم فـي الـسابق بشغل نفـسه فـي عمـل بسيط، محـدد، يومي، مهني، كـأن ينهمك فـي طلاء الجدران، أو فـي الذهـاب إلى مطبعـة كوتـشاركاس، أو فـي توزيـع المنـشورات فـي جـادة الأرجنـتين وفـي سـاحة الثـاني مـن أيـار(مـايو)، أو تـصحيح تجـارب الطبـاعـة، أو ترجمـة مقـال مـن الفرنـسية لنـشرة **صـوت العمـال**. أمـا الآن، فإنها الثـورة بلحمهـا وعظمهـا وكـل حروفهـا، الثـورة الواقعيـة الحقيقيـة الـتي سـتبدأ بـين لحظـة وأخـرى. وفكـر: «الـتي سـتبدؤهـا أنت». هل سيـضيع الوقـت فـي تعـذيب نفـسه بمشـاكـل بيتيـه؟ فتش جيوبه، وأخـرج منهـا القائمـة، وأعـاد قـراءة الأشـيـاء الـتي سيـشتريها. أتـكون تصفـيـة حسابه جاهـزة فـي فرانس برس؟

وتقول آديلايدا وهـي تفرك يديها بغضب:

ـ لقـد فكـرتُ فـي الأيـام الأولى بأنـه قـد انتحـر. وأنـه علـيّ أن أقتل نفسي أنا أيضاً ثمناً لموته.

لم يعرفا أي شيء عن الفتى خلال أسابيع، شهور، إلى أن تلقى خـوان ثاراتيـه رسـالة منـه فـي أحـد الأيـام. كانـت رسـالة هادئـة، متروية ومكتوبة برصانة. يشكره فـيها علـى مـا فعلـه مـن أجلـه، ويقول له إنه يرجو أن يتمكن من ردّ جميله. ويعتذر لأنه غادر البيت بتلك الطريقـة الفظـة، ولكـن كـان مـن الأفـضل لكليهمـا تجنـب

الاضطرار إلى تقديم تفسير شاق. يجب ألا يقلق من أجله. أيكون في أعالي المنطقة الجبلية التي بدأت تكنس الليل؟ أهو واحد من الرجال الذين يقفزون، يذهبون، يجيئون ما بين الأحياء ـ والبندقية الرشاشة تتدلى من كتفه والمسدس على خاصرته ـ محاولاً إعادة تنظيم الفوضى؟

ـ كانت الرسالة مرسلة من بويكايّابا ـ تقول آديلايدا ـ. ولكنه لم يذكرني فيها.

أجل، لقد كانت تصفية حساباته في مكتب فرانس برس جاهزة، نقداً وليس شيكاً: إنها ثلاثة وأربعون ألف سول. تضخم قلبه. فقد كان يقدر المبلغ بخمسة وثلاثين ألف سول في أقصى الحدود. إنه الأمر الطيب الوحيد الذي جرى له في الأيام الأخيرة: ثمانية آلاف سول إضافية. سيشتري كل ما هو وارد في القائمة وسيفيض لديه بعض المال فوق ذلك. لم يودع بالطبع المحررين في فرانس برس. وعندما سأله المدير عما إذا كان يستطيع العمل في أيام الآحاد، ردّ عليه بأنه ذاهب إلى تشيكلايو. خرج متحمساً، مستعجلاً، باتجاه جادة ابانكاي. لم يكن يطيق الخروج للتسوق من قبل أبداً، ولكنه جاب في هذه المرة عدة متاجر بحثاً عن أفضل بنطال رعاة بقر كاكي اللون، يتحمل قسوة المناخ، والأرض الوعرة والعمل النشط. اشترى بنطالين من متجرين مختلفين، ثم اشترى حذاء خفيفاً من بائع جوال على الرصيف. وقد قدم له البائع مقعده الصغير، فجلس مستنداً إلى جدار المكتبة الوطنية ليجرب الحذاء. ودخل إلى صيدلية في جادة لامبا. وكان على وشك أن يُخرج قائمة المشتريات ويقدمها للصيدلي، ولكنه كبح نفسه

مكـــرراً فـــي دخيلتـــه، مثلمـــا فعـــل آلاف المـــرات فـــي حياتـــه: «الاحتياطات لا تكتمل مطلقاً». قرر أن يشتري الضمادات الطبية، والمطهرات، وأدوية تخثر الجروح، والسلفات وبقية مواد الإسعافات الأولية التي أملاها عليه باييخوس من عدة صيدليات.

ـ ولم ترياه منذ ذلك الحين؟

ـ أنا لم أره ـ تقول آديلايدا.

أما خوان ثاراتيه فرآه. لقد كان يأتي إلى ليما بين حين وآخر، كان يأتي من بوكايابا أو من يوريماغواس، حيث كان يعمل فـي مناشر الخشب، وكانا يتناولان الغداء معاً. ولكن منذ بدأ كل هذا ـ الاغتيالات، عمليات الاختطاف، القنابل، الحرب ـ توقف عن كتابة الرسائل وعن المجيء: إما أن يكون قد مات أو أنه صار واحداً منهم. لقد خيم الليل واستلقى المتبقون على قيد الحياة فوق بعضهم البعض ليتحملوا البرد فـي ظلمات كوسكو. وكانت الحشود تهذي فـي نومها، مستمعة إلى طائرات وقنابل شبحية تضاعف ما سمعوه فـي النهار. ولكن ابن مايتا لا ينام: فهو يجادل فـي مغارة القيادة الصغيرة، محاولاً فرض وجهة نظره. يجب على الناس أن يرجعوا إلى كوسكو فور انقشاع أبخرة عفونة الحرائق ويبدؤوا بإعادة البناء. هناك قادة لديهم وجهة نظر أخرى: سيكونون هناك أهدافاً سهلة لعمليات قصف ومذابح جديدة تشتت صفوف الناس مثل التي جرت اليوم. من الأفضل أن يبقى الناس فـي العراء، موزعين فـي قطاعات وملاحق فـي الأطراف، ومعسكرات أقل تأثراً بالغارات الجوية. ويرد ابن مايتا، ويجادل، ويرفع صوته، وعلى بريق نار الموقد الصغير، يلمع وجهه مدبوغاً، بقروح، وقوراً.

لم ينــزع البندقيـة الرشاشـة عـن كتفـه ولا المسدس عـن خاصـرته. وكانت السيجارة بين أصابعه قد انطفأت دون أن ينتبه إليها. صوته صوت رجل هـزم كـل الشدائد ـ البرد، الجـوع، الإنهـاك، الهـرب، الرعب، الجريمة ـ وهو واثق من الانتصار المحتم والوشيك. وهـو لم يخطئ حتى الآن، وكـل شـيء يؤكـد بأنـه لـن يخطـئ كـذلك فــي المستقبل.

وتكرر آديلايدا:

ـ فــي المـرات القليلـة الـتي جـاء فـيها كـان يبحـث عـن خـوان ويخرجان معاً. أما أنا فلم يبحث عني أبداً، ولم يتصل بي ولم يكن يسمح لخوان حتـى بطـرح إمكـانيـة اللقـاء بـي. أيمكـن لـك أن تفهـم حقداً كهذا، غضباً كهذا؟ فـي البدء كتبتُ إليـه رسـائل كـثيرة. ثم انتهيت فـيما بعد إلى الاستسلام.

أُذكّرها:

ـ لقد انتهت الساعة المتفق عليها.

تلقى مايتا اللفافة وسلم الإيصال وخرج. كان قـد اسـتنفد كـل مـا فـــي القائمـة بـشراء الـسلفات والميركـوركروم مـن الـصيدلية الأخيرة. كـانت رزم المشتريات كـبيرة، ثقيلـة، وحـين وصـل إلى بيتـه فـي شارع ثيبيتـا كـان ذراعـاه يؤلمانـه. لقـد كـانـت الحقيبـة جـاهـزة: الكـنــزات، القمـصان، وفـــي منتـصفها المـسدس الرشـاش الـذي أهـداه إليـه بـاييخوس مغطـى بحـذر ودقـة. رتـب الأدويـة فــي الحقيبـة وألقـى نظـرة علـى الكتـب المبعثـرة. هـل سـيأتي بلاكـير ليأخـذها؟ خرج، خبأ المفتاح ما بين دفتي صحن الدرج المفلتتين. إذا هـو لم يـأت فسوف يبيع صاحب البيت الكتب ليحصل على الإيجار. ومـا أهميـة

كل هذا الآن؟ ما أهمية غرفته، كتبه، آديلايدا، ابنه، رفاقه السابقين الآن؟ وما أهمية ليما الآن؟ وأحس بقلبه يضطرب وهو يرى السائق يضع الحقيبة على الحمالة. الحافلة ستنطلق إلى خاوخا خلال دقائق. وفكر:«هذه رحلة دون عودة يا مايتا».

أنهضُ واقفاً، أشكرها وترافقني هي حتى الباب وتغلقه فور تجاوزي العتبة. وأشعر بالغرابة وأنا أرى، في المساء الذي يميل إلى الغروب، واجهة قصر روسبيغليوسي المخادعة. يجب عليّ أن أخضع مرة أخرى لتفتيش جنود الطيران. يسمحون لي بالمرور. وبينما أنا أتقدم ما بين بيوت مسورة بأحجار وطين، لم تعد الأصوات التي في الأمام والخلف وإلى اليمين واليسار هي أصوات تبادل رشقات نارية وحسب. بل أصوات انفجارات قنابل يدوية ومدافع كذلك.

الفصل الثامن

يبدو كأنه إحدى شخصيات آرسيمبولد: أنفه جزرة هزيلة، خداه سفرجلتان، ذقنه حبة بطاطا ناتئة وممتلئة بالعيون، ورقبته عنقود عنب نصف مسلوخ. يبدو قبحه لطيفاً لشدة استهتاره؛ ويمكن القول إن دون إثكييل يُجمِّل قبحه بهذا الشعر الدهني الذي يتدلى متهدلاً على كتفيه. ويبدو جسده أكثر ترهلاً وهو محشور في البنطال والمئزر والكنزة المرقعة. إحدى فردتي حذائه فقط لها رباط؛ أما الأخرى فتهدد بالإفلات من قدمه في كل خطوة. وهو مع ذلك ليس شحاذاً، بل صاحب متجر المفروشات والأدوات المنزلية، في ساحة السلاح في خاوخا، الملاصق لمدرسة الكارمن وكنيسة الراهبات الفرانسيسكان. وتقول الألسنة في خاوخا إن هذا الذي يراه أحدنا، هو أغنى تاجر في المدينة. لماذا لم يهرب مثلما فعل آخرون؟ لقد اختطفه المتمردون قبل بضعة أشهر، وقد انتشرت إشاعة تقول إنه قد دفع لهم فدية كبيرة؛ فلم يعودوا إلى إزعاجه منذ ذلك الحين لأنه، كما يقولون، قد دفع «الحصة الثورية».

أوقفني بجفاء فور إطلالي على المتجر:

ـ أعرف من الذي أرسلك إلى هنا، أعرف أنه ابن العاهرة الأفطس أوبييوث. لا جدوى من مجيئك، فأنا لا أعرف شيئاً ولم أرَ شيئاً ولم أكن متورطاً في تلك النذالة البرازية. ليس هناك ما

يمكننا عمله. أعرف أنك تكتب عن باييخوس. لا تُدخلني في هذه الأمور وإلا عليك أن تتحمل النتائج. أقول لك هذا دون أن أغضب، لكي يدخل بوضوح في دماغك.

والواقع أنه كان يقول لي ذلك بعينين متوقدتين بالغضب. لقد كان يصرخ بطريقة جعلت إحدى الدوريات التي تجوب الساحة تقترب لتسأل إذا ما كان يحدث أي شيء. لا، لا شيء. وعندما انصرفوا، قمت بالدور المعهود: ليس هناك أي مبرر للذعر يا دون إثكييل، فأنا لا أفكر في ذكر اسمك ولو مرة واحدة. ولن يظهر في قصتي كذلك اسم الملازم باييخوس ولا مايتا ولا أي واحد من شخصيات الواقعة، ولن يتمكن أحد من أن يتعرف فيها على ما حدث في الواقع.

فيرد علي وهو يهز أصابع أشبه بالخطافات:

ـ وأي براز جاء بك إلى خاوخا إذن؟ ولأي براز تقوم بتوجيه الأسئلة في الشوارع والساحات حول ما جرى؟ ولماذا كل هذه التقولات البرازية؟

وأقول للمرة المئة في هذه السنة:

ـ لكي أكذب وأنا أعرف السبب. دعني أوضح لك الأمر على الأقل يا دون إثكييل. لن آخذ من وقتك أكثر من دقيقتين. هل تسمح لي؟ أيمكنني الدخول؟

الضوء الذي يحمم هواء خاوخا هو ضوء فجر: ضوء أولي، متلعثم، مائل إلى السواد، وفيه يظهر شبح الكاتدرائية، والشرفات المحيطة، والحديقة الصغيرة المسورة بسياج حديدي والأشجار التي في وسط الساحة، وكلها تظهر وتختفي. الهواء

القاطع يسبب قشعريرة في الجلد. هل الأعصاب هي السبب؟ أهو الخوف؟ لم يكن عصبياً ولا خائفاً، إنه جزع بعض الشيء وحسب، ليس بسبب ما سيحدث وإنما بسبب الارتفاع اللعين الذي يذكّره به قلبه في كل لحظة. كان قد نام بضع ساعات، على الرغم من البرد الذي كان يتسرب من الزجاج المكسور، وعلى الرغم من أن كراسي محل الحلاقة لم تكن السرير المثالي. وقد أيقظه صياح ديك في الخامسة، وكان أول ما فكر فيه، قبل أن يفتح عينيه: «إنه اليوم». نهض، تمطى في الظلام، وتعثر بالأشياء وهو يتوجه نحو الطست المملوء بالماء. السائل الجليدي أيقظه تماماً. كان قد نام بملابسه ولم يكن عليه سوى انتعال جزمته، وإغلاق حقيبته والانتظار. جلس على أحد الكراسي حيث يحلق إثكييل لزبائنه، وبينما هو يغمض عينيه، تذكر التعليمات. كان مطمئناً، هادئاً، وكان يمكن له أن يشعر بالسعادة لولا هذا الضيق. بعد دقائق من ذلك سمع الباب يفتح، وعلى ضوء مصباح يدوي، رأى إثكييل. لقد أحضر له قهوة ساخنة في فنجان من صفيح.

ـ هل كان نومك غير مريح؟

فقال مايتا:

ـ لقد نمتُ جيداً. هل صارت الساعة الخامسة والنصف؟

وهمس إثكييل:

ـ إلا قليلاً. اخرج من الباب الخلفي، ولا تُحدث ضجة.

ـ شكراً على حسن ضيافتك. وحظاً طيباً ـ ودعه مايتا.

ـ بل حظاً خبيثاً. كل ما اقترفته من ذنب هو أنني كنت رجلاً طيباً، مغفلاً كبيراً ـ وكان أنفه ينتفخ ويُبرز ما لا حصر له من

العروق الخمرية؛ وعيناه تتحركان باحتدام ـ. ذنبي الوحيد هو أنني أشفقت على غريب لا أعرفه وسمحت له بالنوم ليلة واحدة في دكان حلاقتي. ومن هو الذي جاءني بحكاية أنه ليس لهذا المسكين سقف ينام تحته ويسألني عما إذا كان لا يوجد لدي مانع من إيوائه؟ من هو سوى ابن العاهرة الأفطس أوبيبيوث!

وأحاول تهدئته:

ـ لقد مضت خمس وعشرون سنة يا دون إثكيبيل. إنها قصة قديمة، لم يعد هناك من يتذكرها. لا تغضب هكذا.

ويزمجر دون إثكيبيل:

ـ إنني أغضب لأنه لم يكتف بما فعله بي، وها هو هذا الكلب يشيع أنني قد بعتُ نفسي للإرهابيين ـ يزمجر دون إثكيبيل ـ. لعل الجيش يرميني بالرصاص ويخلصه من وجودي. إنني أغضب لأن العقل المدبر لتلك الحماقة لم يصبه شيء. أما أنا الذي لم أكن أعرف شيئاً ولم أكن أفهم شيئاً ولم أر شيئاً، فقد زجوا بي في السجن، وكسروا أضلاعي وجعلوني أتبول دماً من الركلات التي وجهوها إلى كليتي وخصيتي.

ـ ولكنك خرجت من السجن، وبدأت من جديد وصرت اليوم رجلاً تحسده خاوخا يا دون إثكيبيل. لا تغضب، انسَ ما حدث.

فيزمجر هو محركاً يديه وكأنه سيخمشني:

ـ لا يمكنني النسيان إذا كنتَ قد جئت لتستنفد صبري طالباً مني أن أروي لك أشياء لا أعرفها. أليس هذا هو أكثر الأمور غرابة؟ مَنْ كان أقل الجميع إطلاعاً على ما حدث هو الوحيد الذي تخوزق.

ذرع مايتا الممر، تأكد من أنه ليس هناك أحد في الشارع، فتح باب صالون الحلاقة الخلفي وخرج منه ثم أغلقه وراءه. لم تكن هناك نفس واحدة في الساحة، وكان الضوء الخجول لا يكاد يسمح له برؤية أكثر من موطئ قدمه. ذهب إلى حيث المقعد. لم يصل بعد الرجال الذين سيأتون من ريكران. جلس. وضع الحقيبة بين قدميه، حمى فمه بياقة الكنزة ودس يديه في جيبيه. يجب عليه أن يكون آلة. إنه أمر يتذكره من دروس التدريب العسكري في المدرسة: رجل آلي واع، لا يتأخر ولا يتقدم، ولا يخامره التردد أبداً بصورة خاصة، مقاتل يطبق ما هو مبرمج بدقة خلاطة أو مخرطة. فإذا ما تصرف الجميع على هذا النحو، فسوف يكون بالإمكان تجاوز أي اختبار، اختبار اليوم. وسيكون الاختبار الثاني أسهل، وبتخطي اختبار بعد آخر، سيصبح الانتصار في مجال الرؤية يوماً. كان يسمع ديوكاً غير مرئية؛ وبعيداً، فيما وراء أعشاب الحديقة الصغيرة، يُسمع نقيق ضفدع. هل سيتأخرون؟ شاحنة ريكران ستتوقف في ساحة سانتا إيسابيل، حيث تتلاقى السيارات التي تحمل البضائع إلى السوق. من هناك سيتوزعون في مجموعات، ويحتلون مواقعهم. لم يكن يعرف حتى اسمي الرفيقين اللذين سينضمان إليه للذهاب إلى السجن، ثم إلى مقر شركة الهاتف بعد ذلك. «ذكرى أي قديس هي اليوم؟» «إنه يوم القديس ادموندو دانتيس». أنزل ياقة الكنزة التي كانت تغطي نصف وجهه، وابتسم: لقد خطرت له كلمة السر وهو يتذكر الكونت دي مونت كريستو. وفي هذه الأثناء وصل الفتى، دقيقاً في موعده. كان يدعى فيليثو تابيا وكان يرتدي زيه المدرسي ـ

بنطالاً وقميصاً كاكي اللون وقبعة من اللون نفسه، وكنزة رمادية ـ ويحمل كتبه تحت إبطه. وفكر: «سيساعدوننا في البدء بالثورة ثم يذهبون إلى المدرسة. يجب أن نسرع حتى لا نضيع عليهم الدرس الأول.» لقد خُصص لكل جماعة فتى منهم كمراسل، فربما اضطرت إلى إيصال خبر طارئ. ولكن حين تبدأ كل جماعة بالانسحاب، يتوجب على الفتى الذي يرافقها أن يعود إلى حياته الطبيعية.

ـ لقد تأخرت جماعة ريكران ـ قال مايتا ـ. ألا يكون طريق سلسلة الجبال قد أُغلق؟

تأمل الصبي الغيوم:

ـ لا، لم يهطل المطر.

من غير المحتمل أن تغلق الأمطار أو الانهيارات الطريق في هذه الفترة من السنة. ولو حدث ذلك، فقد تقرر مسبقاً أن ينطلق رجال ريكران إلى كيرو عبر سلسلة الجبال. كان الفتى ينظر إلى مايتا نظرة حسد. لقد كان فتياً جداً، له أسنان أرنب وبداية زغب.

ـ هل كل زملائك دقيقون مثلك؟

ـ روبيرتو موجود عند ناصية ملجأ الأيتام، وقد رأيت ميلكيادس ذاهباً باتجاه ساحة سانتا إيسابيل.

أوضح ذلك بسرعة، وأحس مايتا بالأسف لأنه لم يتفحص المسدس الرشاش مرة أخيرة. إنه في الحقيبة وهو لا يتوقف عن التفكير فيه. كان قد زيّته في الليلة السابقة وهو في صالون الحلاقة، وقبل أن ينام فتح مسمار الأمان وأغلقه، متأكداً من امتلاء المخزن. ما الحاجة إلى تفحصه من جديد؟ كانت الساحة قد

بدأت تشهد بعض الحركة. إذ بدأ مرور نسوة يضعن مناديل على رؤوسهن ويتوجهن إلى الكاتدرائية، وكانت تمر بين فينة وأخرى شاحنة صغيرة أو سيارة شحن كبيرة مملوءة بالأكياس أو البراميل. الساعة تشير إلى السادسة إلا خمس دقائق. نهض واقفاً وتناول الحقيبة وقال للفتى:

ـ أسرعْ إلى ساحة سانتا إيسابيل، وإذا كانت الشاحنة قد وصلت إلى هناك فقل للجماعة أن يذهبوا مباشرة إلى السجن. في السادسة والنصف سأفتح لهم الباب. مفهوم؟

يقول لي دون إثكيل وهو يحك جلد عنقه المتدرن بأظفاره السوداء ويلهث:

ـ ليس هناك ما يمنعني من الكلام وقول ما يجب أن يقال: المسؤول عن كل شيء لم يكن بابيخوس وإنما أوبيوث. إنه المسؤول عن كل ما حدث وما لم يحدث في ذلك الصباح. وأنت تضيع الوقت في النمِّ مع هؤلاء ومع أولئك. يكفيك التكلم معه. فذلك القمامة هو الوحيد الذي يعرف بدقة وبتفصيل كل براز هذه القصة.

يطغى على صوته صوت مذياع يلعلع عالياً باللغة الإنكليزية. إنها المحطة المخصصة لجنود «المارينز» والطيارين الأمريكيين الذين وُضعت تحت تصرفهم أبنية مدرسة سان خوسيه.

ويزمجر دون إثكيل وهو يغلق أذنيه:

ـ ها هي ذي إذاعة ملعوني الأم الغرينغيين اللعينة!

أقول له إنني قد فوجئت لأني لم أرَ حتى الآن «مارينز» في الشوارع، وأن كل الدوريات التي تجتاز تقاطعات الشوارع مؤلفة من شرطة وجنود بيرويين.

فيجأر وقد تحول وحشاً:

ــ لا بد أنهم ينامون من شدة السُكْر أو يستريحون بعد المضاجعات الكثيرة. لقد أفسدوا خاوخا كلها، وحوّلو حتى الراهبات إلى مومسات. وكيف لا يحدث ذلك إذا كنا جميعنا نموت جوعاً بينما هم يملكون دولارات؟ يقال إنهم يحضرون لهم حتى الماء بالطائرات. ليس صحيحاً أنهم يساعدون التجارة المحلية بأموالهم. فلم يدخل أي واحد منهم لشراء شيء من متجري مثلاً. إنهم ينفقون المال فقط على الكوكايين، أجل.. إنهم يدفعون أي ثمن مقابل ذلك. والقول بأنهم جاؤوا لقتال الشيوعيين هو كذب. لقد جاؤوا لتعاطي الكوكايين ومضاجعة نساء خاوخا. بل إن هناك زنوجاً بينهم، أي لعنة هي هذه.

ومع أنني أتابع غضب دون إثكييل، إلا أنني لا أسهو لحظة واحدة عن مايتا في ذلك الصباح، قبل ربع قرن، في خاوخا بلا ثورين وبلا «مارينز»، يمشي في شارع ألفونسو أورغارتي الصباحي، حاملاً حقيبة المسدس الرشاش. أهو قلق بسبب تأخر الشاحنة؟ بكل تأكيد. فمهما كان توقعه المسبق لإمكانية التأخر، إلا أنه شعر ببعض القلق لهذا العائق الأول، حتى قبل أن يبدأ تجسيد الخطة. وهي خطة أظن أنني أستطيع، وسط نسيج عنكبوت التحريف والأكاذيب أن أحددها بصورة مناسبة حتى اللحظة التي يتوجب فيها على الثوار، في ذلك الصباح، أن يخرجوا من خاوخا باتجاه جسر مولينوس. وابتداء من هناك، أضيع في الروايات المتناقضة. ويتأكد لي مرة أخرى أن نواة محدودة جداً - ربما تقتصر على باييخوس وأوبييوث، وربما عليهما وعلى مايتا

فقط، وربما على الملازم وحده ـ كانت تعرف بالضبط كل ما سيفعلونه: هذا القرار بعدم إطلاع الآخرين أضر بهم ضرراً رهيباً. بماذا كان يفكر مايتا وهو يجتاز الكوادرا الأخيرة من شارع ألفونسو أوغارتي، حين رأى إلى يساره جدران السجن الطينية وأفاريزه القرميدية؟ بأنه هناك إلى يمينه، وراء ستائر بيت أوبيبوث، ربما يراه وهو يمر الأفطسُ والرفاق الذين من اورويا وكاسابالكا وموروكوتشا المجتمعين هناك منذ اليوم السابق أو منذ ساعات. هل يتوجب عليه أن يخبرهم بأن الشاحنة لم تصل؟ لا، يجب عليه ألا يخالف التعليمات مهما كان السبب. ثم إنهم سيكونون قد أدركوا أن الشاحنة قد تأخرت حين رأوه وحيداً. إذا ما وصل جماعة ريكران خلال نصف الساعة التالية فسوف يتمكنون من المشاركة في العمليات، أما إذا لم يصلوا، فسيلتقون بهم في كيرو، حيث يتوجب على المتأخرين أن يذهبوا. وصل إلى واجهة السجن الحجرية، ولم يكن هناك حارس مثلما كان قد أخبره الملازم. فُتح الباب الحديدي الصدئ وظهر باييخوس. وبينما هو يضع إصبعه على شفتيه، أمسك بذراع مايتا وأدخله ثم أغلق البوابة بعد أن تأكد من أنه ليس هناك من يرافقه. أشار له بإيماءة من يده بأن يدخل إلى مكتب مدير السجن واختفى. تفحص مايتا الدهليز المفتوح ذا الأعمدة، وكان على الغرفة المقابلة لوحة تقول *مستودع الأسلحة*، وفي الفناء أشجار كرز ذات أوراق طويلة ورفيعة مثقلة بالقطوف. في الغرفة التي دخل إليها كان يوجد شعار وسبورة وطاولة مكتب وكرسي ونافذة يظهر الشارع من خلال زجاجها الغبش. وكان ما يزال يحمل الحقيبة في يده، لا

يدري ما عليه أن يفعله عندما رجع باييخوس. وقال له هذه المرة بصوت خافت:

ـ أردت التأكد من أن أحداً لم يلحظ مجيئك. ألم تصل الشاحنة؟

ـ يبدو أنها لم تصل. لقد أرسلت فيليثيو لينتظرها وليقول لجماعتي بأن يحضروا إلى هنا في الساعة السادسة والنصف. ألن نكون بحاجة إلى جماعة ريكران؟

ـ ليست هناك مشكلة ـ قال باييخوس ـ. اختبئ هناك وانتظر دون إحداث ضجة.

هدوء الملازم وثقته عززا صلابة مايتا. كان الملازم يرتدي بنطالاً وجزمة وكنزة سوداء ذات ياقة عالية بدل القميص العسكري النظامي. لا بد أن هذه الخزانة هي مستودع أسلحة، ولا بد أنهم يضعون البنادق في هذه الكوى. وعند إغلاق الباب بقي في الظلام. بذل مجهوداً لفتح الحقيبة، لأن قفلها كان قد تعطل. أخرج المسدس الرشاش ودس علب الذخيرة في جيوبه. وانطفأ المذياع فجأة مثلما كان قد صدح فجأة. ما الذي جرى لشاحنة ريكران؟

ـ لقد وصلتْ إلى ساحة سانتا إيسابيل، حيث كان عليها أن تصل ـ ينفجر دون إثكييل ضاحكاً ويبدو كان كما لو أن سماً ينبجس من عينيه وفمه وأذنيه وهو يضيف: ـ وعندما بدأت عملية السجن كانت الشاحنة قد غادرت. ولكن ليس إلى كيرو، حيث كان يفترض أن تذهب، وإنما إلى ليما. ولم تكن تحمل الشيوعيين أو الأسلحة المسروقة. لا شيء من هذا. ما الذي كانت تحمله الشاحنة؟ فول! أجل، اللعنة، انطلقت إلى ليما بحمولة من الفول. ألا تسألني لمن كانت حمولة الفول؟

فأقول له:

ـ لن أسألك لأنك ستقول لي إنها كانت للأفطس أوبييوث.

ويطلق دون إثكييل ضحكة مروعة أخرى:

ـ ألن تسألني من كان يقودها ـ رفع يديه الوسختين وكأنه يوجه لكمات، وأشار إلى الساحة ـ أنا رأيته يمر، وتعرفت على ذلك الخائن. أنا رأيته ممسكاً بالمقود، وبقبعة مخنث زرقاء. وأنا رأيت أكياس الفول. أي لعنة تجري؟ ما الذي سيحدث! لقد تمكن هذا القواد من خوزقتنا أنا وبابيخوس والغريب.

ـ أخبرني بأمر واحد آخر فقط وسأتركك بسلام يا دون إثكييل. لماذا لم تذهب أنت أيضاً في ذلك الصباح؟ لماذا بقيت مطمئناً في دكان حلاقتك؟ لماذا لم تختبئ على الأقل؟

بقي الوجه المتدرن يتفحصني بنظرة رهيبة عدة ثوانٍ، بغضب سفيه. أراه يحك أنفه، ويهرش بضراوة جلد رقبته. وعندما ردَّ علي كان ما يزال يشعر بأنه مضطر إلى الكذب:

ـ ومن أجل أي براز كان علي أن أختبئ طالما أنني لم أكن متورطاً في شيء؟ من أجل أي براز؟

ـ دون إثكييل، دون إثكييل ـ أقول له مؤنباً ـ لقد مرت خمس وعشرون سنة، والبيرو تنتهي الآن، والناس لا يفكرون إلا بالنجاة من حرب لم تعد حربنا، ويمكن لنا أنا وأنت أن نموت في الانفجار أو تبادل الرصاص التالي، فمن الذي يهمه الآن ما جرى في ذلك اليوم؟ أخبرني بالحقيقة، ساعدني في إنهاء قصتي قبل أن تلتهمك وتلتهمني أيضاً هذه الفوضى القاتلة التي صارت إليها بلادنا. لقد كان عليك أن تقطع خطوط الهاتف وأن تستأجر عدداً من سيارات

التكسي متذرعاً بحفلة شواء في مولينوس. هل تتذكر في أي ساعة كان عليك التواجد في شركة الهاتف؟ لقد كان عليك أن تكون هناك بعد خمس دقائق من فتح المكاتب. وكان على سيارات التكسي أن تنتظر عند تقاطع شارعي ألفونسو أوغارتي ولامار، حيث تستولي عليها جماعة مايتا. ولكنك لم تستأجر سيارات التكسي ولم تذهب إلى شركة الهاتف، والفتى الذي جاء إلى هنا ليسألك عما جرى، أجبته: «لم يجر أي شيء، لقد أخفق كل شيء، أسرع إلى مدرستك وانس أنك تعرفني.» هذا الفتى هو تيليسفورو ساليناس، مدير التربية البدنية في الإقليم الآن يا دون إثكييل.

ـ سلسلة أكاذيب! إشاعات معيبة يطلقها أوبييوث! ـ يزمجر محمراً من الاستياء ـ أنا لم أعرف شيئاً ولم يكن هناك ما يدعوني إلى الاختفاء أو الهرب. هيا انصرف، ابتعد، اختف. يا للمفتري المقرف! يا لمروج الإشاعات البرازي!

وبينما هو في مستودع الأسلحة المظلم، والمسدس الرشاش بين يديه، لم يسمع مايتا أي صوت. ولم يكن يرى شيئاً كذلك، اللهم إلا شعاعي ضوء يمران من حافة الباب. ولكنه لم يجد صعوبة في أن يخمن، وبدقة، بأن بابيخوس كان يدخل في تلك اللحظة إلى مهجع الأربعة عشر حارساً ويوقظهم بصوت راعد: «انتبـــــاه!» «إلى تنظيف البنادق!» لأن ضابط التسليح في هوانكايو أبلغه للتو بأنه سيأتي للتفتيش في وقت مبكر من الصباح. «توخوا الحذر، وكونوا مهووسين بتنظيف البنادق من الخارج ومن الداخل، وحذار من أن تكون إحداها معطلة وتغفلوا عنها.» فالملازم بابيخوس لا يريد تلقي المزيد من توبيخات ضابط التسليح. يجب أن تُنقل البنادق

الصالحة وذخيرة كل حارس جمهوري ـ تسعون طلقة ـ إلى مستودع الأسلحة. «وإلى الاصطفاف في الفناء!» وعندئذ يأتي دوره. ها قد بدأت الآلية تدور، الأجزاء تتحرك، هذه هي الممارسة العملية، هذه هي. أيكون رجال ريكران قد وصلوا؟ كان يراقب من خلال الستائر، منتظراً ظهور أشباح الحراس وهم يحملون بنادقهم وذخائرهم إلى الغرفة المقابلة، واحداً وراء الآخر، وبينهم أنتولين توريس.

إنه حارس جمهوري متقاعد يعيش في شارع مانكو كاباك، في منتصف الطريق ما بين السجن ودكان دون إثكييل. واضطررت إلى الانصراف لكي أتجنب أن يوجه إليّ الحلاق السابق لكمة أو أتسبب له بداء السكتة. وبينما أنا جالس على مقعد في ساحة خاوخا المهيبة ـ والمشوهة الآن بالحواجز والأسلاك عند ناصيتي البلدية والمحافظة ـ أفكر بانتولين توريس. لقد تبادلت الحديث معه هذا الصباح. إنه رجل سعيد منذ أن تعاقد معه «المارينز» ليكون دليلاً ومترجماً لهم (فهو يتكلم القشتالية جيداً مثلما يتكلم الكيتشوا). وقد كان لديه من قبل قطعة أرض زراعية صغيرة، ولكن الحرب دمرتها وكان يموت جوعاً إلى أن جاء الغرينغيون. أما عمله معهم فيتلخص في مرافقة الدوريات التي تخرج لتجوب المناطق المجاورة. إنه يعرف أنه يمكن لهذا العمل أن يكلفه حياته؛ وهناك كثيرون من أهالي خاوخا قد أداروا له ظهرهم وامتلأت واجهة بيته بكتابات تقول: «خائن» و«العدالة الثورية حكمت عليك بالموت». وحسب ما قاله لي أنتولين وحسب ثرثرات دون إثكييل، فإن العلاقات بين «المارينز» وأهالي خاوخا

سيئة أو أسوأ من سيئة. بل إن الناس المعادين للمتمردين يشعرون بالحقد على هؤلاء الأجانب الذين لا يفهمونهم، وخصوصاً أنهم يأكلون ويدخنون ولا يعانون أي حرمان في بلدة يعاني فيها العوز حتى الأغنياء السابقون. إنه ستيني له عنق ثور وكرش ضخم، وهو إياكوتشي من كانغايو أمضى حياته في خاوخا، ويتكلم أنتولين توريس قشتالية عذبة، تتدفق وفق أساليب التعبير بالكيتشوا. «فليقتلوني، إذن، الشيوعيون قالوا لي. ولكنهم سيقتلونني وأنا آكل جيداً وأشرب جيداً وأدخن سجائر فاخرة.» إنه راوٍ يتقن تدرج المؤثرات من خلال التوقفات والهتافات. في ذلك اليوم، قبل خمس وعشرين سنة، كان عليه أن يدخل الخدمة في الساعة الثامنة، بأن يتولى الحراسة على البوابة بعد الحارس هواسكار توليدو. ولكن هواسكار لم يكن في كشك الحراسة وإنما في الداخل، مع الآخرين، يقوم بتشحيم البندقية من أجل زيارة ضابط التسليح. كان الملازم بابيخوس يستعجلهم وكان أنتولين توريس يرتاب من شيء ما.

ـ ولكن، لماذا الريبة يا سيد توريس؟ ما هو الغريب في تفتيش على السلاح؟

ـ الغريب هو أن الملازم كان يتنقل والمسدس الرشاش معلق في كتفه. لماذا كان مسلحاً إذن؟ ولماذا علينا أن نترك البنادق في مستودع الأسلحة؟ هذا غريب جداً يا رقيبي. منذ متى بدأت «موضة» تخلي الخفير عن بندقيته من أجل التفتيش؟ لا تفكر كثيراً يا أنتولين، فهذا غير مناسب للترقية، هكذا قال لي الرقيب. وانصعت.. نظفت بندقيتي الماوزر وتركتها في مستودع

الأسلحة مع رصاصاتي التسعين. وخرجت للاصطفاف فـي الفناء. ولكنني كنت أشم شيئاً غريباً. ليس ما سيحدث. بل شيء من السجناء. كان هناك حوالي خمسين سجيناً فـي الزنازين. محاولة هروب، لست أدري، شيء ما.

«الآن.» ويدفع مايتا الباب. لقد تشنجت ساقاه لكثرة ما بقي جامداً. كان قلبه طبلاً وكان يسيطر عليه إحساس بالإقدام على شيء نهائي لا رجعة عنه، عندما ظهر فـي الباحة بمسدسه الرشاش المغطى بالشحم، أمام الحراس المصطفين، وانتصب بينهم وبين مستودع الأسلحة. وقال ما كان عليه أن يقوله:

ـ آمل ألا يضطرني أحد إلى إطلاق النار، لأني لا أريد قتل أحد.

ووجه بابيخوس مسدسه الرشاش أيضاً إلى مرؤوسيه. وراحت عيون الأربعة عشر حارساً الغمصاء تنوس متنقلة منه إلى الملازم ومن الملازم إليه، دون أن يفهموا: هل نحن مستيقظون أم أننا نحلم؟ هل ما يجري حقيقة أم كابوس؟

ـ وعندئذ تحدث إليكم الملازم، أليس كذلك يا سيد توريس؟ هل تتذكر ما قاله لكم؟

ـ لا أريد توريطكم، أنا سأتحول إلى متمرد، إلى ثوري اشتراكي ـ يقلده انتولين توريس ويومئ بينما حنجرته تصعد وتنزل بجموح فـي عنقه ـ. إذا كان هناك من يريد أن يتبعني بمشيئته، فليأت. إنني أفعل هذا من أجل الفقراء، من أجل الشعب المعذب ولأن القادة قد خذلونا. وأنت أيها الرقيب المحاسب، اشتر من راتبي بيرة لكل العناصر يوم الأحد. وبينما الملازم يلقي خطبته كان العدو الآخر، القادم من ليما، يبقينا محتجزين بمسدسه الرشاش،

مغلقاً أمامنا الطريق إلى بنادقنا. لقد وقعنا مثل حمقى. وقد عاقبتنا القيادة العليا بعد ذلك بأسبوعين تأديبيين.

كان مايتا قد سمعه ولكن دون أن يتابع ما قاله لهم بابيخوس، لأن الإثارة كانت تطغى عليه. «مثل آلة، مثل جندي.» اقتاد الملازم الحراس إلى المهجع وانصاعوا له بوداعة، دون أن يفهموا حقيقة الوضع. ورأى الملازم يضع سلسلة على باب المهجع بعد أن حبسهم فيه. ثم قام بعد ذلك، وبحركات سريعة ودقيقة، والمسدس الرشاش في يده اليسرى، بفتح بوابة حديدية. هل كان هناك سجينا أوتشوبامبا؟ لا بد أنهما رأيا وسمعا ما حدث. أما السجناء الآخرون بالمقابل، الذين هم في زنازين تقع وراء فناء أشجار الكرز، فكانوا بعيدين. ومن موقعه إلى جانب مستودع الأسلحة، رأى ظهور رجلين وراء بابيخوس. أجل، إنهما الرفيقان اللذان لم يكن يعرف حتى الآن سوى اسميهما. من منهما هو كوندوري وأيهما ثينون غونثاليس؟ وقبل أن يعرف ذلك نشب جدال بين بابيخوس وأصغرهما سناً، وهو شاب أبيض ذو شعر طويل. ومع أنه قد قيل لمايتا إن لفلاحي المنطقة الشرقية في العادة بشرة وشعراً فاتحين، إلا أنه تحير: فالمحرضان الهنديان اللذان قادا الاستيلاء على مزرعة آينا يبدوان أشبه بالغرينغيين. وكان أحدهما ينتعل صندلاً.

سمع بابيخوس يقول وهو يقرب وجهه من أحدهما:

ـ هل ستتراجع الآن أيها النذل؟ الآن وقد بدأ الأمر، الآن وقد صرنا في النار، هل تنوي الانسحاب؟

ـ لستُ أنوي الانسحاب ـ تمتم الآخر متراجعاً ـ. المسألة... المسألة...

ـ المسألة هي أنك أصفر يا ثينون ـ صرخ باييخوس ـ. وهذا أسوأ بالنسبة إليك. ارجع إلى زنزانتك. فليحاكموك، وليسجنوك، ولتتعفن في سجن فرونتون. اللعنة، لا أعرف كيف لا أرميك برصاصة.

ـ انتظر، توقف، فلنتكلم دون شجار ـ قال كوندوري متدخلاً بينهما. وكان هو من ينتعل الصندل، وقد ابتهج مايتا وهو يكتشف وجود شخص هناك في مثل سنه ـ. لا تنفعل يا باييخوس. دعني لحظة على انفراد مع ثينون.

خطا الملازم ثلاث خطوات واسعة أوصلته إلى جانب مايتا.

ـ لقد تخنث ـ قال ذلك دون الغضب الذي كان عليه قبل لحظة، ولكن بخيبة أمل فقط ـ. في الليل كان موافقاً. ويأتي الآن ليقول لي إن لديه شكوكاً، وإنه من الأفضل أن يبقى هنا وبعد ذلك سيرى ما يفعله. هذا اسمه خوف، وليس شكوكاً.

ما هي الشكوك التي راودت قائد اتشوبامبا الفلاحي الشاب وجعلته يتسبب بهذا الحادث؟ هل فكر وهم على عتبة التمرد بأن عددهم قليل جداً؟ هل خامره الشك بقدرته هو وكوندوري على اجتذاب بقية أهالي قريته إلى التمرد؟ هل تراه تنبأ بالهزيمة؟ أم أنه تردد ببساطة أمام إمكانية اضطراره إلى أن يَقتل أو يُقتل؟

كان حوار كوندوري وغونثاليس يجري بصوت خافت. وكان مايتا يسمع كلمات متفرقة، ويراهما يومئان بين لحظة وأخرى. وفي إحدى اللحظات أمسك كوندوري رفيقه من ذراعه. لا بد أن له شيئاً من السلطة على هذا الرفيق الذي كان يحتفظ، على الرغم من مجادلته، بسلوك ينم عن الاحترام. وبعد لحظة من ذلك تقدما معاً، وقال كوندوري:

ـ لقد قضي الأمر يا باييخوس. انتهى الأمر. كل شيء على ما يرام. لم يحدث أي شيء.

فمد باييخوس يده إليه:

ـ حسن يا ثينون. اعذرني لأنني انفعلت. ألا توجد أحقاد؟

هز الشاب رأسه موافقاً. وكرر باييخوس وهو يصافحه: «بلا أحقاد وليكن كل شيء في سبيل البيرو يا ثينون.» وكان يبدو على وجه غونثاليس أنه مستسلم أكثر مما هو مقتنع. التفت باييخوس إلى مايتا:

ـ انقلوا الأسلحة إلى سيارات التكسي. سأذهب لأرى السجناء.

ابتعد باتجاه أشجار الكرز وركض مايتا باتجاه المدخل. وتفحص الشارع من خلال كوة الحراسة في البوابة. وبدلاً من أن يرى سيارات التكسي وأوبييوث ومنجميي أوروبا، رأى جماعة من التلاميذ الفتيان، يقودهم كورديرو اسبينوثا، البريغادير.

ـ ماذا تفعلون هنا؟ لماذا لستم في مواقعكم؟ ـ سألهم.

ويقول لي كورديرو اسبينوثا بتثاؤب يخفف من ابتسامته:

ـ لأنه لم يكن هناك أحد في موقعه، لأن الجميع كانوا قد اختفوا. لأننا كنا قد تعبنا من الانتظار. ولم يكن هناك من نخدمه كمراسلين. لقد كان مركز الشرطة من نصيبي. وقد ذهبت إلى هناك مبكراً ولم يحدث أي شيء. وبعد قليل جاء هيرناندو هواساسكيتشي ليقول لي إن الأستاذ أوبييوث ليس موجوداً في بيته ولا في أي مكان. وإن هناك من رآه يقود شاحنته على الطريق العام. وبعد ذلك بقليل علمنا أن جماعة ريكران قد تبخروا، وأن جماعة اوروبا لم يحضروا أو أنهم رجعوا. إنه الذعر العام! اجتمعنا

فـي الـساحة. كـان الحـزن والخـذلان بـاديين علـى وجوهنـا ، وكنـا ننتظر مرور الوقت لنذهب إلى دروسنا. لقد سخروا منا ، لقد جعلونا نلعب لعبة المسلسلات. وفـي أثنـاء ذلك جاء فـيليثيو تابيا. قال لنا إن القادم من ليما قد ذهب إلى السجن بعد أن انتظر جماعة ريكران دون طائل. وهكذا ذهبنا جميعنا إلى السجن لنرى ما الذي يحدث. كان باييخوس ومايتا قد حبسا الحراس، واستوليا على البنادق وأطلقا سراح كوندوري وغونثاليس. هل تتصور وضعاً مضحكاً أكثر من هذا؟

ولم يكـن الـدكتور كـورديرو اسـبينوثا يفتقـر إلى مـبررات. وكيف لا يسميه وضعاً مضحكاً؟ لقد استولوا على السجن، وصار لديهم أربع عشرة بندقية وألف ومئتا طلقة. ولكنهم بقوا دون ثوريين، لأنه لم يأت ولو شخص واحد فقط من الثلاثين أو الأربعين شخصاً المتواطئين. أكان هذا هو ما فكر فيه مايتا حين نظر من الكوة ووجد نفسه وحيداً مع سبعة أطفال بالزي المدرسي فقط؟

ـ ألم يأت أحد؟ ولا واحد منهم؟ لا أحد؟

ـ لقد جئنا نحن ـ قال الصغير ذو الرأس شبه الحليق، في ذهوله. وتـذكر مايتـا مـا قالـه عنـه أوبييـوث حـين قدمـه إليـه: «كورديرو اسبينوثا، البريغادير، والأول في صفه، إنه دماغ» ـ أما الآخرون فيبدو أنهم قد تراجعوا.

أكان الذهول، الغضب، هاجس الكارثة هو الذي أثقل عليه؟ أم أنه اليقين الهادئ بشيء كان يخشاه في أعماقه، دون تحديده تماماً، منذ الفجر، حين لم يصل رجال ريكران، أو ربما منذ أن كان في ليما وقرر رفاقه في ح ع ث (ت) الابتعاد، أو منذ أن

أدرك أن محاولته مع بلاكير لإشراك الحزب الشيوعي في التمرد كانت غير مجدية؟ أكان ينتظر رصاصة الرحمة منذ واحدة من تلك اللحظات دون أن يقول ذلك بوضوح لنفسه؟ ألن تبدأ الثورة يا ترى؟ بلى، ها هي ذي قد بدأت يا مايتا، ألا ترى ذلك، لقد بدأت.

- ولهذا نحن هنا، لهذا جئنا. ألا نستطيع أن نحل نحن محلهم؟

ورأى مايتا أن الفتيان قد تزاحموا حول البريغادير وهم يهزون رؤوسهم موافقين ومؤيدين. وكان الشيء الوحيد الذي تمكن من التفكير فيه هو أنه يمكن لهذه الجماعة من التلاميذ عند بوابة السجن أن تلفت انتباه أحد المارة أو أحد الجيران.

ويتذكر الدكتور كورديرو اسبينوثا:

- لقد خطر لي أن نتقدم كمتطوعين في تلك اللحظة، هناك بالذات، دون أن أكون قد تشاورت في الأمر مع زملائي. لقد خطرت لي الفكرة فجأة، حين رأيت وجه المسكين مايتا بعد أن عرف بأن الآخرين لم يحضروا.

إننا في مكتبه في شارع خونين، وهو شارع تتكاثر فيه مكاتب المحامين. فالمحاماة مازالت هي المهنة المفضلة في خاوخا بالرغم من أن الحرب والكوارث في هذه الأزمنة الأخيرة قد قلصت النشاط القضائي المحلي. فإلى ما قبل زمن قليل، كان واحد أو اثنان من مواليد كل أسرة في خاوخا يأتي إلى الدنيا وهو يحمل ملف محام تحت إبطه. فرفع الدعاوى هو رياضة متعددة الطبقات في المقاطعة، واسعة الشعبية والانتشار مثل كرة القدم والكرنفالات. وبين حشد محامي خاوخا، فإن البريغادير والتلميذ المثالي السابق في مدرسة سان خوسيه ــ حيث كان يلقي دروس الاقتصاد

السياسي مرتين فـي الأسبوع، إلى أن توقفت الدروس بسبب الحرب ـ ما زال هو النجم. إنه رجل واسع الحيلة ومرح. مكتبه يتألق بدبلومات مـن مـؤتمرات حـضرها، وبـشهادات تقـدير أحرزهـا كعـضو فــي المجلس البلـدي، ورئيس لنـادي ليـونيز فــي خاوخـا، ورئـيس لمجلـس مؤيدي شق الطريق العام الشرقي وعدد من المهمات التمدنية الأخـرى. وهـو، بـين جميـع الأشـخاص الـذين تحـدثت معهـم، مـن يـذكـر تلـك الأحـداث بـأكبر قـدر مــن الحيـاد، والدقـة، وخفـة الظـل ومــن الموضوعية كذلك ـ كما يبدو لـي ـ. حُسن ترتيب مكتبه ونظافته يتناقض مع ممر المدخل، حيث توجد حفرة فـي الأرض ونـصف جـدار منهار. وحين دعـاني للدخول قـال لـي وهـو يشير إليهمـا: «لقـد كـانـت مفرقعــة مــن الإرهــابيين. وقــد تركتهــا هكــذا لكــي أتــذكـر الاحتياطات التي علي اتخاذها كل يوم إذا أردت الحفـاظ علـى رأسـي فـي موقعه.» وبروح الاستخفاف نفسها روى لي بعد ذلك أن الإرهـابيين كـانوا أكثر فعالية فـي الاعتداء على بيتـه: فقـد احـترق البيت كلـه بشحنتي الديناميت اللتين استخدمتا. «لقد قتلوا طاهيتي، وهـي عجـوز فـي الستين من عمرها. أما زوجتي وأولادي فكانوا لحسن الحظ قـد غـادروا خاوخـا.» إنهـم يعيشون فــي ليمـا، وعمـا قريـب سيغادرون إلى خارج البلاد. وهذا ما سيفعله هو نفسه أيضاً بعد أن يصفـي أعمالـه. ففــي ظـل هـذه الظـروف، حسب قولـه، مـا معنـى أن يواصـل المـرء المجازفـة بحياتـه؟ ألم يتحـسن الوضـع الأمـني فــي خاوخـا مـع مجـيء «المارينـز»؟ بل ساء أكثر. لأن الحقـد الـذي يبعثـه وجود قـوات أجنبيـة فــي نفـوس النـاس، يـدفع كـثيرين مـنهم إلى مـساعدة الإرهــابيين بالعمـل أو بالتهـاون معهـم ـ بإخفـائهم، والتـستر عليهم، وبالـصمت ـ.

«ويقال إن هناك شيئاً مشابهاً يحدث ما بين رجال حرب العصابات البيرويين والأمميين الكوبيين والبوليفيين. فثمة اشتباكات تقع ما بينهم. الحس القومي أقوى من أي أيديولوجية أخرى، وهذا معروف.»
لا أستطيع إلا أن أشعر بالتعاطف مع البريغادير السابق: إنه يقول كل هذه الأشياء بتلقائية، ودون أدنى قدر من الحساسية المتكلفة أو العجرفة، بل وبشيء من الفكاهة.

ويواصل قائلاً:

ـ ما إن سمعوني أقترح مشاركتهم كمتطوعين حتى تحمسوا كلهم. والحقيقة أننا نحن السبعة كنا مثل ظفر ولحمته. أي لعبة أطفال كانت تلك بالمقارنة مع ما يجري الآن، أليس كذلك؟

ـ أجل، أجل، سنحل محلهم.

ـ افتح لنا الباب، دعنا ندخل، أجل، بإمكاننا أن نحل محلهم.

ـ إننا قادرون يا مايتا، إننا قادرون!

ـ نحن ثوريون وسنحل محلهم.

كان مايتا يراهم، يسمعهم، وكان رأسه فرقعة... فوضى.

ـ كم كانت أعماركم آنذاك؟

فيقول لي كورديرو اسبينوثا:

ـ أنا وهواساسكيشي كنا في السابعة عشرة. وكان الآخرون في الخامسة أو السادسة عشرة. وكان ذلك من حسن حظنا. إذ لم يستطيعوا محاكمتنا، لأننا لم نكن نتحمل مسؤولية قانونية. فأرسلونا إلى قاضي الأحداث، حيث لم يكن الأمر على قدر كبير من الجدية. أليس غريباً أن أكون أنا ـ رائد الكفاح المسلح في البيرو ـ هدفا عسكرياً للإرهابيين الآن؟

وهز كتفيه. فقلت له:

ـ أعتقد أنه لم يعد أمام مايتا وبايخوس حينئذ أي قدرة على التراجع بعد أن وصلت الأمور إلى ذلك الحد.

ـ بل كانت هناك إمكانية للتراجع. فقد كان بمقدور بايخوس أن يُخرج الحراس من المهجع الذي حبسهم فيه وأن يقول لهم مؤنباً: «لقد أثبتم أنكم لا تنفعون في شيء، وأنكم مجرد نساء، في حال تعرض السجن لهجوم من قبل المتمردين. لم يستطع أي منكم أن يجتاز الاختبار الذي أخضعتكم له أيها الخصيان.» ـ وقدم لي الدكتور كورديرو اسبينوثا سيجارة، ووضع سيجارته في مبسم قبل أن يشعلها، وأضاف: ـ وأنا واثق من أن الحراس كانوا سيبتلعون القصة. وكان بإمكانهما أيضاً أن يرسلانا إلى المدرسة وأن يعيدا غونثاليس وكوندوري إلى الزنزانة ويفرا. لقد كان بإمكانهما عمل ذلك. ولكنهما لم يفعلا أياً من الأمرين بالطبع. لأن مايتا وبايخوس على السواء لم يكونا ممن يسمحان بليِّ ذراعهم. وفي هذا المجال، وعلى الرغم من أن أحدهما أربعيني والآخر تجاوز العشرين، فقد كانا أكثر صبيانية منا.

هذا يعني أن مايتا هو الذي وافق أولاً على تلك الفكرة الرومانسية التي لا أساس لها. لقد استمر تردده وحيرته لثوان قليلة فقط. ثم حسم الأمر فجأة. فتح البوابة وقال للفتيان : «بسرعة، بسرعة» وبينما هم يندفعون إلى الفناء، ألقى نظرة على الشارع: «كان خاوياً من السيارات ومن الناس، وكانت البيوت مغلقة. لقد استعاد قواه، وأخذت الدماء تسري في عروقه، لم يكن هناك مبرر لليأس. وبعد دخول آخر الفتيان، أغلق البوابة. إنهم هناك:

سبعة وجوه متلهفة ومنفعلة. وكان كل من كوندوري وغونثاليس يحمل الآن بندقية ماوزر في يده وينظران إلى الصبية مبهوتين. ظهر باييخوس من وراء أشجار الكرز بعد أن انتهى من جولته التفتيشية على السجناء. وتقدم مايتا للقائه.

ــ أوبييوث والآخرون لم يحضروا. ولكن لدينا متطوعين للحلول محلهم.

هل توقف باييخوس متفاجئاً؟ هل لاحظ مايتا أن وجهه ينقلب إلى تكشيرة؟ هل رأى أن الملازم الشاب يجاهد لإبداء الهدوء؟ هل سمعه يقول بصوت خافت، لامس وجهه برفق، «ألم يحضر أوبييوث؟ وكذلك إثكييل؟ وكذلك لوريتو؟»؟

وهزه مايتا من ذراعه:

ـ لا يمكننا التراجع يا رفيق. لقد علمتك ذلك، لقد نبهتك إلى أنه سيحدث: الممارسة العملية تصفي. لم يعد بالإمكان التراجع بعد أن وصل الأمر إلى هذا الحد. ليس باستطاعتنا ذلك. وافق على قبول الفتيان. لقد تصلبوا بمجيئهم إلى هنا. هل سنتراجع يا أخي؟

كان يقتنع بينما هو يتكلم، وكانت تتكرر، كما في مرة ثانية، تعويذة في مواجهة الوعي: «مثل آلة، مثل جندي.» وكان باييخوس يستمع إليه صامتاً، أكان متردداً؟ أكان يحاول التأكد من أن ما يقوله هو ما يفكر فيه؟ ولكن عندما صمت مايتا، كان الملازم قد تحول ثانية إلى حزمة الأعصاب المنضبطة والقرارات الفورية. دنا من الفتيان الذين سمعوا الحوار. وقال لهم وهو يدخل بينهم:

ـ يسعدني أن هذا قد حدث. يسعدني ذلك لأنني بفضله عرفت

أن هناك شجعاناً مثلكم. أهلاً بكم في النضال أيها الشبان. أريد أن أصافحكم فرداً فرداً.

والواقع أنه بدأ بمعانقتهم، بضمهم إلى صدره. ووجد مايتا نفسه في وسط الجماعة يوزع ويتلقى المعانقات، وكان يرى كذلك، بصورة ضبابية، ثينون غونثاليس وكوندوري وسط الجمع. لقد باغته تأثر عميق. كانت هناك عقدة في حلقه. كان عدد من الفتيان يبكون والدموع تسيل على وجوههم المبتهجة بينما هم يعانقون الملازم ومايتا، وغونثاليس وكوندوري، أو يعانقون بعضهم بعضاً. صرخ أحدهم: «تحيا الثورة»، وصرخ آخر: «تحيا الاشتراكية». وطلب منهم باييخوس أن يصمتوا.

- ربما لم أشعر بالسعادة مثلما شعرت بها في تلك اللحظة - يقول لي الدكتور كورديرو إسبينوثا - لقد كان موقفاً بديعاً.. كل تلك السذاجة.. كل تلك المثالية. لقد شعرنا وكأن شعر شواربنا ولحانا قد نما، وكما لو أننا قد صرنا أطول قامة وأكثر قوة. هل تعلم أنه من المحتمل أن أياً منا لم يكن قد دخل الماخور؟ فأنا على الأقل كنت ما أزال بكراً. وبدا لي كما لو أنني أفقد عذريتي.

- وهل كان أي واحد منكم يتعرف كيف يستخدم السلاح؟

- في التدريب العسكري المدرسي أعطونا بعض دروس الرماية. وربما كان هناك من أطلق النار من بندقية صيد. ولكننا عالجنا مسألة هذا القصور هناك بالذات. فأول شيء خطر لباييخوس بعد المعانقات هو تعليمنا ما هي بندقية الماوزر.

بينما كان الملازم يقدم للفتيان درساً حول استخدام البندقية،

أوضح مايتا ما جرى لكل من كوندوري وثينون غونثاليس. لم يحتجا حين علما أنه، كما يبدو، لا وجود لأي شخص آخر سينضم إليهم؛ ولم يظهرا السخط حين علما أنهم قد يكونون الثوريين الوحيدين مع هذه الجماعة من الصبية المُرْد. استمعا إليه بوقار، دون توجيه أي سؤال. أمر باييخوس اثنين من الفتيان بإحضار سيارتي تكسي. فانطلق فيليثيو تابيا وهواساسكيتشي راكضين. عندئذ جمع باييخوس مايتا والفلاحَيّن. لقد عدّل خطة العمل. سينقسمون إلى مجموعتين، وسيستولون على المفوضية ومركز الحرس الأهلي. كان مايتا يستمع، ويتابع بطرف عينه ردود فعل الفلاحَيّن. هل سيقول غونثاليس: «أترى كيف أنني كنت على حق حين ترددتُ»؟ لا، لم يقل شيئاً؛ لقد كان يستمع إلى الملازم، والبندقية في يده، باستغراق لا يمكن سبر أغواره.

وصرخ بيريكو تيموتشي من البوابة:

ـ ها قد وصلت سيارتا التكسي!

ـ لم أكن سائق تكسي حقيقياً على الإطلاق ـ يؤكد لي ذلك السيد أوناكا وهو يعرض علي بإيماءات محزنة رفوف دكانه الخاوية التي تكون في العادة مترعة بالمواد الغذائية والأدوات المنزلية، ويضيف ـ لقد كنت على الدوام صاحب هذا المتجر والبائع فيه. وكان يضم أفضل تشكيلة من البضائع في خاوخا كلها، حتى وإن كنت لا تصدق ذلك.

المرارة تلوي وجهه الأصفر. لقد كان السيد أوناكا ضحية مفضلة للمتمردين الذين داهموا محله مرات عديدة، ويحدد لي: «ثمان مرات. والمرة الأخيرة كانت قبل ثلاثة أسابيع، بعد أن كان

"المارينــز" قـد جـاؤوا إلى هنـا. أي أن الأمـور بقيـت هـي نفسـها سـواء بوجـود الغرينغـو أو عـدم وجـودهم. حـضـر المتمـردون إلى المتجـر فــي الساعة السادسة، وكانوا مقنعين. أغلقوا الباب وقالوا: أين تخبئ المؤن أيها الكلب؟ أتقولون أخبئ؟ ابحثوا وخذوا ما تجدونه. لقد صــرت عاريــاً بـسـببكم. لم يجـدوا شـيئاً بـالطبع. ألا تريـدون أن تأخذوا امرأتي؟ إنها الشيء الوحيد الذي تبقى لي. لم أعد أخافهم، أترى؟ فـي المرة الأخيرة قلت لهم: لماذا لا تقتلونني؟ استمتعوا بـذلك، أجهزوا على هذا الرجل الذي سممتم حياته. فقال لي واحد منهم: نحن لا نهدر البارود على طيور الرخمة العفنة. وكل ذلك جرى فــي الـساعة الـسادسة مـساء، بوجـود شـرطة وجنـود، و"مارينــز" فــي شـوارع خاوخـا. ألـيس هـذا دلـيلاً علـى أنهـم جمـيعهم مـن طغمـة اللصوص نفسها؟» يزفر، يأخذ نفساً ويلقي نظرة إلى زوجته التي تنحني على طاولة الكونتوار محاولة أن تقرأ الصحيفة، ملصقة عينيها بالصفحات. كلاهما عجوز هرم جداً.

ويواصل السيد أوناكا قائلاً:

ـ بمـا أنهـا كانـت قـادرة وحـدها فــي ذلـك الحـين علـى تـسيير شـؤون المتجـر، فقـد كنـت أقـوم بتلبيـة بعـض الطلبـات باسـتخدام سيارتي الفورد كتكسي. وكان هذا هو سوء الطالع الذي ورطني فــي مسألة باييخوس. وهكذا أتلفتُ السيارة وكان عليّ أن أنفق ثـروة فــي إصـلاحها. ونلـت مـن أجـل ذلـك ضـربة علـى رأسـي شـقت حـاجبي هـذا وسُجنت ريثمـا قـاموا بالتحقيقـات واكتشفوا أنـني لم أكن متواطئاً وإنما ضحية.

إننـا فــي ركـن مـن متجـره المفلس، نقـف علـى أقـدامنا، كـل

واحد منا على أحد جانبي الكونتوار. وفي الطرف الآخر، ترفع السيدة أوناكا نظرها عن جريدتها كلما دخل زبون ليشتري شمعاً أو سجائر، وهما الشيئان الوحيدان المتوفران بكثرة كما يبدو في الدكان. الزوجان أوناكا من أصل ياباني ـ إنهما حفيد وحفيدة مهاجرين ـ ولكن الناس في خاوخا يدعونهما «الصينيين»، وهو خطأ لا يوليه السيد أوناكا أي اهتمام. كما أنه على عكس الدكتور كورديرو إسبينوثا، لا يأخذ مصائبه على محمل الهزل والفلسفة. يلاحظ عليه أنه قانط، وحاقد على الدنيا. وهو وكورديرو إسبينوثا الشخصان الوحيدان بين العشرات ممن تحدثت إليهم في خاوخا، اللذان يتكلمان على المكشوف عن «الإرهابيين». أما الآخرون، بمن فيهم أولئك الذين كانوا ضحايا اعتداءات، فإنهم يحتفظون بصمت مطبق حول الثوريين.

ـ كنت قد فتحت المتجر للتو عندما ظهر لي ابن آل تابيا، الذين يسكنون في شارع بيياريال. لدينا مشوار مستعجل يا سيد أوناكا. يجب نقل سيدة مريضة إلى المستشفى. أدرت محرك السيارة، وجلس أبن آل تابيا الصغير إلى جانبي، وكان ذلك المسرحي الصغير يقول: «أسرع، وإلا فإن السيدة ستموت». وكانت هناك أمام السجن سيارة تكسي أخرى، محملة ببعض البنادق. توقفت وراءها. وسألتُ الملازم باييخوس: من هي المغمى عليها؟ فلم يرد عليّ. وفي أثناء ذلك، تقدم الآخر، الذي من ليما، أسمه مايتا، أليس كذلك؟ ووجه مسدسه الرشاش إلى صدري: أطع ما تؤمر به إذا كنت لا تريد أن يحدث لك شيء. أحسستُ بأن البراز يخرج مني، واعذرني لهذا التعبير. لقد شعرت عندئذ بالخوف حقاً. كم

كنت غبياً. لقد كان لدي آنذاك الكثير من المال. وكان بإمكاني أن أذهب مع زوجتي. لو فعلت ذلك لكنا نمضي الآن شيخوخة هادئة.

صعد كوندوري، ومايتا، وفيليثيو تابيا، وكورديرو اسبينوثا وتيوفيلو بويرتاس إلى السيارة بعد أن حمّلوا نصف الذخائر والأسلحة. وأصدر مايتا الأمر إلى أوناكا بالانطلاق: «لدى أدنى محاولة منك للفت الأنظار سأطلق عليك النار». كان يجلس في المقعد الخلفي، وكان فمه جافاً تماماً. ولكن يديه كانتا تتعرقان. وإلى جانبه كان البريغادير وبويرتاس يجلسان محشورين فوق البنادق. بينما جلس في المقدمة فيليثيو تابيا مع كوندوري.

ـ لست أدري كيف لم أصطدم، وكيف لم أدهس أحداً ـ يهمس فم السيد أوناكا الذي بلا أسنان ـ. ظننت أنهم لصوص، قتلة، هاربون من السجن. ولكن كيف يمكن أن يكون الملازم معهم؟ وما الذي يفعله مع القتلة ابن آل تابيا وابن ذلك السيد المتأنق، الدكتور كورديرو؟ قالوا لي إنها الثورة ولست أدري أية أشياء. ما هو هذا؟ كيف يؤكل هذا؟ أمروني بأن آخذهم إلى مركز الحرس الأهلي، في شارع مانكو كاباك. وهناك نزل الذي من ليما وكوندوري والصغير تابيا. وتركوا الاثنين الآخرين لحراستي، وقال لهما مايتا: إذا ما حاول الفرار، اقتلاه. وفيما بعد أقسم الصبيان إن ذلك كله كان تمثيلاً، وإنهما ما كانا سيطلقان النار علي أبداً. ولكننا صرنا نعرف أن الأطفال يمارسون القتل الآن بالفؤوس وبالأحجار وبالسكاكين، أليس كذلك؟ وباختصار، نحن الآن نعرف أشياء كثيرة لم يكن يعرفها أحد في

ذلك الحين. اهدؤوا يا شباب، انتبهوا كي لا ينطلق الرصاص، أنتم تعرفونني، فأنا لا أستطيع قتل ذبابة، وقد بعتكم بالدَيْن مرات كثيرة. لماذا تفعلون بي هذا؟ ثم ما الذي سيحدث هناك في الداخل؟ ما الذي سيفعله هؤلاء في المركز؟ إنها الثورة الاشتراكية يا سيد أوناكا، ذلك ما قاله لي كورديرو الصغير، هذا الذي أحرقوا بيته ولولا قليل لكانوا نسفوا مكتب المحاماة الذي يخصه. الثورة الاشتراكية! ماذا؟ أي شيء هو هذا؟ أظن أنها كانت المرة الأولى التي أسمع فيها هذه الكلمة. وهناك علمتُ بأن أربعة بالغين وسبعة صبيان قد استولوا على سيارتي الفورد المسكينة من أجل القيام بالثورة الاشتراكية. آي، يا للعنة!

لم يكن هناك حراس عند بوابة المركز، وقد أومأ مايتا إلى كوندوري وفيليثيو تابيا: سيدخل هو أولاً، وعليهما أن يغطيا تحركه. بدا كوندوري هادئاً، أما تابيا فكان شاحباً جداً، ولاحظ مايتا أن يديه صارتا داكنتين بالزرقة بسبب القوة التي يشد بها على البندقية. دخل إلى الغرفة منحنياً وقد نزع مسمار أمان المسدس الرشاش، وصرخ:

ـ ارفعوا أيديكم وإلا سأطلق النار!

كان في الغرفة شبه المظلمة رجل يرتدي سروالاً وقميصاً داخليين، وقد فوجئ بظهور مايتا وهو يتثاءب، فتجمد تثاؤبه في تعبير أبله. بقي ينظر إليه، ولم يرفع يديه إلا عندما رأى، وراء مايتا، ظهور كوندوري وفيليثيو تابيا وهما يوجهان بندقيتيهما نحوه.

ـ احرساه ـ قال مايتا ذلك وركض إلى الداخل. اجتاز ممراً

ضيقاً يؤدي إلى فناء ترابي: كان هناك شرطيان يرتديان بنطالَ وجزمة الخدمة ولكن دون القميص، وكانا يغسلان وجهيهما وأذرعهما من صفيحة ماء يخالطه الصابون. ابتسم له أحدهما وكأنه يرى فيه أحد زملائهما.

ـ ارفعا أيديكما وإلا سأطلق النار! ـ قال مايتا دون أن يصرخ هذه المرة ـ ارفعا أيديكما، اللعنة!

انصاع الاثنان، وقلب أحدهما صفيحة الماء على الأرض بحركته المفاجئة، فحول الماء المنسكب التراب قاتماً. وسُمع احتجاج صوت حالم: «يا للصخب الشديد، اللعنة». كم شخصاً هناك في الداخل؟ وكان كوندوري إلى جانب مايتا الذي همس له: «خذ هؤلاء»، ودون أن يرفع بصره عن الغرفة التي خرج منها صوت الاحتجاج. اجتاز الفناء الضيق راكضاً ومنحنياً، ومرّ تحت عريشة نبات متسلق، وعند عتبة الحجرة كبح مايتا عبارة «ارفعوا أيديكم!» التي كان سيطلقها. لقد كانت الغرفة مهجع الحراس. وكان هناك صفان من الأسرة الضيقة الملتصقة بالجدار، وفي ثلاثة منها رجال مستلقون، اثنان نائمان والثالث يدخن وهو مستلق على ظهره. وكانت تصدر من مذياع إلى جانبه ألحان هواينيتو. حين رأى الرجلُ مايتا ارتعب وقفز ناهضاً وهو يحدق بالمسدس الرشاش.

ـ ظننت الأمر مزاحاً ـ تلعثم بذلك وهو يفلت السيجارة ويرفع يديه فوق رأسه.

فقال له مايتا وهو يشير إلى الآخرين النائمين:

ـ أيقظ هذين. ولا تضطرني إلى إطلاق النار لأنني لا أريد أن أقتلك.

ودون أن يدير الشرطي ظهره أو يرفع عينيه عن السلاح، بدأ يتحرك مجانبة، مثل سرطان، إلى حيث ينام رفيقاه. وهزهما بيده:

ـ استيقظا، استيقظا، لستُ أدري ما الذي يحدث.

ويقول لي السيد أوناكا:

ـ كنت أتوقع حدوث إطلاق نار، وصخب عظيم. ورؤية مايتا وكوندوري وابن آل تابيا ينزفون دماً، وأن تطلق فصيلة الشرطة النار عليّ معتقدين أنني مع المهاجمين. ولكن لم تُطلق رصاصة واحدة. وقبل أن نعرف ما الذي يحدث في الداخل، جاء التكسي الذي فيه بابيخوس. وكان قد سيطر على مفوضية الشرطة في شارع بوليفار وحبس الملازم الأول دونغو وثلاثة شرطيين في الزنزانة. سألَ الصبيين: هل كل شيء على ما يرام. لا ندري. فتوسلت إليه: دعني أذهب أيها الملازم، فزوجتي مريضة جداً. لا تخف يا سيد أوناكا، إننا بحاجة إليك لأنه لا يوجد بيننا من يحسن قيادة السيارة. وانظر إلى حجم الحماقة: يريدون أن يصنعوا الثورة وهم لا يعرفون حتى كيفية قيادة سيارة.

عندما دخل بابيخوس وثينون غونثاليس إلى المركز، كان مايتا وكوندوري وتابيا قد انتهوا من حبس الحراس في المهجع مقيدين إلى الأسرة. وكانت البنادق والمسدسات مكومة عند المدخل.

قال مايتا براحة حين رآهم يصلون:

ـ لم تقع أية مشكلة. وماذا عن المفوضية؟

ـ لا مشاكل ـ أجابه بابيخوس ـ. حسن جداً، أهنئكم. لقد صار لدينا عشر بنادق أخرى.

قال مايتا:

- سنفتقر إلى أيد لحمل كل هذه البنادق.

ورد الملازم بينما هو يتفحص البنادق الجديدة:

ـ لن نفتقر إلى أفراد. سيكون لدينا فائض منهم في أوتشوبامبا، أليس كذلك يا كوندوري؟

إنه لأمر لا يُصدق أن يجري كل شيء بهذه السهولة يا مايتا.

ويتنهد السيد أوناكا:

- حمّلوا كومة أخرى من البنادق في سيارتي الفورد. وأمروني بالتوجه إلى مكتب الهاتف وبأن أبقى هناك ولا أغادر.

وتروي لي السيدة أدريانا تييو، وهي عجوز مجعدة وضئيلة، ذات صوت متماسك ويدين معقدتين:

- حين وصلت إلى عملي في ذلك اليوم كانت هناك سيارتان وقد تعرفت في إحداهما على الصيني صاحب المتجر، ذاك الذي يدعى أوناكا، سائق السيارة. وكانت تبدو على وجهه أمارات ظننتُ معها أنه قد استيقظ بقدمه اليسرى أولاً أو أنه صيني مصاب بالعصاب. وما إن رأوني قادمة حتى نزل بعض الأشخاص ودخلوا معي إلى المكتب. ولماذا سيلفت ذلك انتباهي؟ فحتى السرقات لم تكن تحدث في تلك الأزمنة في خاوخا، فما بالك بالثورات، ولماذا سأنتبه إلى ذلك؟ انتظروا، فالوقت لم يحن بعد. ولكن، وكما لو أنهم سمعوا هطول مطر، قفزوا على حاجز الكونتوار وقلب أحدهم طاولة أسونتيتا آسيس، فلترقد روحها بسلام. ما هذا الذي يحدث؟ ماذا تفعلون؟ ماذا تريدون؟ نريد تعطيل التلغراف والهاتف. انقلعوا خارجاً، ستبقونني بلا عمل. هاها، أقسم لك إن

هذا هو ما فكرت فيه. لا أدري كيف ما زالت لدي روح الدعابة بالرغم من هذه الأحداث التي تقع الآن. هل رأيت قلة حياء هؤلاء الغرينغو الذين يقولون إنهم جاؤوا لمساعدتنا؟ إنهم لا يعرفون حتى التكلم بلغة المسيحية، وهم يتجولون ببنادقهم ويدخلون إلى البيوت، يا للعنجهية! كما لو أننا مستعمرتهم. لم يعد هناك وطنيون في بلادنا البيرو ما دمنا نتحمل هذا الإذلال.

حين رأتْ مايتا وباييخوس يدخلان حجرة عاملة مقسم الهاتف ويبدأان بتخريب لوحة المفاتيح بعقبي بندقيتيهما الرشاشتين وانتزاع كابلات الخطوط، حاولت السيدة أدريانا تييو الخروج إلى الشارع. ولكن كوندوري وثينون غونثاليس أمسكا بها ريثما ينهي الملازم ومايتا التكسير.

- الآن يمكننا الاطمئنان - قال باييخوس -. فبعد حبس حراس الشرطة وقطع الهاتف لم يعد هناك خطر مباشر. لم يعد من الضروري الانفصال عن بعضنا البعض.

وفكر مايتا بصوت عالٍ:

- أيكون الآخرون قد ذهبوا إلى كيرو على الخيول؟

هز باييخوس كتفيه: بمن يمكن للمرء أن يثق الآن.

ـــ بالفلاحين ـــ دمدم مايتا مشيراً إلى كوندوري وثينون غونثاليس اللذين كانا قد أفلتا المرأة بناء على إيماءة من الملازم، فخرجت إلى الشارع. وأضاف مايتا:ـ إذا ما وصلنا إلى أوتشوبامبا، فأنا واثق من أن الفلاحين لن يخذلونا.

- سنصل طبعاً - ابتسم باييخوس -. ولن يخذلونا بالطبع.

توجهوا إلى الساحة يا رفاق، أصدر باييخوس الأمر إلى

غوالبيرتو برابو وبيريكو تيموتشي بأن يأخذا سيارتي التكسي إلى ناصية التقاء ساحة السلاح وشارع بولوغنيسي. فهناك ستكون نقطة الاجتماع. ثم وقف على رأس المتبقين وأصدر أمراً كان له وقع في جسد مايتا: «أمام سرّ!». لا بد أن أولئك البالغين الأربعة والتلاميذ الخمسة المسلحين الذين يسيرون في مشية عسكرية على الشوارع المرصوفة بالأحجار متوجهين إلى ساحة السلاح كانوا يشكلون جماعة غريبة، لا يمكن وصفها، لا يمكن حدس هدفها، تثير البلبلة. لقد كانوا يلفتون الأنظار، يجعلون الناس يتوقفون في الشوارع، ويخرجون إلى النوافذ والأبواب. ما الذي فكر فيه أهالي خاوخا الذين رأوهم يمرون؟

ـ كنت أحلق ذقني، لأني في ذلك الحين كنت أستيقظ متأخراً ـ يقول لي دون خواكين ثاموديو، صانع القبعات السابق، والتاجر السابق الذي تحول الآن إلى بائع يانصيب على أبواب خاوخا، ويضيف ـ رأيتهم من غرفتي وفكرت في أنهم يتدربون من أجل الاحتفالات بالعيد الوطني. منذ الآن؟ أخرجت رأسي من النافذة وسألت: ما هذا الاستعراض؟ وبدلاً من أن يرد الملازم على سؤالي، صرخ قائلاً: «تحيا الثورة». ورد عليه الجميع كجوقة: «تحيا، تحيا». أي ثورة هذه؟ سألتهم ذلك وأنا أظن بأن هناك لعبة نلعبها. فرد علي كورديرو الصغير: «إنها الثورة التي نصنعها.. الثورة الاشتراكية». وبعد ذلك عرفت أنهم في تلك الحال التي رأيتهم بها، بمشيتهم وهتافاتهم، كانوا ذاهبين للسطو على مصرفين.

وصلوا إلى ساحة السلاح، ورأى مايتا أن المارة قليلون. وأنهم يلتفتون للنظر إليهم دون مبالاة. وكانت هناك جماعة من الهنود

بعباءات بونتشو وحزم يجلسون على أحد المقاعد، فهزوا رؤوسهم وهم يتابعونهم. لم يكن هناك بعد ما يكفي من الناس للقيام بمظاهرة. وكان من المضحك المشي بخطوات منتظمة، ليس كثوريين وإنما كصبية الكشافة. ولكن بابيخوس كان قد قدم المثل، وحذا حذوه الفتيان وكوندوري وغونثاليس، بحيث لم يعد ثمة مفر من مجاراة إيقاع خطواتهم. كان يشعر بإحساس غامض، مزيد من الحماس والجزع، فعلى الرغم من أن رجال الشرطة محبوسون، ومن أن الأسلحة صارت بحوزتهم، وخطوط الهاتف والتلغراف مقطوعة، أليس من الممكن النيل بسهولة من جماعتهم الصغيرة؟ هل يمكن البدء بثورة هكذا؟ ضغط أسنانه. أجل. هذا ممكن. يجب أن يكون ممكناً.

ويقول لي دون إرنستو دوران هواركايا، المدير السابق للمصرف الدولي، الذي يستلقي الآن في سريره في مصح أولافيغويا، شاحباً من داء السرطان الذي ينخر جسمه كله:

ـ دخلوا من الباب الرئيسي، وهم يغنون تقريباً. رأيتهم من النافذة وفكرت بأنهم غير قادرين حتى على ضبط إيقاع خطواتهم، لقد كانت مشيتهم العسكرية سيئة. وبما أنهم كانوا يتوجهون مباشرة إلى المصرف، فقد قلت لنفسي ها قد جاء متطفل آخر بحجة الاحتفال الخيري، أو الاستعراض أو التمثيل. خرجت بدافع الفضول ولكنهم ما إن دخلوا حتى وجهوا إلينا الأسلحة وصرخ بابيخوس: «لقد جئنا لنأخذ الأموال التي هي ملك الشعب وليست ملكاً للإمبرياليين». آه، هذا أمر لا أتحمله. آه، وقد وقفت في وجههم.

ـ بل زحف على أربع تحت طاولته ـ تقول لي أديليتا كامبوس، موظفة المصرف المتقاعدة التي تبيع الآن أشربة أعشاب مغلية ــ. لقد كان فحلاً جداً حين يصرخ علينا مؤنباً بسبب تأخر بسيط، أو حين يمد يده عندما تمر إحدانا بجانبه. أما عندما رأى البنادق، زاس، انحنى على أربع واختبأ تحت طاولته، دون أي خجل. هل كان المدير يفعل ذلك، هل كان يلمسنا نحن الموظفين؟ كنا خائفين بالطبع. وكان خوفنا من الصغار أكثر من خوفنا من الكبار. لأنهم كانوا يصرخون مثل خنازير: «تحيا البيرو»، «تحيا الثورة» ولشدة حماسهم كان يمكن أن تفلت منهم رصاصة. أما من خطرت له الفكرة العظيمة فكان أمين الصندوق، العجوز روخاس. ما الذي حلّ به. أظنه قد مات، أو أنه قُتل بكلمة أصح، لأن الناس في هذه الحياة التي تجري في خاوخا، لم يعودوا يموتون، وإنما يقتلونهم. ولا أحد يعرف من هم القتلة مطلقاً.

ويقول العجوز روخاس، أمين الصندوق السابق في المصرف الدولي، وهو في جحر احتضاره في ملجأ العجزة في خاوخا:

ـ عندما رأيتهم يقتربون من كوتي، فتحت الصندوق الذي إلى اليسار. وكنت أضع فيه إيداعات ذلك الصباح، ومبلغاً بسيطاً من أجل ردّ الفراطة.. مبلغ تافه. رفعت ذراعي وتضرعت بيني وبين نفسي: «فليبتلعوا الطعم أيتها العذراء المقدسة.» وقد ابتلعوه. فقد توجهوا مباشرة إلى الصندوق المفتوح وأخرجوا ما كان فيه: أكثر قليلاً من خمسين ألف سول. إنه الآن مبلغ تافه جداً، ولكنه كان لا بأس به في ذلك الحين، وهو مع ذلك مجرد فتات بالمقارنة مع ما كان موجوداً في الصندوق الذي إلى اليمين: ما يقارب مليون سول

لم تكن قد أُدخلت بعد إلى الخزنة الرئيسية. لقد كانوا مبتدئين، وليس مثل من بدؤوا يأتون فيما بعد. هس، هس، لا تكرر ما قلته لك يا سيدي.

ـ أهذا هو كل شيء؟

ـ أجل، أجل، هذا هو كل شيء ـ ارتجف أمين الصندوق ـ. الوقت لا يزال مبكراً، وليست هناك حركة تعامل بعد.

فقاطعه مايتا:

ـ هذا المال ليس لنا وإنما هو للثورة. ـ ثم توجه إلى وجوه الموظفين غير المصدقة: ـ إنه من أجل الشعب، من أجل من بذلوا عرقهم مقابل هذا المال. هذه ليست عملية سطو، وإنما هي مصادرة. ليس هناك ما يدعوكم أنتم إلى الخوف. فأعداء الشعب هم أصحاب المصارف والأوليغارشية والإمبرياليون. وأنتم أيضاً مستَغَلون من قبلهم.

فارتجف أمين الصندوق:

ـ أجل، بالطبع. هذا الذي تقوله صحيح يا سيدي.

لدى الخروج إلى الساحة، واصل الفتيان إطلاق الهتافات. ودنا مايتا الذي كان يحمل كيس النقود من باييخوس: فلنذهب أولاً إلى مصرف الريخيونال، إذ ليس هناك ما يكفي من الناس بعد من أجل إقامة مهرجان دعائي. وكان يرى مارة قليلين ينظرون إليهم بفضول، دون أن يقتربوا منهم.

فوافق باييخوس:

ـ ولكن علينا الذهاب بالخطوة السريعة، قبل أن يغلقوا الباب في وجهنا.

انطلق يعدو وتبعه الجميع مصطفين بالترتيب نفسه الذي جاؤوا به. وبعد ثوان قليلة، عطل الجري قدرة مايتا على التفكير. لقد عاوده الاختناق والضغط في الصدغين والغثيان، بالرغم من أنهم لم يكونوا يركضون مسرعين، وإنما ما يشبه التحمية قبل المباراة. وعندما توقفوا بعد كوادرتين أمام مصرف ريخيونال كان يشعر بأن هناك نجوماً تطفو حول رأسه، وكان فمه مفتوحاً على مصراعيه. لا يمكنك أن تصاب بالإغماء الآن يا مايتا. دخل مع الجماعة، ومثلما في حلم، رأى وهو يستند إلى الكونتوار وجه المرأة التي مقابله، وسمع بايبخوس يوضح: «هذه عملية ثورية، لقد جئنا لنسترد الأموال المسروقة من الشعب» وسمع أن هناك من يحتج. ودفع الملازم رجلاً وصفعه. يجب عليه أن يساعد، أن يتحرك، ولكنه لم يفعل ذلك لأنه كان يعرف بأنه سيسقط أرضاً إذا ما أفلت ذلك المسند. كان يسند مرفقيه إلى الكونتوار ويوجه مسدسه الرشاش إلى جماعة الموظفين ـ كان بعضهم يصرخون ويبدو على بعضهم أنهم يوشكون على التحرك للدفاع عن ذاك الذي احتج ـ رأى كوندوري وثينون غونثاليس يثبتان ذراعي رجل طاولة المكتب الكبيرة الذي كان بايبخوس قد ضربه. وكان الملازم يقرّب مسدسه الرشاش منه بحركة متوعدة. وأخيراً وافق الرجل على فتح صندوق الخزنة الذي كان بجوار طاولته. وعندما انتهى كوندوري من نقل الأموال إلى الحقيبة، بدأ مايتا يتنفس بصورة أفضل. كان عليك أن تأتي قبل أسبوع، لكي يعتاد جسدك شيئاً فشيئاً على المرتفعات، إنك لا تُحسن عمل الأشياء.

وسأله بايبخوس لدى خروجهم:

ـ هل تشعر بالمرض؟

ـ قليل من دوار المرتفعات، بسبب الركض. فلنُقم المهرجان الدعائي بمن هم موجودون. يجب علينا إقامته.

ـ تحيا الثورة ـ صرخ أحد الفتيان بحماسة.

وزمجر الآخرون:

ـ تحيا!

وسدد أحدهم بندقيته نحو السماء ودوى صوت طلقة. إنها الرصاصة الأولى في هذا اليوم. فحذا الأربعة الآخرون حذوه. ثم داهموا الساحة وهم يهتفون بحياة الثورة، ويطلقون الرصاص نحو السماء ويصرخون بالناس أن يقتربوا.

ـ الجميع قالوا لك إنه لم يكن هناك اجتماع دعائي، لأن أحداً منهم لم يشأ الاستماع إليه. لقد استدعوا الناس الذين كانوا يسيرون في الميدان، وفي محيطه، وعند البوابات، ولم يستجب إليهم أحد ـ يقول لي ذلك انتيرو هوييمو، المصور الجوال السابق الذي هو الآن أعمى يبيع أدعية وصور قديسين ومسابح منذ الثامنة صباحاً حتى الثامنة ليلاً عند بوابة الكاتدرائية. ويضيف قائلاً: ـ بل إنهم كانوا يتوسلون إلى سائقي الشاحنات العابرة «توقفوا»، «انزلوا»، «تعالوا». فكان هؤلاء يزيدون من سرعتهم مرتابين. ولكن المهرجان الدعائي أُقيم. وكنتُ هناك، رأيته وسمعته. وكان ذلك الزمن سابقاً للقنبلة المسيلة للدموع التي شاءت إرادة الرب أن تحرق وجهي. لو أنه جرى الآن لما كان بإمكاني رؤيته، أما في ذلك الحين فقد رأيته. والحقيقة أنه كان مهرجاناً لي وحدي.

أهو المؤشر الأول إلى أن الحسابات لم تكن خاطئة فيما يتعلق

بالمشاركين فـي المؤامرة وحسب، وإنما كذلك بشأن أهالي خاوخا أيضاً؟ لقد كانت وظيفة الاجتماع الدعائي واضحة تماماً فـي رأسه: إطلاع رجل الشارع على أحداث الصباح، وتوضيح مغزاها التاريخي والاجتماعي للنضال الطبقي، وإظهار العزيمة التي انتفضوا بها، وربما قاموا كذلك بتوزيع جزء من المال على الفقراء. ولكن لم يكن هناك أحد أمام عريشة الساحة التي تسلقها مايتا سوى المصور الجوال، وجماعة الهنود الصغيرة المتحجرة على أحد المقاعد متجنبة النظر إليهم، والفتيان الخمسة. ودون طائل كانوا يستدعون بأيديهم وصرخاتهم جماعات الفضوليين الواقفين عند ناصية الكاتدرائية ومدرسة الكارمن. والذين كانوا يركضون هاربين إذا ما حاول الفتيان التوجه نحوهم. أتكون العيارات النارية قد أخافتهم؟ أيكون الخبر قد شاع وصاروا يخافون أن يجدوا أنفسهم متورطين، أو يخشون أن تظهر الشرطة في أي لحظة؟ وهل هناك أي معنى لمواصلة الانتظار؟ ووضع مايتا يديه حول فمه وصاح:

ـ لقد انتفضنا ضد النظام البرجوازي لكي يحطم الشعب أغلاله! من أجل وضع حد لاستغلال الجماهير! من أجل توزيع الأرض على من يشتغلون فيها! من أجل وضع حد للنهب الإمبريالي لبلادنا!

فقال له باييخوس وهو يقفز عن سور العريشة:

ـ لا حاجة لأن تمزق حنجرتك. إنهم بعيدون ولن يسمعوك. إننا نضيع الوقت.

انصاع مايتا، ومشى إلى جانبه باتجاه ناصية بولوغنيسي، حيث تنتظر سيارتا التكسي تحت حراسة غوالبيرتو برابو وبيريكو

تيموتشي. حسن، لم يكن هناك اجتماع دعائي، ولكنه تخلص على الأقل من دوار المرتفعات. هل سيتمكنون من الوصول إلى كيرو؟ وهل سيكون هناك من سينتظرونهم ومعهم الخيول والبغال؟ وسمع باييخوس يقول له، كما لو أن هناك تخاطراً بين الاثنين:

ـ إذا لم نجد رجال ريكران في كيرو فلن تكون ثمة مشكلة أيضاً. فهناك يوجد الكثير من البهائم. إنها قرية لتربية المواشي.

ـ سنشتري الخيول والبغال إذن ـ قال مايتا ذلك وهو يلمس الكيس الذي يحمله في يده اليمنى. ثم التفت إلى كوندوري الذي كان يمشي وراءه:ـ كيف هي الطريق إلى أوتشوبامبا؟

فرد كوندوري:

ـ عندما لا يكون هناك مطر، يكون الطريق سهلاً. لقد سلكته ألف مرة. إنه صعب في الليل فقط، بسبب البرد. ولكن ما إن تصل الغابة حتى يصبح مثل الخبز الجاهز للأكل.

غوالبيرتو برابو وبيريكو تيموتشي اللذان كانا يجلسان إلى جانب سائقي التكسي، نزلا لاستقبالهم. كانا يشعران بالحسد لأنهما لم يرافقاهم في مداهمة المصرفين، وقالا: «أخبرونا، أخبرونا». ولكن باييخوس أصدر الأمر بالانطلاق فوراً.

ـ يجب ألا نفترق مهما كان السبب ـ قال باييخوس ذلك وهو يدنو من مايتا الذي كان قد ركب في تكسي السيد أوناكا مع كوندوري والفتيان الثلاثة ـ. لا حاجة إلى الإسراع كثيراً. وإلى اللقاء في مولينوس.

مضى نحو سيارة التكسي الأخرى، وفكر مايتا: «سنصل إلى كيرو ونُحمِّل البنادق على الدواب، ثم نجتاز سلسلة الجبال، وننزل إلى الغابة حيث سيستقبلنا الفلاحون في أوتشوبامبا بأذرع مفتوحة. فنسلحهم ونجعل منها قاعدتنا الأولى.» لا بد له من أن يكون متفائلاً. فعلى الرغم من حدوث انشقاقات، وعلى الرغم من أن جماعة ريكران لم يظهروا في كيرو، إلا أنه لا يستطيع الارتياب. أولم يجر كل شيء على أحسن حال هذا الصباح؟

ـ هذا ما كنا نظنه ـ يقول لي الكولونيل فيليشيو تابيا، وهو الآن طبيب منتسب إلى الجيش، متزوج وله أربعة أبناء، أحدهم معوق وآخر عسكري جرح في أثناء الخدمة في منطقة آثانغارو؛ إنه في زيارة عابرة إلى خاوخا، ذلك أنه يجول باستمرار على المراكز الصحية في كل أرجاء خاوخا، ويضيف ـ كنا نظن أن الحراس والملازم الأول الذين تركناهم محبوسين سيتأخرون في الخروج، وحيث إن الاتصالات مقطوعة، فإنه سيكون عليهم أن يذهبوا إلى هوانكايو لطلب التعزيزات. وهذا يتطلب خمس أو ست ساعات على الأقل. وفي أثناء ذلك سنكون قد بدأنا النزول باتجاه الأدغال. ومن الذي سيجدنا عندئذ؟ لقد أحسن باييخوس على خير وجه اختيار المنطقة. إنها المنطقة التي نجد الآن أكبر صعوبة في العمل فيها. إنها مثالية للكمائن. الحمر موجودون هناك، في جحورهم، والطريقة الوحيدة للتعامل معهم هي القصف العشوائي، دكّ كل شيء، أو الذهاب للبحث عنهم ومواجهتهم بالحراب، والتضحية بأعداد كبيرة من الجنود. لو عُرف كم من الرجال فقدنا في تلك المنطقة وحدها، لأصاب الناس الذهول. حسن، أظن

أنه لم يعد هناك من يصاب بالذهول لأي سبب في البيرو. ماذا كنا نقول؟ أجل، كنا نظن ذلك. ولكن الملازم أول دونغو خرج من زنزانته على الفور. ذهب إلى مكتب التلغراف ورأى كل شيء مخرباً. فهرع إلى المحطة، ووجد التلغراف هناك سليماً معافى. أبرق وانطلقت حافلة الشرطة من هوانكايو عندما كنا نغادر خاوخا تقريباً. وبدلاً من خمس ساعات، كنا نتقدمهم بساعتين فقط على أبعد تقدير. يا للبلاهة! لأن تعطيل تلغراف محطة القطار لم يكن ليستغرق أكثر من ثانية واحدة.

- ولماذا لم تعطلوه إذن؟

يهز كتفيه وينفث الدخان من فمه وأنفه. إنه رجل شائخ، له شاربان ملطخان بالنيكوتين، لاهث. كنا نتكلم في عيادة ثكنة خاوخا، وبين الحين والآخر كان الكولونيل تابيا يلقي نظرة على الصالة المزدحمة بالمرضى والجرحى والذين تتجول بينهم الممرضات.

ـ أتدري أنني لا أعرف؟ أعتقد أنه التخلف. ففي الخطة الأصلية، الخطة التي كان سيشارك فيها حوالى أربعين شخصاً على ما أظن، دون أخذنا نحن الفتيان في الحساب، كانت هناك جماعة ستتولى احتلال المحطة. هذا ما أظن أني أتذكره على الأقل. وفيما بعد، في فوضى تبديل الخطط، لم يخطر الأمر لبابييخوس. أو ربما أن أحداً لم يتذكر أن هناك جهاز تلغراف في محطة القطار. وما حدث هو أننا انطلقنا مطمئنين ومعتقدين أن لدينا كل الوقت الذي في الدنيا.

الحقيقة أنهم لم يكونوا مطمئنين جداً. فعندما انطلق السيد أوناكا بالسيارة (متباكياً وقائلاً إنه لا يستطيع الذهاب حتى

مولينوس بينما زوجته مريضة، وإن محرك السيارة بحاجة إلى مزيد من البنزين من أجل الوصول إلى هناك)، وقعت حادثة الساعاتي. لقد رآه مايتا يبرز فجأة وهو يرغي ويزبد مثل ثور هائج من البوابة الزجاجية الصغيرة المكتوب عليها بحروف قوطية: «ساعات ومجوهرات بيدرو باوتيستا لوثادا». كان رجلاً مسناً، نحيلاً، يضع نظارة، وكان وجهه محمراً من الغضب ويحمل في يده بندقية صيد. هيأ مايتا مسدسه الرشاش، ولكن امتلك ما يكفي من برود الأعصاب لكي لا يطلق النار، ذلك أنه على الرغم من أن الرجل كان يزمجر كمن به مس من الجنون، إلا أنه لم يكن يصوب بندقيته نحوهم. بل كان يهزها وكأنها عكاز:

- لن تخيفوني أنا يا شيوعيي البراز - كان يتعثر على رصيف الشارع، ونظارته تتقافز على أنفه - يا شيوعيي البراز، ترجلوا إذا كنتم تملكون خصي، اللعنة!

- تابع، لا تتوقف - أمر مايتا السائق وهو يربت على كتفه. لحسن الحظ أن أحداً لم يوجه رصاصة إلى هذا النزق. «هذا الإسباني»، ويضحك فيليثيو تابيا: «ما الذي تعنيه كلمة ترجلوا؟»

- جميع أهالي خاوخا يقولون إنك أكثر شخص مسالم في الدنيا يا دون بيدرو، شخص لا يتدخل مع أحد. فلماذا خرجت في ذلك الصباح لتشتم الثوريين؟

- لا أدري ما الذي أصابني - يخن دون بيدرو باوتيستا لوثادا بفمه اللعابي الذي بلا أسنان، وهو تحت دثار من وبر الفيكونيا، على كرسي محل الساعات الذي أمضى فيه أكثر من أربعين سنة منذ مجيئه إلى خاوخا، ويضيف قائلاً - أو أن الأمر أثار غضبي

بكلمة أصح. لقد رأيتهم يدخلون إلى المصرف الدولي ويأخذون النقود في كيس. ولكن ذلك لم يهمني. ثم سمعتهم بعد ذلك يطلقون الهتافات الشيوعية والعيارات النارية، دون أن يفكروا بأنه يمكن للرصاصات الطائشة أن تسبب نكبات. أي جنون هذا؟ وهكذا تناولت بندقية الصيد، هذه التي أضعها ما بين ساقيّ تحسباً للزيارات الخبيثة. وقد اكتشفت فيما بعد بأنني لم أكن قد حشوتها.

إن الغبار في المحل، والموجودات التافهة، والفوضى، وشيخوخة الرجل التي لا تُصدق، تذكرني كلها بفيلم رأيته في طفولتي: الساحر العجيب. فوجه دون بيدرو هو حبة زبيب وحاجباه كثان وهائلان. لقد أخبرني بأنه يعيش وحيداً وأنه يُعدّ طعامه بنفسه، لأن مبادئه تمنعه من استخدام الخدم.

ـ أخبرني أمراً آخر يا دون بيدرو. عندما وصل رجال الشرطة من هوانكايو ومعهم الملازم أول دونغو بدؤوا يبحثون عن أدلاء لكي يقتفوا أثر المتمردين، فرفضت أنت الذهاب معهم. أولم تكن غاضباً جداً منهم؟ أم أنك لم تكن تعرف شعاب سلسلة جبال خاوخا؟

ـ إنني أعرفها أفضل من أي شخص آخر، بحكم كوني صياد غزلان جيداً ـ يريل ويتلعثم، ويمسح الماء الذي يسيل من عينيه ـ. ولكن على الرغم من أنني لا أحب الشيوعيين، فإنني لا أحب الشرطة أيضاً. وأنا أتكلم عن الماضي، لأني وأنا في هذه السن، لم أعد أعرف بوضوح ما يعجبني يا صاحبي. لم يبق لدي سوى عدد قليل من الساعات وهذا اللعاب الذي يسيل بسبب افتقاري إلى الأسنان. إنني فوضوي وسأموت على ذلك. إذا ما اجتاز أحدهم هذا

الباب بنوايا خبيثة، سواء أكان إرهابياً أو مخبراً، فستنطلق عليه بندقية الصيد هذه. فلتسقط الشيوعية، اللعنة. والموت للشرطة.

مرّت سيارتا التكسي إحداهما ملتصقة بالأخرى، من ساحة سانتا إيسابيل، حيث كان يفترض أن ينقلوا إلى شاحنة ريكران الأسلحة التي استولوا عليها من السجن والمفوضية ومركز الحرس الأهلي. ولكن أحداً لم يتحسر على ذلك التبدل ممن هم حول مايتا، في السيارة المزدحمة التي لا يكادون يستطيعون التحرك فيها. لم يتوقف الفتيان عن تبادل المعانقات وإطلاق الهتافات. وكان كوندوري يراقبهم بتحفظ، دون أن يشارك في الحماس. وبقي مايتا صامتاً. ولكن تلك السعادة والحماس كانا يهزانه. وقد كان هناك في سيارة التكسي الأخرى مشهد مماثل دون شك. ولكنه كان في الوقت ذاته متنبهاً إلى عصبية السائق، وقلقاً للرعونة التي يقود بها السيارة. لقد كانت السيارة تتقافز وتهتز، وكان السيد أوناكا يدخل في كل الحفر ويهجم على كل الأحجار ويبدو مصمماً على صدم كل الكلاب أو الحمير أو الخيول أو الأشخاص الذين يمر بهم. أهو الخوف أم أنه تكتيك مدبر؟ أكان يهيئهم لما حدث بعد ذلك؟ عندما خرجت السيارة فجأة عن الطريق، وهم على بعد بضع مئات من الأمتار فقط عن خاوخا، واصطدمت بحاجز حجري محاذ للمنخفض، فسحقت واقية العجلات، وجعلت الركاب يرتطمون ببعضهم البعض وبالأبواب والزجاج، وظن الخمسة أن السيد أوناكا قد فعل ذلك متعمداً. أنبوه، وشتموه، ووجه إليه كوندوري لكمة شقت حاجبه. ولدى الخروج من السيارة، شمّ مايتا شذى أكاليبتوس يحمله نسيم بارد

من الجبال المجاورة. وكانت سيارة باييخوس تقترب منهم متراجعة وهي تثير سحابة من الغبار المائل إلى الحمرة.

ـ تلك المزحة كلفتا تبديد ربع ساعة، وربما أكثر. ـ يقول لي خوان روساس المقاول، وسائق الشاحنة، وصاحب قطعة أرض لزراعة الفول ودرنات الأويوكو، والذي يُمضي الآن فترة نقاهة في بيت صهره في وسط خاوخا بعد عملية فتاق أجريت له ـ. انتظرنا مرور سيارة أخرى لتحل محل سيارة الصيني. ولكن لم يمر ولا حتى حمار. إنه سوء حظ صافٍ، لأن ذلك الطريق لا يخلو عادة من الشاحنات الذاهبة إلى مولينوس أو كيرو أو بوينا بيستا. أما في ذلك اليوم، فلا شيء. فقال مايتا لباييخوس: «واصل التقدم مع جماعتك ـ وكنتُ أنا في تلك الجماعة ـ واشتر الخيول.» لأن أحداً لم يعد يعتقد بأننا سنجد رجال ريكران ينتظروننا في كيرو. ولم يوافق باييخوس على ذلك، وبقينا جميعنا. وأخيراً ظهرت شاحنة. كانت جديدة تقريباً، وخزانها ممتلئ بالوقود، وإطاراتها مجددة. لحسن الحظ. أوقفناها، وجرى جدل، فالسائق لم يوافق، وكان علينا أن نخيفه. وأخيراً صادرنا الشاحنة. جلس الملازم وكوندوري وغونثاليس في المقدمة. وتسلق مايتا إلى القسم الخلفي مع العامة، أي معنا، ومع كل البنادق. كان الانتظار قد أقلقنا، ولكننا ما إن انطلقنا حتى عدنا من جديد إلى الغناء.

كانت السيارة تتقافز في الدرب الممتلئ بالحفر بينما الفتيان بشعورهم المشعثة وقبضاتهم المرفوعة يطلقون الهتافات بحياة البيرو والثورة الاشتراكية. وكان مايتا يجلس على حافة صندوق الشاحنة، ينظر إليهم. وفجأة خطر له أن يقول:

ـ ولماذا لا ننشد النشيد **الأممي** يا رفاق؟

وافقت الوجوه الصغيرة المعفرة بغبار الطريق، وقال بعضهم: «أجل، أجل، فلننشده.» ثم فهم الوضع في الحال: ليس هناك بينهم من يعرف الكلمات، أو من سمع من قبل بالنشيد **الأممي**. لقد كانوا هناك، تحت سماء سلسلة الجبال النقية، بزيهم المدرسي المجعد، ينظرون إليه وينظرون إلى بعضهم بعضاً، وكل واحد منهم ينتظر أن يبدأ الآخرون الغناء. أحس بدفقة حنان تجاه الصبيان السبعة. ما زالت أمامهم سنوات ليصبحوا رجالاً، ولكنهم تخرجوا كثوريين. إنهم يجازفون بكل شيء في هذا اللا وعي الرائع لسنوات عمرهم الخمس عشرة أو الست عشرة أو السبع عشرة، بالرغم من أنهم يفتقرون إلى التجربة السياسية ولأي شكل من أشكال التكوين الأيديولوجي. أوليسوا أثمن من ثوريي ح ع ث (ت) المجربين الذين بقوا هناك في ليما، أو من مدعي المعرفة الدكتور أوبييوث وفرقه العمالية ـ الفلاحية التي تبخرت صباح هذا اليوم بالذات؟ أجل، فقد اختاروا الممارسة العملية. وأحس برغبة في معانقتهم.

ــ أنا سأعلمكم كلمات النشيد ــ قال وهو ينهض في الشاحنة المتأرجحة ـ فلنغن، غنوا معي. يحيا فقراء العالم...

صارخون، زاعقون، هائجون، منفجرون بالضحك للأخطاء والنشاز، محيين بالقبضة اليسرى المرفوعة عالياً، وهاتفين للثورة، والاشتراكية، والبيرو، رأى مرورهم البغالون والفلاحون في المناطق المحيطة بخاوخا، والمسافرون القليلون الذين كانوا ينزلون نحو المدينة ما بين شلالات وأشجار تشاغوال وارفة، عبر ذلك

الاختناق الصخري الرطب الذي ينزل من كيرو إلى عاصمة المقاطعة. حاولوا إنشاد النشيد **الأممي** لوقت لا بأس به، ولكنهم لم يتمكنوا من التقاط الإيقاع الموسيقي بسبب سمع مايتا. وأخيراً تخلوا عن ذلك. وانتهى بهم الأمر إلى ترتيل النشيد الوطني ونشيد مدرسة سان خوسيه دي خاوخا الوطنية. وهكذا وصلوا إلى جسر مولينوس. ولكن الشاحنة لم تتوقف. فأوقفها مايتا بالطرق على سطح قمرة القيادة.

ـ ماذا هناك؟ ـ قال بابيخوس وهو يطل برأسه من الباب الموارب.

ـ ألم يكن علينا أن ننسف هذا الجسر؟

فقال الملازم بإيماءة كوميدية:

ـ أننسفه بأيدينا؟ لقد بقي الديناميت مع أوبييوث.

وتذكر مايتا أن بابيخوس كان يصر في كل المحادثات التي جرت على ضرورة نسف الجسر؛ فبقطعه يتوجب على رجال الشرطة أن يصعدوا إلى كيرو مشياً على الأقدام أو على الخيول، مما سيوفر لهم مزيداً من الفرص.

ـ لا تقلق. إننا متقدمون كفاية ـ طمأنه بابيخوس ـ. واصلوا الغناء، لأنه يبهج الرحلة.

انطلقت الشاحنة من جديد، وعاد الفتيان السبعة إلى أناشيدهم ومداعباتهم. ولكن مايتا لم يشاركهم. جلس على سطح قمرة القيادة، وبينما كان يرى مرور مشهد الأشجار الضخمة، سمع خرير الشلالات وتغريد عصافير الخيلغويرو ، وأحس بالهواء النقي يملأ رئتيه بالأوكسجين. المرتفعات لم تعد تزعجه. وعلى

هدهدة سعادة أولئك المراهقين، بدأ يتخيل: كيف ستصبح البيرو خلال بضع سنوات؟ ستكون مثل خلية نحل تعج بالشغل، وستتعكس، على مستوى البلاد، أجواء هذه الشاحنة المهتزة بمثالية هؤلاء الفتيان. فمثلهم سيشعر الفلاحون الذين سيصبحون أسياد أرضهم، والعمال الذين سيكونون سادة مصانعهم، والموظفون الذين سيعون بأنهم يخدمون المجتمع كله وليس الإمبريالية ولا المليونيريين ولا الزعماء أو الأحزاب المحلية. وبإلغاء أشكال التمييز والاستغلال، وترسيخ دعائم المساواة بإلغاء الوراثة، واستبدال الجيش الكلاسيكي بالميليشيات الشعبية، وتأميم المدارس الخاصة ومصادرة كل الشركات والمصارف والمتاجر والعقارات المدينية، سيشعر ملايين البيرويين بأنهم يتقدمون حقاً، وأشدهم فقراً أولاً وقبل الجميع. وسيشغل الوظائف العامة من يبذلون جهداً أكبر، ومن هم أكثر موهبة وثورية، وليس من هم أكثر ثراء وأوسع اتصالات، وفي كل يوم ستضيق أكثر فأكثر الهوة التي تفصل ما بين البروليتاريين والبرجوازيين، وما بين البيض والهنود والزنوج والآسيويين، وما بين الساحليين والجبليين وسكان منطقة الأدغال، وما بين الناطقين بالإسبانية والناطقين بالكيتشوا، وسيشارك الجميع، باستثناء الجماعة الصغيرة التافهة ممن هربوا إلى الولايات المتحدة أو ممن ماتوا وهم يدافعون عن امتيازاتهم، سيشاركون في الجهد الإنتاجي العظيم من أجل تطوير البلاد والقضاء على الأمية والمركزية الخانقة. وستأخذ ضبابية الدين بالانقشاع مع التنامي المنهجي للعلم. وستَحُول المجالس العمالية الفلاحية على مستوى المصانع والمزارع الجماعية والوزارات

دون النمو غير المحسوب وما يتبعه من تبلور بيروقراطية تجمد الثورة وتبدأ بمصادرتها لمصلحتها الخاصة. ما الذي سيفعله هو في ذلك المجتمع الجديد إذا ما قيض له أن يبقى على قيد الحياة؟ لن يقبل أي منصب مهم، لن يقبل وزارة ولا قيادة عسكرية ولا منصباً دبلوماسياً. وإنما سيوافق في أبعد الحدود على تولي مسؤولية سياسية، في القاعدة، وربما في الريف، في مزرعة جماعية في جبال الأنديز أو مشروع إعمار في منطقة الأمازون. وستبدأ بالاختفاء شيئاً فشيئاً الأحكام المسبقة الاجتماعية والأخلاقية والجنسية، وفي بوتقة العمل والإيمان بالمستقبل تلك التي ستتحول إليها البيرو، لن يهتم به أحد إذا ما عاش مع أناتوليو ـ ذلك أنهما سيكونان قد تصالحا ـ وسيكون واضحاً تقريباً أنهما متحابان ومستمتعان كل منهما مع الآخر، على انفراد، ومتحرران من النظرات الفضولية، مع بعض التكتم اللازم. ولمس مقدمة سرواله خفية بقبضة سلاحه. إنه لأمر بديع، أليس كذلك يا مايتا؟ بديع جداً. ولكن، كم يبدو بعيداً...

الفصل التاسع

قرية كيرو هي واحدة من أقدم قرى خونين، وهي مثلما كانت قبل خمس وعشرين سنة، ومثلما كانت منذ قرون، تزرع البطاطا، والأويكا، والفول والكوكا وترعى مواشيها في القمم التي يتم الصعود إليها من خاوخا عبر درب شديد الوعورة. فإذا لم تكن الأمطار قد غمرت الطريق بمستنقعات، فإن الرحلة تستغرق نحو ساعتين. الحفر والمطبات تحول الشاحنة إلى بغلة شرسة، ولكن المشهد يعوض عن ذلك: فج صخري ضيق، تحيط به جبال توائم، موازية لنهر مزبد متواثب يسمى أولاً مولينوس، ثم يصبح اسمه كيرو بالقرب من القرية. أشجار كينغوالي ذات أغصان وارفة وأوراق تجعلها رطوبة النهار أشد خضرة تخط الطريق نحو القرية الصغيرة المتطاولة التي دخلناها عند الضحى.

لقد سمعتُ في خاوخا روايات متناقضة حول ما سأجده في كيرو. إنها في منطقة متأثرة مباشرة بالحرب التي شهدت في هذه السنوات اغتيالات وإعدامات متواصلة، وعمليات تمدد سواء من جانب المتمردين أو من جانب القوى المناهضة للتمرد. فكيرو حسب قول البعض تخضع لسيطرة الثوار الذين حصّنوا الساحة. بينما يقول آخرون إن الجيش قد نشر فيها كتيبة مدفعية، بل وأقام فيها كذلك معسكراً للتدريب يعمل فيه مستشارون أمريكيون

شماليون. وقد أكد لي أحدهم بأنهم لن يسمحوا لي مطلقاً بالدخول إلى كيرو، لأن الجيش يستخدم المكان كمعسكر اعتقال ومركز تعذيب. «إنهم يأخذون إلى هناك المعتقلين من كل أنحاء وادي مانتارو لإجبارهم على الكلام باستخدام أكثر أساليب التعذيب تطوراً، ومن هناك تنطلق بهم طائرات الهليكوبتر، بعد عصرهم بالتعذيب، لتلقي بهم أحياء في الأدغال، ليكونوا عبرة للحمر الذين هم، حسب تقديرهم، ينظرون من أسفل.» إنها خرافات. فليس هناك في كيرو أي أثر للمتمردين أو الجنود. ولم يفاجئني كذلك هذا التكذيب الواقعي الجديد للإشاعات: فالمعلومات في البلاد لم تعد أمراً موضوعياً، بل تحولت إلى خيال، سواء في الصحف والإذاعة والتلفزيون أو في أفواه الناس. «الإعلام» بيننا الآن صار يعني تفسير الواقع وفق الرغبات والمخاوف والمصالح، إنه شيء يصبو إلى ملء الجهل حول ما يجري، ونحن نتقبله في دخيلتنا كأمر نهائي ولا مفر منه. وحيث إنه من المستحيل معرفة ما يجري حقاً، فإن البيرويين يكذبون، يختلقون، يحلمون، يلتجئون إلى الوهم. لقد تحولت الحياة في البيرو، حيث قلة هم الذين يقرؤون، إلى حياة أدبية عبر أقل الدروب توقعاً. فكيرو الواقع التي أطأها الآن لا تتفق مع الروايات المتخيلة التي سمعتها عنها. فليس هناك من أثر للحرب أو للمقاتلين من هذا الفريق أو ذاك. لماذا القرية مقفرة هكذا؟ يُفترض أن يكون جميع الرجال الذين هم في سن مناسبة للقتال قد انضموا إلى الجيش أو إلى حرب العصابات، ولكن ليس هناك من وجود حتى للشيوخ والأطفال. لا بد أنهم يعملون في الحقول أو أنهم في بيوتهم؛ لا شك في أن كل غريب يأتي يخيفهم. وبينما

أنـا أجتـاز الكنيـسة الـصغيرة المـشيدة فـي عـام 1946، ببرجهـا الحجـري وسـقفها القرميـدي، وعريـشة الـساحة المـستديرة المحاطـة بأشجار سـرو وأكـاليبتوس، أحس بأنهـا قريـة شبحية. أتكـون هـذه هي صورة كيرو التي وصلها الثويون في ذلك اليوم؟

ـ كانت هناك شمس مشرقة، وكانت الساحة تغص بالناس بسبب العمـل العـام ـ يؤكـد لـي ذلـك دون أوخينيـو فـيرناندث كريستوبال، وهو يشير بعكازه إلى السماء المشحونة بغيوم رمادية:

ـ وكنتُ أقف هنا، فـي هذه الفسحة. وقد ظهروا من تلك الناصية. فـي مثل هذه الساعة تقريباً.

كان دون أوخينيو فـي ذلك الحين يشغل وظيفة قاضـي سـلام كيرو. وهو الآن متقاعد. والأمر العجيب هو أنه، بعد الأحداث التي كان متورطاً فيها حتى الرقبة ـ على الأقل منذ مجيء باييخوس ومايتا وكوندوري وثينون غونثاليس ومعيتهم من الأطفال السبعة ـ، قد عاد إلى ممارسة مهماته القضائية وعاش عدة سنوات فـي كيرو إلى أن بلغ سن التقاعد. إنه يسكن الآن فـي محيط خاوخا. وهو لم يضطرني إلى التوسل إليه من أجل مرافقتي، على الرغم من الإشاعات الكارثية حول أوضاع المنطقة. بل قال لي: «لقد كنت محباً للمغامرات على الدوام». وهو لم يضطرني إلى التوسل كذلك من أجل الإشارة إلى ذكرياته عن ذلك اليوم، أهم يوم فـي حياته المديدة. إنه يجيب على أسئلتي بسرعة وبثقة تامة، حتى فـي التفاصيل التافهة. وهو لا يبدي التردد، ولا التناقض، ولا يترك خيوطاً مفلتة يمكن لها أن توقظ الشكوك حول ذاكرته. وهذه ليست بالمأثرة الضئيلة لثمانيني لا يراودني أدنى شك كذلك فـي

أنه يخفي أو يحرّف أشياء مهمة. ماذا كان دوره بالضبط في تلك المغامرة؟ لا أحد يعرف ذلك بصورة مؤكدة. وهل يعرف هو نفسه ذلك أم أنه انتهى إلى الاقتناع أيضاً بالرواية التي صاغها هو نفسه؟

ـ لم يلفت وصولهم انتباهي، لأنه لم يكن مستغرباً مجيء شاحنات إلى كيرو محملة بأناس من خاوخا. نزلوا هناك، بالقرب من بيت تاديو كانتشيس. وسألوا أين يمكنهم أن يأكلوا. لقد كانوا جائعين جداً.

ـ أولم يلفت انتباهك أنهم مسلحون يا دون أوخينيو؟ وأنهم أحضروا معهم في الشاحنة أسلحة كثيرة، فضلاً عن أن كل واحد منهم يحمل بندقية؟

ـ سألتهم عما إذا كانوا ذاهبين إلى الصيد ـ يرد عليّ دون أوخينيو: ـ لأن هذا الوقت غير مناسب لصيد الغزلان أيها الملازم.

ويقول إن باييخوس قد قال له:

ـ نحن ذاهبون للتدرب على الرماية أيها القاضي. هناك في الأعلى، في البامبا.

ويتساءل دون أوخينيو:

ـ ألم يكن من الطبيعي أن يأتي بعض فتيان مدرسة سان خوسيه لإجراء تدريبات حربية؟ أليس لديهم دروس في التدريب العسكري؟ أوليس الملازم عسكرياً؟ وقد بدا لي الجواب أكثر من مُرْضٍ.

ـ أتريد أن أخبرك أمراً؟ حتى هنا لم أكن قد فقدتُ الأمل.

فابتسم باييخوس:

ـ الأمل بأن يكون رجال ريكران بانتظارنا هنا على خيولهم؟

ـ وكذلك الأفطس أوبييوث والمنجميون ـ اعترف مايتا ــ. أجل، لم أكن قد فقدت الأمل.

كان يتفحص مرة بعد أخرى ساحة كيرو الصغيرة الخضراء كما لو أنه يريد، بقوة الإرادة، أن يجسد الغائبين. كان جبينه مقطباً وفمه يرتعش. وبعيداً عنه بعض الشيء كان كوندوري وغونثاليس يتبادلان الحديث مع جماعة من الفلاحين. أما الفتيان فبقوا إلى جانب الشاحنة لحراسة البنادق.

ـ لقد غرسوا الخنجر في ظهرنا إذن. ـ أضاف ذلك بصوت لا يكاد يكون مسموعاً.

فقال قاضي السلام بجانبه:

ـ إلا إذا كان هناك عائق آخّرهم في الطريق.

وقال مايتا:

ـ ليست هناك أي عقبات، إنهم غير موجودين لأنهم لم يشاؤوا المجيء. ولم يكن علينا انتظار شيء آخر منهم أيضاً. لماذا نضيع الوقت في التحسر. لم يحضروا وكفى، ما أهمية ذلك.

ــ هذا الكلام يعجبني ـ ربت باييخوس على كتفه ــ. فمن الأفضل أن نكون وحدنا من أن نكون مع رفاق سوء، اللعنة.

بذل مايتا جهداً. لا بد من تجاوز هذا القنوط. يجب البدء بالعمل. من أجل الحصول على البهائم، وشراء المؤن، ومواصلة الطريق. فكرة واحدة يجب أن تكون في الرأس يامايتا: اجتياز سلسلة الجبال والوصول إلى أوتشوبامبا. حين يصلون إلى هناك سيكونون في أمان، وسيتمكنون من تعزيز كوادرهم، ومراجعة إستراتيجيتهم بهدوء. لقد كان دوار المرتفعات قد تلاشى حين كان

جالساً دون حراك في الشاحنة، ولكنه عندما بدأ التحرك الآن في كيرو، عاد يشعر بالضغط في الصدغين، وبالتسرع في القلب، وبعدم الاستقرار والدوار. حاول إخفاء ذلك وهو يجوب بيوت كيرو ما بين باييخوس وقاضي السلام، للتقصي عمن يمكنه أن يؤجرهم بعض الدواب. أما كوندوري وثينون غونثاليس اللذان كان لهما معارف في القرية، فذهبا ليوصيا على بعض الطعام ولشراء المؤن. نقداً بالطبع.

كان عليه أن يعقد اجتماعاً دعائياً هنا، لكي يشرح عملية التمرد للفلاحين. ولكنه استبعد الفكرة دون الحاجة إلى تبادل أي كلمة حول الموضوع مع باييخوس. فهو لا يريد تذكير الملازم بهذا الأمر بعد الإخفاق الذي لقيه في الصباح. لماذا هذا القنوط؟ لم تكن هناك وسيلة ليزيحه عن كاهله. كانت بهجة الطريق قد حررته من التفكير. وها هو يعود الآن، مرة بعد أخرى، إلى التفكير في وضعهم: أربعة راشدين وسبعة مراهقين مصرين على السير قدماً في تنفيذ خطط تنهار في كل خطوة. هذه انهزامية يا مايتا، وهي طريق الإخفاق. يجب أن تكون مثل آلة، تذكر ذلك. ابتسم وأبدى وجهه امارات فهم ما يقوله بالكيتشوا قاضي السلام والمرأة صاحبة البيت الذي توقفوا أمامه. كان عليه أن يتعلم الكيتشوا قبل الفرنسية.

يعب دون أوخينيو نفساً أخيراً من عقب سيجارته ويقول:

ـ لقد أصروا على البقاء وقتاً طويلاً هنا. كم من الوقت؟ ساعتان على الأقل. وصلوا في حوالي الساعة العاشرة وغادروا بعد منتصف النهار.

كان عليه أن يقول «غادرنا». أولم يذهب معهم؟ ولكن دون أوخينيو، وعلى الرغم من تجاوزه الثمانين، لا يقترف مطلقاً أدنى زلة لسان يمكن أن توحي بأنه كان متورطاً مع المتمردين. إننا تحت العريشة في الساحة، يحاصرنا مطر متماد تسكبه على القرية السحب الرصاصية المحدبة. وابل كثيف وسريع، تلاه قوس قزح بديع. عندما تصحو السماء، يتواصل هطول مطر خفيف، غير مرئي، أشبه برذاذ ليما يُلمِّع أعشاب ساحة كيرو الصغيرة. وشيئاً فشيئاً ينبعث الفلاحون الذين مازالوا يعيشون في القرية. يطلّون من البيوت، مثل صور غير واقعية: هنديات ضائعات تحت تنانيرهن المتعددة، صبية يضعون قبعات، فلاحون عريقون جداً ينتعلون الصنادل. يقتربون ليحيوا دون أوخينيو، ويعانقوه. ويبتعد بعضهم بعد أن يتبادلوا بضع كلمات معه، ويبقى آخرون معنا. يسمعونه يتذكر ذلك الحدث البعيد، فيهزون رؤوسهم أحياناً بصورة طفيفة؛ ويدلون في أحيان أخرى بتعليقات قصيرة. ولكن عند محاولة الاستفسار عن أمر حول الوضع الحالي، يلزمون جميعهم الصمت المطبق. أو أنهم يعمدون إلى الكذب: لم يروا جنوداً ولا رجال حرب عصابات، ولا يعرفون شيئاً عن الحرب. وعلى حد تقديري، ليس هناك بينهم أي رجل أو امرأة في سن مناسبة للقتال. أما قاضي سلام كيرو السابق، بصدريته المشدودة جيداً، وقبعته القماشية الغاطسة حتى عينيه، وكتفي سترته اللامعة والواسعة كثيراً، فيبدو مثل شخصية من الحكايات، مثل جني أفرزته هذه الجبال الأنديزية. لصوته رنة معدنية، وكأنه يخرج من نفق منجمي.

- لماذا تأخروا طويلاً في كيرو؟ - يتساءل، وإبهاماه محشوران

فـي عروتي الصدرية وهو يتأمل السماء وكـأن الجـواب علـى سـؤاله موجود فـي السحب ـ لأنه لم يكن من السهل عليهم الحصول علـى الدواب. فالنـاس هنـا لا يمكـنهم التخلـي عـن وسـيلة عملهم. لا أحـد يريـد تـأجير البهـائم، حتـى ولـو عُرضـت عليهم مبـالغ جيـدة. وأخـيراً أقنعـوا دونيـا تيوفراسـيا؟ ـ تُـسمع دمدمـة وعبـارات بالـكيتـشوا، وترسـم النسـاء إشـارة الصليب ـ آه، ماتـت. فـي القـصف؟ لقـد كـان رجال حرب العصابات هنا إذن يـا أمـاه. كـانوا قـد ذهبـوا؟ هـل مـات كثيرون؟ ولماذا أعدمت الميليشيا ابن دونيا تيوفراسيا؟

وبفضل هوامش دون أوخينيو بالاسبانية على حواره بالـكيتشوا مع الفلاحـين أخـذت أفهم الحـدث الـذي يدخلـه الحاضـر علـى قصة مايتا. لقـد كـان رجـال حـرب العصابات فـي كيرو وقـد «أعـدموا» عـدة أشـخاص، مـن بيـنهم ابـن دونيـا تيوفراسـيا. ولكـنهم غـادروا عندما حلقت طائرة فوق القرية، وأطلقت زخات من الرصـاص. وبـين الضحايا سقطت دونيا تيوفراسيا التي خرجت لترى ما يحدث عندما سمعت صوت الطائرة. لقد ماتت عند بوابة الكنيسة.

ـ أي أن تلك المسكينة قد انتهت نهاية سيئة ـ يعلـق دون أوخينيـو ـ لقد كانت تعيش فـي هذا الزقاق. وكانت حدباء وسـاحرة إلى حـد مـا، مثلمـا تقـول الإشـاعات. حسـن، هـي الـتي وافقـت علـى تـأجيرهم الـدواب، بعـد أن توسـلوا إليهـا. ولكـن بهائمهـا كانـت فـي الحقـل وبينما ذهبت لإحضارها انقضت أكثر من ساعة. وقد أخرهم الطعـام من جهة أخرى. لقـد قلت لـك مـن قبـل إنهـم كـانوا جـائعين، فأوصـوا بإعداد الغداء عند خيرتروديس سابوياكو الـتي كـان لـديها مطعمهـا الصغير، وكانت توفر مكاناً لمن يريد النوم.

ـ لقد كانوا مطمئنين تماماً إذن.

ووافق دون أوخينيو:

ـ لم يكن قد تبقى سوى وقت قصير لكي تنقض عليهم الشرطة بينما هم منهمكون في توزيع مرق الدجاجة.

هذا التركيب للوقت واضح جداً. فالجميع متفقون: قبل ساعة من وقوع الأحداث، كانت حافلة هوانكايو تصل إلى خاوخا محملة بفرقة من الحرس الأهلي بقيادة ملازم أول لقبه سيلفا وعريف يدعى ليتوما. توقفوا لوقت قصير جداً في المدينة لكي يجدوا دليلاً يرشدهم في الجبال ولكي ينضم إليهم الملازم الأول دونغو والحراس الآخرون الذين تحت أمرته. وبدأت المطاردة فوراً.

ـ وكيف ذهبت أنت معهم يا دكتورثيتو؟ ـ أسأله وأنا أضع راحتي حول فمي، لأرى إذا كان سيرمش.

حاول الملازم بابيخوس أن يبقيه في كيرو. وأيده مايتا في ذلك: فهم بحاجة إلى أحد يكون جسر اتصال ما بين الريف والمدينة، وخصوصاً بعد الذي حدث؛ إنهم بحاجة إلى إقامة شبكات للمساعدة، ولتجنيد الناس، والحصول على معلومات. وكان هو الشخص المناسب لهذه المهمة. ولكن محاولتهما لم تثمر. وتحولت أوامر بابيخوس وحجج مايتا إلى هشيم أمام إصرار القاضي: لا يا سادة، إنه ليس مجنوناً، فهو لن يبقى هنا ليستقبل الشرطة ويدفع ثمن الأطباق المحطمة. بل سيذهب معهم في كل الأحوال. وما بدأ كتبادل للآراء تحول إلى جدال. وارتفع صوتا بابيخوس وقاضي السلام، وفي الحجرة الظليلة المشبعة برائحة الدهن والثوم، انتبه مايتا إلى أن كوندوري وثينون غونثاليس

والفتيان قد توقفوا عن الأكل ليستمعوا. لم يكن من المناسب أن يتسمم الجدال. فلديهم ما يكفي من المشاكل وهم قليلو العدد جداً بحيث لا يمكن لهم الاختلاف فيما بينهم.

ـ ليس هناك ما يستحق مواصلة الجدال يا رفاق. إذا كان القاضي مصمماً إلى هذا الحد، فليأت معنا.

خشي أن يعارضه الملازم، ولكن بابيخوس اختار التركيز على طبقه. وحذا حذوه القاضي، فانفرج الجو بعد قليل. كان بابيخوس قد أوقف البريغادير كورديرو اسبينوثا على مرتفع ليراقب الطريق بينما هم يأكلون. طالت الاستراحة في كيرو، وبينما كان مايتا يعض قطع لحم الدجاج الملطخة بالهباب، قال إنه من التهور التأخر على هذا النحو.

ـ علينا أن نغادر بسرعة.

وافق بابيخوس وهو يلقي نظرة إلى ساعة معصمه. ولكنه واصل الأكل دون إسراع. وقد وجده على حق في دخيلة نفسه. أجل، فكم هو ثقيل النهوض، شد الساقين، تنشيط العضلات، الاندفاع إلى الجبال، المشي. كم ساعة سيمشون؟ وماذا لو أغمي عليه بسبب دوار المرتفعات؟ سيحملونه على إحدى البهائم مثل كيس. لقد كان من المضحك المعاناة من دوار المرتفعات. وأحس كما لو أن دوار الجبال هو ترف غير مسموح به في الثورة. ومع ذلك، كان الإنهاك الجسدي حقيقياً جداً: ارتعاشات قشعريرة، ألم في الرأس، انحلال عام. وفوق كل ذلك، هذا القلب المدوي في صدره. أحس بالراحة حين رأى بابيخوس وقاضي السلام يتبادلان الحديث بحماسة. كيف يمكن تفسير ذعر جماعة

ريكران؟ أتراهم قرروا عدم المجيء في اجتماع عقدوه يوم أمس بالذات؟ أتراهم تلقوا أمراً مخالفاً من الأفطس أوبييوث؟ سيكون توافقاً غريباً أن يتراجع أوبييوث، والمنجميون، وجماعة ريكران كل منهم بقرار منفصل، ودون أن يبلغ الآخرين بذلك. وهل لهذا أية أهمية الآن يا مايتا؟ ليس له أية أهمية. ولكنه سيكون ذا أهمية فيما بعد، عندما تراجعُ القصةُ الحسابات وتُقر الحقيقة (ولكنني أعرف، أنا الذي أمثل القصة في هذه الحالة، بأن الأمر ليس سهلاً، فالزمن لا يتكفل بإبراز الحقيقة على الدوام؛ وفي هذه القضية، في إلحاح اللحظة الأخيرة، ليست هناك طريقة لنعلم علم اليقين إذا ما كان المتخلفون عن الحضور قد انشقوا أم أنهم قد استبقوا الموعد المتفق عليه أم أن كل شيء حدث بسبب عدم تنسيق في الأيام والساعات. وليست هناك طريقة لمعرفة ذلك لأن شخصيات الأحداث أنفسهم لا يعرفونه.) ابتلع آخر لقمة ونظف يديه بمنديله. لقد أخفت عنه عتمة الغرفة الذباب في أول الأمر، ولكنه الآن يراه: لقد كان الذباب يملأ الجدران والسقف، ويتمشى بوقاحة على أطباق الطعام وأصابع الآكلين. لا بد أن كل بيوت كيرو على هذا النحو: لا نور، ولا ماء شرب، ولا مجارير، ولا حمامات. والذباب والقمل وألف نوع من الحشرات تشكل جزءاً من الأثاث التافه، أصحاب وسادة الأواني المصنوعة من ثمار القرع، والجلود، والفراش الخشن المركون بجانب جدران الطين والقصب، وصور السيدة العذراء والقديسين المعلقة على الجدران. إذا ما أحسوا بالرغبة في التبول ليلاً، ولم يكن لديهم الحماس للنهوض والخروج خارجاً، فإنهم يتبولون هناك بالذات، إلى جوار

الفراش الذي ينامون عليه والموقد الذي يطبخون عليه. فالأرضية في نهاية المطاف ترابية، والتراب يمتص البول ولا يبقى منه أثر. والرائحة لا تهم كثيراً أيضاً لأنها تختفي، فهي تختلط بروائح القمامة والوساخة المتعددة التي تكوّن جو البيت وتزيدها كثافة. وماذا إذا ما رغبوا في التغوط في منتصف الليل؟ أيجدون الحماسة للخروج إلى الظلام والبرد، إلى الريح والمطر؟ إنهم يتغوطون هناك أيضاً، مابين الفراش والموقد. عندما دخلوا، قامت صاحبة البيت، وهي هندية عجوز، ذات تجاعيد وغمص في عينيها، ولها جديلتان تصفعان ظهرها حين تمشي، بزرب بعض أرانب الكويه التي كانت تتنقل في الغرفة، وراء الصندوق. هل تنام معها هذه الحيوانات، ملتصقة بجسدها الهرم بحثاً عن الدفء؟ كم من الشهور، كم من السنوات مضت دون أن تبدل هذه السيدة التنانير التي تلبسها والتي قد هرمت معها، فوقها، دون ريب؟ منذ متى لم تقم بغسل كامل لجسدها، بالصابون؟ منذ شهور، سنوات؟ أتراها فعلت ذلك ولو مرة واحدة في حياتها؟ لقد تلاشى توعك داء المرتفعات، وحلت محله الكآبة. أجل يا مايتا، في هذه القذارة، في هذا الهجران يعيش ملايين البيرويين، ما بين البول والبراز، دون ضوء ودون ماء، يعيشون هذه الحياة النباتية نفسها، هذا الروتين الذي يبعث على الخبل نفسه، وهذا النشاط البدائي وشبه الحيواني الذي تعيشه هذه المرأة التي لم يستطع، على الرغم من جهودهما، أن يتبادل معها إلا بضع كلمات قليلة، إذ أن قشتاليتها كانت بدائية جداً. ألا يكفي أن يفتح المرء عينيه قليلاً لكي يجد مبرراً لما قاموا به، وما سيقومون به؟ عندما يدرك

البيرويون الذين يعيشون مثل هذه المرأة بأنهم يملكون القوة ـ لأنه يكفيهم أن يعوا قوتهم ويستخدموها ـ سينهار هرم الاستغلال والعبودية والرعب الذي تشكله البيرو مثل سقف منخور. عندما يدركون أنه بتمردهم ستبدأ إنسانية حيواتهم غير الإنسانية، فإن الثورة ستصبح قوة لا تُهزم.

ـ جاهزون، فلننطلق ـ قال باييخوس ذلك وهو ينهض واقفاً، وأضاف: ـ فلنحمّل الأسلحة.

سارع الجميع في الخروج إلى الشارع. وأحس مايتا بالحماس من جديد، بالانتقال من الظلمة إلى النور. ذهب لمساعدة الفتيان الذين كانوا يُخرجون البنادق من الشاحنة ويثبتونها على البغال. وكان الهنود ما يزالون يتاجرون في ساحة كيرو الصغيرة، غير مبالين بهم.

ويقول دون أوخينيو باستغراب، مشفقاً على سذاجته وسرعة تصديقه:

ـ لقد أقنعوني بأبسط الطرق. فقد شرح لي الملازم باييخوس أنه، إضافة إلى تدريب الفتيان، سيقوم بتسليم مزرعة آينا إلى قرية أوتشوبامبا. وهي القرية التي كان رئيسها، كما تذكر، كوندوري ونائب رئيسها ثينون غونثاليس. ولماذا لا أصدقه؟ فمنذ شهور كانت هناك مشاكل في آينا. وكان فلاحو أوتشوبامبا قد احتلوا جزءاً من أراضي المزرعة وكانوا يطالبون بها متعللين بصكوك من العهد الاستعماري. أولم يكن الملازم سلطة عسكرية في المقاطعة؟ فكان علي أن أقوم بواجبي، فلسبب ما كنت قاضياً يا سيدي. وهكذا رافقتهم بطيب نية، على الرغم من

أن المسيرة لم تكن مزاحاً ـ فقد كنت قد تجاوزت الستين آنذاك ـ. ألم يكن ذلك هو أكثر التصرفات طبيعية في الدنيا؟

ولا أجد ما أقوله سوى ذلك، للطريقة الطبيعية التي يروي بها الأمر. لقد طلعت الشمس. وبدا وجه دون أوخينيو متألقاً.

ـ يا للمفاجأة التي سيطرت عليك إذاً عندما بدأ تبادل إطلاق الرصاص.

ـ كانت مفاجأة ربي ومولاي ـ يردّ دون تردد ـ. لقد بدأ تبادل إطلاق النار بعد وقت غير طويل من مغادرتنا، لدى دخولنا في صَدْع هوايخاكو الصخري.

يفرك عينيه قليلاً ـ فقد كانت جفونه تتجعد وحاجباه يتغضنان ـ فصارت نظراتهما سائلة. لا بد أن السبب في ذلك هو وهج الشمس؛ لا يمكنني أن أصدق أن عيني قاضي سلام كيرو السابق تدمعان حنيناً لما جرى في ذلك المساء، حتى ولو كان كل شيء من الماضي، في مثل سنه، يوقظ مشاعر الحنين، بما في ذلك أشد الأحداث إيلاماً.

ويدمدم:

ـ لقد كانوا مستعجلين لدرجة أنني لم أتمكن من إعداد حقيبة للضروريات التي لا بد منها. خرجت مثلما تراني الآن، بربطة عنق، وصدرية وقبعة. انطلقنا في المسير وبعد ساعة أو ساعة ونصف بدأت الحفلة.

يطلق ضحكة، فيضحك على الفور كذلك الأشخاص الذين يحيطون بنا. إنهم ستة: أربعة رجال وامرأتان، وجميعهم متقدمون في السن. وهناك أيضاً عدة أطفال على شرفة العريشة الصدئة.

أسألُ الشيوخ عما إذا كانوا موجودين عندما وصل رجال الشرطة. وبعد أن ينظروا بطرف أعينهم إلى القاضي، وكأنهم يطلبون منه الإذن بالكلام، يومئون مؤكدين وجودهم. فألحُ وأنا أنظر إلى أكبر الفلاحين سناً: كيف حدث ذلك.. ما الذي جرى بعد ذهاب الثوريين. فيشير إلى زاوية الساحة حيث ينتهي الطريق: لقد جاؤوا من هناك. وكم كان عددهم؟ كانوا كثيرين. كم تعني بكثيرين؟ ربما حوالي خمسين شرطياً. ويتحمس الآخرون ويبدؤون بالتكلم أيضاً، وفي الحال يأخذون بمقارنة ذكرياتهم معاً. وأجد مشقة في متابعة خيط الكلام في تلك المتاهة التي تختلط فيها الكيتشوا بالإسبانية ويتداخل فيها فجأة الحدث الذي جرى قبل خمس وعشرين سنة مع القصف الذي وقع قبل أيام أو أسابيع ـ وهذا أمر غير واضح أيضاً ـ ومع «إعدامات» رجال حرب العصابات. وتجري في أذهان أولئك الشيوخ بالطبع مشاركة تكلفتُ جهداً غير قليل في فهمها ولا يراها إلا القليل من مواطنيّ. وما أخرج به في النهاية بوضوح هو أن الخمسين أو الستين شرطياً كانوا يظنون أن المتمردين مازالوا مختبئين في كيرو، فقد أمضوا حوالي نصف ساعة في تفتيش القرية، يدخلون إلى البيوت ويخرجون منها، ويسألون هؤلاء وأولئك أين اختبؤوا. هل كانوا يسألون عن الثوريين؟ عن الشيوعيين؟ لا، لم يستخدموا هذه المفردات. بل كانوا يقولون عنهم: اللصوص، حرامية المواشي، قطاع الطرق. أأنتم متأكدون من ذلك؟

ـ إنهم متأكدون بالطبع ـ يمثلهم دون أوخينيو في الرد ـ. يجب أن تنتبه إلى أنها كانت أزمنة أخرى، فمن سيخطر له أن تلك

كانت ثورة. وتذكر أيضاً أنهم كانوا قد سطوا على مصرفين قبل أن يغادروا خاوخا...

يضحك ويعودون جميعهم إلى الضحك. وهل وقع خلال نصف الساعة تلك التي أمضوها هنا أي حادث بين رجال الشرطة والفلاحين؟ لا، لم يقع أي حادث، فقد اقتنع الشرطيون هناك بالذات بأن «اللصوص» قد غادروا وأنه ليس لأهالي كيرو أي علاقة بهم، وأنهم لا يعرفون بما جرى في خاوخا. لقد كانت أزمنة أخرى، لا شك في ذلك: فرجال الشرطة لم يكونوا يعتبرون أي شخص يضع عباءة بونتشو وطاقية أوخوتا متواطئاً مع المتمردين ـ ما لم يُثبت العكس ـ. ولم يكن عالم الأنديز قد استُقطب إلى الحدود الحالية حيث لم يعد بإمكان سكانه إلا أن يكونوا متواطئين مع المتمردين أو متواطئين مع قامعيهم.

ويقول قاضي السلام، وقد صارت نظرته سائلة من جديد:

ـ وفي أثناء ذلك، كنا نحن نبتل على أحسن ما يكون الحال.

لقد انفلت وابل المطر بعد ربع ساعة من مغادرتهم كيرو. مطر قوي، قطراته كبيرة، تبدو للحظات وكأنها حبات بَرَدٍ. فكروا في البحث عن ملجأ ريثما يتوقف المطر، ولكن لم يكن هناك مكان يأوون إليه. وكان مايتا يقول: «كم تغير المشهد». وربما كان الوحيد الذي لم يكن وابل المطر يضايقه. كان الماء يسيل على بشرته، يتغلغل في شعره، ينزلق ما بين شفتيه ويبدو له بلسماً. ابتداء من تجاوز أراضي كيرو الزراعية، كانت الأرض انحداراً متواصلاً. ولم تكن للمشهد أية علاقة بذلك الذي يفصل ما بين خاوخا وكيرو، فكانوا كما لو أنهم قد انتقلوا إلى منطقة

أخـرى، إلى بلـد آخـر. فقـد اختفـت أشـجار الكينغـوال الكثيفـة، والنباتـات العشبية، والطيـور، وهـدير الـشلال، والأزهـار البريـة، وعيـدان القـصب المتمايلـة إلى جانـب الطريـق. فـي هـذا المنحـدر الأجرد، حيث لا أثر لطريق، كـان النبـات الوحيـد الـذي يظهـر بـين حـين وآخـر هـو نبتـات صـبار عملاقـة، ذات أذرع ثخينـة مغطـاة بالـشوك، لهـا شـكل شمعـدانات. صـارت الأرض تميـل إلى الـسواد وتتحـدب بأحجـار وصـخور ذات مظهـر مـشؤوم. وكـانوا يتقـدمون منقسمين إلى ثـلاث جماعـات. البهـائم والأسـلحة فـي المقدمـة، مـع كوندوري وثلاثة فتيان. يليهم بقية الفتيان على بعد حوالي مئة متر، ومعهـم ثينـون غونثـاليس كقائـد للجماعـة. ويختـم المسيرة، لتغطيـة الآخرين، كلٌّ من الملازم ومايتا وقاضـي الـسلام الـذي كـان يعـرف كـذلك الطريـق إلى مزرعـة آينـا، ليـدلهم إذا مـا فقـدوا الاتـصال بالآخرين. ولكن مايتا مازال يرى الجماعتين الأخـريين، هنـاك فـي المقدمـة، فـي مكـان أكثـر ارتفاعـاً، عنـد سـفوح الجبـال، إنهمـا بقعتان تظهران وتختفـيان حسب ارتفـاع وانخفـاض الأرض وكثافـة المطـر. لا بـد أن الوقـت هـو منتصف مـا بعـد الظهـر، مـع أن الـسماء الرماديـة تـوحي بـالغروب. «كـم الـساعة؟» توجـه بالـسؤال إلى بابيخوس. «إنهـا الثانيـة والنـصف.» وحـين سمعـه تـذكر طرفـة كـان يتـداولهـا تلاميـذ مدرسـة ساليسيانو حـين يـسألهم أحـد عـن الـساعة. «عقربها واقف، انظـر إليـه» ويشيرون إلى سـروالهم. ابتسم، وبسبب هـذا الـسهو كـاد أن يقـع. وقـال لـه بـابيخوس: «وجّـه البندقيـة نحـو أسـفل، حتـى لا يـدخل إليهـا مـاء كـثير»، كـان المطـر قـد أوحـل الأرض فكـان مايتـا يحـاول أن يـدوس علـى الأحجـار، ولكـن تلـك

الأحجار التي خلخلها وابل المطر كانت تتقلقل وتنزلق بكثرة. وإلى جانبه بالمقابل، كان قاضي سلام كيرو ـ ضئيلاً، مستغرقاً في التفكير، قبعته مبللة، يغطي أنفه وفمه بمنديل ملون، وتبدو جزمته الدهرية موحلة ـ يمشي في الوعورة الجبلية وكأنه يمشي على درب مستوٍ. وباييخوس أيضاً كان يتقدم بيسر ويسبقهما بعض الشيء، بينما المسدس الرشاش يتدلى من كتفه ورأسه منحن لكي يرى أين يضع قدميه. وكان طوال الوقت يسبق مايتا ودون أوخينيو فيضطران إلى الركض قليلاً للحاق به. لم يتبادلوا الكلام منذ خروجهم من كيرو تقريباً. لقد كان هدفهم هو الوصول إلى شعب جبلي يدعى «بيّنا»، على السفح الشرقي، مناخه أكثر لطفاً. وكان كوندوري وثينون غونثاليس يريان أنه يمكن الوصول إلى هناك قبل الغروب إذا ما أسرعوا. إذ لم يكن من الملائم قضاء الليل في أعالي الجبال، حيث خطر الثلوج والعواصف. وبالرغم من الإرهاق، ومن إحساسه بالاضطراب بسبب المرتفعات أحياناً، إلا أن مايتا كان يشعر بالراحة. هل ستتقبله جبال الأنديز أخيراً بعد معاداتها له؟ أيكون قد تجاوز مرحلة التعميد؟ ولكنه على الرغم من ذلك، وعندما أشار باييخوس بعد قليل إلى أنه يمكنهم التوقف للراحة، ألقى بنفسه على الأرض الموحلة، مستنفداً. كان المطر قد توقف، والسماء بدأت تصفو ولم تعد تظهر لهم الجماعتان الأخريان. إنهما في منخفض عميق، محاطين بجدران من الصخر تبرز منها خصل من أعشاب الإيتشو. جاء باييخوس للجلوس بجانبه وطلب منه مسدسه الرشاش، فتفحصه باهتمام، فاتحاً ومغلقاً الأمان. وأعاده إليه دون أن يقول

شيئاً ثم أشعل سيجارة. كان وجه الملازم الشاب ممتلئاً بقطرات صغيرة، ورآه مايتا من وراء دفقة الدخان متوتراً بالقلق. فقال:

ـ أنت من لا يفقد التفاؤل أبداً.

فرد باييخوس وهو يمج نفساً من السيجارة ويطلق الدخان من أنفه وفمه:

ـ ولم أفقده. كل ما هنالك...

ـ كل ما هنالك أن رأسك لا يتسع لما تحقق هذا الصباح ـ قال مايتا ــ لقد فقدت الآن عذريتك السياسية حقاً. فالثورة أكثر تعقيداً من حكاية حوريات يا أخي.

ـ لا أريد التحدث عما حدث في الصباح ـ قاطعه باييخوس ــ. هناك أمور أكثر أهمية الآن.

سمعا شخيراً. وكان قاضي السلام قد استلقى على ظهره على الأرض، واضعاً القبعة فوق وجهه، ويبدو أنه قد غفا.

نظر باييخوس إلى ساعته:

ـ إذا كانت حساباتي صحيحة، فلا بد أنهم قد بدؤوا الآن بالوصول إلى خاوخا. إننا نسبقهم بنحو أربع ساعات. ونحن في هذا القفر مثل إبرة في كومة قش. لقد صرنا خارج الخطر على ما أظن. حسن، فلنوقظ القاضي ونواصل المسير.

ما كاد دون أوخينيو يسمع كلمات باييخوس الأخيرة حتى نهض واقفاً. واعتمر على الفور القبعة المبللة. ثم قال وهو يؤدي تحية عسكرية:

ـ أنا جاهز على الدوام يا سيدي الملازم. إنني بومة، أنام بعين واحدة فقط.

- يذهلني وجودك معنا أيها القاضي - قال مايتا -. ففي مثل سنك ووظيفتك، لديك أسبابك حقاً لتوخي الحذر.

فاعترف قاضي السلام دون أي مواربة:

- بصراحة، لو أن أحداً كان قد أخبرني، فإنني كنت أنا أيضاً سأتبخر على الأغلب. ولكنهم لم يتذكروني، لقد أهملوني. فماذا تبقى لي، أأنتظر هناك مجيء الشرطة لأكون نعجة التكفير؟ ولا بأي حال يا سادتي.

انفجر مايتا ضاحكاً. وكانوا قد عادوا إلى المسير وراحوا يتسلقون المنحدر منزلقين، عندما رأى مايتا أن باييخوس يقف ساكناً، متلبداً. لقد كان يتلفت من جهة إلى أخرى ويصيخ السمع. وسمعه مايتا يقول بصوت خافت جداً:

- إطلاق نار.

- بل رعد يا رجل - قال مايتا -. أأنت متأكد من أنه إطلاق نار؟

وقال باييخوس وهو يبتعد:

- سأذهب لأرى من أين يأتي الصوت. ابقيا هادئين هنا.

- وهل صدقتْ الشرطة كل هذا الذي قلته يا دون أوخينيو؟

- لقد صدقوني بالطبع. أليست الحقيقة؟ ولكنهم قبل ذلك جعلوني أمر بوقت عصيب.

بينما إبهاماه في الصدرية ووجهه الذاوي يتوجه نحو السماء، يخبرني - هناك الآن في عريشة كيرو حوالي عشرين شيخاً وطفلاً يحيطون بنا - بأنهم قد أوقفوه ثلاثة أيام في مفوضية خاوخا ثم أسبوعين في قيادة الحرس الأهلي في هوانكايو، وكانوا يطالبونه بأن يعترف بأنه متواطئ مع الثوريين. ولكنه عنيد بالطبع،

ولا يكل، فكان يكرر بأنه قد ذهب معهم مخدوعاً، معتقداً أنهم بحاجة إلى قاضي سلام من أجل تسليم مزرعة آينا لفلاحي أوتشوبامبا وأنهم كانوا يحملون الأسلحة من أجل تدريب الفتيان عسكرياً. وكان عليهم أن يتقبلوا روايته، أجل يا سيدي: وبعد ثلاثة أسابيع رجع ثانية إلى كيرو ليمارس وظيفة قاضي السلام، نظيفاً من التراب والقش ولديه حكاية جيدة للسخرية. لقد صار الهواء جافاً الآن، وفي بيوت القرية، والأراضي، والجبال المجاورة، يلتقي اللون الأمغر والكلسي والذهبي مع بعض الخضرة. ويقول دون أوخينيو متحسراً: «كم هو محزن مرأى هذه الأراضي شبه الميتة. كلها كانت فيما مضى أراض زراعية رائعة. يا للحرب اللعينة! إنها تقتل كيرو، وهذا غير عادل. ولو فكرنا فإن القرية قبل خمس وعشرين سنة كانت تبدو فقيرة. ولكن يمكن للأوضاع أن تسوء دوماً، فليس هناك من قرار للنكبات.» لا أتركه يسهو في أمور الحاضر وأعيده إلى الماضي وإلى الخيال الروائي. وما الذي فعلته أنت خلال تبادل إطلاق الرصاص؟ وكم استمر إطلاق النار؟ وهل توصلتم إلى الخروج من صدع هوايخاكو؟ أخبرني بكل ما جرى منذ بدء إطلاق النار وحتى انتهائه دون أن تغفل عن أي تفصيل يا دون أوخينيو.

إنه إطلاق رصاص، لا شك في ذلك. كان مايتا يستند بإحدى ركبتيه على الأرض، ويمسك بالمسدس الرشاش ويراقب في كل الاتجاهات. ولكن مجال رؤيته في المنخفض كان محدوداً إلى أدنى الحدود: يتوقف عند الأفق المسنن ببعض القمم. مر ظل يخفق بأجنحته. أيكون نسر كوندور؟ لا يتذكر أنه رأى نسر كوندور

حياً، وإنما في صور فقط. انتبه إلى أن قاضي السلام يرسم إشارة الصليب، وإلى أنه أخذ يصلي وهو يغمض عينيه ويضم راحتيه. ثم سمع زخة رصاص أخرى، من الاتجاه السابق نفسه. متى سيعود باييخوس؟ وكما لو أن الملازم قد استجاب لرغبته، فأطل في تلك اللحظة من فوق حافة المرتفع. ومن ورائه برز وجه أحد فتيان الجماعة الوسطى: إنه بيريكو تيموتشي. انزلقا على السفح باتجاههما. كان وجه تيموتشي شاحباً ويداه وأخمص بندقيته ملوثة بالوحل، كما لو أنه كان قد وقع أرضاً.

قال باييخوس:

ـ إنهم يطلقون النار على جماعة الطليعة. ولكنهم بعيدون، فالجماعة الثانية لم ترهم.

ـ وماذا سنفعل؟ ـ قال مايتا.

ورد باييخوس بحماس:

ـ سنتقدم. فالجماعة الأولى هي الأهم، يجب إنقاذ تلك الأسلحة. سنحاول مناوشتهم وإلهاءهم ريثما تتمكن جماعة الطليعة من الابتعاد. هيا بنا بسرعة. وليبتعد كل واحد منا مسافة كافية عن الآخر.

وبينما هم يتسلقون جدار المنحدر، تساءل مايتا لماذا لم يخطر ببال أحد أن يعطي بندقية لدون أوخينيو ولم يخطر له هو نفسه أن يطلب واحدة. إذا ما كانت هناك ضرورة للقتال، فسوف يواجه القاضي مصيراً أسود. لم يكن يشعر بالاضطراب، ولا بالخوف. وكانت قد سيطرت عليه جدية عظيمة. لم يفاجأ بأصوات الرصاص. لقد كان ينتظرها منذ خروجهم من خاوخا، إذ لم

يكن مقتنعاً بأنهم يسبقونهم بوقت طويل مثلما يقول الملازم. يا لحماقة تأخرهم في كيرو.

عندما أصبحوا في أعلى المنحدر، كمنوا للمراقبة. لم يكن يظهر أي شيء: لا شيء سوى الأرض الرمادية المتعرجة، ترتفع دوماً، مع بعض الأجمات والصخور الطارئة، حيث يمكنهم، مثلما فكر، أن يختبئوا إذا ما ظهر المطارِدون من وراء إحدى القمم.

ـ احتموا بالصخور ـ قال بابيخوس. وكان يحمل مسدسه الرشاش في يده اليسرى ويشير لهم باليمنى أن يتفرقوا أكثر عن بعضهم البعض. كان يركض تقريباً وهو منحن، وينظر فيما حوله. ووراءه كان يمضي القاضي، وبعده بقليل مايتا وبيريكو تيموتشي جاثيين. لم تعد تُسمع أصوات طلقات نارية. وكانت السماء تصفو: فقد صارت الغيوم أقل ولم تعد رصاصية اللون وحبلى بعاصفة وإنما بيضاء واسفنجية. وفكر: «يا لسوء الحظ، من المناسب الآن أن يهطل المطر». راح يتقدم مصغياً إلى قلبه، وهو يخشى أن يداهمه الآن الاختناق وتسرع النبض والإنهاك. ولكن لا، إنه يشعر بأنه على ما يرام بالرغم من بعض البرد. حدق ببصره محاولاً أن يرى المجموعتين المتقدمتين. كان ذلك مستحيلاً بسبب طبيعة الأرض وكثرة الزوايا الميتة. وخيل إليه في إحدى اللحظات أنه يميز نقاطاً متحركة بين مرتفعين صغيرين. فاستدعى بيريكو تيموتشي بحركة من يده:

ـ هل أولئك هم جماعتك؟

فأومأ الفتى برأسه عدة مرات، دون أن يتكلم. لقد بدا أكثر طفولة بوجهه المتقع. كان يتشبث ببندقيته وكأن هناك من يحاول انتزاعها منه وبدا كما لو أنه فقد صوته.

حاول مايتا أن يشجعه:

ـ لم تعد تُسمع أصوات الرصاص. ربما كان إنذاراً زائفاً.

فتلعثم بيريكو تيموتشي:

ـ لا ، لم يكن إنذاراً كاذباً. لقد كان حقيقياً.

ثم بدأ يتكلم بصوتٍ خافت جداً ، محاولاً استعادة تماسكه، وأخبره بأنهم حين سمعوا الرصاصات الأولى ، تمكن جميع أفراد جماعته من رؤية جماعة الطليعة التي أمامهم تتفرق، بينما رفع أحدهم ـ وهو كوندوري في الغالب ـ بندقيته ليرد على الهجوم. عندئذ صرخ بهم ثينون غونثاليس: «انبطحوا أرضاً ، انبطحوا أرضاً». وبقوا منبطحين إلى أن ظهر باييخوس وأمرهم بمواصلة التقدم. وقد أحضره معه ليكون مراسلاً. فابتسم له مايتا :

ـ أعرف لماذا اختارك أنت بالذات. لأنك أسرع الجميع. أولست الأشد جرأة كذلك؟

ابتسم الفتى ابتسامة خفيفة ، دون أن يفتح فمه. وواصلا السير معاً وهما ينظران من جهة إلى أخرى. كان باييخوس والقاضي قد سبقاهم حوالي عشرين متراً. وبعد بضع دقائق سمعوا زخة أخرى من الرصاص.

ويقول لي دون أوخينيو:

ـ الطريف في الأمر هو أنني أُصبت بالرشح في أوج إطلاق النار. كان قد هطل مطر غزير وكنت مبللاً بالكامل، أترى؟

أجل، فالرجل الضئيل الذي يمضي ببدلة وقبعة ما بين محاربي حرب العصابات، وتحت نيران الحراس الذين يطلقون الرصاص عليهم من القمم، بدأ يعطس. وأحاول أن أجعله يسرع في روايته، فأسأله في أي لحظة أدرك أن أولئك الرجال هم متمردون وأن

مسألة تدريب الفتيان وتسليم مزرعة آينا هي مجرد أكاذيب. فلا يتململ، بل يقول بقناعة مطلقة:

ـ عندما بدأ إطلاق الرصاص، اتضح كل شيء من تلقاء نفسه. يا للعنة، تصور الوضع الذي وجدت نفسي فيه. فقد وجدت نفسي دون أن أعرف السبب وسط أزيز الرصاص.

يتوقف قليلاً، وتتخضل عيناه من جديد فتعيدني الذاكرة إلى عصر ذلك اليوم، في باريس، بعد يومين أو ثلاثة أيام على اليوم الذي نتذكره. لقد كانت تلك هي الساعة التي أتوقف فيها عن الكتابة بانتظام صارم وأخرج لأشتري صحيفة ليموند وأقرأها بينما أنا أتناول فنجان قهوة اكسبريس في مقهى تورنون، عند ناصية بيتي. لقد كان ثمة خطأ في كتابة اسم مايتا، فقد استبدلوا حرف y بحرف I، ولكن لم يراودني أدنى قدر من الشك: فالمقصود هو زميلي في مدرسة ساليسيانو. لقد ظهر الاسم في خبر عن البيرو، خبر لا يكاد يكون مرئيا لصغره، لا يتجاوز ستة أو سبعة سطور، وليس أكثر من مئة كلمة. تحت عنوان «إحباط محاولة تمرد» أو شيء من هذا القبيل، ولم يكن واضحاً إذا ما كان للحركة تفرعات، ولكن الواضح هو أن قادتها قد قتلوا أو اعتقلوا. هل كان مايتا معتقلاً أم ميتاً؟ كان هذا هو أول ما فكرت فيه، بينما كانت تفلت من فمي سيجارة الجولواز وأنا أقرأ وأعيد قراءة الخبر دون أن أتمكن من تقبل حدوث أمر كهذا في بلادي النائية، وأن يكون زميلي في قراءة **الكونت دي مونت كريستو** هو بطل الأحداث. ولكنني كنت موقناً منذ اللحظة الأولى من أن مايتا المكتوب دون y في ليموند هو زميلي نفسه.

ـ فـي أي سـاعة بـدأ وصـول الأسـرى إلى هنـا؟ ـ يكـرر دون أوخينيـو الـسؤال الـذي وجهتـه، كمـا لـو أنـني كنـت أسـأله هـو. لقـد وجهتُ الـسؤال فـي الواقـع إلى شـيوخ كـيرو، ولكـن مـن المناسـب أن يكون قاضـي الـسلام، الرجل الموثوق به من الأهالي، هـو الـذي يبـدي اهتماماً بمعرفة ذلك ـ لا بد أن ذلك حدث فـي الليل، أليس كذلك؟

هناك موجة مـن الـلاءات، مـن الـرؤوس النافـية، مـن الأصـوات التي تتنازع الـكلام. لم يكـن الليل قد حل بعـد؛ وإنمـا كـان الوقـت مـساء. وقـد رجـع حـراس الـشرطة فـي جمـاعتين؛ الجماعـة الأولى أحـضرت رئـيس قريـة أوتـشوبامبا محمـولاً علـى إحـدى البهـائم. هـل كـان كونـدوري ميتـاً عنـد وصـوله؟ كـان يحتـضر. فقـد أصـيب برصاصـتين، فــي ظهـره وفــي رقبتـه، وكـان ملطخـاً بالـدم. وقـد أحضروا كذلك عدداً من الفتيان موثوقي الأيـدي. فـي ذلـك الـزمن كانوا يأخـذون أسـرى. أمـا الآن، فمـن الأفـضل أن يمـوت المـرء وهـو يقاتل لأن من يمسكون بـه، بعد أن يستخلصوا منه كل مـا يعرفـه، سـيأمرون بقتلـه فــي كـل الأحـوال، ألـيس كـذلك يـا سـيدي؟ وباختصار، كانوا قد نزعوا أربطة أحذيـة الفتيـان حتـى لا يحـاولوا الهـرب. فكـانوا يمـشون وكـأنهم يطـؤون بيـضاً، وبـالرغم مـن أنهـم كـانوا يجرجـرون أقـدامهم، فقـد كـان بعـضهم يتفـادى ضـربات السوط. أخذوا كوندوري إلى بيت الحـاكم العسكري وقدموا لـه بعض الإسعافات، ولكـن دون جـدوى، فقـد مـات فـي الحـال. وبعـد حوالي نصف ساعة وصل الآخرون. كـان بـاييخوس يـشير إليهم بـأن يسرعوا.

وسمعه مايتا يصرخ:

- بسرعة أكبر، بسرعة أكبر.

حاول مايتا أن يسرع ولكنه لم يستطع. لقد سبقه بيريكو تيموتشي الآن أيضاً بضعة أمتار. سُمعت طلقات متفرقة ولم يستطع تحديد مصدرها ولا إذا كانت أقرب أم أبعد من الطلقات السابقة. لقد كان يرتجف، ولكن ليس من داء المرتفعات وإنما من البرد. وعندئذ رأى باييخوس يرفع مسدسه الرشاش: ودوت الطلقة في طبلتي إذنيه. نظر إلى القمة التي أطلق الملازم النار باتجاهها، ولم ير سوى صخور، وأرض، وأعشاب إيشو، وقمم انكسارية، وسماء زرقاء، وغيوم بيضاء. سدد هو أيضاً سلاحه بذلك الاتجاه، وكان إصبعه على الزناد.

وصرخ بهم باييخوس من جديد:

- لماذا تتوقفون، يا للعنة. واصلوا التقدم، واصلوا.

انصاع له مايتا، مشى بسرعة لبعض الوقت، راكضاً أحياناً، ومتعثراً، وشاعراً بأن البرد ينخر عظامه وبأن قلبه يجن. سمع صوت طلقات جديدة، وكان واثقاً للحظة من أن إحدى الرصاصات قد فتتت بعض الأحجار على مقربة منه. ولكنه مهما تطلع إلى القمم، لم يكن يرى أي مهاجم. لقد صار في النهاية آلة لا تفكر، لا تتردد، لا تتذكر، إنه جسد يركز على مهمة مواصلة الجري كي لا يتخلف. وفجأة تراخت ركبتاه وتوقف لاهثاً. تقدم بضع خطوات وهو يترنح وانكمش على نفسه وراء بعض الصخور المغطاة بالطحالب. كان قاضي السلام وباييخوس وبيريكو تيموتشي يواصلون التقدم بسرعة. لم يعد بإمكانك أن تلحق بهم يا مايتا. التفت الملازم، فأشار له مايتا بأن يواصل تقدمه. وبينما هو يقوم

بهذه الإشارات، أحس هذه المرة دون أي مجال للشك برصاصة تنفجر على بعد خطوات منه: لقد فتحت ثقباً صغيراً في الأرض وأثارت بعض الدخان الخفيف. انكمش على نفسه بأقصى ما يستطيع، نظر، بحث، وعندئذ رأى بوضوح رأس أحد الحراس يطل من فوق ساتر صخري إلى يمينه وبندقية مصوبة إليه. إنه يحتمي في الجهة الخاطئة. التف حول الأحجار زاحفاً، ثم انبطح على الأرض وأحس بالرصاصات تمر فوق رأسه. وعندما تمكن في النهاية من التسديد وإطلاق النار، محاولاً تطبيق تعليمات باييخوس ـ الهدف يجب أن يتطابق مع الشعيرة ـ كان الشرطي قد اختفى من فوق الساتر الصخري. وجعلته زخة الرصاص التي أطلقها يهتز ويضطرب. ورأى رصاصاته تكشط الصخر على بعد متر إلى أسفل الموقع الذي كان الشرطي قد أطل منه.

وسمع باييخوس يقول له:

ـ اركض، اركض وأنا سأغطيك.

وكان الملازم يصوب سلاحه باتجاه الساتر الصخري.

نهض مايتا وركض. كان البرد يخدره، وبدت عظامه كما لو أنها تصطك تحت جلده. لقد كان برداً جليداً وملتهباً يجعله يتعرق، مثلما تفعل الحمى. عندما وصل إلى جوار باييخوس جثا على ركبتيه وصوب سلاحه أيضاً باتجاه الصخور.

قال الملازم وهو يشير بيده:

ـ ثمة ثلاثة أو أربعة هناك. فلنتقدم في وثبات متسلسلة. يجب ألا نبقى ساكنين لأنهم سيحاصروننا. وعلينا ألا نسمح لهم بالفصل بيننا وبين الآخرين. غطني.

ودون أن ينتظر رده، نهض وانطلق يعدو. واصل مايتا مراقبة الصخور التي إلى اليمين وإصبعه على زناد مسدسه الرشاش، ولكن لم يظهر من هناك أي شبح. وبحث أخيراً عن باييخوس ورآه.. بعيداً، يشير إليه بأن يتقدم وبأنه سيغطي تقدمه. ينطلق راكضاً، وبعد خطوات قليلة يسمع صوت الرصاص من جديد، ولكنه لم يتوقف، بل واصل تقدمه ثم تبين له على الفور أن الملازم هو الذي يطلق النار. وعندما وصل إليه وجد إلى جانبه بيريكو تيموتشي وقاضي التحقيق. كان الفتى يذخر بندقيته بمخزن سعة خمس طلقات أخرجه من جعبة مثبتة على خصره. لقد كان يطلق النار إذن.

ـ وماذا عن أفراد الجماعتين الأخريين؟ـ سأل مايتا. وكان أمامهم حاجز صخري يمنعهم من الرؤية.

ـ لقد أضعناهم، ولكنهم يعرفون بأنه لا يمكنهم التوقف ـ قال ذلك باييخوس بحدة دون أن يتوقف عن التجول ببصره في محيط المكان. ثم أضاف بعد صمت قصير: ـ إذا ما حاصرونا سننتهي. يجب أن نواصل التقدم إلى أن يخيم الظلام. ففي الليل لن يكون ثمة خطر. لأنه ليست هناك مطاردة مجدية في الليل.

وفكر مايتا: «إلى أن يخيم الظلام». كم من الوقت بقي لذلك؟ ثلاث، خمس، ست ساعات؟ ولم يسأل باييخوس عن الساعة. بل دس يده في جعبته وتأكد مرة أخرى ـ لقد فعل ذلك عشرات المرات خلال اليوم ـ من أن لديه الكثير من مخازن الذخيرة الاحتياطية.

ـ لنتقدم اثنان اثنان ـ أمرهم باييخوس ـ. أنا والقاضي، وأنت

مع بيريكو. ونغطي تقدم بعضنا البعض. كونوا على حذر، ولا تتهاونوا، وليكن الركض مع الانحناء. هيا بنا أيها القاضي.

انطلق راكضاً، ولاحظ مايتا الآن أن قاضي السلام يحمل مسدساً في يده. من أين جاء به؟ لا بد أنه مسدس الملازم، لهذا السبب كان قراب مسدسه مفتوحاً. وعندئذ رأى ظهور شبحين بشريين فوق رأسه، ما بين سبطانات البنادق. وسمع صرخة: «استسلموا، عليكم اللعنة». فأطلق هو وبيريكو النار في الوقت نفسه.

ويقول لي دون أوخينيو:

ـ لم يقبضوا عليهم جميعاً في ذلك اليوم نفسه. لقد أفلت منهم اثنان من الفتيان: تيوفيلو بويرتاس وفيليثيو تابيا.

إنني أعرف هذه القصة من لسان بطليها، ولكنني لا أقاطعه لكي أرى نقاط التوافق ونقاط الخلاف. هناك بعض التفاصيل الزائدة وبعض التفاصيل الناقصة، ولكن رواية قاضي سلام كيرو تشبه إلى حد كبير الرواية التي سمعتها مسبقاً. فقد كان بويرتاس وفيليثيو في جماعة الطليعة، تحت قيادة كوندوري، وهي الجماعة الأولى التي اكتشفتها إحدى الدوريات التي انقسم إليها رجال الشرطة لتمشيط المنطقة. وعملاً بتعليمات بابيخوس، حاول كوندوري أن يواصل التقدم، وأن يصد الهجوم في الوقت ذاته، ولكنه سقط جريحاً بعد قليل. فأثار ذلك الهلع. وانطلق الفتيان يركضون تاركين البهائم مع حمولتها من الأسلحة. واختبأ بويرتاس وتابيا في مغارة فيسكاش. وبقيا هناك طوال الليل، وكادا أن يتجمدا من البرد. وفي اليوم التالي اجتازا الطريق وهما

جائعان، مضطربان، ومصابان بالرشح، ووصلا إلى خاوخا دون أن يكتشفهما أحد. وقد حضرا كلاهما إلى مفوضية الشرطة برفقة أبويهما.

ويؤكد القاضي:

ـ كان فيليثيو متورماً من الضرب المبرح الذي تلقاه في البيت لأنه يريد أن يكون ثورياً.

لم يبق الآن من أهالي كيرو الذين كانوا معنا تحت العريشة سوى اثنين من الشيوخ. وكلاهما يتذكران دخول ثينون غونثاليس مربوطاً إلى حصان، حافي القدمين، وقميصه ممزق، كما لو أنه قد تعامل بعنف مع رجال الشرطة، ووراءه كان البقية، وكانوا مقيدي الأيدي أيضاً، وأحذيتهم دون أربطة. وكان واحد منهم يبكي ـ لا أحد يتذكر أيهم ـ. يقولون إنه أسمر، وإنه واحد من الصغار. أكان يبكي لأنهم ضربوه؟ أم لأنه جريح، أو خائف؟ من يدري. ربما بسبب سوء حظ الملازم المسكين.

وهكذا واصلوا التسلق، والتسلق، اثنان اثنان، وبقوا على تلك الحال وقتاً بدا لمايتا ساعات، ولكنه لا يمكن أن يكون كذلك لأن ضوء النهار لم يتراجع ولو في أدنى الحدود. في الثنائيين اللذين انقسم إليهما باييخوس مع رجل القانون ومايتا مع بيريكو تيموتشي، أو باييخوس مع الفتى ومايتا مع القاضي، كان اثنان يركضان بينما يغطيهما الآخران، وكانوا يلتقون معاً بما يكفي لبث الحماسة واسترداد الأنفاس، ثم يواصلون الجري. وكانوا يرون وجوه الجنود في كل لحظة ويتبادلون إطلاق رصاص يبدو أنه لم يكن يصيب الهدف مطلقاً. لم يكن هناك ثلاثة أو أربعة مهاجمين

مثلمـا اعتقـد بـاييخوس، وإنمـا أكثـر بكـثير، إذ لا يمكـنهم أن ينتشروا بحيث يبدون وكـأنهم فـي أمـاكن مختلفة. لقـد كـانوا يطلون من الأجزاء العلوية، وهـم يظهـرون الآن مـن الجـانبين، مـع أن الجانب الأخطر هـو الأيمـن، حيث الحـاجز الـصخري القريـب جداً من الأرض التي يركضون فـيها. لقـد كـانوا يلاحقـونهم مـن حافـة القمـة، ومـع أن مايتـا كـان يعتقـد أحيانـاً بـأنهم قـد تجـاوزوهم وخلفـوهم وراءهـم، إلا أنهـم كـانوا يعـودون إلى الظهـور دومـاً. لم يكن يشعر بـالمرض؛ إنـه يشعر بـالبرد، أجل.. ولكـن جسده كـان يستجيب للجهود الهائلة، وللركض فـي مثل هـذا الارتفـاع. وفكـر: كيـف لم يُجـرح أحـد؟ فقـد أطلقـوا علـيهم كـثيراً مـن الرصـاص. المسألة هي فـي أن الحراس يتصرفون بحذر، يطلون برؤوسهم قليلاً ويطلقـون النـار بعـشوائية لمجـرد تنفـيذ الأوامـر، دون أن يتمهلـوا ليسددوا جيـداً، خوفـاً مـن أن يتحولـوا إلى هـدف سـهل للمتمـردين. راوده إحساس بأنها لعبة، وأنها طقوس صاخبة ولكنها غير مؤذية. هل ستستمر على هذا النحـو إلى أن يخيم الظـلام؟ هـل سـيتمكنون من الإفلات من رجال الشرطة؟ يبدو أنه من المستحيل مجـيء الليـل، وإطبـاق الظـلام علـى هـذه الـسماء المـنيرة. لم يكـن يـشعر بخمـود العزيمـة. وفكـر دون عجرفـة ودون شـجون: «مهمـا يكـن مـن أمـر، فإنك تقوم بما كنت تريده يا مايتا».

ـ جاهز يا دون أوخينيو. فلنركض. إنهما يغطياننا.

فرد عليه قاضي السلام ببطء شديد:

ـ اذهب أنت وحدك، ساقاي لم تعودا قـادرتين علـى الجـري. أنـا سـأبقى هنا. وخذ هذا معك أيضاً.

وبدلاً من أن يعطيه المسدس، رمى به إليه، فكان على مايتا أن ينحني ويلتقطه. وكان دون أوخينيو قد جلس مباعداً ما بين ساقيه. لقد كان يتعرق بغزارة وكان فمه معوجاً في تكشيرة جزعة، وكأنه يفتقد الهواء. وكان وضعه وهيئته كوضع وهيئة رجل وصل إلى أقصى حدود الصمود ولم يعد الإنهاك يؤثر فيه. فأدرك مايتا أنه لم تعد ثمة فائدة من الجدال معه.

ـ حظاً طيباً يا دون أوخينيو ـ قال له ذلك وانطلق يعدو. اجتاز بسرعة الثلاثين أو الأربعين متراً التي تفصله عن بابيخوس وبيريكو تيموتشي، دون أن يسمع إطلاق نار. وعندما وصل إلى حيث هما، وجدهما جاثيين ويطلقان النار. حاول أن يوضح لهما ما جرى لقاضي السلام، ولكنه كان يلهث بطريقة لم يخرج معها صوته. حاول وهو على الأرض أن يطلق النار فلم يستطع؛ لقد استعصى رشاشه. فأطلق الرصاصات الثلاث الأخيرة من المسدس، وهو يشعر بأنه يفعل ذلك لمجرد إطلاق النار. لقد كان الساتر الصخري قريباً جداً وكان هناك صف من البنادق المصوبة نحوهم: وكانت القبعات العسكرية تظهر وتختفي. سمع صرخات تهديد حملتها الريح إليهم بوضوح: «استسلموا، عليكم اللعنة»، «استسلموا يا أبناء العاهرة»، «شركاؤكم قد استسلموا جميعهم»، «صلوا على أرواحكم يا كلاب». وخطر له: «لديهم أوامر باعتقالنا أحياء». لهذا السبب لم يُجرح أحد. إنهم يطلقون النار لتخويفهم فقط. أيكون صحيحاً أن جماعة الطليعة قد استسلمت؟ أحس باطمئنان أكبر وحاول أن يحدث بابيخوس عن دون أوخينيو. ولكن الملازم قاطعه بحركة متحمسة:

ـ اركـضـا ، وأنـا سـأغطيكما ـ وأدرك مايتـا ، مـن صـوته وملامح وجهه أنه يشعر بالخطر حقاً هـذه المرة ، وأضاف الملازم: ـ بسرعة ، هذا مكان سيئ ، إنهم يحاصروننا. اركضا ، اركضا.

وربت على ذراع مايتا. انطلق بيريكو تيموتشي يعدو ، ونهض هـو وركـض أيضاً ، وسمع على الفور أزيـز رصاصات فـيما حولـه. ولكنـه لم يتوقـف، وبينمـا هـو يختنـق، أحـس بالجليـد يخـترق عـضلاته، عظامـه، دمـه، وواصـل الجـري، وبـالرغم مـن أنـه تعثـر وسقط مرتين، وفقد فـي إحداهما المسدس الذي كـان يحمله فـي يده اليسرى، إلا أنه نهض مستنداً على كلتا يديه وواصل الـركض بـاذلاً جهـوداً تفـوق طاقـة البـشر، إلى أن تراخـت سـاقاه وسـقط علـى ركبتيه. انكمش على نفسه على الأرض. وسمـع بيريكـو تيموتـشي يقول له:

ـ لقـد تجاوزنـاهم. أيـن هـو بـاييخوس؟ هـل تـراه أنـت ـ وكـان صمت طويـل، يتخللـه اللهاث قبـل أن يقـول الفتـى: ـ مايتـا ، مايتـا ، أظن أن أبناء العاهـرة هؤلاء قد أصابوه.

ومن خلال العرق الذي يغشى بصره بسحابة ضبابية ، لمح هنـاك فــي الأسـفل، حيـث بقـي الملازم لتغطيتهمـا ـ وكانـا قـد ركـضا حوالي مئتي متر ـ تحرك عدد من الأشباح المائلة إلى الخضرة.

ـ فلنـركض، فلنـركض ـ لهـث وهـو يحـاول النهـوض. ولكـن ذراعـاه وسـاقاه لم تـسعفه ، فزمجـر عندئـذ : ـ أركـض أنـت يـا بيريكو. أنا سأغطيك. أركض، أركض.

ـ لقـد أحـضروا بـاييخوس فــي الليـل، وأنـا نفسي رأيتـه، أولم تروه أنتم؟ ـ يقول ذلك قاضي السلام. ويؤيد المسنان الآخران فـي

العريشة ما يقوله بتحريك رأسيهما. ويشير دون أوخينيو مجدداً إلى البناء الذي يحمل رسم شعار البلاد، مقر الحاكم، ويضيف: ـ رأيته من هناك. فقد كانوا يحتجزوننا نحن الأسرى في تلك الغرفة ذات الشرفة. لقد أحضروه على حصان، وكان مغطى بحرام تكلفوا مشقة في نزعه لأنه كان ملتصقاً بالدم الذي أحدثته الطلقات. وقد كان ميتاً تماماً لدى الوصول إلى كيرو.

أسمعه يتكلم حول كيف قُتِلَ ومن الذي قتل باييخوس. إنه موضوع سمعت الكثير عنه من كثيرين في خاوخا وفي ليما، حتى صرت أعرف جيداً أنه لم يعد هناك من يمكنه أن يقدم لي تفاصيل لا أعرفها. وقاضي سلام كيرو لا يساعدني في توضيح أي واحدة هي الصحيحة بين كل الفرضيات. أيكون قد مات في أثناء تبادل إطلاق النار ما بين المتمردين وحراس الشرطة. أم أنه جُرح فقط ثم أجهز عليه الملازم أول دونغو، انتقاماً للإذلال الذي عرّضه له عندما استولى على مفوضيته وحبسه في زنزانتها. أم أنهم قبضوا عليه سليماً وأعدموه، بناء على أوامر عليا، هناك في أعالي جبال هوايخاكو، ليكون عبرة لغيره من الضباط ذوي الميول الثورية. لقد أورد قاضي السلام كل هذه الاحتمالات في منولوجه التذكري، وإن يكن قد أوحى إليّ ـ بشيء من الحذر ـ بأنه يميل إلى نظرية أن الملازم الشاب قد أُعدم على يد الملازم الأول دونغو. إنه الانتقام الشخصي.. المواجهة بين المثالي والمتوافق مع النظام، بين المتمرد والسلطة: إنها صور تتوافق مع الشهية الرومانسية لشعبنا. وهذا لا يعني بالطبع أنه لا يمكن لذلك الاحتمال أن يكون صحيحاً. المؤكد هو أن هذه النقطة من القصة ـ نقطة الظروف التي مات

فـيها باييخوس ـ لن تتضح أيضاً. ولن يتضح كذلك عدد الرصاصات التي تلقاها: إذ لم يجر تشريح للجثة، وتقرير الوفاة لا يذكر ذلك. أما الشهود فيقدمون أشد الروايات تباعداً: ابتداء من رصاصة وحيدة في العنق وحتى الحديث عن جسد أشبه بمصفاة. الشيء الوحيد المؤكد هو أنهم أحضروه إلى كيرو جثة هامدة، على صهوة جواد، وأنهم نقلوه من هنا إلى خاوخا حيث تسلمت الأسرة الجثمان في اليوم التالي لنقله إلى ليما. وقد دفن في مقبرة سوركو القديمة. وهي مقبرة لم تعد تُستخدم اليوم، على قبورها لوحات حجرية مخربة، وقد غزت الأعشاب ممراتها. وفيما حول قبر الملازم الذي لا يحمل سوى اسمه وتاريخ وفاته، نمت أجمة من الأعشاب البرية.

ـ وهل رأيت مايتا عندما أحضروه كذلك يا دون أوخينيو؟

مايتا الذي لم يكن يرفع بصره عن الحراس المتجمعين هناك في الأسفل، حيث بقي باييخوس، كان يسترد أنفاسه.. وحياته. وكان ما يزال على الأرض، يسدد مسدسه الرشاش المستعصي إلى الفراغ. لقد كان يحاول عدم التفكير في باييخوس، وبما يمكن أن يكون قد حدث له، وإنما في استعادة قواه، والنهوض والوصول إلى حيث بيريكو تيموتشي. عب الهواء، ونهض، وانطلق يجري وهو منحن على نفسه، إلى أن اضطر إلى التوقف. ارتمى على الأرض وهو يغمض عينيه، منتظراً أن يخترق الرصاص جسده. ستموت يا مايتا، هذا هو ما يعنيه أن تكون ميتاً.

ـ ماذا سنفعل، ماذا سنفعل؟ ـ تلعثم الفتى بجانبه.

ـ أنا سأغطيك. ـ لهث مايتا محاولاً أن يشهر مسدسه الرشاش ويصوبه.

وأجهش الفتى:

ـ إننا محاصران. سيقتلوننا.

ومن خلال العرق الذي يقطر من جبهته، رأى مايتا حراس الشرطة في كل مكان، بعضهم ينبطحون أرضاً وبعضهم يجثون، وبنادقهم موجهة إليهما. وكانوا يحركون أفواههم وتوصل إلى سماع بعض الأصوات غير المفهومة. ولكنه لم يكن بحاجة إلى الفهم ليعرف ما الذي يصرخون به: «استسلما! ألقيا سلاحيكما!» الاستسلام؟ سيقتلونهما في كل الأحوال؛ أو أنهم سيخضعونهما للتعذيب. وشد بكل قواه على الزناد، ولكن المسدس الرشاش مازال مستعصياً. حاول معالجة أكرته لبضع ثوان دون جدوى وهو يسمع بيريكو تيموتشي يبكي.

وزمجر صوت قريب جداً:

ــ ألقيا سلاحيكما! ارفعا أيديكما إلى رأسيكما! وإلا فإنكما ميتان.

فقال مايتا للفتى:

ـ لا تبك، لا تمنحهم هذه المتعة. هيا يا بيريكو، ألق بندقيتك.

ألقى مسدسه الرشاش بعيداً، وحذا حذو بيريكو تيموتشي، فنهض وهو يضع يديه على رأسه.

ـ أيها العريف ليتوما! ـ بدا الصوت كأنه يخرج من مكبر للصوت ـ فتشهما. ولدى أول حركة يقومان بها سأحرقهما.

ـ حاضر يا سيدي الملازم الأول.

أشباح بالزي العسكري تحمل بنادق راحت تقترب راكضة من كل الجهات. انتظر دون حراك أن يصلوا إليه ـ كان التعب والبرد

يزدادان فـي كل ثانية ـ، وكـان موقناً من أنهم سيضربونه. ولكنه لم يشعر إلا بالدفش بينما هم يفتشونه مـن قدميـه إلى رأسـه. انتزعـوا منـه الجعبة التي على خصره، وكـانوا يـسمونه «لـص مـواش» و«حرامـي»، وأمروه بأن ينـزع رباط حذائه. ثم ربطوا يديه وراء ظهره بحبـل. كـانوا يفعلون الشيء نفسه مع بيريكو تيموتشي، وسمع صوت العريف ليتوما يـوبخ الفتـى، ويسأله عمـا إذا كـان لا يـشعر بالخجـل مـن التحـول إلى «لص مواش» وهو ما يزال «جرواً صغيراً». لصوص مواش؟ أهم يظنونهم لـصوص مـواشٍ؟ غالـب رغبتـه فـي الـضحك مـن معتقليـه. وفـي هـذه اللحظـة بالـذات وجهـوا إلى ظهـره ضـربة بعقـب بندقيـة وأمـروه بـأن يتحرك. فعل ذلك، مجرجراً قدميه اللتين كانتا تتراقصان فـي حذائـه المفلت. لقـد بـدأ يفقـد وضـع الآلـة الـتي كـان قـد تحـول إليهـا؛ وصـار يفكـر، يتشكك، يتذكـر، ويستجوب نفسه. أحس بأنه يـرتعش. ألم يكـن مـن الأفـضل لـه أن يكـون ميتـاً علـى أن يتجـرع كـؤوس المـرارة التي تنتظره؟ لا يا مايتا، لا.

ويقول لي قاضي السـلام:

ـ التأخر فـي العودة إلى خاوخا لم يكـن بـسبب القتيلين اللـذين سقطا. بل بسبب الأمـوال. أيـن ذهبـت النقـود؟ لقـد جـن جنـونهم وهـم يبحثـون عنهـا دون أن يجـدوا لهـا أثـراً. كـان مايتـا وثينـون غونثـاليس والفتيان يقسمون بـأن النقـود كانـت محملـة علـى البهـائم، باسـتثناء المبلغ الصغير الذي أعطوه للسيدة تيوفراسـيا سـوتو، أرملـة المـاراث، مقابـل البغـال الـتي اسـتأجروها منهـا، ولخيرتـروديس سـابوياكو مقابـل الغـداء. وكـان الجنـود الـذين اعتقلـوا كونـدوري يقـسمون بــأنهم لم يجــدوا شـيئاً علــى ظهــور البهــائم، اللــهم إلا البنــادق

والرصاص وبعض قدور الطعام. وانقضى وقت طويل في الاستجواب، محاولين معرفة ما جرى للنقود. ولهذا السبب وصلوا إلى خاوخا عند الفجر.

نحن أيضاً سنصل متأخرين أكثر مما هو مقدر. لقد تسربت منا الساعات ونحن في عريشة ساحة كيرو، وها قد بدأ الغروب يخيم بسرعة. تضيء الشاحنة مصابيحها: لا نميز في المشهد الوارف سوى جذوع أشجار شاحبة متملصة وصخور وأحجار لامعة نتقافز فوقها في الشاحنة. وأفكر بالتباس في إمكانية الوقوع صدفة في كمين عند أحد منحنيات الدرب، أو في انفجار لغم، أو في الوصول إلى خاوخا بعد موعد حظر التجوال وتعرضنا للاعتقال.

ويتساءل دون أوخينيو دون أن يتوقف عن تذكر تلك الوقائع:

ـ ما الذي جرى للنقود التي استولوا عليها إذن؟ هل تقاسمها رجال الشرطة فيما بينهم؟

هذا لغز آخر من الألغاز التي بقيت طافية دون حلّ. ولكن لدي في هذه الحالة على الأقل رؤية متماسكة. فكثرة الأكاذيب تغطي على القضية. كم كان المبلغ الذي استولى عليه المتمردون في خاوخا؟ لدي انطباع بأن موظفي المصرفين قد ضخموا الأرقام وأن الثوريين لم يعرفوا مقدار الأموال التي أخذوها، لأنه لم يتح لهم الوقت لعدّ الغنيمة. وكان المال موضوعاً في أكياس على ظهور البغال. هل هناك من يعرف كمية النقود التي كانت في الأكياس؟ ربما لا. وربما دسّ بعض من شاركوا في القبض على المتمردين، شيئاً من المال في جيوبهم، ولهذا فإن المبلغ الذي أعيد

إلى المصرفين يكاد لا يتجاوز الخمسة عشر ألف سول، وهو مبلغ أقل بكثير مما أعلن المصرفان عن فقدانه.

وأفكرُ بصوت عالٍ:

- ربما كان هذا هو أشد الأمور حزناً في القضية. فما بدأ على أنه ثورة - وأعرف أنها ثورة بلا أساس ولا رأس، ولكنها ثورة على أي حال - انتهى إلى خلاف حول المبلغ الذي سرقوه ومن الذي احتفظ بالأموال المسروقة.

- إنها شؤون الحياة - فلسف دون أوخينيو الأمر.

كان مايتا يتصور ما الذي ستقوله صحف ليما غداً وبعده، وما الذي سيقوله رفاقه في ح ع ث (ت) وخصومهم في الحزب الشيوعي حين يقرؤون الروايات المبالغ فيها، والمتخيلة، والحسية، والصفراء التي ستنشرها الصحف حول ما حدث. وتصور الجلسة التي سيعقدها ح ع ث (ت) ويكرسها لاستخلاص الدروس الثورية من الحدث، وكاد أن يسمع تقريباً كل واحد من رفاقه القدماء يؤكد بنبرته ولهجته التحليل العلمي، الماركسي، التروتسكي الذي توصل إليه الحزب والذي يبرر تماماً عدم ثقة الحزب ورفضه المشاركة في مغامرة برجوازية صغيرة محكومة بالإخفاق. هل سيلمّح أحدهم إلى أن ذلك الرفض وعدم الثقة قد ساهما في الكارثة؟ لن يخطر مثل ذلك لأذهانهم. وهل كانت ستتغير نتيجة التمرد لو أن كل كوادر ح ع ث (ت) قد ساهموا فيه بصورة حاسمة؟ وفكر: أجل. لأنهم كانوا سيجرون معهم العمال المنجميين والأستاذ أبييوث وجماعة ريكران الذين تخلفوا، ولكان كل شيء قد جرى بتخطيط وتنفيذ أفضل، ولكانوا الآن بالذات

يتوجهون نحو مزرعة آينا واثقين وآمنين. هل أنت نزيه فيما تفكر فيه يا مايتا؟ أتحاول التفكير بصفاء؟ لا. فالوقت مبكر على ذلك لأن كل شيء ما يزال قريباً جداً. حين ينقضي كل هذا، سيكون لا بد من تحليل ما جرى منذ البداية، وبهدوء ورأس بارد، وتحديد إذا ما كان التمرد سيكون أوفر حظاً بمشاركة الرفاق في ح ع ث (ت)، أم أن ذلك ما كان سيؤدي إلا إلى تأخير الهزيمة لبعض الوقت وجعلها أكثر دموية. أحس بالأسى وبالرغبة في إسناد رأس أناتوليو إلى صدره، وسماع ذلك التنفس المتقطع، المتناسق، وشبه الموسيقي، حين يغفو منهوكاً فوق جسده. أفلتت منه زفرة وانتبه إلى أن أسنانه تصطك. أحس بضربة من عقب بندقية في ظهره: «أسرع». كلما ظهرت صورة باييخوس في ذهنه، يصبح البرد غير محتمل ويبذل جهداً لاستبعادها. إنه لا يريد التفكير فيه، ولا التساؤل إذا ما كان معتقلاً أو جريحاً أو ميتاً، وإذا ما كانوا يضربونه أو يجهزون عليه، لأنه يعرف أن الحزن سيُفقده قواه وقدرته على تحمل ما هو آت. سيحتاج إلى قدر من الشجاعة أكبر من تلك اللازمة لتحمل الريح الصرصر التي تصفع وجهه. إلى أين أخذوا بيريكو تيموتشي؟ أين هم الآخرون؟ أيكون بعضهم قد تمكن من الفرار؟ كان يمضي وحيداً، ما بين فصيلة من شرطة الحرس الأهلي. وكانوا ينظرون إليه أحياناً بطرف عيونهم مثلما ينظرون إلى حيوان نادر، ثم ينسون ما حدث للتو، ويسلون أنفسهم بتبادل الحديث، والتدخين وأيديهم في جيوبهم، مثل من هم عائدون من نزهة. وفكر: «لن أصاب بدوار المرتفعات مطلقاً بعد اليوم». حاول التعرف على المكان بتذكر الطريق الذي كانوا قد

اجتازوه صعوداً، ولكن المطر لم يكن يهطل الآن، وبدا المشهد مختلفاً: فالألوان أشد تبايناً، والخطوط أقل حدة. كانت الأرض موحلة وكان حذاؤه يفلت من قدمه بكثرة، فيضطر إلى التوقف لانتعاله، وفي كل مرة يدفعه الحارس الذي يسير وراءه. هل أنت نادم يا مايتا؟ هل تصرفت بتسرع؟ هل كنت متهوراً؟ لا، لا، لا. بل على العكس. فعلى الرغم من الإخفاق، ومن الأخطاء، ومن عدم الحذر والتبصر، فهو يشعر بالفخر. فللمرة الأولى يشعر بأنه قد فعل شيئاً يستحق الذكر، وبأنه قد دفع الثورة ـ وإن يكن بصورة طفيفة ـ إلى الأمام. ولن يعذبه، مثلما كان يعذبه في كل مرة يُسجن فيها، الإحساس بأنه قمامة. لقد أخفقوا، ولكن الدليل أصبح موجوداً: فأربعة رجال مصممين وحفنة من التلاميذ تمكنوا من السيطرة على مدينة، وتجريد قوات النظام من أسلحتها، والاستيلاء على مصرفين، والهرب إلى الجبال. إن الثورة ممكنة، وقد أثبتوا ذلك. سيكون على اليسار من الآن فصاعداً أن يأخذ هذه السابقة بعين الاعتبار: فهناك في البلاد من لم يكتف بالتبشير بالثورة، بل حاول صنعها. وفكر: «ها أنت ذا تعرف ما هي» وأفلتت في الوقت نفسه إحدى فردتي حذائه، وبينما هو يحاول انتعالها تلقى ضربة عقب أخرى.

أيقظتُ دون أوخينيو الذي استغرق في النوم منذ منتصف الطريق، وأنزلته عند بيته على مشارف خاوخا وأنا أشكره على مرافقته لي، وعلى ذكرياته. ثم واصلتُ بعد ذلك إلى نزل باكا. ما يزال المطبخ مفتوحاً ويمكنني أن آكل شيئاً، ولكنني أكتفي بزجاجة بيرة. وأخرج لأشربها على الشرفة الصغيرة فوق البحيرة.

تبدو المياه صافيه لامعة وأيائك الضفة مشعة تحت القمر الذي يبدو مستديراً وأبيض في سماء مفعمة بالنجوم. في الليل تُسمع في باكا كل أنواع الصخب: صفير الريح، نقيق الضفادع، شدو الطيور الليلية. ولكن لا شيء الآن. فالحيوانات صامتة في هذه الليلة. وزبونا النزل الوحيدان هما وكيلا مبيعات متجولان، يبيعان صنفاً من البيرة، وأنا أسمعهما يتحدثان في الجانب الآخر من الزجاج، في قاعة الطعام.

هذه هي نهاية الحدث المركزي في تلك القصة، وعقدتها الدرامية. إنه لم يدم اثنتي عشرة ساعة. فقد بدأ عند الفجر، بالاستيلاء على السجن، وانتهى قبل الغسق، بموت باييخوس وكوندوري واعتقال البقية. أحضروهم إلى مفوضية خاوخا، حيث استبقوهم مدة أسبوع ثم نقلوهم بعد ذلك إلى سجن هوانكايو، وبقوا فيه شهراً. وهناك بدؤوا بإطلاق سراح الفتيان بتحفظ بناء على أحكام قاضي الأحداث الذي كان يعهد بهم إلى مسؤولية أسرهم، في نوع من الإقامة الجبرية. أما قاضي سلام كيرو فقد عاد بعد ثلاثة شهور إلى منصبه «نظيفاً من الغبار والقش» فعلاً. ونُقل مايتا وثينون غونثاليس إلى ليما، وسُجنا في سجن سيستو، ثم في سجن فرونتون ثم أعيدا مرة أخرى إلى سجن سيستو. وأفرج عن كليهما في عفو عام ـ دون أن تجرى لهما محاكمة على الإطلاق ـ، بعد بضع سنوات، حين تولى رئيس جديد منصبه في البيرو. ومازال ثينون غونثاليس يدير مزرعة آنيا منذ إعلان الإصلاح الزراعي عام 1971، وهو ينتمي إلى حزب العمل الشعبي وصار قائداً له في المنطقة كلها.

في الأيام الأولى، اهتمت الصحف كثيراً بالأحداث وكرست صفحات أولى وعناوين كبيرة وافتتاحيات ومقالات لما اعتبر محاولة تمرد شيوعية، وذلك بسبب سوابق مايتا. وظهرت في جريدة **لابرنسا** صورة له، لا يمكن التعرف عليه فيها، وهو وراء قضبان زنزانة. ولكن الحديث حول الموضوع توقف عملياً بعد أسبوع. وفيما بعد، عندما ظهرت في سلسلة الجبال وفي الأدغال بؤر حرب عصابات متأثرة بالثورة الكوبية في أعوام 1963، 1964، 1965، 1966، لم تتذكر أي صحيفة أن السابقة الأولى لتلك المحاولات لدفع الشعب إلى انتفاضة مسلحة من أجل إقامة الاشتراكية في البيرو قد جرت في محافظة خاوخا، وليس هناك من يتذكر اليوم أبطالها.

عندما توجهت للنوم، سمعت أخيراً صوتاً إيقاعياً. لا، ليست أصوات طيور ليلية؛ إنه صوت الريح التي تدفع مياه بحيرة باكا إلى شرفة النزل. هذه الموسيقى الناعمة وسماء ليل خاوخا ذات النجوم البديعة توحي ببلاد وديعة، أناسها متصالحون وسعداء. ولكنها تكذب، مثلما تكذب الروايات المتخيلة.

الفصل العاشر

أول مرة جئت فيها إلى سجن لوريغانتشو كانت منذ خمس سنوات. فسجناء العنبر الثاني دعوني لافتتاح مكتبة في العنبر، إذ خطرت لأحدهم فكرة إطلاق اسمي عليها، وقبلت الدعوة يدفعني الفضول إلى التأكد من صحة ما كنت قد سمعته عن الأوضاع في سجن ليما.

من أجل الوصول إلى هناك لا بد من المرور قبالة ميدان مصارعة الثيران، واجتياز حي ثاراتي، ثم المرور في ضواح هامشية فقيرة، وأخيراً المزابل التي تتغذى عليها الخنازير في ما يسمى «زرائب الخنازير السرية». الطريق تفقد الإسفلت وتمتلئ بالحفر. في ذلك الصباح الرطب، بدت عنابر السجن الإسمنتية المطموسة بالضباب، دون لون محدد مثل الرمال المحيطة بها. بل كان يظهر من بعيد جداً أن عدداً كبيراً من النوافذ قد فقدت كل زجاجها، هذا إذا كان لها زجاج في يوم من الأيام، وأن مبعث حيوية تلك المربعات المتناظرة هي الوجوه، والعيون التي تتطلع إلى الخارج.

ما أتذكره من تلك الزيارة الأولى هو الازدحام، أولئك السجناء الستة آلاف الذين يختنقون في أماكن مشيدة لاستيعاب ألف وخمسمئة، والقذارة التي لا توصف، وأجواء العنف الراكد الذي يوشك أن ينفجر تحت أي ذريعة في اشتباكات وجرائم. وبين تلك

الكتلة منــزوعة التفرد التي هـي أقـرب إلى عصابة رعـاع أو قطيـع ضوار منها إلى الجماعة البشرية، كان مايتا آنذاك، وأنا متأكد من ذلك الآن. وربما أكون قد نظرت إليه، بل ربما تبادلت معه عبارة ما. هل كان حينذاك في العنبر الثاني؟ هل حضر افتتاح المكتبة؟

العنابر تصطف في صفين، العنابر ذات الأرقام الفردية في المقدمة وذات الأرقام الزوجية في الخلف. ويكسر التناسب عنبر منفرد، يستند إلى الأسيجة والأسوار الغربية، حيث يعزلون المخنثين. العنابر الزوجية مخصصة للسجناء أصحاب السوابق أو مرتكبي الجنايات الكبرى، بينما يشغل العنابر الفردية السجناء المستجدون، ممن لم يحكم عليهم بعد أو من يقضون أحكاماً خفيفة. وهذا يعني أن مايتا في السنوات الأخيرة كان من ساكني أحد العنابر الزوجية. والسجناء موزعون في العنابر حسب الأحياء التي ينحدرون منها: حي أغوسطينو، فييّا إل سلفادور، لافكتوريا، حي المستقبل. في أي حي صنفوا مايتا؟

السيارة تتقدم ببطء وأنتبه إلى أنني أخفف السرعة في كل لحظة، دون وعي مني، محاولاً أن أؤخر قدر الإمكان هذه الزيارة الثانية إلى لوريغانتشو. أترعبني فكرة المواجهة في النهاية مع الشخص الذي كنت أستقصي أخباره، وأستجوب الناس عنه، وأتخيل وأكتب عنه منذ سنة؟ أم أن اشمئزازي من هذا المكان يفوق فضولي في التعرف على مايتا؟ عند انتهاء زيارتي الأولى تلك، فكرت: «ليس صحيحاً ما يقال عن أن السجناء يعيشون مثل حيوانات: الحيوانات لديها مجال أوسع للحركة؛ وحظائر

الكلاب، والمداجن، والإسطبلات فيها شروط صحية أفضل من لوريغانتشو.»

ما بين العنابر يوجد ما يسمى، بسخرية، جادة أونيون، وهو ممر ضيق ومزدحم يكاد يكون مظلماً في النهار وضبابياً في الليل، وفيه تحدث أشد الصدامات دموية بين عصابات السجن وقتلته، وهناك يزايد القوادون على مخنثيهم. لقد كان ماثلاً في ذهني ما كان يمثله ممر الكوابيس ذاك، بين مملكة حيوانات المصائب المسرنمة، من زنوج شبه عراة ومولدين موشومين، وخلاسيين بشعور مجعدة، وبيض مخبولين وملتحين، وأجانب ذوي عيون زرق وقروح، وصينيين ضامرين وهنود متكورين إلى جانب الجدران ومجانين يكلمون أنفسهم. أعرف أن مايتا يدير منذ سنوات كشكاً للأطعمة والمشروبات في جادة أونيون. ومهما بحثت، لا تتوصل ذاكرتي إلى تذكر كشك البيع في الممر الخانق. أتراني كنت مضطرباً جداً فلم أنتبه؟ أم أن الكشك كان مجرد بطانية على الأرض، يعرض عليها مايتا بضاعته من العصير والفواكه والسجائر والمياه الغازية؟

من أجل الوصول إلى العنبر الثاني كان علي أن أمر حول العنابر ذات الأرقام الفردية وأجتاز حاجزين من الأسلاك. وقد قال لي مدير السجن وهو يودعني عند الحاجز الأول إنني سأواصل التقدم على مسؤوليتي من هناك إلى الأمام، لأن الحراس الجمهوريين لا يدخلون ذلك القطاع كما لا يدخله أي شخص يحمل سلاحاً نارياً. وما كدت أجتاز سور القضبان الحديدية حتى انقض علي حشد كبير، وكانوا كلهم يومئون ويتكلمون معاً. فأحاط

بـي أفـراد الوفـد الـذين دعـوني، وتقـدمنا هـكـذا: أنـا فـي وسـط الحلقـة، وفـي خارجهـا حـشد مـن الـسجناء الـذين ظنـوا أنـني أحـد المسؤولين، فراحـوا يعرضـون قضاياهم، ويهـذرون، ويحتجـون علـى إجـراءات التعـسف، ويـصرخون ويطـالبون بالاهتمـام بهـم. كـان بعـضهم يعـبر عمـا يريـده بتماسـك، ولكـن معظمهـم يفعلـون ذلـك بصورة مشوشة. ولاحظت أنهم جميعهم هائجون، عنيفون، طائشون. وبينمـا نحـن نمـشي، وجـدت إلى يـساري، تفـسيراً للنتانـة الراسـخة وسـحب الـذباب: فقـد كانـت هنـاك مزبلـة يبلـغ ارتفاعهـا متـراً حيـث تراكمـت دون شـك فـضلات الـسجن علـى امتـداد شـهور وسـنوات. وكان هناك سجين ينام دون اهتمام بين الفضلات. لقـد كـان أحـد المجانين الذين يُوزَّعون عـادة علـى العنـابر الأقـل خطـورة، أي العنـابر ذات الأرقام الفردية. أتذكر أنني قلت بعد زيارتي الأولى تلك، لـيس الغريب هو وجود مجانين فـي سجن لوريغانتشو، وإنمـا الغريب هـو أن يكون عددهم قليلاً إلى ذلـك الحـد، وأن الـستة آلاف سـجين لم يتحولوا جميعهم إلى الجنون فـي هذا العـار المـذل. ومـاذا لـو أن مايتـا قد جنّ فـي هذه السنوات؟

لقد عاد مرتين أخريين إلى السجن بعـد أن أمـضى أربـع سـنوات بـسبب أحـداث خاوخـا، المـرة الأولى بعـد سـبعة شـهور مـن إطـلاق سراحه فـي عفو عام. ومن الصعب جداً إعـادة بنـاء قصته منـذ ذلـك الحين - إنها قصة بوليسية وجزائية -، لأنـه علـى العكـس مـن تلـك الواقعـة، لم يكـن ثمـة وثـائق تقريبـاً حـول الأعمـال الـتي اتهـم بالمـشاركة فـيها، ولا شـهود يرغبـون فـي فـتح أفـواههم. والنبـذ الـصحفـية الـتي تمكنـت مـن العثـور عليهـا، فـي قـسم أرشـيف

الصحف في المكتبة الوطنية، هي موجزة إلى حد من المستحيل معه معرفة الدور الذي لعبه في عمليات السطو تلك التي كان بطلها كما يبدو. ومن المستحيل كذلك معرفة إذا ما كانت تلك العمليات سياسية، أم مجرد جنح عادية. ومن معرفتي بمايتا يمكنني أن أفكر بأنه من غير المحتمل ألا تكون عمليات سياسية، ولكن ما الذي أعنيه بـ «معرفتي بمايتا»؟ فمايتا الذي استقصيت عنه كان عمره حوالي أربعين سنة. وعمر من هو مايتا اليوم يزيد على الستين. أيكون هو نفسه؟

في أي عنبر من عنابر سجن لوريغانتشو أمضى يا ترى هذه السنوات العشر الأخيرة؟ أهو العنبر الرابع، أم السادس، أم الثامن؟ لا بد أن هذه العنابر جميعها مماثلة تقريباً لذلك العنبر الذي عرفته: إنها حجرات منخفضة السقف، باهتة الضوء (عندما لا يكون التيار الكهربائي مقطوعاً)، باردة ورطبة، لها نوافذ مزودة بقضبان حديدية وفيها حفرة تشبه البالوعة، دون أثر لمراحيض، حيث امتلاك فسحة للاستلقاء والنوم، مابين البراز والحشرات والفضلات، هو حرب يومية. وخلال احتفال افتتاح المكتبة ـ مجرد صندوق مطلي، فيه حفنة من الكتب المستعملة ـ رأيت عدداً من السكارى يترنحون. وعندما سكبوا في علب من الصفيح شراباً للنخب، عرفت أنهم يسكرون بخمر من اليكة المخمرة، وهي خمرة قوية جداً، تصنع في العنابر نفسها. هل يسكر بهذه الخمرة أيضاً زميل دراستي المزعوم في لحظات الاكتئاب أو الانشراح؟

الواقعة التي أعادت مايتا إلى السجن، بعد حادثة خاوخا، منذ إحدى وعشرين سنة، جرت في حي لافيكتوريا، بالقرب من

الشارع الذي كان مصدر عار للحي، لأنه وكر يعج بالمومسات: إنه شارع هواتيكا. وتقول صحيفة لاكرونيكا، وهي الصحيفة الوحيدة التي تحدثت عن القضية، إن ثلاثة أوغاد استولوا على كراج يستخدم كورشة للميكانيكي تيودورو رويث كانديا. وعندما وصل هذا الأخير إلى المكان، في الساعة الثامنة صباحاً، وجد ثلاثة أشخاص ينتظرونه في الداخل وهم يحملون المسدسات. وبالطريقة نفسها وقع أسيراً في أيديهم كذلك صانعه المتدرب إليسيو كارابياس لوبيث. وكان هدف المهاجمين هو المصرف الشعبي. ففي عمق الكراج ثمة نافذة تنفتح على أرض خلاء تطل عليها من الجهة الأخرى البوابة الخلفية لذلك الفرع المصرفي. وقد كانت هناك شاحنة صغيرة تدخل إلى تلك الأرض الخلاء عند الظهيرة كل يوم، فيخرجون من البوابة الخلفية الأموال التي تودع في المصرف لنقلها إلى المكتب المركزي، أو يُدخلون إلى المصرف النقود التي يرسلها إليه المصرف الأم من أجل معاملاته. وقد بقوا حتى ذلك الموعد في الورشة مع أسيريهم. وكانوا يراقبون من خلال النافذة ويدخنون. وقد كانوا يغطون وجوههم، ولكن صاحب المحل وصانعه أكدا أن أحد المهاجمين هو مايتا. بل قالوا أكثر من ذلك: إنه هو من كان يصدر الأوامر.

عندما سُمع صوت محرك سيارة، قفزوا من النافذة إلى الأرض الخلاء. والحقيقة أنه لم يحدث إطلاق نار. فقد فاجأ المهاجمون السائق والحارس وجردوهما من الأسلحة حين كان موظفو المصرف قد وضعوا في الشاحنة كيساً مختوماً يضم مبلغ ثلاثة ملايين سول. وبعد أن أجبروهما على التمدد على الأرض، فتح أحد

الأوغاد بوابة الأرض الخلاء المؤدية إلى جادة 28 تموز وتعلق راكضاً بالشاحنة التي كان رفيقاه قد صعدا إليها مع الغنيمة. خرجوا مسرعين. وبسبب العصبية أو بسبب خراقة السائق، صدمت الشاحنة مجلخ سكاكين وانحرفت لتصطدم بسيارة تكسي. وقد انقلبت الشاحنة، كما تقول جريدة لاكرونيكا، واستقرت مقلوبة وعجلاتها إلى أعلى. ولكن اللصوص تمكنوا من الخروج منها والهرب. تم إلقاء القبض على مايتا بعد ساعات من ذلك. ولكن الخبر لا يقول إذا ما جرى استرداد النقود، كما أنني لم أستطع أن أستقصي إذا ما تم اعتقال الشريكين الآخرين فيما بعد.

ولم أتمكن كذلك من معرفة إذا ما كان مايتا قد حوكم بسبب عملية السطو. وثمة تقرير بوليسي حصلت عليه من مخفر شرطة لافكتوريا يورد، مع بعض التفاصيل الزائدة وبعض التفاصيل الناقصة، ما أورده خبر لاكرونيكا (وقد أتلفت الرطوبة ورقة التقرير بحيث صار من الصعب فك حروفه). ليس هناك أي أثر لمذكرة تحقيق قضائي. وفي ملفات وزارة العدل، حيث يُحتفظ بإحصاء المتهمين واستنطاقهم، تبدو القضية في ملف مايتا مشوشة جداً. ولكن هناك تاريخ مثبت ـ 16 نيسان 1963 ـ يجب أن يكون اليوم الذي نُقل فيه من مركز الشرطة إلى السجن، ثم تلي ذلك إشارة تقول: «محاولة سطو على مؤسسة مصرفية، مع وقوع جرحى ومصابين برضوض، إضافة إلى اختطاف، وحادث مروري وصدم عابر سبيل»، وأخيراً ذكر القاضي المسؤول عن القضية. وليست هناك معلومات أخرى. من المحتمل أن يكون التحقيق القضائي قد تأجل، أو أن يكون القاضي قد توفي أو فقد منصبه وتعطلت

القضايا كلها، أو ربما يكون ملف التحقيق قد ضاع بكل بساطة. كم سنة بقي مايتا في سجن لوريغانتشو بسبب هذه الحادثة؟ لم أتوصل إلى معرفة ذلك أيضاً. فتاريخ دخوله السجن مسجل ولكن لا شيء عن تاريخ خروجه. هذا أحد الأشياء التي أحب أن أسأله عنها. وقد أضعت أثره على كل حال إلى ما قبل عشر سنوات، حين رجع مرة أخرى إلى السجن. وفي هذه المرة حوكم وفق الأصول وصدر بحقه حكم بالحبس خمس عشرة سنة بتهمة «الابتزاز، والخطف، والاعتداء الإجرامي الذي أدى إلى خسارة حياة». فإذا كانت التواريخ الواردة في الملف دقيقة، فإنه موجود منذ أقل من إحدى عشرة سنة بقليل في سجن لوريغانتشو.

لقد وصلتُ أخيراً. أنصاعُ للإجراءات: تفتيش من القدمين حتى الرأس يقوم به حراس جمهوريون، وتسليم وثائقي الشخصية التي ستبقى محجوزة في مركز الحراسة حتى انتهاء الزيارة. وكان مدير السجن قد وجه تعليمات بتوصيلي إلى مكتبه. وقد قادني مساعد يرتدي الملابس المدنية إلى هناك، بعد اجتياز فناء، خارج المنطقة المسورة، يمكن السيطرة منه على السجن. هذا القطاع هو الأكثر نظافة والأقل اختلاطاً في السجن.

يقوم مكتب المدير في طابق ثان من بناء إسمنتي، بارد ومقشر الطلاء. إنه غرفة صغيرة لا يكاد يوجد فيها سوى طاولة حديدية وكرسيين. الجدران عارية تماماً؛ وعلى المكتب لا يُرى أي قلم أو ورقة. المدير ليس هو نفسه الذي كان قبل خمس سنوات، بل رجل أكثر شباباً. وهو مطلع على سبب زيارتي وقد أمر بإحضار السجين الذي أرغب في التحدث معه إلى المكتب. سيعيرني مكتبه من

أجل المقابلة، لأنه المكان الوحيد الذي يمكنني أن أتمتع فيه بالهدوء. «لابد أنك رأيت بأنه لا يوجد هنا في لوريغانتشو مجال للتحرك بسبب الازدحام.» ويضيف بينما نحن ننتظر، بأن الأمور لن تسير على ما يرام مطلقاً، بالرغم من الجهود التي تبذل. فالسجناء الهائجون يهددون الآن بإضراب عن الطعام لأنه، حسب قولهم، سيجري تحديد الزيارات. لا يوجد أي شيء من هذا القبيل. فبكل بساطة، ومن أجل ضبط أفضل لهذه الزيارات التي هي السبب في إدخال المخدرات والكحول والأسلحة، جرى تحديد يوم لزيارات النساء ويوم آخر لزيارات الرجال. وهكذا سيكون هناك أناس أقل في كل مرة مما يتيح تفتيش كل زائر بدقة أكبر. لو أننا نتمكن على الأقل من كبح تهريب الكوكايين، فإننا سنحول دون موت الكثيرين. فمن المعروف أنهم يهاجمون بعضهم بعضاً بأدوات حادة بسبب المخدرات، أكثر مما يفعلون ذلك بسبب الكحول أو النقود أو المخنثين. ولكنه مازال من المستحيل حتى الآن الحيلولة دون إدخالها. ألا يتاجر رجال الشرطة وحراس السجن كذلك بالمخدرات؟ فينظر إلي وكأنه يقول: «لماذا تسأل إذا كنت تعرف ذلك.»

ـ وهذا أمر من المستحيل أيضاً تفاديه. فمهما ابتدعنا من أساليب المراقبة، فإنهم يتمكنون دوماً من تجاوزها. إذ إن إدخال ميلغرام من الكوكايين مرة واحدة، يتيح لأي حارس أن يضاعف راتبه. أتعرف ما الذي يتقاضاه هؤلاء الحراس؟ لذلك يجب عدم الاستغراب. هناك كلام كثير عن مشكلة سجن لوريغانتشو. ولكن هذه المشكلة لا وجود لها. فالمشكلة هي البلاد.

يقـول ذلـك دون مـرارة، وكـأمر جلـي لا بـد مـن أخـذه بعـين الاعتبار. يبدو أنه متحمس وطيب النوايا. والحقيقة أنني لا أحسده على منصبه. تقطع حديثنا طرقات على الباب.

ـ سـأتركك مـع الشخص المطلوب إذن ـ يقـول لـي ذلـك وهـو يمضي ليفتح الباب، ويضيف: ـ خذ الوقت الذي تحتاجه.

الـشخص الـذي يـدخل الغرفـة هـو رجـل نحيـل ذو شـعر مفتـل وأبيض البشرة، لـه لحية متفرقـة الشعر، ويرتجف مـن رأسـه حتـى قدميه، وهو يرتدي سترة تتراقص عليه. وينتعل حذاء رياضياً ممزقاً وعيناه المذعورتان تدوران فـي محجريهما. لماذا يرتجف هـكـذا؟ أهـو مريض أم خائف؟ لا أجد ما أقوله. كيف يمكن لـه أن يكـون هـو؟ إنـه لا يشبه بـأي حـال مايتـا الـذي فـي الـصور. ويمكـن القـول إنـه أصغر منه بعشرين سنة.

ـ أنا أريد التحدث مع أليخاندو مايتا ـ أتلعثم.

فـيرد بصوت خرع:

ـ أنـا أدعـى أليخانـدرو مايتـا ــ ويبـدو أن يديـه وبشرته وحتـى شعره مصابة بالاضطراب.

فأقول بتردد:

ـ أأنت صاحب قضية خاوخا مع الملازم باييخوس؟

ويهتف وقد أدرك الوضع:

ـ آه، لا، لستُ هو. إنه لم يعد موجوداً هنا.

يبـدو وكـأنـه قـد اطمـأن، كمـا لـو أن إحـضاره إلى الإدارة يشكل خطراً قد تبدد للتو. يدور على عقبيه ويقرع البـاب إلى أن يفتحوه ويظهر المدير يرافقه رجلان. ويوضح ذو الشعر المفتل دون أن

يتوقف عن الارتجاف بأنه ليس من أبحث عنه وإنما هو مايتا الآخر. يغادر مسرعاً بحذائه الأبكم، وهو يرتعش.

ويسأل المدير أحد مرافقيه:

ـ هل تعرفه يا كاريّو؟

ـ بالطبع، بالطبع ـ يقول السمين الشائب ذو الشعر الحليق والكرش البارز فوق الحزام، ثم يضيف: ـ مايتا الآخر. ألم يكن سياسياً بعض الشيء؟

ـ أجل ـ أقول له ـ. هذا هو الذي أبحث عنه.

ويوضح لي على الفور:

ـ لقد فقدته حضرتك بفارق بسيط. فقد خرج الشهر الماضي.

وأفكر في أنني قد فقدته، وبأنني لن أجده أبداً، وبأنه ربما كان ذلك أفضل. إذ يمكن للقاء مع مايتا الذي من لحم وعظم أن يُفسد ما أفعله بدل أن يساعدني. ألا تعرفون إلى أين ذهب؟ ألا يوجد عنوان يمكن الوصول إليه؟ لا يوجد له عنوان وليست لديهم أية فكرة عن مكان وجوده. أقول للمدير ألا يزعج نفسه بمرافقتي. ولكن كاريّو يأتي معي، وبينما نحن ننزل السلم، أسأله إن كان يتذكر مايتا جيداً. إنه يتذكره بالطبع؛ فهو نفسه قد أمضى وقتاً طويلاً هنا باعتباره أقدم السجناء. لقد دخل السجن كأي مجرم عادي وهو الآن مساعد مدير السجن. يا للأمور التي رأتها عيناه!

ويقول لي:

ـ لقد كان سجيناً جدياً وهادئاً جداً، لم يتدخل في المشاكل قط. وكانت لديه رخصة بكشك مأكولات في العنبر الرابع. إنه

شخص شغيل. لقد رتب أموره لتأمين حياة أسرته بينما هو يقضي محكوميته. وقد بقي هنا عشر سنوات على الأقل في المرة الأخيرة.

ـ أتقول أسرته؟

فيضيف:

ـ له زوجة وثلاثة أو أربعة أبناء. وكانت زوجته تأتي لزيارته كل أسبوع. إنني أتذكر التشولو مايتا جيداً. إنه يمشي كأنه يمشي على بيض، أليس كذلك؟

كنا نجتاز الفناء بين الأسلاك، باتجاه مركز الحراسة عند المدخل، عندما توقف معاون المدير فجأة:

ـ انتظر. يمكن أن يكون عنوانه لدى آريسبي. فقد ورث منه كشك المأكولات في العنبر الرابع. بل أظن أنهما مازالا شريكين. سأستدعيه وربما تكون محظوظاً.

بقيت أنا وكاريّو في الفناء، قبالة حاجز الأسلاك. ومن أجل شغل الوقت رحت أسأله حول لوريغانتشو. ومثلما قال المدير، يقول هو إن المشاكل تبرز هنا دوماً. لأنه يوجد أناس سيئون، أجل يا سيدي.. أناس يبدون كما لو أنهم ولدوا لمجرد أن يلحقوا بالآخرين أشكالاً لا تخطر على بال من التنكيل. وفي البعيد، يظهر لنا جناح المخنثين مشوِهاً تناسق العنابر الهندسي. هل مازلتم تحبسونهم هناك؟ أجل. مع أن ذلك لا ينفع كثيراً، فعلى الرغم من الحواجز والموانع مازال السجناء يدخلون إلى هناك والمخنثون يخرجون والحال هو مثلما كان على الدوام تقريباً. ولكن المشاكل صارت أقل منذ أن عُزلوا في عنبر خاص بهم. في السابق، عندما كانوا مختلطين بالآخرين، كانت المشاجرات وعمليات القتل من أجلهم أسوأ

بكثير. أتذكر محادثة قصيرة أجريتها في زيارتي الأولى مع أحد أطباء السجن، حول اغتصاب القادمين الجدد. «الحالة الشائعة هي تقيح المستقيم، أو إصابته بالغرغرينا، أو تسرطنه.» وأسأل كاريّو عما إذا كانت عمليات الاغتصاب موجودة دائماً. فيضحك. «إنه أمر لا مفر منه حين يتعلق ذلك بأناس مكبوتين إلى هذا الحد، ألا تعتقد ذلك؟ عليهم أن يُخمدوا طاقاتهم بطريقة ما.» يأتي أخيراً السجين الذي بعث بطلبه. أشرح له سبب بحثي عن مايتا، هل تعرف أين يمكن العثور عليه؟

إنه رجل حسن المظهر، يلبس بصورة لائقة نسبياً. يستمع إلي دون أن يسألني شيئاً. ولكنني أراه مرتاباً وأنا واثق من أنه لن يقدم لي أي مساعدة. فأطلب منه عندئذ أن يعطي رقم هاتفي لمايتا عندما يراه في المرة القادمة. فيحسم أمره بجفاء ويقول لي:

ـ إنه يشتغل في محل مثلجات. في حي ميرافلوريس.

إنه محل مثلجات موجود منذ سنوات طويلة، في شارع بولوغنسي المشجر، وأنا أعرفه جيداً منذ أيام فتوتي، فقد كانت تسكن في تلك المنطقة فتاة جميلة جداً وذات اسم حدائقي: فلورا فلوريس. إنني واثق من أن دكان المثلجات كان موجوداً منذ ذلك الوقت وأننا دخلنا إليه في إحدى المرات أنا وفلورا الجميلة لنتناول قمعاً من مثلجات الخوخ. إنه محل صغير، مجرد كراج أو شيء من هذا القبيل، وهو شيء فريد في ذلك الشارع الذي لا وجود فيه لدكاكين، حيث لا يوجد سوى بيوت ميرافلوريس التقليدية التي ترجع إلى عقد الخمسينيات، والمؤلفة من طابقين، مع حديقة عند المدخل ونبتات الجيرانيوم التي لا بد منها، ونبتات الجهنمية

وشجيرات البونسانا ذات الأزهار الحمراء. تسيطر عليّ عصبية لا يمكن التحكم بها عندما ألتف أخيراً من الكورنيش وأتقدم في شارع بولوغنسي. أجل المحل موجود حيث أتذكره بالضبط، على بعد أمتار قليلة من هذا المنزل الرمادي ذي الشرفات، حيث كنت أرى ظهور وجه فلورا العذب وعينيها المشعتين. أُوقف السيارة قبل أمتار من دكان المثلجات وأتمكن بصعوبة من إغلاق السيارة بالمفتاح بسبب البلادة التي حلّت بيديّ.

لا يوجد أحد في المحل الذي هو ضيق بالفعل، ولكنه حديث، فيه مجموعة طاولات ذات مشمع مزين بأزهار ملتصقة بالجدار. والشخص الذي يقوم بالخدمة هو مايتا. إنه يلبس قميصاً قصير الأكمام، وهو أسمن قليلاً، وأكبر قليلاً مما يبدو في الصور، ولكنني قادر على التعرف إليه فوراً بين عشرات الأشخاص.

أقول له وأنا أمد يدي:

ـ أنت أليخاندرو مايتا. أليس كذلك؟

يتفحصني بضع ثوان ويبتسم فاتحاً فماً تنقصه بعض الأسنان. يرمش، محاولاً أن يتذكرني. ثم يتخلى عن المحاولة أخيراً ويقول:

ـ آسف، ولكني لا أتذكر. تصورت أنك قد تكون سانتوس، ولكنك.. حضرتك، لست سانتوس، أليس كذلك.

وأقول له وأنا أستند بمرفقي إلى الكونتوار:

ـ لقد بحثت عنك منذ زمن طويل. وأنا أنبهك إلى أنك سوف تُفاجأ كثيراً. إنني قادم للتو من لوريغانتشو. ومن أخبرني بكيفية الوصول إليك هو آريسبي، شريكك في العنبر الرابع.

أراقبه بدقة، لأرى كيف ستكون ردة فعله. لا تبدو عليه

المفاجـأة ولا القلـق. ينظـر إلـيّ بفـضول، وهنـاك بقيـة مـن ابتـسامة ضـائعة علـى الوجـه الأسمـر. إنـه يرتـدي قميـصاً قطنيـاً، وألاحـظ أن يديه غليظتان كأنهمـا يـدا عامـل خراطـة أو فـلاح. وأكـثر مـا يـشد انتباهـي فـيه هو قصة شعره السخيفة: لقد قصوا له الشعر بضربات مقـص دون تـشذيب، فبـدا رأسـه كنـوع مـن المكنـسة، إنـه شـيء مضحك. وقـد ذكرنـي بسنتي الأولى فـي باريس، حين كنت أمـر بضائقة اقتصادية كبيرة، فاعتدت أنا وصديق من مدرسة بيرلتـز، حيث كنت أقوم وإياه بتعليم اللغة الاسبانية، الذهاب لقص شعرينا فـي معهـد لتعلـيم قـص الـشعر بـالقرب مـن الباسـتيل. فكـان المتـدربون، وهـم أطفـال، يقـصون لنـا شـعرنا مجانـاً، ولكـنهم يتركون رأسينا مثلما هو الآن رأس زميل دراستي المختلق. ينظر إلـيّ مـضيقاً عينيـه القـاتمتين والمتعبـتين ــ كـل مـا حولهمـا ممتلـئ بالتجاعيد ـ وقد تولدت ومضة عدم ثقة فـي حدقتيه.

فأقول له:

ـ لقد أمضيتُ سنة فـي الاستقصاء حولك، والتحدث مع النـاس الـذين عرفـوك. والتخيـل، بـل والحلـم بـك. لأنـني كتبـت روايـة لهـا علاقة، مع أنها علاقة نائية جداً، بقصة خاوخا تلك.

ينظر إلي دون أن يقول شيئاً، ولكنـه فوجئ الآن بالفعـل، دون أن يفهم، دون أن يكون متأكداً من أنـه سمـع جيـداً، وهـا هـو الآن يقلق. يتلعثم:

ـ ولكن... لماذا خطر لك... كيف جرى ذلك...

ـ لست أدري لمـاذا ولا كيـف، ولكـن هـذا هـو مـا كنت أفعله طوال هذه السنة ـ أقول له مستبقاً، وقد ارتعبت من رعبـه، ومـن أن

يرفض مواصلة هذا الحديث، ومن أن يتحول إلى حديث آخر. فأوضح له: ـ في الرواية هناك على الدوام أكاذيب أكثر من الحقائق، فالرواية ليست دائما قصة وفية. وتلك التحريات، والمقابلات لم تكن من أجل رواية ما جرى حقاً في خاوخا، وإنما لكي أكذب وأنا أعرف ما أكذب حوله.

ألاحظ أنني بدل أن أطمئنه، أزيد من بلبلته واضطرابه. يرمش عينيه، ويبقى فمه مفتوحاً وقد أصابه البكم. ثم يخرج من المأزق:

ـ آه، أنت الكاتب. أجل، لقد عرفتك الآن. بل إنني قرأت إحدى رواياتك على ما أظن.. منذ سنوات.

في هذه الأثناء يدخل ثلاثة فتيان متعرقين، يمكن الحكم من خلال ملابسهم بأنهم قادمون من ممارسة الرياضة. يطلبون زجاجات مياه غازية ومثلجات. وبينما مايتا يلبي طلباتهم أتمكن من مراقبته وهو يتحرك بين موجودات المحل. إنه يفتح الثلاجة، ويملأ الأقماع، ينزع أغطية الزجاجات، يقدم الكؤوس بطلاقة وتآلف يكشفان عن خبرة عملية جيدة. أحاول أن أتصوره في العنبر الرابع من سجن لوريغانتشو، وهو يقدم عصير الفواكه، وعلب البسكويت، وفناجين القهوة، ويبيع السجائر للسجناء الآخرين، كل صباح، وكل مساء، على امتداد عشر سنوات. من الناحية الجسدية لا يبدو مهزوماً: إنه رجل قوي البنية، يحمل بوقار سنوات عمره التي تزيد على الستين. بعد أن قبض الثمن من الرياضيين الثلاثة، يعود إلى جانبي، مبتسماً ابتسامة اضطرارية.

ـ يا للعجب ـ يدمدم ـ. هذا آخر ما كان يمكن أن يخطر لي. أتقول رواية؟

ويهز رأسه غير المصدق من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين.

فأؤكد له:

ـ اسمك الحقيقي لن يظهر في الرواية بالطبع ـ أؤكد له ـ. وقد غيرت كذلك بالطبع التواريخ والأماكن والشخصيات، وخلطتُ الأمور، وأضفت وخذفت ألف شيء. كما أنني اختلقت بيرو قيامية، تعيث بها الحرب والإرهاب والتدخلات الأجنبية خراباً. ولن يتعرف أحد بالطبع على أي شيء وسيعتقد الجميع أنها محض خيال. وقد اختلقت كذلك أننا كنا زميلين في المدرسة، وأننا في السن نفسها وصديقان مدى الحياة.

ـ بالطبع ـ ينطق ذلك وهو يمعن النظر إليّ بارتياب، محاولاً حل ألغازي شيئاً فشيئاً.

فأُضيف:

ـ أرغب في تبادل الحديث معك. في توجيه بعض الأسئلة، وتوضيح بعض الأمور. ما ترغب أنت في أن تخبرني به فقط بكل تأكيد. هناك أحجيات كثيرة مازالت تدور في رأسي. ثم إن هذه المحادثة ستكون الفصل الأخير. لا يمكنك أن تنكر علي ذلك، لأن روايتي ستبقى عرجاء.

أضحكُ ويضحك هو أيضاً ونسمع الرياضيين الثلاثة يضحكون. ولكنهم يضحكون لطرفة رواها أحدهم. وفي هذه الأثناء تدخل سيدة لتطلب نصف ليبرة من الفستق الحلبي والشوكولاتة، مناصفة، لتأخذها. وعندما ينتهي من خدمتها، يعود مايتا إلى جانبي. ويقول:

ـ قبل سنتين أو ثلاث سنوات، ذهبت جماعة شبان من حزب الطليعة الثورية لمقابلتي في لوريغانتشو. كانوا يريدون التعرف على قضية خاوخا.. يريدون شهادة مكتوبة. ولكنني رفضت ذلك.

ـ الأمر مختلف ـ أقول له ـ. فاهتماماتي ليست سياسية، وإنما أدبية، أعني...

فيقاطعني رافعاً إحدى يديه:

ـ أعرف، أعرف. لا بأس، سأهدي إليك ليلة واحدة. لا أكثر، لأنه ليس لدي وقت، والحقيقة أنني لا أحب التكلم في هذه الشؤون. أيناسبك يوم الثلاثاء القادم؟ إنه الموعد الذي يناسبني، لأنني لا أبدأ العمل هنا في أيام الأربعاء حتى الساعة الحادية عشرة ويمكنني أن أنام متأخراً في الليلة السابقة. أما في الأيام الأخرى فأخرج من بيتي في الساعة السادسة، لأنه عليّ أن أركب ثلاث حافلات من أجل الوصول إلى هنا.

اتفقنا على أن أحضر لأخذه عند خروجه من عمله، بعد الساعة الثامنة. وعندما كنت أغادر ناداني:

ـ تناول شيئاً من المثلجات، على حساب المحل. وسترى كم هي جيدة. لعلك تصبح زبوناً عندنا.

قبل أن أعود إلى بارانكو، أقوم بجولة على الأقدام في الحي، محاولاً أن أعيد تنظيم الأمور في رأسي. أتوقف قليلاً تحت شرفات البيت الذي عاشت فيه الجميلة فلورا فلوريس. لقد كان لها شعر كستنائي، وساقان طويلتان، وعينان بزرقة ماء البحر. وعندما كانت تصل إلى شاطئ ميرافلوريس الحصوي، بثوب استحمامها الأسود وخفها الأبيض، كان الصباح يمتلئ بالضوء،

والشمس تصبح أكثر دفئاً، والأمواج تندفع بسعادة أكبر. أتذكر أنها تزوجت من طيار ما لبث أن قُتل بعد شهور قليلة حين اصطدم بإحدى قمم سلسلة الجبال، بين ليما وتينغو ماريا، وهناك من أخبرني بعد سنوات بأن فلورا قد تزوجت ثانية وأنها تعيش في ميامي. أصعد حتى جادة غراو. عند هذه الناصية كان يوجد حي فيه فتيان يتنافسون معنا ـ نحن فتيان شارع دييغو فيرو وكولون، في الجهة الأخرى من ميرافلوريس ـ في مباريات كرة قدم حامية الوطيس في نادي تراثاس، وأتذكر اللهفة التي كنت أنتظر بها في طفولتي هذه المباريات وإحساسي الرهيب بالإحباط حين يضعوني في الاحتياط. عندما رجعت إلى السيارة، بعد نصف ساعة، كنت قد استعدت تماسكي بعد اللقاء بمايتا.

الواقعة التي أعادته إلى لوريغانتشو، والتي أمضى بسببها هناك هذه السنوات العشر الأخيرة، موثقة جيداً في الصحف وفي المحفوظات القضائية. لقد وقعت الحادثة في مجدلينا القديمة، غير بعيد عن المتحف الانثربولوجي، في فجر أحد أيام كانون الثاني عام 1973. كان مدير فرع مصرف بويبلو ليبري للاعتماد يسقي حديقته الداخلية ـ وهو ما يفعله كل صباح قبل أن يبدل ملابسه ـ عندما قُرع الجرس. وفكر في أن بائع الحليب قد حضر أبكر من عادته في الأيام الأخرى. ولكنه وجد عند الباب أربعة أشخاص يغطون وجوههم بطاقيات كالأقنعة ويصوبون إليه مسدساتهم. دخلوا معه إلى غرفة زوجته، فقيدوها في سريرها بالذات. وبعد ذلك ـ ويبدو أنهم كانوا يعرفون المكان ـ دخلوا إلى غرفة نوم ابنته الوحيدة، وهي صبية في التاسعة عشرة، تدرس السياحة. وانتظروا

إلى أن ارتدت الفتاة ثيابها ثم حذروا السيد من أنه إذا أراد أن يراها ثانية، فعليه أن يأخذ خمسين مليون سول في حقيبة إلى حديقة لوس غاريفوس، بالقرب من الستاد الوطني. ثم اختفوا مع الفتاة في سيارة تكسي كانوا قد سرقوها في اليوم السابق.

قدم السيد فوينتس بلاغاً إلى الشرطة، وانصاع لتعليماتها، فحمل حقيبة مملوءة بالورق إلى حديقة لوس غاريفوس. وكان قد انتشر فيما حول المكان تحريون بملابس مدنية. لم يقترب منه أحد ولم يتلق السيد فوينتس أي خبر طوال ثلاثة أيام. وعندما كان اليأس قد سيطر عليه وعلى زوجته، تلقى مكالمة أخرى: إن الخاطفين يعرفون أنه قد أبلغ الشرطة. إنهم يمنحونه فرصة أخيرة. يجب عليه أن يأخذ النقود إلى ناصية معينة في شارع أبياثيون. أوضح لهم السيد فوينتس أنه لا يستطيع الحصول على الخمسين مليوناً، لأن المصرف لن يعطيه مثل هذا المبلغ، ولكنه مستعد لأن يقدم إليهم كل مدخراته التي تبلغ حوالي خمسة ملايين. فأصر الخاطفون: إما خمسون وإما أن يقتلوها. استدان السيد فوينتس أموالاً، ووقع كمبيالات وتمكن من جمع حوالي تسعة ملايين حملها في تلك الليلة إلى حيث أمروه، ودون أن يخبر الشرطة في هذه المرة. مرت سيارة بجواره، وتناول الشخص الذي كان إلى جانب السائق الحقيبة دون أن يتفوه بكلمة. وبعد ساعات عادت الفتاة إلى بيت أبويها. كانت قد استأجرت سيارة تكسي من جادة كولونيال، حيث تركها خاطفوها بعد أن أمضت ثلاثة أيام وهي معصوبة العينين وشبه مخدرة بالكلوروفورم. وكانت في حالة من الاضطراب استدعت إدخالها إلى مستشفى إيمبليادو. بعد أيام قليلة، نهضت في

الغرفة التي كانت تتقاسمها مع مريضة أجريت لها عملية الزائدة الدودية، ودون أن تنطق بأي كلمة ألقت بنفسها في الفضاء.

انتحار الفتاة الذي استغلته الصحافة أثار هياج الرأي العام. وبعد أيام قليلة أعلنت الشرطة أنها قد اعتقلت زعيم العصابة ـ مايتا ـ وأن شركاءه على وشك الوقوع في يدها. وحسب ما قالته الشرطة، فإن مايتا قد اعترف بفعلته وكشف كل التفاصيل. ولكن لم يظهر أي أثر للشركاء ولا للنقود قط. وفي المحاكمة أنكر مايتا تدخله في عملية الاختطاف، بل قال إنه لم يكن يعلم بأمرها، وأصر على أن الاعتراف المزيف قد انتزع منه تحت التعذيب. استمرت المحاكمة عدة شهور، وكان يحيط بها في أول الأمر غضب الصحف الذي ما لبث أن فتر. وصدر الحكم بالحبس مدة خمس عشرة سنة بحق مايتا الذي رأت المحكمة أنه مذنب في عملية اختطاف، وابتزاز، وقتل غير مباشر، على الرغم من صرخاته بأنه بريء. ولم يكن ممكناً تأكيد ما كان يكرره من أنه في يوم الاختطاف كان موجوداً في باكاسمايو للاستقصاء عن إمكانية حصوله على عمل. وقد أضرت به جداً شهادة الزوجين فوينتس، إذ أكدا كلاهما بأن صوته ومظهره يتطابقان مع صوت وهيئة أحد المقنَّعين. أما محامي مايتا، وهو صياد قضايا غامض، فكان سلوكه طوال المحاكمة ينم عن الخراقة والضجر، وقد استأنف الحكم. ولكن المحكمة العليا أكدته بعد حوالي سنتين. وإطلاق سراح مايتا بعد قضاء ثلثي مدة الحكم يؤكد دون شك ما قاله لي السيد كاريّو في سجن لوريغانتشو: بأن سلوكه خلال تلك السنوات العشر كان مثالياً.

عندما مررت للبحث عنه في محل المثلجات يوم الثلاثاء في الساعة الثامنة ليلاً، كان مايتا ينتظرني وهو يحمل حقيبة لا بد أنها تضم ملابسه التي يستخدمها في العمل. كان قد غسل وجهه وسرح ذلك الشعر غير المتناسق؛ وكانت قطرات من الماء تسيل على رقبته. إنه يرتدي قميصاً أزرق مخططاً، وسترة رمادية ذات مربعات، باهتة اللون وفيها بعض الرقع، وبنطالاً خاكي اللون مجعداً، وحذاء ثقيلاً، من تلك الأحذية التي تستخدم للمسافات الطويلة. أهو جائع؟ أنذهب إلى أحد المطاعم؟ فيقول لي إنه لا يأكل أبداً في الليل، وإنه من الأفضل أن نبحث عن مكان هادئ. بعد بضع دقائق كنا في مكتبي، وجهاً لوجه، نشرب كأسين من المياه الغازية. لم يشأ أن يشرب بيرة أو أي مشروب كحولي آخر. ويقول لي إنه توقف عن التدخين والشراب منذ سنوات عديدة.

كانت بداية الحديث كئيبة بعض الشيء. سألته عن مدرسة ساليسيانو. فقد درس هناك، أليس كذلك؟ بلى. لم يعد لرؤية زملائه منذ قرون وهو لا يكاد يعرف إلا القليل عن هذا أو ذاك، عندما يظهر في الصحف فجأة أن أحدهم مهني، أو رجل أعمال، أو سياسي. وهو لا يعرف شيئاً كذلك عن الرهبان الذين علموه في المدرسة، بالرغم من أنه، كما يخبرني، قد التقى منذ أيام بالتحديد بالأب لويس في الشارع. وهو من كان يعلم الصغار. إنه عجوز عجوز، وشبه أعمى، ظهره منحن، يجرجر قدميه مستنداً إلى عصا مكنسة. وقد قال له إنه قد خرج ليتمشى قليلاً في شارع البرازيل، وإنه قد عرفه، ولكنه - ويبتسم مايتا - لم يكن يدرك بالطبع مع من يتكلم. لا بد أن قد بلغ المئة سنة أو تجاوزها.

عندما عرضت عليه المواد التي جمعتها حوله وحول مغامرة خاوخا ـ قصاصات صحف، نسخ مصورة من ملفات التحقيق، صور، خرائط دروب، بطاقات حول أبطال المغامرة والشهود، دفاتر ملاحظات ومقابلات ـ رأيته يتشمم، يتصفح، يلمس كل تلك المواد بتعبير من الذهول والارتباك. لقد نهض عدة مرات ليذهب إلى المرحاض. ويوضح لي بأن لديه مشكلة في الكليتين، فهو يشعر دائماً بالرغبة في التبول، ولكنه يكون إنذاراً زائفاً في أغلب المرات ولا يتبول إلا بضع قطرات فقط.

ـ الانتقال في الحافلات من بيتي إلى دكان المثلجات هو مشكلة. فالطريق كما قلت لك تستغرق ساعتين. ومن المستحيل التحمل بالرغم من أني أتبول قبل الصعود. وفي بعض الأحيان لا أجد مفراً من أن أبلل سروالي، مثل الأطفال.

أسأله ببلاهة:

ـ هل كانت قاسية تلك السنوات في لوريغانتشو؟

فينظر إليّ ذاهلاً. هناك صمت شامل في الخارج، في كورنيش بارانكو. لا يُسمع حتى صوت رجوع الأمواج.

ويجيب بعد بعض الوقت بنوع من الخجل:

ـ لم تكن حياة باشا. إنها صعبة في البداية. ولكن المرء يعتاد على كل شيء، أليس كذلك؟

ها هو أخيراً شيء يتفق فيه مع مايتا الشهادات التي جمعتها: هذا الحياء، والتكتم في الحديث عن مشاكله الشخصية، وفي الكشف عن أشيائه الحميمة. ويعترف لي على الفور بأن الشيء الوحيد الذي لم يستطع أن يعتاد عليه هو حراس السجن الجمهوريون.

لم يكن يعرف ما معنى الحقد إلى أن اكتشف المشاعر التي يبعثونها في السجناء. إنه حقد مختلط برعب هستيري بالطبع. لأنهم حين يجتازون حاجز الأسلاك ليضعوا حداً لمشاجرة أولإضراب، يفعلون ذلك على الدوام وهم يطلقون الرصاص أو يوجهون الضربات دون الاهتمام بما إذا كان من سيسقطون ظالمين أو مظلومين.

ـ لقد حدث ذلك في نهاية العام الماضي، أليس كذلك؟ ـ أقول له ـ عندما وقعت المذبحة.

فيوافق قائلاً:

ـ في 31 كانون الثاني. لقد دخل نحو عشرة منهم للاحتفال بالأعياد. كانوا يريدون أن يتسلوا كما قالوا، وأن يأخذوا عيديّة رأس السنة. وكانوا مخمورين جداً.

جرى ذلك في حوالى الساعة العاشرة ليلاً. راحوا يفرغون أسلحتهم من وراء أبواب ونوافذ العنابر. انتزعوا من السجناء كل ما في السجن من نقود، ومشروبات، وماريجوانا، وكوكايين وظلوا يتسلون حتى الفجر، يطلقون عليهم النار، ويهشمونهم بأعقاب البنادق وهم يجبرونهم على القفز كالضفادع أو اجتياز ممر قاتم، أو يكسرون رؤوسهم وأسنانهم بالركلات.

ويقول:

ـ العدد الرسمي للقتلى هو خمسة وثلاثون. والحقيقة أنهم قتلوا ضعف هذا العدد أو أكثر. وقد قالت الصحف فيما بعد إنهم كانوا يمنعون محاولة فرار.

يقوم بحركة تنم عن التعب ويعود صوته هامساً. لقد كان السجناء يرتمون فوق بعضهم بعضاً مثلما في لعبة الركبي،

مشكلين جبالاً من الأجساد البشرية ليحتموا. ولكن هذه الحادثة ليست أسوأ ذكرياته عن السجن. فربما كانت أسوؤها في الشهور الأولى، عندما اقتيد من لويغانتشو إلى القصر العدلي من أجل التحقيق القضائي، في واحدة من تلك العربات المزدحمة ذات الجدران المعدنية. فقد كان على السجناء أن يبقوا مقرفصين ورؤوسهم تلامس الأرض، ولدى أدنى محاولة لرفع الرأس والنظر إلى الخارج، يتعرضون للضرب الوحشي. والشيء نفسه يحدث في طريق العودة. ومن أجل الصعود إلى العربة كان لا بد من المرور جرياً بين صفين من الحراس الجمهوريين، وأن يختار السجين إما تغطية رأسه أو خصيتيه، إذ إنهم يتلقون طوال الطريق ضربات بالهراوات، وركلات، وبصقات. يبقى ساهما لبعض الوقت ـ وكان قد عاد لتوه من الحمام ـ ثم يضيف دون أن ينظر إلي:

ـ عندما أقرأ أنهم قد قتلوا واحداً منهم، أشعر بسعادة كبيرة.

إنه يقول ذلك بحقد مفاجئ، عميق، لا يلبث أن يتبخر بعد لحظة من ذلك، عندما أسأله عن مايتا الآخر، ذلك النحيل الأجعد الذي يرتجف بطريقة غريبة.

ـ إنه لص حقير ذاب رأسه من كثرة الكوكايين ـ يقول لي ـ. لن يعيش طويلاً.

ويكتسب صوته ووجهه عذوبة عندما يتكلم عن كشك المأكولات الذي كان يديره مع آريسبي في العنبر الرابع.

ـ لقد قمنا بثورة حقيقية ـ يؤكد لي بفخر ـ. وكسبنا احترام الجميع. كنا نغلي الماء من أجل عصير الفواكه، ومن أجل القهوة، ومن أجل كل شيء. وكنا نقوم بغسل الملاعق والكؤوس والأطباق

قبل وبعد كل استخدام. فالنظافة أولاً. أجل، لقد كانت ثورة. ورتبنا نظام كوبونات للديون. وقد لا تصدقني إذا قلت لك إنهم لم يحاولوا سرقتنا سوى مرة واحدة. لقد تلقيت ضربة سكين هنا، في ساقي، ولكنهم لم يستطيعوا أخذ أي شيء. بل إننا أقمنا ما يشبه المصرف، لأن كثيرين كانوا يعطوننا نقودهم لنخبئها لهم.

من الواضح أنه لا يرغب في التحدث عما يهمني: أعني أحداث خاوخا. فكلما حاولت حمله على الحديث عنها، يبدأ بتذكرها، وسرعان ما يحرف الحديث بطريقة مزعجة إلى مواضيع معاصرة. عن أسرته مثلاً. فيقول لي إنه قد تزوج في فترة الحرية بين مرحلتي سجنه الأخيرتين في لوريغانتشو، ولكنه في الحقيقة تعرف على زوجته الحالية في السجن، في المرة السابقة. فقد كانت تأتي لزيارة أخيها السجين الذي عرّفه عليها. وتبادلا الرسائل وعندما خرج طليقاً تزوجا. وقد شكل دخوله إلى السجن مرة أخرى ضربة قاسية لزوجته. فاضطرت في السنوات الأولى إلى تحطيم روحها لكي توفر الطعام للصغار، إلى أن تمكن هو من مساعدتها بفضل إدارته للكشك. وفي تلك السنوات الأولى كانت زوجته تعمل في الحياكة وتعرض بضاعتها من بيت لبيت. وكان هو أيضاً يحاول أن يبيع شيئاً منها في لوريغانتشو، فالكنزات الصوفية كانت مطلوبة إلى حد ما.

وبينما أنا أستمع إليه، أقوم بمراقبته. فانطباعي الأول بأنه رجل في حالة جيدة، معافى وقوي، هو انطباع زائف. فحالته الصحية ليست على ما يرام. وليس ذلك بسبب كليتيه اللتين تضطرانه الذهاب إلى الحمام في كل لحظة فقط. بل لأنه يتعرق

كثيراً ويتشنج في بعض اللحظات كما لو أن وعكة تلم به. إنه يمسح جبهته بمنديل، وبين حين وآخر ينقطع كلامه بسبب نوبة تشنج. أهو مريض؟ أيريد أن نوقف المقابلة؟ لا، إنه في أحسن حال، فلنواصل.

وأقول له بغتة:

- يبدو لي أنك غير راغب في تناول موضوع باييخوس وخاوخا. هل يزعجك الموضوع بسبب ما يعنيه من إخفاق؟ أم بسبب النتائج التي أوصل حياتك إليها؟

ينكر ذلك بهز رأسه عدة مرات.

ـ يزعجني الحديث في الأمر لأني ألاحظ أنك تعرف عن الموضوع أكثر مني - يبتسم ـ. أجل، لستُ أمزح. فقد نسيتُ أشياء كثيرة، وهناك أشياء أخرى غائمة في ذاكرتي. أود أن أساعدك وأروي لك. ولكن المشكلة هي أنني لم أعد أعرف جيداً كل ما حدث، ولا كيف حدث. لا بد أنك تدرك بأن وقتاً طويلاً قد مضى على كل ذلك.

أهي مجرد تعللات وتصنع؟ لا. إن ذكرياته مترددة، وأحياناً خاطئة. ويتوجب عليَّ أن أصحح له في كل خطوة. يذهلني ذلك، لأن سيطرة هذا الموضوع على عقلي طوال هذه السنة، جعلني أفترض بسذاجة أن بطل الحدث كان مشغولاً به أيضاً وأن ذاكرته مازالت تنقب وتنبش ما حدث في تلك الساعات، قبل ربع قرن. لماذا جرى ذلك؟ لقد كان الحدث بالنسبة إلى مايتا واقعة في حياة فيها ما قبل وما بعد، وكانت فيها أحداث أخرى مثل ذلك الحدث أو أخطر منه. ومن الطبيعي أن تحل هذه الأحداث محل ذاك أو أن تُضعفه.

أقول له:

ـ هناك مسألة تبدو لي غير مفهومة بصورة خاصة. هل كان ثمة خيانة؟ لماذا اختفى من كانوا ملتزمين معكم؟ هل أعطى الأستاذ أوبييوث أمراً معاكساً؟ ولماذا فعل ذلك؟ هل بسبب الخوف؟ ألأنه كان يرتاب بالمشروع؟ أم أن باييخوس، مثلما يؤكد أوبييوث، هو من قدم موعد الانتفاضة؟

يفكر مايتا بضع ثوانٍ بصمت. ثم يهز كتفيه ويدمدم:

ـ لم يتضح ذلك ولن يتضح أبداً. لقد بدا لي الأمر خيانة في ذلك اليوم. ثم صار أكثر تعقيداً فيما بعد. فأنا لم أكن أعرف مسبقاً موعد الانتفاضة. لقد حدده باييخوس وأبييوث بمفردهما، لأسباب أمنية. وقد أكد الأخير منهما دوماً بأن الموعد كان محدداً بعد أربعة أيام وأن باييخوس قد قدمه لأنه علم بأنهم سينقلونه من موقعه بسبب حادث جرى له مع حزب الأبريستا قبل يومين من ذلك.

مسألة الحادث صحيحة، وهي موثقة في صحيفة صغيرة كانت تصدر في خاوخا في ذلك الحين. فقد كانت هناك مظاهرة للأبريستا في ساحة السلاح، من أجل استقبال هايا دي لاتوري الذي ألقى خطاباً من فوق أدراج مدخل الكاتدرائية. وقد وقف باييخوس، بملابس مدنية، ومعه الأفطس أوبييوث وجماعة صغيرة من الأصدقاء عند أحد مداخل الساحة، وعندما مرّ الموكب قذفوه ببيض فاسد. طاردهم جواميس حزب الأبريستا، وبعد محاولة للمناوشة، التجأ باييخوس وأوبييوث وأصدقاؤهما إلى صالون حلاقة السيد إثكيل. هذا هو الشيء الوحيد المثبت. وتقول أطروحة أوبييوث، وأناس آخرين من خاوخا، إنه تم التعرف على

بـاييخوس مـن قبـل عناصـر الأبريـستا ، وأن هـؤلاء تقـدموا باحتجـاج شديد اللهجة لأن قائـد الـسجن، وهـو ضـابط فـي الخدمـة الفعليـة، قد شـارك فـي عمل ضد اجتماع سياسي مرخص به. ونتيجـة لـذلك، جـرى تحـذير بـاييخوس بأنـه سـيتم نقلـه مـن موقعـه. ويقـال إنـه قـد استدعي بصورة مستعجلة من قبـل قيادتـه المباشـرة فـي هوانكـايو. فدفعـه ذلـك إلى تقـديم موعـد التمـرد أربعـة أيـام، دون أن يُخطـر المشاركين الآخرين. ويؤكد أوبييوث بأنه لم يعلم بتبديل الموعد إلا عندما كان الملازم قد مات والمتمردون قد اعتقلوا.

ويقول لي مايتا:

ـ كان يبدو لي من قبل أن هذا غير صحيح، وأنهم قد تخاذلوا. ثم لم أعد أعرف شيئاً فيما بعد. لأن بعض الأشخاص الذين كانوا سيـشاركون راحـوا يـصلون، بعـد شـهور أو سـنوات، إلى سـجون سيـستو والفرونتـون ولوريغانتـشو. كـانوا يـسجنونهم فـي قـضايا أخـرى، قـضايا نقابيـة أو سياسـية. وجمـيعهم كـانوا يقـسمون إن التمرد قد فاجأهم، وإن أوبييوث قد اتفق معهم على يوم آخر، وأنـه لم يكـن هنـاك أي تخـاذل أو تراجـع. وأقـول لـك بـصراحة إنـني لا أعرف ذلك. فبـاييخوس وأبييـوث وحـدهما مـن كـانـا يعرفـان الموعـد المقرر. هل قدم باييخوس الموعد؟ إنـه لم يخبرنـي. ولكـن ذلـك لـيس مستحيلاً. فقد كان نزقاً ومندفعاً جداً، ويمكـن لـه أن يقـدم علـى مثل هذا الأمر، حتى ولو جازف بالبقاء وحيداً. وهو مـا كنـا نـسميه فـي ذلك الحين المشيئية.

أهو ينتقد الملازم؟ لا، إنه تعليق متـأخر، وحيـادي. ويخبرنـي أنـه فـي تلك الليلة الأولى، عندما جاءت أسرة باييخوس لاستلام الجثـة،

رفض أبوه أن يسلم عليه. فقد دخل الأب عندما كانوا يحققون معه، فمد له مايتا يده ولكن السيد لم يصافحه، بل ونظر إليه بغضب ودموع، وكأنه يحمله مسؤولية كل شيء.

ـ لست أدري، ربما هناك شيء من هذا ـ يكرر ـ. أو ربما هو سوء تفاهم. أعني أنه ربما كان بايبخوس واثقاً من أنه سيتلقى دعماً لم يعده أحد به في الحقيقة. ففي الاجتماعات التي أخذوني إليها، في ريكران، حيث اجتمع أوبيبوث مع عمال المناجم، جرى الحديث عن الثورة، وكان الجميع يبدون موافقين. ولكن، هل وعدوا بحمل السلاح والخروج إلى الجبال منذ اليوم الأول؟ أنا لم أسمعهم يقولون ذلك. ولكن الأمر بالنسبة إلى بايبخوس كان مؤكداً تماماً، ولا يمكن الشك فيه. ربما يكون قد تلقى وعوداً غامضة فقط بدعم معنوي، أو النوايا بالمساعدة من بعيد، على أن يواصل كل منهم حياته المعتادة. أو ربما أنهم قد التزموا، ثم تراجعوا بعد ذلك بسبب الخوف أو لأن الخطة لم تكن مقنعة. لا يمكنني أن أحدد ذلك. الحقيقة أنني لا أعرف.

أسأله:

ـ هل شعرت بالندم يوماً لأنك أدخلت نفسك في تلك المغامرة؟ أفترضُ أنك قد فكرت كثيراً بما جرى وأنت في السجن طوال هذه السنوات.

ـ الندم هو من شؤون الكاثوليكيين. وأنا لم أعد كذلك منذ سنوات طويلة. فالثوريون لا يندمون. إنهم يمارسون النقد الذاتي، وهو أمر مختلف عن الندم. وأنا قمت بإجراء نقدي الذاتي. ـ يبدو غاضباً، ولكنه يبتسم بعد ثوان قليلة: ـ أنت لا تدرك مدى الغرابة

التي أجدها في التكلم في السياسة. أشعر كما لو أن شبحاً يعود من أعماق الزمن ليريني الموتى والأشياء المنسية.

هل تخلى عن الاهتمام بالسياسة في هذه السنوات العشر الأخيرة فقط؟ أم في فترة سجنه السابقة؟ أم عندما اعتقل بسبب قضية خاوخا؟ يبقى صامتاً، مفكراً، محاولاً أن يستجلي ذكرياته. هل نسي ذلك أيضاً؟

ويدمدم وهو يمسح جبهته:

ـ لم يخطر لي أن أفكر بذلك سوى الآن. لم يكن الأمر في الواقع قراراً اتخذته. إنه شيء حدث وحسب، شيء فرضته الظروف. تذكر أنني عندما ذهبت إلى خاوخا للمشاركة في الانتفاضة، كنت قد قطعت صلتي برفاقي، وبحزبي، وبماضي. لقد بقيت وحيداً، أعني من الناحية السياسية. ورفاقي الجدد لم تستمر علاقتي بهم سوى بضع ساعات. فباييخوس مات، وكوندوري مات، وثينون غونثاليس رجع إلى قريته، والفتيان عادوا إلى مدرستهم. هل تلاحظ؟ أنا لم أترك السياسة. من الأصح القول إنها هي التي تركتني.

يقول ذلك بطريقة لا أستطيع معها تصديقه: إنه يقوله بصوت خافت وعينين زائغتين بينما هو يتململ في مقعده. إنني واثق، للمرة الأولى في هذه الليلة، من أنه يكذب. ألم يعد مطلقاً إلى اللقاء مع رفاقه القدماء في ح ع ث (ت)؟

ــ لقد كانوا جيدين في سلوكهم معي حين كنتُ في السجن، بعد قضية خاوخا ـ يهتف ـ. فقد كانوا يزورونني، ويحملون إليّ السجائر، وتحركوا كثيراً من أجل إدراج اسمي في العفو الذي

أصدرته الحكومة الجديدة. ولكن ح ع ث (ت) انحل بعد وقت قصير، بسبب حركة وادي كونفينشيون التي قادها هوغو بلانكو. وعندما خرجتُ من السجن لم يكن لـ ح ع ث (ت) ولا ح ع ث وجود. وكانت قد ظهرت جماعات تروتسكية أخرى أسسها أناس قادمون من الأرجنتين. ولم أكن أعرف أحداً منهم، كما أنني لم أعد أهتم بالسياسة.

ومع نطقه الكلمات الأخيرة ينهض للتبول.

وحين يرجع، أرى أنه قد غسل وجهه كذلك. ألا يريد حقاً أن نخرج لنأكل شيئاً؟ فيؤكد لي أن لا ، ويكرر أنه لا يأكل شيئاً على الإطلاق في الليل. بقينا لبعض الوقت غارقين في تأملات خاصة، دون كلام. الصمت ما يزال شاملاً هذه الليلة في كورنيش بارانكو لا وجود فيه إلا لأزواج عشاق صامتين، يحميهم الظلام، وليس هناك أحد من السكارى ومدمني الماريجوانا الذين يثيرون الضجيج في أيام الجمعة والسبت. أقول له إن شخصية روايتي هو ثوري سراديب، أمضى نصف حياته في التآمر والنضال ضمن جماعات سياسية صغيرة وغير ذات وزن مثلما كانت جماعته، وأنه يلقي بنفسه إلى مغامرة خاوخا ليس لقناعته بمخططات بابيخوس ـ بل ربما كان يرتاب باحتمالات النجاح ـ وإنما لأن الملازم فتح له أبواب العمل المباشر. إمكانية العمل بطريقة محددة، ولأن إحداث تغييرات عملية ومباشرة في الواقع كان يبهره. وأتى تعرفه إلى ذلك الضابط الشاب المتهور ليكشف له بأثر رجعي قزمية نشاطاته الثورية السابقة. ولهذا السبب ينغمس في الانتفاضة بالرغم من حدسه بأنها أقل من الانتحار بقليل.

ـ هل تتعرف في شيء على مثل هذه الشخصية؟ ـ أسأله ـ أم أنه ليست لها أي علاقة بك، من حيث الأسباب التي دفعتك للسير مع باييخوس؟

ينظر إلي، مفكراً، وهو يرمش، دون أن يدري بماذا يجيب. يرفع الكأس ويشرب بقية المياه الغازية. إن تردده هو رده.

ـ هذه الأمور تبدو مستحيلة عندما تخفق ـ ويفكر ـ. أما إذا نجحت فالجميع يرونها متقنة وجيدة التخطيط. خذ مثلاً الثورة الكوبية. كم عدد الذين أبحروا مع فيدل في الزورق غرانما؟ إنهم حفنة. وربما كانوا أقل عدداً منا في ذلك اليوم في خاوخا. ولكن النجاح حالفهم بينما لم يحالفنا نحن.

يستغرق في التأمل لحظة، ثم يؤكد:

ـ أنا لم أر في يوم من الأيام أن العملية كانت جنوناً، ولم تكن انتحاراً كذلك. لقد جرى التفكير في خطتها جيداً. فلو أننا نسفنا جسر مولينوس وأخّرنا وصول الشرطة لتمكنا من اجتياز سلسلة الجبال. وبنزولنا إلى الأدغال ما كانوا سيجدوننا. كنا سـ....

ينطفئ صوته. انعدام القناعة التي يتكلم بها كانت واضحة إلى حد بدا معه كما لو قال إنه لا معنى لمحاولة إقناعي بشيء لا يؤمن هو نفسه به. وبماذا يؤمن الآن زميل دراستي السابق المزعوم؟ فهناك في مدرسة ساليسيانو، قبل نصف قرن، كان يؤمن بالرب إيماناً متأججاً. وفيما بعد، عندما مات الرب في قلبه، آمن بالحمية نفسها بالثورة، وبماركس ولينين وتروتسكي. ثم جاءت بعد ذلك أحداث خاوخا، أو ربما قبلها، تلك النضالات الحزبية التافهة، فأضعفت ذلك الإيمان وأماتته. وأي إيمان حل محلها بعد ذلك؟ لا

شيء. ولهذا فإنه يثير انطباعاً بأنه رجل خاوٍ، بلا انفعالات تدعم ما يقوله. وعندما بدأ يسطو على مصارف ويختطف من أجل الحصول على فدية، ألم يعد قادراً على الإيمان بأي شيء سوى الحصول على المال بأي طريقة؟ هنالك شيء في يرفض تقبل ذلك. وخاصة الآن، بينما أنا أتفحصه، بحذائه الثقيل ذاك، وملابسه البائسة؛ وخاصة بعد أن رأيت الطريقة التي يكسب بها الآن لقمة عيشه.

أنبهه:

ـ إذا أنت شئت فلن نتحدث في الموضوع. ولكنني سأقول لك شيئاً على الأقل يا مايتا. فأنا أجد صعوبة في فهم أنك بعد خروجك من السجن، بعد قضية خاوخا، انهمكتَ في السطو على المصارف واختطاف الناس. هل يمكننا التحدث في هذا الموضوع؟

ـ لا، في هذه الموضوع لا ـ يرد فوراً بشيء من القسوة. ولكنه يناقض نفسه حين يضيف: ـ لم تكن لي أي علاقة بذلك. لقد زيفوا الأدلة، وقدموا شهود زور، وأجبروهم على الشهادة ضدي. لقد أدانوني لأنه كان لابد لهم من إيجاد مذنب، وكنت أنا صاحب سوابق. إن إدانتي هي وصمة عار للقضاء.

وينقطع صوته من جديد، كما لو أن الخمود، والتعب قد سيطرا عليه في هذه اللحظة، وكما لو أنه موقن أنه من غير المجدي محاولة صرفي عن شيء اكتسب بفعل مرور الزمن تماسكاً لا يمكن دحضه. أتراه يقول الحقيقة؟ أيكون صحيحاً أنه لم يكن ضمن من سطوا على مصرف لافكتوريا، ولم يكن أحد الخاطفين في بويبلو ليبري؟ أعرفُ جيداً أن هناك أناساً أبرياء في سجون البلاد ـ ربما بعدد ما هناك من المجرمين خارج السجن،

ممن يتمتعون بالاحترام والتقدير ـ وليس من المستحيل أن يُستخدم مايتا، بفعل سوابقه، كبش فداء للقضاة والشرطة. ولكنني ألحظ في الرجل الجالس قبالتي حالة من اللامبالاة، من عدم الاهتمام الأخلاقي، وربما من الصفاقة، فلا يبدو لي مستحيلاً كذلك عدم تواطئه في أسوأ الجرائم.

أقول له بعد قليل:

ـ بطل روايتي شاذ جنسياً.

فيرفع رأسه وكأن دبوراً قد لسعه. ويأخذ الاستياء بتشويه ملامح وجهه. إنه جالس على مقعد منخفض ذي مسند عريض، وهو يبدو الآن فعلاً في الستين من عمره أو أكثر. أراه يشد ساقيه ويفرك كفيه متوتراً، ثم يسألني أخيراً:

ـ لماذا؟

لقد فاجأني: أتراني أعرف السبب؟ ولكنني أرتجل له تفسيراً:

ـ من أجل التشديد على هامشيته، ووضعه كرجل يغص بالتناقضات. وكذلك من أجل إظهار الأحكام المسبقة حول هذه القضايا بين من يُفترض فيهم أن يحرروا المجتمع من عيوبه. حسن، ولست أعرف بدقة لماذا هو كذلك.

تزداد حدة ملامح استيائه. أراه يمد يده، يمسك كأس الماء التي كان قد وضعها فوق بعض الكتب، يداعبها بيده، وحين ينتبه إلى أنها فارغة، يعيدها إلى مكانها. ثم يدمدم بعد لحظة من الصمت:

ـ لم تكن لدي أحكام مسبقة ضد أي شيء على الإطلاق. أما بشأن المخنثين، فأظن أن لدي شيئاً منها. بعد أن رأيتهم في سجنيّ

سيستو والفرونتون. ولكنهم أسوأ بكثير في سجن لوريغانتشو.

ظل ساهماً للحظة. وكانت تكشيرة الاستياء تخف، ولكن دون أن تختفي تماماً. ليس هناك ظل من الشفقة في ما يقوله:

ـ كانوا ينزعون شعر حواجبهم، ويلفون رموشهم ويكحلونها بثقاب محروق، ويطلون أفواههم، ويرتدون تنانير، ويبتدعون باروكات شعر، ويسمحون للقوادين بأن يستغلوهم مثل المومسات. كيف لا يتقيأ المرء. لا أكاد أصدق أنه يمكن للكائن البشري أن ينحط إلى هذا الدرك. مخنثون مستعدون لمص عضو أي شخص مقابل عقب سيجارة... ـ يزفر، وقد امتلأت رقبته بالعرق من جديد. ثم يضيف وهو يضغط على أسنانه: ـ يقال إن ماو تسي تونغ قد رمى بالرصاص كل المخنثين الذين كانوا في الصين. هل هذا صحيح؟

ينهض من جديد ليذهب إلى الحمام وبينما أنا أنتظر عودته، أتطلع من النافذة. في سماء ليما الضبابية على الدوام تقريباً، تظهر النجوم هذه الليلة، بعضها ساكنة وبعضها تطلق شرراً فوق هذه اللطخة السوداء التي يشكلها البحر. ويخطر لي أن مايتا عندما كان هناك في لوريغانتشو، في ليال مثل هذه الليلة، كان يتأمل النجوم المتلألئة وهو مُنوّم، فيرى مشهداً نظيفاً، هادئاً، وقوراً: إنه النقيض الدرامي للانحطاط العنيف الذي يعيش فيه.

عندما رجع قال لي إنه يتحسر لأنه لم يسافر قطّ إلى الخارج. لقد كان يراوده حلم كبير في كل مرة يخرج فيها من السجن: أن يسافر، ويبدأ من الصفر في بلاد أخرى. حاول ذلك بكل السبل، ولكن الأمر كان صعباً جداً: لعدم وجود النقود، أو الوثائق النظامية، أو الأمرين كليهما. لقد وصل في إحدى المرات حتى

الحدود في حافلة كانت ستوصله إلى فنـزويلا، ولكنهم أنزلوه في مركز جمارك الإكوادور، لأن جواز سفره لم يكن نظامياً.

ـ لم أفقد الأمل في السفر على أي حال ـ همهم ـ. لقد صار الأمر أصعب بوجود أسرة كبيرة. ولكن الذهاب إلى الخارج هو أكثر ما يعجبني. فهنا لا يوجد أمل بالعمل، ولا بأي شيء. لا يوجد. أينما تلفت أحدنا، لا يجد شيئاً ببساطة. ولهذا لم أفقد الأمل بالسفر.

وأفكر: ولكنك فقدت الأمل بالبيرو. فقدته بالكامل ونهائياً، أليس كذلك يا مايتا؟ أنت يا من كنت تؤمن كثيراً، كنت ترغب في الإيمان بمستقبل لبلادك التعيسة. لقد ألقيت السلاح، أليس كذلك؟ إنك تفكر، أو تتصرف كما لو أنك تفكر، بأن هذه البلاد لن تتبدل مطلقاً نحو الأفضل، وإنما نحو الأسوأ فقط. مزيد من الجوع.. مزيد من الحقد.. مزيد من القمع.. مزيد من الجهل.. مزيد من الوحشية.. مزيد من البربرية. وأنت أيضاً، مثل كثيرين غيرك، لم تعد تفكر الآن إلا بالهرب قبل أن نغرق نهائياً.

ـ إلى فنـزويلا، أو إلى المكسيك، حيث يقولون إن هناك عملاً كثيراً بسبب البترول. بل وإلى الولايات المتحدة، مع أنني لا أتكلم الإنكليزية. هذا هو ما أرغب فيه.

وينحبس صوته من جديد، بسبب افتقاره إلى القناعة بما يقوله. وأنا أيضاً أفقد بعض الشيء في هذه اللحظة اهتمامي بالمحادثة. أعرف أنني لن أحصل من زميل دراستي المزيف على أكثر مما حصلت عليه حتى الآن: اليقين الكئيب بأنه رجل محطم بالعذاب والحقد، وأنه قد فقد حتى ذكرياته. وإنه، باختصار، شخص مختلف جوهرياً عن مايتا روايتي، عن ذلك التفاؤل العنيد، عن رجل

الإيمان ذاك الذي يحب الحياة على الرغم مما فيها من رعب وبؤس. أشعر بعدم الراحة، وبأنني أستغله، وأستبقيه هنا ـ الوقت يقترب من منتصف الليل ـ من أجل محادثة لا أتوقع منها نتيجة. لا بد أنه يشعر بالغم من هذا النبش في الذكريات، وهذا الذهاب والإياب من مكتبي إلى الحمام، وهذا التبدل في روتينه اليومي الذي أتصوره رتيباً، حيوانياً.

ـ لقد جعلتك تطيل السهر كثيراً ـ أقول له.

ـ الحقيقة أني أنام باكراً ـ يرد براحة وهو يشكرني بابتسامة تضع نقطة الختام لمحادثتنا، ويتابع قائلاً: ـ مع أني أنام قليلاً، تكفيني أربع أو خمس ساعات. أما في صباي بالمقابل، فكنت محباً للنوم.

ننهض، نخرج، وعندما نصير في الشارع يسألني من أين يمر الامنبوس الذي يصل إلى مركز المدينة. وعندما أقول له إنني سأوصله، يتمتم بأنه يكفي أن أقربه قليلاً. وأنه يمكنه أن يركب ميكروباصاً من شارع ريماك.

ليس هناك حركة مرور تقريباً في جادة اكسبريسا. رذاذ خفيف جداً يبلل زجاج السيارة. وحتى الوصول إلى شارع خابيير برادو لا نتبادل إلا بضع عبارات متقطعة، حول الجفاف في جنوب البلاد والفيضانات في شمالها. وحول المشاكل على الحدود. وعندما نصل إلى الجسر، يهمس بانزعاج واضح أنه مضطر إلى النزول قليلاً. أُوقف السيارة، فينزل ويتبول بجانب السيارة، متستراً بالباب. وحين يعود، يتلعثم بأن مشكلة كليتيه تزداد حدة في الليل، بسبب الرطوبة. هل ذهب إلى الطبيب؟ وهل يتبع علاجاً

ما؟ إنه يحاول أولاً أن يرتب أمر ضمانه الصحي؛ وعندما يحصل عليه قريباً سيذهب إلى مستشفى إيمبليادو ليفحصوه، مع أن الأمر كما يبدو صار مزمناً، ولن يكون بالإمكان علاجه.

نبقى صامتين حتى ساحة غراو. وهناك أسمعه يقول فجأة، كما لو أن شخصاً آخر هو الذي يتكلم:

ـ الحقيقة أنه وقعت عمليتا سطو. قبل عملية لافكتوريا تلك التي حبسوني من أجلها. ما قلته لك هو الحقيقة: ولم تكن لي أي علاقة كذلك بعملية الاختطاف في بويبلو ليبري. بل إنني لم أكن موجوداً في ليما حينذاك، وإنما كنت في باكاسمايو، في مسعى للعمل.

يصمت. لا أستعجله.. لا أسأله شيئاً. أقود السيارة ببطء شديد، منتظراً أن يحسم أمره ويواصل الكلام، وخائفاً من ألا يفعل ذلك. لقد فوجئت بالانفعال الذي في صوته، والنفس الذي لا يمكنني أن أخطئه. شوارع مركز المدينة مظلمة ومقفرة. والضجة الوحيدة هي ضجة محرك السيارة.

ـ حدث ذلك لدى خروجي من السجن، بعد قضية خاوخا، بعد تلك السنوات الأربع التي أمضيتها داخلاً ـ يتكلم وهو ينظر إلى الأمام ـ. هل تتذكر ما كان يحدث في وادي كونفينشيون، هناك في كوسكو؟ لقد كان هوغو بلانكو قد نظم الفلاحين في نقابات، وقاد عدة تحركات للاستيلاء على الأراضي. لقد كان عملاً مهماً، ومختلفاً تماماً عن كل ما كان يقوم به اليسار. وكان لا بد لنا من تقديم الدعم، وألا نسمح بأن يحدث لهم مثلما حدث لنا في خاوخا.

أُوقف السيارة عند إشارة مرور حمراء، في جادة آبانكايا، فيتوقف هو أيضاً عن الكلام. أشعر كما لو أن الشخص الذي إلى جانبي مختلف عن ذاك الذي كان قبل قليل في مكتبي ومختلف عن مايتا قصتي. إنه مايتا ثالث، متألم، تعيس، ولم يصب ذاكرته أي عطب.

ـ هكذا حاولنا أن ندعمهم بالمال ـ يقول مدمدماً ـ. فخططنا لعمليتي مصادرة. لقد كانت هذه هي أفضل وسيلة لتقديم الدعم في ذلك الحين.

لا أسأله مع من اتفق للسطو على المصرفين؛ وما إذا كان قد فعل ذلك مع رفاقه القدماء في ح ع ث (ت) أم مع ح ع ث الآخر، أم مع ثوريين تعرف عليهم في السجن أم مع أناس آخرين. ففي تلك الفترة ـ بداية الستينات ـ كانت فكرة العمل المباشر تعبق في الهواء وكانت هناك أعداد من الشباب، إذا لم يعملوا بهذه الطريقة، فإنهم يتكلمون على الأقل ليلاً ونهاراً عن توجههم للعمل. ولا بد أن ماتيا لم يجد صعوبة في الاتصال بهم، وملئهم بالأوهام، وقيادتهم في عمل مقدس يسمونه تسامحاً بالمصادرة. ولا بد أن ما جرى في خاوخا قد أكسبه شيئاً من السمعة في أوساط الجماعات الراديكالية. ولا أسأله كذلك عما إذا كان هو نفسه العقل المدبر لتلك الهجمات.

ويضيف قائلاً:

ـ سارت الخطة في العمليتين بدقة الساعة. لم تجر اعتقالات ولم يسقط جرحى. وقد نفذناهما في يومين متتاليين، وفي مكانين مختلفين في ليما. صادرنا... ـ هناك تردد قصير، قبل أن ينطق الصيغة المتهربة ـ ... عدة ملايين.

يـصمت مـرة أخـرى. ألاحـظ أنـه يركـز بعمـق، باحثـاً عـن الكلمات المناسبة لما يجب أن يكون أصعب ما سيرويه. إننا قبالة ساحة أتشو، هناك ظلال ضخمة متشحة بالضباب. من أين أواصل الطريق؟ أجل، سأوصلك حتى بيتك. فيشير لي باتجاه ثاراتي. إنه لتناقض مرير أن يعيش الآن وقد صار حراً فـي منطقة قريبة من سجن لوريغانتشو. الطريق هنا هـو متوالية مـن الحفـر والـبرك والقمامة. السيارة تهتز وتقوم بطفرات.

ـ وبما أنه كانت لي صحيفة سوابق فقد اتفقنا على ألا أحمل النقود بنفسي إلى كوسكو. حيث سنسلمها هناك إلى جماعة هوغو بلانكو. وكعمل احتياطي أولي، قررنا أن أذهب أنا فيما بعد، منفصلاً عن الآخرين. وقد سافر الرفاق فـي جماعتين. وأنا نفسي ساعدتهم فـي السفر. جماعة فـي سيارة شحن، وجماعة أخرى فـي سيارة مستأجرة.

يعود إلى الصمت ويسعل. ثم يضيف بسرعة، بنبرة جفاء ورصيد من السخرية:

ـ وبعد ذلك مباشرة اعتقلتني الشرطة. ليس بسبب عمليتي المصادرة. وإنما بسبب الهجوم في لافكتوريا الذي لم أكن مشاركاً فيه، ولم أكن أعرف عنه أي شيء. وفكرت: يا للمصادفات. يا لهذا التوافق. وفكرت أيضاً: يا للروعة، فللأمر جانبه الإيجابي. سينشغلون بي، وستتعقد أمورهم. ولن يربطوا مطلقاً بيني وبين عمليتي المصادرة. ولكن لا، لم يكن الأمر توافقاً ومصادفة...

وفجأة عرفت ما الذي سيخبرني به، أدركت بدقة تامة أين ستنتهي قصته.

ـ لم أفهم الأمر بوضوح إلا بعد سنوات من ذلك. ربما لأنني لم أشأ أن أفهمه ـ يتثاءب بوجه محتقن، ويمضغ شيئاً ـ. بل إنني رأيت في أحد الأيام وأنا في لوريغانتشو منشوراً مكتوباً بخط اليد أصدرته لا أدري أي فئة شبحية، وهاجمتني فيه. كانوا يتهمونني باللص، ويقولون إنني استوليت على مبلغ لا أدري مقداره من النقود في عملية السطو على مصرف لافكتوريا. لم أولِ الأمر اهتماماً، وظننت أنها واحدة من تلك النذالات المعهودة في الحياة السياسية. وعندما خرجت من لوريغانتشو، بريئاً من عملية لافكتوريا، كان قد مضى ثمانية عشر شهراً. فرحت أبحث عن الرفاق الذين شاركوا في عمليتي المصادرة. لأنهم لم يوصلوا إلي طوال تلك المدة ولو رسالة واحدة، ولأنهم لم يتصلوا بي. وأخيراً وجدت واحداً منهم. وتحدثنا.

يبتسم فاتحاً فمه ذا الأسنان غير المكتملة. لقد توقف الرذاذ الآن ومن خلال مخروط ضوء السيارة يظهر تراب، أحجار، فضلات، وحواف بيوت بائسة.

فأسأله:

ـ وهل أخبرك بأن النقود لم تصل مطلقاً إلى هوغو بلانكو؟

فيقول مايتا:

ـ لقد أقسم لي إنه قد عارض، وإنه حاول إقناع الآخرين بألا يقدموا على دناءة كتلك. وروى لي كومة من الأكاذيب وألقى بتبعة كل شيء على الآخرين. طلب منهم أن يستشيروني فيما سيفعلونه. فلم يوافق الآخرون على حد قوله. وادعى بأنهم قالوا له: «مايتا متعصب. إنه لا يفهم، وهو شديد الاستقامة ولا يصلح لهذه

الأمور.» ومن بين الأكاذيب التي أخبرني بها يمكن استخلاص بعض الحقائق.

يتنهد ويرجوني أن أتوقف. وبينما أنا أراه بجانب باب السيارة، يفك ثم يزرر بنطاله، أتساءل عما إذا كان ممكناً تسمية مايتا الذي استخدمته كنموذج «متعصباً»، وإذا ما كان مايتا قصتي متعصباً. أجل، كلاهما متعصب. مع أنهما قد لا يكونان متعصبين بالطريقة نفسها.

ويقول بنعومة بعد أن رجع إلى جانبي:

ـ صحيح. أنا ما كنتُ سأفهم. صحيح. كنت سأقول لهم: أموال الثورة تحرق الأيدي. ألا تلاحظون بأنكم إذا احتفظتم بالنقود فستتخلون عن كونكم ثواراً وتتحولون إلى مجرد لصوص؟

يتنهد من جديد، بعمق. إنني أمضي ببطء شديد، في شارع مظلم، تظهر على جانبيه أحياناً أسر كاملة تنام في العراء، مغطاة بجرائد. وتخرج كلاب قذرة ضامرة وتنبح، عيونها تتألق بانعكاس أضواء السيارة عليها.

ويكرر:

ـ لم أكن لأتركهم يفعلون ذلك بالطبع. ولهذا السبب وشوا بي، ولهذا السبب اتهموني بعملية السطو على مصرف لافكتوريا. كانوا يعرفون بأنني لن أتورع عن إطلاق النار عليهم قبل السماح لهم بفعل ذلك. وقد أصابوا عصفورين بحجر واحد حين وشوا بي. فقد تخلصوا مني ووجدت الشرطة مذنباً. وكانوا يعرفون أنني لن أشي برفاق كنت أظن أنهم عرّضوا حياتهم للخطر من أجل أن يوصلوا حصيلة المصادرتين إلى هوغو بلانكو. وعندما عرفت

التهمة التي يوجهونها إلي في التحقيق، قلت لنفسي: «تمام، إنهم لا يشمون الحقيقة». ورحت أضللهم لبعض الوقت. وكنت أظن بأن الحظ قد حالفنا.

يضحك ببطء، وبوجه جديّ. ثم يصمت ويخطر لي بأنه لن يضيف أي شيء آخر. وأنا لم أعد بحاجة لأن يقول أي شيء كذلك. إذا كان ما قاله صحيحاً، فأنا أعرف الآن ما الذي حطمه، أعرف الآن لماذا صار إلى الشبح الجالس بجانبي. لم يكن السبب هو الإخفاق في خاوخا، ولا قضاء كل هذه السنوات في السجن، بل ولا التكفير عن جرائم ارتكبها آخرون. ما حطمه بكل تأكيد هو اكتشافه أن عمليتي المصادرة لم تكونا إلا عمليتي سطو، واكتشافه أنه ـ حسب فلسفته الخاصة ـ قد تصرف كمجرم عادي. أم لأنه كان ساذجاً وأحمق أمام رفاق أقل منه عمراً في سنوات النضال وفي السجون؟ أكان هذا هو ما خيب أمله بالثورة، وما جعل منه هذه النسخة المتصنعة من شخصيته بالذات؟

ويقول:

ـ لقد فكرت لبعض الوقت في البحث عنهم، واحداً فواحداً، ومعاقبتهم.

فأقاطعه:

ـ مثلما في رواية الكونت دي مونت كريستو. هل قرأت هذه الرواية يوماً؟

ولكن مايتا لا يسمعني، ويواصل:

ـ ولكن الغضب والحقد انزاحا عني فيما بعد. ويمكن أن نقول إذا شئت إنني قد غفرت لهم. لأن أحوالهم جميعاً حسب ما

بلغني كانت سيئة مثل حالي وربما أسوأ. باستثناء واحد منهم، وصل إلى أن يكون نائباً برلمانياً.

يضحك ضحكة مريرة قبل أن يصمت.

وأفكر: ليس صحيحاً أنك قد غفرت لهم. بل انك لم تغفر لنفسك أيضاً ما جرى. هل يتوجب عليّ أن أطلب منه أسماء، وتفاصيل محددة، وأن أحاول الحصول منه على المزيد؟ ولكن التشويش الذي سببه لي كان استثنائياً، وربما سيندم على ضعفه إذا ما ألححت عليه. وأفكرُ بما كان يدور همساً ما بين الأسلاك والإسمنت في لوريغانتشو، وبالسخرية التي كان هدفاً لها. ولكن، ماذا لو كان هذا الذي رواه لي مجرد مبالغة ومحض أكاذيب؟ ألا يمكن أن يكون كل ذلك مجرد تمثيلية مدبرة لتبرئة نفسه من أمر يسبب له الخجل؟ أنظر إليه بطرف عيني. إنه يتثاءب ويتمطى، كما لو أنه يشعر بالبرد. وعند تفرع الطريق بمفترق يؤدي إلى لوريغانتشو، يشير إلي بأن أواصل قُدماً. ينتهي إسفلت الطريق الذي يمتد في أثر ترابي يتلاشى في أرض مقفرة.

ـ إلى الأمام قليلاً توجد القرية الفتية التي أعيش فيها ـ يقول لي ـ. إنني أمشي حتى هنا كل يوم لأركب الامنبوس. هل تتذكر الطريق لتتمكن من الرجوع حين توصلني الآن؟

أؤكد له أنني أتذكر الطريق. أرغب في أن أسأله كم يكسب في محل المثلجات، وكم يذهب من أجره في الامنبوسات، وكيف يوزع ما تبقى لديه. وإذا ما كان قد حاول الحصول على عمل آخر، وإذا ما كان يرغب في أن أساعده، في أن أقوم بمسعى من أجله. ولكن الأسئلة كلها تموت في حنجرتي.

وأسمعه يقول:

ـ لقد قيل في إحدى الفترات إن هناك إمكانات للعمل في الأدغال. وكنت أفكر في هذا الأمر أيضاً. فإذا كان السفر إلى الخارج صعباً، فربما أذهب إلى بوكايبا أو إلى إيكيتوس. وقد قيل إن هناك شركات أخشاب، وبترول، وإمكانات للعمل. ولكنه مجرد كلام. فالأمور في الأدغال مثلما هي الأمور هنا. في هذه القرية الفتية يوجد أناس رجعوا من بوكايبا. الحال هي نفسها. ومهربو الكوكايين وحدهم هم الذين يجدون عملاً هناك.

بدأنا نخرج الآن من الأرض الخلاء، وبدأت تظهر في الظلام كتل من الظلال المبتورة المشوهة: إنها بيوت. بيوت من الطين، والتوتياء، والخشب، والحُصر، وكلها تعطي انطباعاً بأنها لم تكتمل، وأن العمل في بنائها قد توقف عندما بدأت تتخذ شكلاً. لا يوجد إسفلت ولا دروب، ولا يوجد نور كهربائي، وليس هناك بالطبع ماء ولا مجارير.

أقول له:

ـ لم أصل إلى هنا قط. كم كبير هو هذا الحي.

ـ هناك، إلى اليسار، تظهر أنوار لوريغانتشو ـ يقول لي مايتا بينما هو يقودني في وعورة الحي، ويضيف: ـ لقد كانت زوجتي من مؤسسي هذه القرية الفتية. قبل ثمانية أعوام. شاركتْ في إنشائها مئتا أسرة تقريباً. جاؤوا في الليل، في جماعات، دون أن يراهم أحد. وعملوا حتى الفجر في غرس الأعمدة وشد الحبال، وفي صباح اليوم التالي، عندما جاءت الشرطة، كان الحي قائماً. ولم تكن هناك طريقة لإخراجهم.

ـ أي أنـك لم تكـن تعـرف بيتـك عنـدما خرجـت مـن سـجن لوريغانتشو.

يقـول لـي «لا» بهـز رأسـه. ويـروي لـي أنـه فـي يـوم خروجـه، بعـد إحـدى عـشرة سـنة تقريبـاً، وجـد نفسـه وحيـداً يمـشي عـبر الأرض الخلاء التي اجتزناها للتو، وكان يُبعد عنه الكـلاب التي تريد أن تعضه برميها بالحجارة. وحين وصل إلى أول البيوت بدأ يسأل:«أين تـسكن الـسيدة مايتـا؟» وهـكـذا وصـل إلى بيتـه وقـدم مفاجـأة إلى أسرته.

إننا قبالة بيته، وقد حصرتُ البيت فـي مخـروط ضـوء الـسيارة. الواجهة مبنية بالآجر، والحائط الجـانبي كـذلك، أمـا الـسقف فلـم ينته بعد، إنه توتياء غير مثبت نهائيـاً، ومـا يمنعـه مـن الحـركـة هـي أكوام صغيرة من الحجارة منضدة فوقه بفواصل متقاربة. أما البـاب فهو لوح خشبي، مثبت إلى الجدار بمسامير وقطع حبال.

ـ إننا نناضل الآن من أجل إيصال الماء ـ يقول مايتا ــ. فالمـاء هـو المشكلة الكبرى هنا. ومن أجل حل للزبالة أيضاً. هـل أنـت متأكـد من أنك تستطيع الوصول إلى الطريق الإسفلتي؟

أؤكد له أنني أستطيع ذلك، وأقول لـه إنـني سأحضر للقـاء بـه بعد بعض الوقت، إذا كان ذلك لا يضايقه، لـكـي نتحدث ويخبرني ببعض الأشـياء الأخـرى عـن قـصة خاوخـا. فربمـا تـستعيد ذاكـرتـه بعض التفاصيل. فيوافق وأودعه بمصافحة يشد فيها كل منا على يد الآخر.

لا أجد صعوبة فـي الخـروج ثانيـة إلى الطريق الثابتـة الـتي تـؤدي إلى ثـاراتي. أفعـل ذلـك بـبطء، متوقفـاً لتأمـل الفقـر، والقـبح،

والخذلان، واليأس الذي ينضح من هذه القرية الفتية التي أجهل اسمها. ليس هناك أحد في الشارع، ولا وجود حتى لأي حيوان. وبالفعل، فإن أكوام الزبالة تتراكم في كل مكان. يخيل إليّ أن الناس يكتفون بإلقائها من بيوتهم بإذعان، وهم يعرفون أنه ليس بإمكانهم عمل شيء، وأنه لن تأتي أي شاحنة بلدية لجمع تلك القمامة، وليس لديهم حماسة للاتفاق مع الجيران الآخرين وحمل القمامة إلى مكان أبعد، إلى تلك الأرض الخلاء، أو دفنها أو حرقها. لقد استسلموا للواقع أيضاً وألقوا أسلحتهم. أتصور ما يكشف عنه ضوء النهار، فمن المؤكد أن أهرامات الفضلات المتراكمة قبالة الأكواخ، حيث يحوم أطفال الجوار دون شك، تعج بالذباب والصراصير والفئران، وبما لا حصر له من الهوام. وأفكر بالأوبئة، بالنتانة، وبالميتات المبكرة.

وكنت ما أزال أفكر بالقمامة التي في حي مايتا الهامشي عندما لمحت، إلى يساري، هيكل سجن لوريغانتشو، وتذكرت السجين المجنون والعاري الذي كان ينام فوق المزبلة الهائلة، قبالة العنابر ذات الأرقام الفردية. وبعد ذلك بقليل، عندما اجتزت شارع ثاراتي وساحة اتشو، وأصبحت في جادة آبانكايا، في الطريق المستقيم الذي سيوصلني إلى شارع اكسبريسا، وإلى سان إيسيدور وميرافلوريس وبارانكو، تخيلت مسبقاً كورنيش الحي الذي حالفني الحظ بالسكن فيه، والمزبلة التي يكتشفها المرء - سأراها غداً، عندما أخرج للجري ـ إذا ما مدّ رقبته وأطل من حافة الكورنيش.. المزابل التي تحولت إليها تلك الشرفات الصخرية

المطلة على البحر. وأتذكر عندئذ أنني بدأت تخيل هذه القصة منذ سنة بذكر الزبالة، مثلما أنهيها الآن بذكر الزبالة التي راحت تغزو أحياء عاصمة البيرو.



قصة مايتا

تمثل قصة مايتا توجهاً جديداً في أعمال بارغاس يوسا، فنحن نرى الروائي البيرويّ نفسه شخصيةً تشارك في كتابة الرواية التي نقرؤها وتطور مسارها، فشخصية الروائي التي تجمع شهادات تشكل بنية الرواية، يكشف لنا في النهاية أن الوقائع الحقيقية مختلفة تماماً، وأشد فقراً بكثير من التخييل الروائي. مؤكداً بذلك مقولة أنه يمكن للرواية أن تكون أكثر غنى وإقناعاً من التاريخ.

ففي بلاد منكوبة تتعرض لغزو خارجي، وتتردى في أوضاع اجتماعية واقتصادية بائسة، وتطغى عليها ظلمة المجهول، يسعى الروائي ـ من خلال شهادات متعددة ـ إلى إعادة بناء قصة مناضل ثوري يدعى إليخاندرو مايتا، بطل محاولة ثورية محبطة في العام ١٩٥٨، وسجين بعد ذلك عدة مرات في ظروف ملتبسة. وفي نهاية ذلك التقصي الطويل، تأتي المواجهة مع الواقع لتضع هذه القصة الكيخوتية في مكانها الدقيق. إنها رؤية مريرة وتراجيكوميدية لحالات التطرف الثوري والحنين إلى الملاحم.